
١
تاريخ العرب قبل الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »

قرآن كريم : سورة يوسف ١١١

تقـــديم

أصل هذا الكتاب محاضرات في تاريخ العـرب قبل الاسلام ، القيت على طلبة الصفوف الاولى بكلية الآداب بجامعة بـيروت العربيـة ثم هذبت بعض الشيء وزودت بهوامش المصادر والمراجـع . والموضـوع حسبمـا تناولناه ، كما يتضح من فهرست المحتويات ، يدخل في تخصصنا من بعض أطرافه ، ويخرج عن ذلك في عدد منها ، وهذا ما اشرنا اليه في المقدمة .

واذا كان الامر كذلك فليس لنا الا ان نعترف بالجميل لكـل اولئـك الذين عملوا في حقل الدراسات المتعلقة بالعرب قبل الاسلام ، من : تاريخية وأثرية واجتماعية وغيرها ، من القدماء والمحدثين ، ممن ذكرنا أعمالهم في صلب الكتـاب او في هوامشه او في ثبت المصادر والمراجـع ، وممن فاتنـا ذكرهم — عن غير قصد .

الى هؤلاء جميعا نقدم الشكر ، ونهدي هذا الكتاب ، كمحاولة اولى في موضـوع يعتبر من أشق موضوعات تاريخ العرب . كما نقدم الشكر الى كل من قدموا لنا العون والمساعدة ، منذ بدأنا في جمع المادة اللازمة للموضوع في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وفي مكتبتها في أوائـل سنة ١٩٧٣ م ، الى ان انتهينا من اعداد الكتاب بالشكل المتواضع الـذي هو عليه الآن في

كلية الآداب بجامعة بيروت العربية ، وفي مكتبتها ـ مكتبة جامعة بيروت العربية ـ التي أوجه الى المسئولين عنها شكرا خاصا .

أننا في الوقت الذي لا نستطيع الادعاء ان هذا العمل يقدم أشياء جديدة في تاريخ العرب قبل الاسلام ، نود الاشارة الى ان الغرض منه هو القاء بعض الاضواء على بعض نقاط تاريخ العرب قبل الاسلام ، بهدف بيان كيف ان الاحداث في بلاد العرب كانت تتطور بشكل يجعل ظهور الاسلام ، في مهده بلاد الحجاز ، أمرا طبيعيا . فتاريخ العرب قبل الاسلام هو المقدمة الطبيعية لتاريخهم الحقيقي بعد ظهور الاسلام . فعن طريقه يمكن فهم كيفية تأسيس دولة العرب الكبرى ، وبفضله يمكن التعرف على كنه حضارة الاسلام وحقيقة عروبتها ـ وهذا ما حاولنا تلخيصه في الخاتمة .

وعلى الله التوفيق

سعد زغلول عبد الحميد

بيروت في ١٩٧٥/٢/١٥

فهرس محتويات الكتاب

الاشكال والخرائط

الفصل الأول

في أهمية الموضوع ومصادره

المقدمة : أهمية الموضوع :

تاريخ العرب قبل الاسلام من الموضوعات الطريفة التي يهتم بها الباحثون من العرب والمستشرقين الذين يعملون في حقول الدراسات العربية والاسلامية ، من : لغوية وتاريخية وفكرية ، أو حضارية على وجه العموم . والى عهد قريب كان كثير من الباحثين يكتفون بدراسة تاريخ العرب قبل الاسلام كمقدمة لما يقومون به من الابحاث في العصور الاسلامية تحت عنوان : « العصر الجاهلي » .

ولما كان المقصود بالعصر الجاهلي هو الفترة التي سبقت الاسلام بما لا يتجاوز مائة سنة او مائة وخمسين سنة ، على اكثر تقدير ، وهو التاريخ الذي يمكن ان يرجع اليه أقدم ما يوثق به مما وصل الينا من الشعر العربي الجاهلي ، او من الاحداث التي عرفتها القبائل العربية مما عرف بأيام العرب أو أخبارهم [1] التي تداولها القصاص والرواة شفاها الى ان سجلها اوائل المؤرخين الذين يعرفون بالاخباريين ، فان هذه الفترة الزمنية القصيرة نسبيا

---

(١) جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام ـ بالفرنسية ـ ، ص ٧ .

عندما يتعلق الامر بتاريخ الامم والشعوب ، لم تكن تسمح باشفاء غليل المهتمين بالدراسات التاريخية ، من الباحثين عن جذور الحضارات والمنقبين عن أصول الاحداث ، ممن يتبعون منهج التحليل والتعليل ، ويرومون رد الظواهر الكلية الى مكوناتها الجزئية .

وهكذا ظهرت الحاجة الى توسيع مجال البحث زمنيا الى ما وراء المائة وخمسين سنة من تاريخ بلاد العرب ، التي يكاد يشغلها « العصر الجاهلي » ، حتى يوافق من الناحية التاريخية ما اصطلح على تسميته بالعصور الوسطى المبكرة (من القرن الثالث الى القرن الخامس للميلاد) ، بل والى فترات زمنية قد تبعد عن بدء التاريخ الميلادي بقليل او كثير – حسبما يتطلبه البحث – مما يدخل في ميدان التاريخ القديم لكثير من الجماعات والشعوب التي عرفها العرب ، من : فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وغيرها .

ولما كان مجال البحث في مثل هذا الاطار يخرج عن دائرة ما اصطلح على تسميته بـ « العصر الجاهلي » – في نطاق تاريخ العرب – كان من المناسب اتخاذ تسمية أخرى لهذه الدراسة ، هي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهي التسمية المناسبة في اللغات الاوروبية ، مما يتيح الفرصة لمن يريد الوغول بعيدا في البحث ، على المستويين الزمني والاقليمي ، تحقيق مأربه [1] .

(١) ولقد استخدم المستشرقون ايضا عناوين أخرى ، مثل التاريخ العربي القديم الذي يحوي مجموعة من الابحاث للاساتذة : د. نيلسن ، ف. هومل ، ل. رودوكاناكيس ، ا. جرومان ، ترجمة فؤاد حسنين ، نشر ادارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ . وفي بحث الاستاذ نيلسن يشير الى انه اضطر الى استحداث لفظ «عربي =

وتوسيع مجال البحث بهذا الشكل له مزاياه – ككل شيء – وله ايضاعيوبه . اذ لما كان القصد من الدراسة هو تاريخ العرب قبل الاسلام الذي هو مقدمة طبيعية لتاريخ العرب في العصور الاسلامية ، بمعنى ان الهدف منه هو زيادة التعرف على كنه التاريخ الاسلامي بالوصول الى جذوره الضاربة في باطن الزمن ، كان التعمق في التاريخ العربي قبل الاسلام على قدر ما تسمح به الطاقة ، من المقاصد المطلوبة بالنسبة للباحثين ، وفق ما يتطلبه المنهج التاريخي الذي لا يعرف الفصل بين الماضي والحاضر [1] .

وهكذا ، لما كان تاريخ العرب الحقيقي يبدأ مع قيام الدعوة الاسلامية ، التي أسست على مبادئها الدولة العربية الاسلامية التي اخرجت للانسانية خلاصة عبقريتها ممثلا في الحضارة العربية الاسلامية ، يصبح من الطبيعي ما نريد أن نؤكده من ان القصد من دراسة « تاريخ العرب قبل الاسلام » هو أن يكون مدخلا لـ «تاريخ العرب بعد الاسلام» . ويكون من المرغوب فيه – اذن – التعمق في دراسة هذه الحقبة من تاريخ العرب من الناحية الزمنية – على قدر ما تسمح به وسائل البحث – وهذا هو الوجه الحسن من توسيع دائرة البحث رأسيا في باطن الزمن .

= قديم » ليحل محل مصطلحات « عربي جنوبي » و « عربي جنوبي قديم » بعد ان عثر على عدد من النقوش في شمال بلاد العرب (انظر ص ٥١) ، بمعنى ان اليمن لم يعد يستأثر بتاريخ العرب القديم وحده ، اذ ان النقوش جميعا (في الجنوب وفي الشمال) تدل على دائرة ثقافية واحدة تجمع بينها لغة واحدة ، وخط واحد ، وعناصر فنية ومعمارية ودينية واحدة (انظر فيما بعد ص ١٤٢).

(١) وهذا ما فعله قدامى المؤرخين العرب ممن وصلت الينا أعمالهم ، من الطبري الذي يبدأ تاريخه بالقول في الزمان (ج ١ ، ص ٩) وفي عمر العالم وبدء الخليقة (ج ١ ، ص ١٠ وما بعد) الى ابن خلدون الذي يعرض تاريخ العالم القديم حسب نظريته في العمران وتوارث الدول بعضها بعضا (العبر ، ج ٢) .

أما ما يخشى من مغبة الوقوع في محظوره فيتمثل في توسيع دائرة البحث أفقيا ــ اي اقليميا ــ خارج نطاق بلاد العرب ، لكــي يستوعب تواريخ شعوب ودول غير عربية مما كانت لهم علاقات ــ قوية او ضعيفة ــ بالعرب ، كالمصريين والفرس واليونان والرومان بل والاحباش • فالتوغل في تاريخ هذه الشعوب القديمة وحضاراتها يخرج البحث من نطاقه العربي أصلا الى النطاق العالمي ، مما يترتب عليه الاخلال ــ بشكل او بآخر ــ بالهدف من الدراسة ، وهو : المدخل الى تاريخ العرب وحضارتهم ، ومــا يمثله ذلك بالنسبة الى تاريخ العالم وحضارته •

حقيقة انه لا بأس مــن محــاولة استقصاء حقائق التاريخ ومظاهر الحضارة في أكبر مجالاتها ، على الصعيدين الزمني والاقليمي، ولكن الذي يخشى منه هو خروج الموضوع ــ في مثل هذه الخطة ــ عن حدوده العربية المحددة لكي يختلط بتواريخ الأمم غير العربية وحضاراتها • وهذا ما أدت اليه نتائج الابحاث التي قام بها عدد من المستشرقين في تاريخ الحضارة الاسلامية، عندما ردوا ــ عن قصد أو عن غير قصد ــ عناصر هذه الحضارة الى أصول غير عربية ، من : فارسية ويونانية وهندية ورومانية ، فضيعوا دور العروبة او ضاعت منهم عبقرية العرب بين تراث الشعوب الاخرى [1] •

ولقد ترتب على ذلك اننا كثيرا ما نجد طريقة البحث متأرجحة ما بين هاتين الخطتين : فاما النظر الى تاريخ العرب من الناحية العربية البحتة ،

---

1) انظر على سبيل المثال الفصل الاول من كتاب الدكتور احمد فكري مساجد القاهرة ومدارسها ــ المدخل ، القــاهرة ١٩٦٢ » حيث يعرض المؤلف دراسات الآثار العربية التي قام بها المستشرقون حيث عمل بعضهم ــ عن قصد او عن غير قصد ــ على هدم فكــرة وحــدة التعبير العربية بالبحث عــن الاصول والعناصر المختلفة فقط ، ص ١٩ •

وهذا يعبر عن ضيق زاوية الرؤية ، وينتهي بالتخصيص الــذي يــؤدي ــ بطبيعة الحال ــ الى نوع من القصور • واما النظر الى تاريخ العرب من خلال التاريــخ العالمي المحيط به ، مما يؤدي الى التعميمــات المخلــة أو الافتراضات التي تنقصها البراهين المعتبرة •

وهنا يمكن القول ان الطريقة الوسط التي تأخذ بعين الاعتبار ضرورة الالتزام بكنه الموضوع العربي ، والتي لا تهمل اطاره الخارجي المتمثل في علاقات العرب بغيرهم من الشعوب والدول المحيطة بهم ، يمكن ان تمثــل المنهج المعقول الذي يحفظ للعرب دورهم في التاريخ ، والذي لا ينكر على غير العرب دورهم فيما قام به العرب من بعد ظهور الاسلام •

ولا شك ان تحقيق مثل هذا البرنامج يتطلب المعرفة باحوال العرب في جاهليتهم ، سواء كانت قبل ظهور الاسلام أو كانت موغلة في القدم ، كما يتطلب الكثير من المعارف الخاصة ، بالشعوب الكثيرة والدول التي كانت لها علاقات بالعرب في تلك الازمان البعيدة • ومع اننا لا ندعي القدرة على امتلاك هذا او ذاك ، ومع اننا نعتبر ان ما سنكتبه في الموضوع لن يتعدى ملاحظات ليست جديدة في جملتها ، فاننا سنحاول ان نلفت النظر ، في بعض المواضع، الى امكانية التوفيق بين لب الموضوع العربي واطاراته الاجنبية ، خلال عملية التطور التاريخية البطيئة على مر العصور •

المصــادر

تعريــف عــام :

ان تحديد الفترة التاريخية بما « قبل الاسلام » بدلا من «الجاهلية» يمكن ان يغير من طبيعة وسائل الدراسة تغييرا جوهريا • فاذا كان العصر الجاهلي لا يمتد فيما قبل الاسلام الى أكثر من ١٥٠ عاما ، فان مصــادر البحث يمكن أن تقتصر ــ حينئذ ــ على التراث العربي ممثلا فيما بقي لنا

من شعراء الجاهلية ، واخبار القبائل العربية (الشمالية) التي تناقلها القصاص والرواة شفاها الى ان دونت في الاسلام ابتداء من العصر الاموي، وفي العصر العباسي على وجه الخصوص •

ولما كانت الرواية الشفهية عرضة للتغيير والتحوير ، فان الخبر قد يتغير جزئيا الى حد ما أو قد يمسخ مسخا تاما مما يؤدي الى تحول الرواية الى أسطورة كما يؤدي ـ على العكس من ذلك ـ الى تحول الاسطورة الى حقيقة تاريخية • وهذه هي الافة الكبرى التي تعاني منها أخبار هذه الفترة ، ليس بسبب طبيعة الرواية الشفوية التي يصعب التحكم في دقائقها فقط ، بل بسبب ما كان للنزعات القبلية والنعرات الشعوبية والخلافات الدينية أو المذهبية الى جانب الاغراض الشخصية والانانية من الاثر فيها •

ولقد ظلت هذه الاخبار محتفظة بهذه السمات ـ وكأنها عقائد راسخة أو هياكل ثابتة ـ بعد ان دونت في العصر العباسي ، وحتى بعد ان عرف الاخباريون والمؤرخون واهل الحديث أصول النقد العلمي ، المتمثلة فيما عرفوه بـ « الجرح والتعديل » • وبلغ الامر الى حد انه لم تسلم من مثل هذه الآفات أخبار الفترة الاولى من تاريخ الاسلام ، وخاصة ما يتعلق منها بالتوسع الاقليمي أو فتوح البلدان •

والى جانب كتب الاخباريين توجد أخبار الفترة السابقة على الاسلام من ذلك العصر الجاهلي في المصادر الاسلامية الاصيلة على انواعها ، من القرآن الكريم وتفسيره بمعرفة كبار العلماء والفقهاء ، والاحاديث النبوية الشريفة التي اعتنى بجمعها الأئمة والحفاظ ، وما يتصل بذلك من سيرة الرسول وأخبار الانبياء والرسل ومن تبعهم من أهل الكتاب وغيرهم •

النصوص الجديدة :

هذا عن « العصر الجاهلي المحدد المعالم » • أما عندما يتعلق الامر بما

« قبل الاسلام » ، على وجه الاطلاق دوننا تحديد للبداية ، فان مصادر البحث تتعدد وتتنوع ، وخاصة فيما يتعلق ببلاد العرب الحضرية ، في جنوب الجزيرة العربية حيث بلاد اليمن « السعيدة » ، وفي الشرق حيث العراق وفارس ، وفي الشمال الغربي حيث عرب الشام والروم ومصر • فتاريخ اليمن يمكن أن يذهب بعيدا الى ألف سنة قبل الميلاد وأكثر ، وتاريخ العرب في العراق وعلاقاتهم بفارس يمكن أن يذهب الى عدة قرون قبل الميلاد ، دون الاشارة الى تاريخ السومريين والبابليين والآشوريين البعيد ، ومثل هذا يمكن أن يقال عن تاريخ عرب الشام وعلاقته بتاريخ اليونان والرومان ، بصرف النظر عمن يتوغل بعيدا في تاريخ مصر الفرعونية وعلاقته بتاريخ جزيرة العرب وشعوبها الشمالية •

ولقد بدأ المستشرقون فعلا في الكشف عن الآثار الموجودة في بلاد العرب الحضرية ـ من الشمال الى الجنوب ـ وفي فك رموز ما عليها من الكتابات والنقوش منذ الوقت الذي بدأت فيه المحاولات الجديدة لفك رموز الكتابات المصرية القديمة ، اي منذ قرن ونصف القرن تقريبا ، مع فارق الصعوبات الجمة التي تجشمها اولئك الذين تجولوا في صحراوات بلاد العرب من أجل هذا الغرض ، والذين كان عليهم ، في كثير من الاحيان، أن يقوموا بمجهوداتهم الفردية وهم يظهرون بمظهر العرب او المسلمين •

ولقد تكللت هذه المجهودات الفردية بجمع اعداد كثيرة من النقوش العربية اليمنية القديمة التي قسمت بعد الدراسة الى مجموعات من الكتابات ، منها : المعينية والقتبانية والحضرمية والسبائية والحميرية ، وهي مما عرفه الكتاب العرب باسم كتابة أو خط «المسند» ، وهو نفس الاصطلاح الذي أطلقوه على النقوش المصرية القديمة •

والحقيقة ان هذه الكتابات ترجع جميعا الى أصل واحد ، فالقرابة قريبة فيما بينها ، والظاهر ان ما طرأ عليها من الاختلاف كان نتيجة طبيعية

لمرور الزمن وتنوع البيئة ، ولهذا حق لكتاب العرب الذين عرفوا الكتابات اليمنية القديمة ووجدوا شبها بينها وبين خطوط المصاحف الاولى ، فقالوا انها كتابة مقدسة وان جبريل هو الذي أوحى بحروفها الى هـود ، ان لا يفرقوا بينها ، وان يطلقوا عليها جميعا اسم الخط « المسند » او الخط « الحميري » ، نسبة الى دولة اليمن الشهيرة بحمير •

أما عن الكتابات العربية الشمالية التي عثر عليها في باديـة الشام والعراق ، وفي الاقاليم الشمالية من الحجاز وفي سيناء فانها قليلة اذا مـا قيست بالنقوش الوفيرة التي عثر عليها في اليمن — وهذا أمر طبيعي — ، اذ الكثرة والقلة هنا تتناسب طرديا مع الخصب والجدب ، أي مـع أحوال الحضارة والبداوة التي تسمح بتكون الدول او لا تسمح • وتنقسم الكتابات الشمالية التي عثر عليها المستشرقون الى عدة مجموعات ، منها : النبطية والآرامية (أم الكتابة العربية الحالية) والثمودية والصفوية واللحيانية • وهذه عرفها الكتاب العرب ايضا باسم « المسند » على زعم انها نوع من الكتابة اليمنية ، ولهم العذر في ذلك بسبب وفرة نقوش اليمن ، ولان كثيرا من قبائل الشمال كانت يمنية الاصل • والحقيقة ان هذه الخطوط الشمالية يمنية الاصل حملتها القبائل التي هاجرت مـن الجنوب الى الشمال فـي العصور التاريخية المختلفة ، ولكنها تأثرت في مواطنها الجديدة بالشمال بمؤثرات محلية متنوعة ، مثل الخط الفينيقي والسرياني (المتمثـل فـي الآرامي) ، وكذلك الخط المديني قبل أن تعود الى الحجاز في شكل الخط الذي استخدمته قريش قبيل الاسلام ، والذي استخدم في كتابة الوحي وجمعت فيه المصاحف الاولى •

ولما كان معظم النقوش العربية سواء في اليمن أو في شمال الجزيرة لا يحمل التواريخ التي تحدد أزمانها — ولو أن بعضها تميز بما حملـه من

تواريخ محلية — ، ولما كان معظمها يتناول أحداثا محلية او يتعلق بأمـور شخصية من زواج أو ميراث أو وصية بعد وفاة أو تقديم قربان لاله من الآلهة ، مما لا يساعد كثيرا على تحديد العصر ، اضطر الباحثون الى التنقيب في تواريخ العراق القديم ومصر والشام وفارس واليونان والرومان ، وذلك في محاولاتهم للتعرف على الاحداث او الاشخاص ، موضوع هذه النقوش وتحديد أزمنتهم •

وهكذا اتسعت دائرة البحث وتطلبت الكثير من أدواته في المجالات اللغوية والتاريخية والحضارية ، مما لا يتهيأ الا للقلة من المتخصصين • وبفضل مجهودات هؤلاء أمكن القاء الاضواء على عدد عديد من النقاط التفصيلية الخاصة بأحوال العرب في أقاليمهم المتفرقة مـا بـين الجنوب والشمال والشرق والغرب ، والى أعماق بعيدة في زوايا التاريخ • والـى جانب ما أضافته هذه الوثائق من المعلومات الجديدة فانها ساعدت ايضا على تفهم كثير من الاحداث التي اتصفت بالغموض وصححت كثيرا مـن المعلومات القديمة الخاطئة ، كما أيدت بعض المعلومات التى كان يظن انها ذات طابع أسطوري او خرافي • والامـل ان تستمر الجهود وان يوفـق الباحثون في العثور على وثائق جديدة تميط اللثام عن حقب مـا زالت مجهولة في تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام ، وتلقي بأضواء جديدة علـى ما غمض من هذا التاريخ •

ونكتفي هنا بالاشارة الى انجازات عدة من مشاهير العلماء والرحالة الاوروبيين الذين عملوا في هذا الميدان ، ومنهم :

١ — الدنمركي : كارستن نيبـور (Carsten Niebur) : صاحب الرحلة المشهورة الى اليمن (١٧٦١ — ١٧٦٣ م) وهو الوحيد الذي قدرت له العودة الى اوروبا ، من بين أعضاء بعثة ملك الدنمرك الستة ، بعـد أن

جمع بعض النقوش ونماذج للخرائب القديمة ، الى جانب رحلته التي سجل فيها معلومات طبوغرافية وخريطة مفيدة ، مما كان عونا لمن أتى بعده من الباحثين .

٢ ــ الفرنسي : توماس أرنو (Thomas Arnaud) : وهو الصيدلي الذي زار صنعاء ونجح في الوصول الى مأرب سنة (١٨٤٣ م) ، فرسم تخطيطا يبين السد ، ونسخ عددا من النقوش ، وفحص بقايا معبد المقة (حرم بلقيس) . وكانت حصيلة عمله ٥٦ نقشا من صنعاء ومأرب وصرواح ، الى جانب وصفه للرحلة .

٣ ــ الانجليزي : كوجلان (Coghlan) الذي حصل من الاعراب سنة ١٨٦٠ م على عدد من الألواح البرونزية الهامة المكتوبة بالسبأية ، وذلك من بعض معابد عمران ، شمال غربي صنعاء ، ومن مدينة شبوة بحضرموت ، وتحتوي على نقوش لها أهمية دينية خاصة بالاله المقة والاله السين [1] .

٤ ــ الفرنسي : يوسف هاليفي (Joseph Halévy) الذي تنكر سنة ١٨٧٠ في زي يهودي متسول وزار نجران وصنعاء ومر بمأرب وصرواح . وعاد هاليفي الى فرنسا وفي جعبته اكثر من ٦٨٦ نقشا جمعها من ٣٧ موقعا ، بدأ بنشرها ودراستها اعتبارا من سنة ١٨٧٢ .

وبفضل اعمال هاليفي عرفت النقوش المعينية القديمة التي جمعها من شمال شرق صنعاء . وبفضل هذه النقوش عرف ان مدينة مراقش كانت معروفة في القديم باسم (يطيل) [2] .

---

(١) التاريخ العربي القديم لنيلسن ، الترجمة ، ص ١٠ ، ١١ .

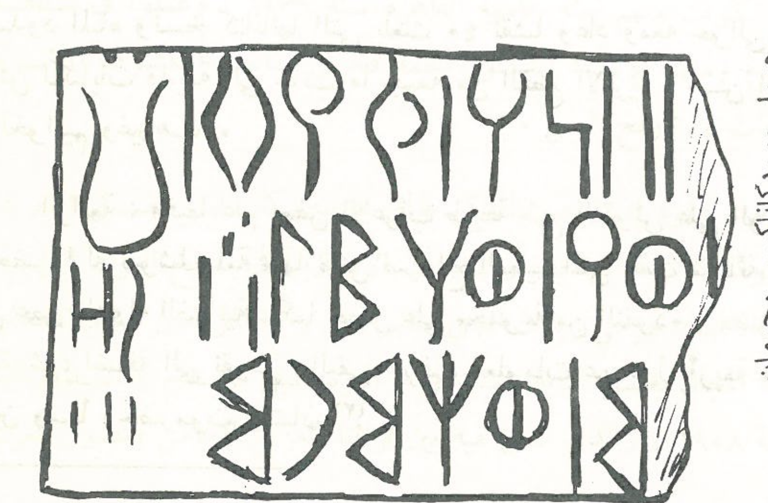
(٢) نفس المرجع ، ص ١٢ وما بعد .

نصب من مأرب مجموعة جلازر ومن رسمه



حجر كريم سبأي بالمتحف البريطاني — لندن

(١) من كتاب التاريخ العربي القديم لنيلسن وهومل ورودكاناكيس وجرمان ترجمة فؤاد حسنين على اشكال ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٤



جزء من نقش سبأي محفور في الحجر الجيري متحف فيينا

٥ ـ وبينما كان هاليفي يجمع نقوشه اقتنى المتحف العثماني باسطنبول مجموعتين عربيتين من النقـوش السبأية التي نشرها فيما بعد مورتمـان ومولر (Mordtmann , Muller)[١].

٦ ـ النمساوي : ادوارد جلازر ، وهو من أشهر العاملين في هـذا الحقل ، وقام بأربع رحلات لحساب الاكاديمية الفرنسية في باريس الـى اليمن جمع فيها عددا هائلا من النصوص القديمة (١٨٨٢ ـ ١٨٩٤ م) •

الاولى : وفيها زار شبام ، كوكبان ، هجه ، عمران (قرب همدان) وجمع ٢٨٠ نقشا •

الثانيـة : واهتـم بالمنطقـة ما بين عـدن وصنعـاء : حيث زار ظفار عاصمة حمير القديمة ،و جمع ٣٧ نقشا (من المحفور على الحجارة ـ معظمها ديني في اللغة المعينية) • وكانت حصيلته في هذه الرحلة حوالي ١٥٠ نقشا •

الثالثة ـ وخصصها لزيارة مأرب (شرق صنعاء) حيث رسم تخطيطا لسدود المياه ونسخ كتاباتها التي بلغت ٤٠ نقشا وعاد ومعه حوالى ٤٠٠ نقش لكتابات قديمة الى جانب ما جمعه من القطع الاثرية ، مـن النقود والخواتيم وغيرهـا •

الرابعة : وفيها علم بعض الاعراب طريقة طبع النقوش على الورق • فأحضروا له نقوشا هامة منها نقش صرواح العظيم التي بلغت مـائة نقش من عصر الدولة القتبانية ، كما حصل على مجموعة من النقوده وبفضل هذه النقوش، اضافة الى نقوش هاليفي، عرفت معلومات عن دول أربعة هي : معين وسبأ وحضرموت وقتبان [٢] •

(١) نفس المرجع ، ص ١٦ •
(٢) نفس المرجع ، ص ١٦ وما بعدها ، وانظر شكل (١) ص ٢١ •

٧ ـ الاميركي : وندل فيليبس رئيس البعثة الاميركية التي عملت (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) في منطقة عدن وكشفت عن معابد وقصور في تمنع عاصمة قتبان القديمة ، كما عملت في مأرب وكشفت عن معبد لالـه القمر وعثرت على كثير من الآثار [١] •

هذا الى جانب العدد العديد من المستشرقين والعلماء المتخصصين في اللغات السامية الذين عكفوا على دراسة هذه النصوص ، ونشروا مـا استخلصوه من نتائج هذه الدراسة • ومنهم . مولـر (D. H. Muller) وليـدز برسكي (M. Lidz barski) وهـومل Fr. Hommel الذي وضع كتابا في قواعـد اللغـة العربية الجنوبية (ميونيخ ١٨٩٣) وجويدى ، وغيرهم •

ولقد كان لعدد من الباحثين العـرب نصيبهم في المساهمة في هـذه الكشوف الاثرية ، مثل الاساتذة سليمان حزين وخليل نامى ومحمد توفيق الذين تكونت منهم بعثة جامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ ، وعملوا في منطقـة صنعاء • ومنهم الاستاذ الدكتور أحمد فخري صاحب الكشوف الاثـرية والابحاث في تاريخ اليمن •

هذا ونود ان نخص بالذكر عالمين عربيين كان لهما فضـل التعريف بالكشوف الاثرية الجديدة والكتابات الاوروبية في تاريخ العرب القديم ، أولهما الاستاذ جرجي زيدان الذي يعتبر بحق رائد المؤرخين العرب المحدثين في هذا المجال بفضل كتابه الممتاز في « العرب قبل الاسلام » الـذي أتمه في سنة ١٩٠٨ ، والذي نسق فيه بين تراثنا العربي الخاص بعصور العرب

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥٩ وما بعد •

الجاهلية وبين ما وجد في مؤلفات اليونان والرومان من هذا التاريخ (من هيرودوت وديودور الصقلي وسترابون وبطليموس وغيرهم) ، وبين ما قدمته النصوص الاثرية من معلومات جديدة ٠

وهنا نود ان نشير الى فضل العالم الفرنسي أ٠ ب٠ كوسان ده برسفال الذي يعتبر من رواد الكتاب الاوروبيين في التاريخ للعرب قبل الاسلام ، وذلك بفضل كتابه الذي عنونه بـ : « بحث أولي في تاريخ العرب قبل الاسلام : **Essai sur L'Histoire des Arabes avant L'Islamisme, 1847** » ، والذي أخرجه في ثلاثة مجلدات منذ أكثر من قرن وربع قرن ، والذي جمع فيه كل ما كان معروفا في المكتبة العربية وتنذ عن العرب قبل الاسلام من كتب التاريخ والادب والشعر الى جانب استخدامه ما كتبه اليونان والرومان في الموضوع ٠ لكل ذلك ورغم ان التواريخ التي حددها لأحداث تلك العصور أصبحت موضع اعادة النظر فان الكتاب ما زال له أهميته بالنسبة للباحثين ٠

أما العالم الآخر فهو الاستاذ جواد علي ، وله مكانته الخاصة في مجال تاريخ العرب قبل الاسلام ، بفضل موسوعته الكبيرة التي انفق فيها الكثير من الجهد والتعب ، والتي نشرها بمساعدة جامعة بغداد في أول الامر تحت عنوان : « تاريخ العرب قبل الاسلام » في ثمانية مجلدات كبيرة ، ثم اعاد نشرها في بيروت ، مع اضافات وتنقيحات في تسعة أجزاء ضخمة ، تحت عنوان : « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ٠ فهذه الموسوعة التي تحوي ١٦٨ بابا تقع في ٦٣٨٠ صفحة ـ وان سارت على الطريقة التقليدية، من جمع شتات المعلومات الغزيرة والمتنوعة في كل مظانها ووضعها جنبا الى جنب ، فانها بفضل منهجها هذا ، وبفضل آراء صاحبها القيمة في كثير من الموضوعات ، تسهل على الباحثين العرب التعرف على المعلومات الاساسية

اللازمة للبحث في هذا الموضوع ، سواء في المصادر العربية القديمة والحديثة أو في الكتب والمجلات العلمية الاوروبية الحديثة [1] ٠

وهكذا تصبح موسوعة الاستاذ الدكتور جواد علي مرجعا لا غنى

---

(١) ومحتويات الاجزاء التسعة هي على الوجه الآتي :

١ ـ ج ١ (٦٢٩ ص) وموضوعاته : المصادر ـ البلاد ـ التعريف بطبقات العرب وانسابهم .

٢ ـ ج ٢ (٦٢٦ ص) وموضوعاته : ممالك اليمن القديمة : معين ـ حضرموت ـ سبأ ـ قوائم باسماء الملوك والقبائل .

٣ ـ ج ٣ (٥٣٨ ص) وموضوعاته : ممالك : النبط ـ تدمر ـ الصفويون ـ الحيرة ـ كندة ـ الغساسنة ـ العرب والحبشة.

٤ ـ ج ٤ (٦٠٦ ص) وموضوعاته : مكة ـ يثرب ـ الطائف ـ الاحوال السياسية ق. الاسلام ـ المجتمع ـ القبائل ـ الحياة اليومية .

٥ ـ ج ٥ (٦٣٥ ص) وموضوعاته : البيوت ـ المستوى الاجتماعي ـ الدولة ـ حقوق الملوك والقبائل ـ الحروب ـ الاحوال الشخصية ـ حكام العرب .

٦ ـ ج ٦ (٨٢٣ ص) وموضوعاته : الديانات : الوثنية ـ الاصنام ـ وبيوتها ـ اليهودية ـ النصرانية ـ المجوس ـ عادات واساطير .

٧ ـ ج ٧ (٦٢٠ ص) وموضوعاته : ثروة البلاد الزراعية والحيوانية ـ التجارة ـ الاسواق ـ الصناعة ـ القياس والوزن والكيل .

٨ ـ ج ٨ (٧٧١ ص) وموضوعاته : العمارة ـ الخط العربي ـ العلم ـ الحكمة ـ الطب ـ الهندسة ـ التوقيت ـ اللغة .. اللسان العربي .

٩ ـ ج ٩ (٨٣٨ ص) وموضوعاته : اللغة والنحو ـ الشعر ـ شعراء الجاهلية ـ شعراء الصعاليك ـ شعراء الحجاز واليهود ـ المخضرمون .

عنه لمن يريد معرفة المصادر ، ومنهلا يستقي منه الذين يكتبون في تـاريخ العرب في الجاهلية ، وفيما قبل الاسلام •

المصـادر العربيـة الاساسيـة :

رغم أهمية الكشوف الأثرية والدراسات اللغوية ، ورغم اتخاذ عنوان « تاريخ العرب قبل الاسلام » بدلا من « تاريخ العرب الجاهلي » ، فاننـا نكرر ما سبق أن أشرنا اليه من أن أهمية الموضوع تظل تتلخص في أنـه مدخل لتاريخ العرب الحقيقي أي تاريخ العرب منذ قيام دولـة الاسلام ، وهو تاريخ العرب القومي الذي يستمر حتى الآن ، وذلك بهدف ملاحظة التطورات التي طرأت على مجتمع العرب عبر العملية التاريخية المعقـدة التي أدت الى ظهور الاسلام ثم تطور المجتمـع العربي الاسلامي على مر العصور • واذا كان الامر كذلك فان المصادر العربية الاولى في تاريخ هذا العصر تظل لها الأولوية في مجال البحث •

الاسلام والتاريخ العربي الجاهلي :

فمن المعروف ان الاسلام أتى ليهدم النظام السيء الذي وجده في بلاد العرب (في أواخر القرن السادس واوائل القرن السابع للميلاد) وليقيم نظاما جديدا • وان هذا النظام خرج على التقاليد البالية التي كرست التفتيت بين سكان جزيرة العرب والتشتت ، على المستويات الدينيـة والاجتماعية والسياسية ، وأحل مكانها مبادىء وحدوية على نفس هـــذه المستويات نجحت في اشاعة الالفة وحققت وحدة العرب ، تلك الوحدة التي اعتبرها كثير من الباحثين الاوروبيين المعجزة الحقيقية للنبي (صلعم) •

ولكنه اذا كان صحيحا ان الاسلام هدم نظام العرب القديم ، فانه ليس من الصحيح ـ على وجه الاطلاق ـ ان الاسلام وقف ، بعناد ، يعادي

كل ما عرفه العرب في نظامهم القديم الى حد تحريم ذكره او الاشارة اليه، وخاصة على المستوى الديني • وهو الامر الذي شاعت على أساسه فكرة ان الاسلام حرم استخدام الصور البشرية والحيوانية في فنونه ، أو أنه حرم محاكاة الطبيعة بسبب عدائه لما كان سائدا من عبادة الاصنام قبل الاسلام ـ هذا الى جانب الفرضية الاخرى التي تنعى على العرب سذاجتهم التـــي منعتهم من اتقان التصوير الانساني او الحيواني او تمثيل مظاهر الطبيعة الحية ، وهي مما ينفيه تاريخ العرب القديم •

والحقيقة ان الاسلام لم يكن معاديا للصور الانسانية او الحيوانية او غيرها لذاتها ، بل كان مناهضا للطقوس البالية التي كانت تجري حولها ، وهذا ما يفسر كيف ان الاسلام حفظ لنا كثيرا من المعارف الخاصة بتقاليد العرب الدينية والاجتماعية ، كما عرفنا بكثير من آلهة العرب وأصنامها •

القـرآن الكريـم :

فالقرآن الذي يعتبر مصدرا رئيسيا لدراسة التاريخ الاسلامي منـذ بدايته وحتى أيامنا هذه ، على اساس انه دستور الاسلام الذي ينظم الحياة العامة والخاصة بكل المسلمين ، مهم أيضا بالنسبة لدراسة العصور العربية السابقة على الاسلام • ففيما يتعلق بديانات العرب ومعتقداتهم في العصر الجاهلي توجد الآيات الكثيرة التي تشير الى أصنام العـرب وآلهتهـم وطقوسهم الدينية ، الى جانب عاداتهم ، من وأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغير ذلك • هذا كما توجد آيات تشير الى معرفة العرب لعدد من الديانات القديمة ، من سماوية مثل : اليهودية والنصرانية والحنيفية ، وغير سماوية مثل : المجوسية والصابئة •

وفيما يتعلق بحياة العرب اليومية هناك ذكر لنشاطاتهم الاقتصـادية

وعلاقاتهم التجارية ، كما تشير الآيات الى سير قدامى الانبياء وشعوبهم ، وفي هذا المجال ذكر لعدد من القبائل العربية القديمة التي لم يكن لها وجود عند ظهور الاسلام ، مثل : عاد وثمود وارم وغيرها ، وبيان للظروف التي ادت الى فناء هذه الشعوب من تقلبات طبيعية شديدة أو انهيارات للسدود .

الحديث والتفسير والسيرة :

ولما كان الحديث يهدف بالدرجة الاولى الى تفسير القرآن ــ حتى قال البعض انه اذا كان القرآن لا يستغني عن الحديث فان الحديث يمكن ان يستغني عن القرآن ، وربما كانوا يعبرون بذلك عما حدث فعلا في بعض العصور عندما اهتم العلماء بالحديث في شكل علم الفروع حتى غلب على علم الاصول ــ احتوت مجموعات الاحاديث النبوية على مسائل تفصيلية خاصة بهذه الموضوعات التي تناولها القرآن . ولقد استخدم مفسرو القرآن ــ مثل الطبرى ــ هذه الاحاديث وكذلك الروايات ذات الطابع اليهودي ، مما عرف بالاسرائيليات ، او النصرانيات التي نقلها « مسلمة » اليهود والنصارى (مثل كعب الاحبار ، وعبدالله بن سلام ، وغيرهما) وخاصة ما يتعلق منها بسير الرسل والانبياء . وكثير من هذه المعلومات اقرب الى الروايات الشعبية منه الى الاخبار العلمية الصحيحة ، وهذا ما اشار اليه ابن خلدون في المقدمة وفي التاريخ ، في أكثر من موضع ، وكما نذكر فيما بعد .

وما يقال عن التفسير والحديث يمكن أن يقال عن كتب السيرة النبوية ، اذ تعرضت لكثير من موضوعات تاريخ العرب قبل الاسلام مما ورد في القرآن والحديث ومما يتعلق بسير الانبياء والرسل ، والتي اشتملت على كثير من اشعار العرب القديمة لتؤيد بها ما سجلته من احداث . ولما كان كثير من الاخبار التي حوتها اقدم السير ، وهي التي جمعها ابن اسحق

(توفي سنة ١٥١ هـ/٧٦٨ م) من ذلك اللون الشعبي الذي أشرنا اليه فقد حق لابن هشام (توفي سنة ٢١٨ هـ/٨٣٤ م) ان ينقح تلك السيرة ــ حسبما تيسر له ــ وان يرفع منها ما شك فيه من الاخبار ، وما رأى انه منحول من الشعر الجاهلي [1] . والقسم الاول من السيرة الذي كان يعرف في كتاب ابن اسحق بـ « المبتدأ » فيتناول التاريخ الجاهلي ، وينقسم الى أربعة فصول ، في : ١ ــ الرسالات السابقة على الاسلام ، ٢ ــ في تاريخ اليمن في الجاهلية ، ٣ ــ تاريخ القبائل العربية وعباداتها ، ٤ ــ تاريخ مكة واجداد الرسول (صلعم) . وهذا ما يشغل في سيرة ابن هشام في القسم الاول انساب العرب واخبار اليمن الى دخول النصرانية وملك الحبشة لليمن الى خروج سيف بن ذي يزن ، وأحوال العرب في اليمن ، وديانات العرب القديمة وتقاليدهم الجاهلية ثم التعريف بقريش الى مولد الرسول وحرب الفجار حتى البعثة النبوية [2] .

---

(١) وفي ذلك يقول ابن هشام : وأنا انشاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله (ص) من ولده ، وأولادهم لاصلابهم ... وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله (ص) ، وتارك بعض ما ذكر ابن اسحق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، واشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، واشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعضه يسوء بعض الناس ذكره ... ومستقص ــ ان شاء الله تعالى ــ ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به » (السيرة ، تحقيق مصطفى السقاء وآخرون ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ، ج ١ ص ٤) .

(٢) وهذا يشغل الجزء من القسم الاول الى ص ٢١٣ .

الشعر الجاهلي :

والشعر الجاهلي يعتبر من أهم مصادر معارفنا عن حياة العرب في جاهليتهم . فالشعر هو الذي يعبر عن عبقرية العرب المثلة في مقدرتهم اللغوية وفي فصاحتهم التي فاخروا بها بقية الشعوب . واذا كان القرآن قد أشار في بعض الآيات الى مساوىء الشعراء ممن ناهضوا النبي والدعوة ، فان هذا لا يعني موقفا عدائيا من جانب الاسلام للشعر ذاته ، كما هو الحال بالنسبة للصور والاصنام . وفي ذلك ينسب الى معاوية أنه كان يحب الاستشهاد بالشعر ، ويقول : « الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وافعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية » ، وانه كان يتبع ذلك بقوله : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان من الشعر لحكما » [1] . والحقيقة انه لما لم يكن العرب من أهل التدوين والكتابة في مطلع الاسلام ، كان الشعر ــ بفضل اوزانه وصوره وبيانه أقرب النماذج اللغوية الى القلب ، وبالتالي الى الحفظ .

وهكذا حفظت لنا الاشعار القديمة صورا من حياة العرب في الجاهلية ، في الجد واللهو والحب والبغض ، وفي أيام الخصب والرخاء وايام القحط والبؤس ، وفي أوقات السلم والحرب ، وفي الزهد والتدين والترف والفجور ، وعلى الجملة في كل ما عرفوه وعاشوه . ولكل ذلك كان الشعر مرجع علماء اللغة العربية الاول عندما بدأوا يضعون قوانينها وقواعدها ، كما رجع اليه مفسرو القرآن واصحاب الحديث والسيرة ، وكذلك اصحاب الاخبار من المؤرخين ، ومن اشتغل بوصف جزيرة العرب من الجغرافيين .

ومن أشهر شعراء الجاهلية الذين يستفاد من شعرهم في هذا الموضوع ،

(١) اخبار عبيد بن شريه ، ص ٣٥٢ .

أصحاب المعلقات ، مثل امرىء القيس بن حجر الكندي ، وطرفة بن العبد البكري ، وزهير بن أبي سلمى المزنى ، ولبيد بن ربيعة العامري ، وعمرو ابن كلثوم التغلبي ، وعنترة بن شداد العبسي ، وأخيرا الحارث بن حلزة البكري [1] ، كما يستفاد من شاعر النبي المخضرم حسان بن ثابت . فلقد أمدنا هؤلاء بمعلومات هامة عن احوال كل من دول المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام وملوك كندة في نجد والحجاز . وكانت أشعارهم من الاصول التي استندت اليها الابحاث الحديثة في تاريخ العرب الجاهلي، مثل ابحاث جويدى في العرب قبل الاسلام وابحاث نولد كه في بني جفنة امراء غسان ، أما ده برسفال (de Perceval) الذي كتب أقدم تاريخ للعرب قبل الاسلام (باريز ١٨٤٧) فانه استفاد منها وترجمها الى الفرنسية باكملها.

روايات الاخباريين الاول :

كتاب « اخبار اليمن لعبيد بن شرية » (٢) : وتتلخص أهمية هذا الكتاب في أنه يمثل نموذجا من نماذج طلائع المدونات الاولى في العصر الاسلامي . فتدوين الكتاب تم على أواخر أيام معاوية ، عندما صارت المسامرة وأحاديث من مضى أفضل لذات الخليفة المسن أي قبيل سنة ٦٠ هـ . أما صاحب الكتاب فهو عبيدة بن شرية الجرهمي الذي يمثل عصر المخضرمين أحسن

(١) انظر شرح المعلقات السبع لابي عبدالله الحسين الزوزني ، طبع بيروت ، ١٩٧٢ .

(٢) كتاب « اخبار اليمن واشعارها وأنسابها » عبيد بن شريه الجرهمي (ملحق لكتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه ، طبعة حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ) . ويعرف الكتاب ايضا باسم : « كتاب الملوك واخبار الماضين » انظر مقدمة سيرة ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقاء وآخرين ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ، ج ١ ، ص ٥ .

تمثيل ، اذ أنه وهو يسامر معاوية كان يبلغ من العمر حوالي ١٥٠ سنة، كما تقول الرواية بشيء من المبالغة على ما نظن ، وهي تؤكد انه أدرك ملـوك الجاهلية من لخم وغسان ، وشهد دخول الحبشة من اليمن الـى الحجاز ورجمها البيت الحرام ، بمعنى أنه كان قد تجـاوز الاربعين عنـد مولـد النبـي .

أما عن منهج الرواية وطريقة تدوينها فهو طريف ، اذ يطلب معـاوية الكتاب لتدوين ما يسمعه ، وعبيدة يطلب الامان من الخليفة قبل ان يبدأ الحديث – خشية ألا يعجب معاوية ، ربما من الناحية الدينية او العصبية أو من حيث ما كان متعارفا عليه وقتئذ من أخبار الجاهلية، خاصة وان العدنانية كانوا يجهلون أخبار اليمن ، كما يصرح عبيدة [1] . وهذا ما حدث فعلا عندما قال عبيدة : ان ابراهيم هو أبونا وأبوكم فنحن ولدناكم وانتم منا ونحن منكم ، فقال معاوية : « كأنك تحدث عن حديث الجاهلية ! » وعندما رد عبيدة : « يا أمير المؤمنين لك في الاسلام ما يغنيك عن ذلك فقـد محق الاسلام ما كان قبله ، كما محق الشمس ضوء القمر » ، طيب معاوية خاطره ، وقال له : « عزمت عليك الا حدثتني عما أسألك عنه » [2] .

وخلال الحديث لا يكتفي معاوية بالرواية القصصية بل يطلب تدعيمها بالشعر ، فهو يقول لعبيدة : « وأبيك لقد أتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ، وقد علمت ان الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) ، يقـول : « اذ من الشعر لحكما » [3] .

---

(١) اخبار اليمن ، ص ٣١٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .

أما عن موضوع الرواية (أو الكتاب) فيمكن ان يقسم بشكل عام – بصرف النظر عن الاستطرادات هنا وهناك – الى ثلاثة اقسام :

– الاول خاص بتوزيع القبائل (العربية القديمة) من بابل الى الجزيرة العربية من بعد نوح مع اشارات الى توزيع الترك والصقالبة والسودان والبربر من حفدة نوح الآخرين .

– والثاني خاص بنهاية العرب البائدة ، من آل عاد (الاولى والآخرة) ، وقوم ثمود وجرهم ، والظروف التي هلكوا فيها ، وأخبار أنبيائهم وصلحائهم ، من : هود وصالح ولقمان .

– والثالث خاص باخبار ملوك اليمن القدامى ، ابتداء من أول ملوكهم « سبأ » وانتهاء بحسان بن تبع أسعد الكامل ، وهـلاك طسم وجديس (العماليق) باليمامة على أيامه . وتفوز بلقيس وسليمان – بطبيعة الحال – بنصيب وافر من الرواية .

والذي نلاحظه انه الى جانب القصص الاسطوري ، تحوي الرواية في ثناياها معلومات هامة ذات طابع جغرافي وطبوغرافي عن بعض نواحي بلاد العرب ، مثل : الاحقاف والحجر ووادي القرى واليمامة . وعن مسميات الرياح عند العرب ، واسماء سنوات القحط والجفاف ، وأسماء الايـام في الجاهلية ، الى جانب ذكر عدد من الاصنام ، وشيء من الطقوس الدينية العربية القـديمة .

وهكذا فرغم ان الرواية مليئة بالقصص الشعبي الذي كـان سائدا وقت تدوينها ، والذي أصبح تسجيله أمرا تقليديا عند من أتى بعد عبيدة بن شرية من الكتاب ، حتى عند اولئك الذين عرفوا المنهج العلمي فـي النقد التاريخي ، مثل المسعودي وابن خلدون ، فان الكتاب يعتبر من المصادر الاولية للباحثين في التاريخ العربي القديم .

كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه (١) :

يعتبر وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ/٧٢٨ م) من الطبقة الاولى للاخباريين ، اذا ما جعلنا مكانة خاصة لعبيد بن شرية بصفته من أوائل القصاص الذين دونت أخبارهم وتناقلها الكتاب فيما بعد ، ومنهم وهب بن منبه صاحب كتاب التيجان ، كما نقل عنه الهمداني (توفي ٣٣٤ هـ/٩٤٥م أو بعدها بقليل ، كما يأتي) في كتابه الاكليل •

وابن منبه يمني يهودي الاصل ، ولهذا ينسب اليه الكثير من القصص الاسرائيلي الذي دخل في مؤلفات المسلمين • والظاهر أنه كان يدعى العلم بالكتب المنزلة القديمة جميعا ، وانه كان ينقل منها مباشرة • فهو يبدأ الكتاب بقوله : « قرأت ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الانبياء ، فوجدت فيها ان الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا » (٢) • وهذا الأمر المستغرب يدعو ـ بطبيعة الحال ـ الى التأمل فيما يكتب • وهنا نبدأ بالاشارة الى ان ابن منبه لا يوافق على استخدام العقل عند النظر في العلوم الدينية ، فهو يهاجم استخدام القياس، ويقول عمن يستخدمونه ، انهم : « أرادوا ان يدركوا علم الغيب بالقياس » (٣) •

وممن نقل عنهم وهب بن منبه ـ الى جانب عبيد بن شرية ـ محمد ابن السائب الكلبي (والد هشام صاحب كتاب الاصنام) ، وهو حجة في احوال العرب قبل الاسلام ، ولو ان معاصريه كانوا يتهمونه بالكذب ، كما سنرى •

---

(١) طبعة حيدر اباد الدكن ، ١٩٤٧ م.

(٢) كتاب التيجان ، ص ٢ •

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣ ـ ١٤ •

وخطة كتاب التيجان ـ الذي يقع في اكثر من ٣٠٠ صفحة ـ أشبه ما تكون بخطة اخبار اليمن لعبيد بن شرية اذ يمكن القول ان الكتاب يكاد يعالج نفس الموضوعات الثلاثة ، وهي :

١ ـ بداية عمران العالم بآدم وأولاده ثم العمران الثاني بنوح وبنيه (سام وحام ويافث) الذين تفرق أبناؤهم في أرجاء الجزيرة العربية، ثم في أنحاء العالم ـ وهي الخطة الاسرائيلية الأصل ، التي أصبحت تقليدية بالنسبة لرسم شجرة النسب الانسانية ، الى أن ظهرت ، في الحديث ، طريقة تقسيم الشعوب الى مجموعات لغوية •

٢ ـ الشعوب العربية البائدة ، مثل عاد الاولى والآخرة ، والعمالقة (ومنهم طسم وجديس) ، وثمود وجرهم •

٣ ـ ملوك اليمن ، وأولهم يعرب بن قحطان وآخرهم سيف بن ذي يزن ، بمعنى أنه لم يقف عند آخر التبابعة وهو حسان بن تبع ، كما فعل عبيد بن شرية ، بل اتبع ذلك بملك الحبشة لليمن على يدي أبرهة ثم تحرير البلاد منهم على يدي سيف بمعونة كسرى • وبناء على ذلك يبلغ عدد ملوك اليمن عنده أكثر من ٣٠ ملكا ، وهو ضعف العدد الذي يقدمه عبيد بن شرية في قائمته •

وهذا لا يعني ان كتاب التيجان يقف عند هذه الموضوعات ، فالرواية تعرض في ثناياها موضوعات فرعية أخرى ، منها ما هو خاص بالتعريف بالبلاد ، ومنها ما يتعلق بديانات العرب وبأيامهم وعاداتهم وتقاليدهم • كما أن الصعلكة ودفائن اليمن ومقابرهم القديمة ، بما تحويه من نصوص المسند والذخائر الثمينة ، تحظى باهتمام المؤلف •

وربما كان من مميزات الكتاب الهامة أنه رغم تخصصه في أحوال اليمن وملوكها القدامى فانه يعرض لاحداث الاقاليم العربية الاخرى ، من : الشام والعراق والحجاز ، وما قام فيها من ممالك ، مثل : الحيرة وغسان وكندة وغيرها . ويستشف من ذلك ـ رغم الرواية ذات الطابع الاسطوري في كثير من الاحيان ـ ان العلاقة كانت وثيقة بين كل أجزاء جزيرة العرب في التاريخ القديم ، وهو الامر الذي يثبت أن فكرة الوحدة الجغرافية والبشرية كانت ـ بحق ـ الفكرة المسيطرة على قلوب الكتاب العرب ، رغم ما يشيرون اليه من الصراعات والنزاعات بين القبائل والشعوب .

ومن الموضوعات التي اهتم بها وهب أحوال مكة والبيت الحرام ، واللغة العربية وكيف انتشرت ، وحكماء العرب وما ينسب اليهم من الأقوال ، مثل قس بن ساعدة وربيع بن ضبيع بن وهب . ويظهر علم وهب بن منبه بالاسرائيليات عندما يعالج موضوعات الانساب ، وقصة بلقيس وسليمان ، وقصة داود وجالوت .

وهكذا يصبح كتاب التيجان موسوعة هامة ليس في تاريخ بلاد اليمن قبل الاسلام فقط ،بل في تاريخ الجزيرة العربية وأحوالها . ولا يقلل من أهمية الكتاب ـ مثل غيره من كتب هذا النوع من الادب التاريخي ـ ما يحويه من الروايات القصصية أو الاخبار الاسطورية ، من : طول الاعمار وعظم هامات الرجال ، فلقد صارت هذه المعلومات تقليدية ، يسجلها الكتاب حتى أولئك الذين ينتقدونها ويدفعون بعدم صحتها .

كتاب الاكليل للهمداني :

وبعد وهب بن منبه نذكر الهمداني (توفي بعد سنة ٣٤٠ هـ ـ

٩٥١ م) [١] الذي يحقق بمؤلفاته ذروة التخصص في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك بفضل موسوعته الكبرى المعروفة بكتاب « الاكليل » الذي وضعه في عشرة أجزاء . والهمداني المشهور بابن الحائك ينتمي ينتسب الى قبيلة همدان الكبيرة ، عرف بأنه من أعلم علماء زمانه في اللغة والرياضيات والشعر والأنساب . ولقد تعرف بمكة على الرجال من جميع البلدان والطبقات ممن كانوا على علم بديار العرب حتى عرف بالنسابة . وكان ذلك مما سمح له بتأليف كتابه المشهور في « صفة جزيرة العرب » ، الذي استفاد منه من أتى بعده من الكتاب ، مثل : البكري في كتابه «معجم ما استعجم» ، وياقوت في «معجم البلدان» [٢] .

وأشهر كتب الهمداني هو كتاب « الاكليل » الذي وصلنا منه حتى الآن أربعة أجزاء من أجزائه العشرة التي يسجلها المؤلف على الوجه الآتي :

١ ـ مختصر من المبتدأ وأصول الأنساب .

٢ ـ نسب ولد الهميسع بن حمير .

٣ ـ في فضائل قحطان .

---

(١) انظر الجزء الثامن ويتضمن محافد اليمن ومسائدها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات ، تأليف ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب ... المشهور بالهمداني المتوفي في سجن صنعاء ، سنة ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م كما يرى المحقق الاب انستاس الكرملي ، بغداد ، ١٩٣١ . ولقد سجل الاكوع في مقدمة تحقيقه للجزء الثاني ان علي بن الحسن الخزرجي نص في كتابه طراز اعلام الزمن في تراجم اعلام اليمن ان الهمداني عاش الى ما بعد سنة ٣٤٠ هـ ـ ٩٥١ م (كتاب الاكليل ، ج ٢ ، طبع القاهرة ١٩٦٦ ، المقدمة ، ص ١٦) .

(٢) انظر الدراسة ، ص ٣١١ .

٤ ــ في السيرة القديمة عهد تبع أبي كرب .

٥ ــ في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع الى أيام ذي نواس .

٦ ــ في السيرة الآخرة الى الاسلام .

٧ ــ في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة .

٨ ــ في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات .

٩ ــ في أمثال حمير وحكمها واللسان الحميري وحروف المسند .

١٠ ــ في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها .

والذي يفهم من تقسيم الهمداني لكتابه أنه يسير تقريبا على خطة عبيد بن شرية ووهب بن منبه التي أصبحت تقليدية بالنسبة للمشتغلين بتاريخ العرب قبل الاسلام . فالأجزاء الثلاثة الأولى ، كما يفهم من عناوينها ، كان الأول منها في عمران العالم ابتداء من آدم وبنيه ثم في العمران الثاني منذ نوح وبنيه ، والثاني في نسب حمير وتوزيع قبائل اليمن في البلاد وفي أنحاء الجزيرة العربية ، والثالث في فضائل حمير أشهر قبائل اليمن وأعرقها .

والأجزاء الثلاثة التالية (من الرابع الى السادس) خصصها المؤلف جميعا لتاريخ اليمن الذي قسمه الى ثلاثة عصور : قديم ، ووسيط ، ومتأخر (قبيل الاسلام) .

أما الجزء السابع فعنوانه يبين ان المؤلف كان يعرف قواعد النقد ، ويستطيع أن يميز بين الروايات الصحيحة و « الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة » . ومع ذلك فاننا نظن ان نصه على ذلك لا يعني أنه جمع ما رفضه من الاخبار الباطلة في هذا الجزء فقط ، فاننا نجد بعض الاخبار

التي يعرف المؤلف أنها أسطورية ، في الجزء الثامن الذي سنعرف به ، وذلك أن نقل مثل هذه المعلومات صار تقليدا ، كما سبقت الاشارة ، لا يحسن الاخلال به في نظر الكتاب ، رغم ما يعرفونه من بطلانها ، ربما من أجل التسلية والترفيه عن القارىء أو السامع الذي قد يمل المعلومات الجافة ذات الطابع العلمي .

والأجزاء التي عرفت من الكتاب حتى الآن أربعة ، وهي :

الاول والثاني اللذان نشر بعضهما في جامعة ابسالا Upsala بمعرفة أوسكار لوفجرن Oscar Lofgren من بعض مخطوطات برلين ثم نشرهما وحققهما كاملين محمد بن علي الاكوع الجوالي في القاهرة ١٩٦٤ و ١٩٦٦ (مجموعة المكتبة اليمنية) . أما الجزء الثامن فقد نشره الاب انستاس الكرملي في بغداد سنة ١٩٣١ . بينما نشر الجزء العاشر محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ .

الجزء الاول من الاكليل :

والجزء الاول يبدأ بفاتحتين الاولى لمحمد بن نشوان بن سعيد الحميري (صاحب القصيدة) يقدم فيها كتاب الاكليل بعد ان نقحه والثانية للهمداني صاحب الكتاب ، فهي الخطبة الأصلية . وفيها يبين الهمداني ان غرضه العناية بنسب الهميسع بن حمير الذي أهمله الكلبيون من ولد مالك بن حمير ، والذي لم يذكره محمد بن اسحق الا في خمسة أسطر . ثم يشير الى « شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها ووارث ما ادّخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها وقارىء مساندها والمحيط بلغاتها » ، وهو ابو نصر محمد بن عبدالله ، الذي جعله أهم مراجعه ، والذي رفع نسبه الى ٢٧ جدا حتى سبأ الاصغر [1] . ومرجعه

(١) انظر ط. ابسالا في ليدن ، ج ١ ، ص ٤ ، ٥ .

الثاني هو أبو نصر الحنبصي الذي يقول فيه «وما زال لنا معولا في المشكلات وربما وردت منه بحرا زاخرا ... فأغناني نهله دون علله» . وكان الحنبصي يقرأ الكتابة الحميرية القديمة والمساند الدهرية ويعيد الألفاظ الحميرية التي خففها العرب — لما فيها من ثقل — الى أصولها . وهكذا كان الحنبصي مرجع الهمداني فيما يتعلق بأنساب بني الهميسع ، الى جانب ما أخذه عن رجال حمير وكهلان وغيرهم ، وما أخذه من سجل خولان القديم بصعدة (١) .

والى جانب ذلك نجد أن من أهم مراجع الهمداني محمد بن اسحق وهشام الكلبي الى جانب روايات كعب الاحبار وشعراء الجاهلية والاسلام ، من : طرفة بن العبد ، وأمية بن أبي الصلت ، والاعشى والقطامي ، وعلقمة بن ذي جدن ، وحسان بن ثابت .

أما عن موضوع الجزء الأول فيبدأ ، كما هي العادة ، بآدم وبنيه ، ثم نوح والطوفان ، وأبناء نوح : سام وحام ويافث (ويام) . ويسرد أنساب العرب العاربة وبعض أخبارها مثل عاد وثمود . ثم تأتي أنساب قحطان وحمير بن سبأ ، وأنساب قضاعة ومهرة وخولان . وفي خلال ذلك نجد اشارات الى طبقات العرب ، وأصل الخط العربي ، وأسماء الايام والشهور عند العرب قديما .

الجزء الثاني من الاكليل :

ويستمر الجزء الثاني من الاكليل في سرد أنساب القبائل اليمنية الى العصور الاسلامية وحتى القرن الرابع الهجري — ١٠ م على ايام الهمداني . فيذكر بطون خولان وردمان والسكاسك وجيدان (ومنهم بكيل الكبرى) والكلاع ، والصيدف (ومنهم غسان) ، وآل الحضرمي (الذين صاهروا

(١) انظر ط . ابسالا ، ج ١ ، ص ٥ ، ٦ .

عبد الدار بن قصى) (١) . ومنهم العلاء بن الحضرمي الذي غزا البحرين أيام أبي بكر ، وآل الصوار ، والاصابح (والشهابيون الذين كانوا في صنعاء عند وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ) (٢) ، وآل يعفر ، وبنو يحصب ، وآل ذي يزن ، والأوزاع ، وآل ذي جدن .

وهو يعالج في ثنايا الأنساب بعض القضايا التاريخية في القديم وفي الاسلام ، فيتكلم عن الحارث الرائش ، وافريقيس باني افريقية ، كما يعرض تنفا من تاريخ فارس وعلاقاته بتاريخ اليمن والعرب ، مثل الحديث عن غزو بخت نصر الذي يسمى أيضا بخت ناصر (٣) .

وهو يعالج نقاطا من تاريخ العلويين في اليمن ، مثل : قدوم ابراهيم بن موسى بن جعفر الى صعدة وصنعاء ، « وذلك على رأس المائتين من التاريخ ، فأسرعت اليه بنو سعد بن سعد طلب التشافي من الأكيلين وبني شهاب وحمير ... » (٤) ، كما يشير الى بعض المفاخرات والملاحيات بين اليمن وبين مضر على أيام الامويين ، ومنها اشارات الى ما كانت تتميز به كل قبيلة من اليمنية والربعية ، من : الفروسية ، والشرف ، والعدد الأكبر ، والعز ، والملك ، والفصاحة ، والخير ، والمنعة وغيرها (٥) .

هذا ، الى جانب تعريفه بمواطن القبائل قديما وحديثا ، وذكره لعدد من قصور اليمن القديمة وحصونها ، مما خصص له الجزء الثامن .

(١) ج ٢ ط . القاهرة ، ص ٢٩ .
(٢) ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٣) ج ٢ ، ص ٢٨٦ .
(٤) ج ٢ ، ص ١٣١ .
(٥) ج ٢ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٩ .

الجزء الثامن من الاكليل :

والجزء الثامن الذي يقع في حوالي ٣٠٠ صفحة يخصصه الهمداني لذكر آثار اليمن الشهيرة، ويقسمه الى كتابين وعدد من الابواب. والكتاب الأول في القصور التي كانت في : صنعاء ، وظفار ، وناعط ، ومأرب ، وبينون ، ودامغ ، ونجران ، وصرواح وغيرها . ويضم هذا الكتاب حصون حضرموت ومحافدها ، مثل : دمون ، والنجير ، وشبوه ، وحوزة... الخ. والكتاب الثاني في سدود اليمن ، في : مأرب ، وصعدة ، ويحصب وغيرها.

أما الأبواب فأولها في كنوز اليمن ودفائنها ، وثانيها في حروف المسند ، وثالثها باب القبوريات ، وأشهرها : قبور هود وملوك جرهم ، وقبر لقمان صاحب الأنسر ، وقبر بلقيس ، الى جانب عدد من قبور ملوك اليمن المعروفين عند الكتاب .

وكما هو المعتاد ، نجد في ثنايا الكتاب معلومات ذات طبيعة متنوعة ، منها ما هو في طبائع أهل صنعاء ، وما هو في ثروة اليمن المعدنية ، مثل : معادن الجزع وأنواعه . وهناك ذكر لبعض بيوت العبادة القديمة في اليمن، مثل : رئام ، وبيت كهلان ، وكعبة نجران ، وكذلك ذكر المساجد القديمة الخاصة بالأنبياء ثم المساجد الاسلامية .

والهمداني يذكر مراجعه في بعض الأحيان ، مثل : هشام بن الكلبي ، وعبيد بن شرية الجرهمي ، ويهملها في معظم الأحيان . وهو يحرص على ذكر الروايات الاسطورية ، رغم دفعه أياها في بعض المواضع ، كما أشرنا .

والمهم في أمر هذا الجزء من كتاب « الاكليل » أنه رغم استفاضته في أخبار العرب فهو متخصص في آثار اليمن ، مما يعطيه أهمية خاصة بسبب ندرة الكتب المتخصصة في هذا الفن مما عرفته المكتبة العربية

القديمة ـ حتى أصبح المرشد للباحثين المحدثين في آثار اليمن القديمة ، ممن سبقت الاشارة اليهم . واذا كان الأمر كذلك فمما لا شك فيه أن ضياع الأجزاء الأخرى من الكتاب تعتبر خسارة كبيرة يأسف لها المشتغلون بتاريخ العرب والاسلام ، على العموم ، قبل الاسلام وبعده على حد سواء .

كتاب الاصنام لابن الكلبي :

بعد ذلك نذكر ابن الكلبي صاحب كتاب الاصنام (١) ، وكان ينبغي أن يكون في المقدمة . فابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، توفي سنة ٢٠٤ هـ ـ ٨١٩ م) يعتبر من أعلام الطبقة الأولى في رواية أخبار العرب في الزمن الأول ، وفي جاهلية ما قبل الاسلام ، كما يتضح من ثبت مؤلفاته التي أوردها ابن النديم في الفهرست ، والتي أكملها محقق كتاب الأصنام الاستاذ احمد زكي ، وهي تتناول كل ما يخطر على الذهن في أحوال العرب قبل الاسلام . فمنها كتب في أخبار الأوائل ، مثل : حديث آدم وولده ، وعاد الأولى والأخرى ، وكتاب الأوائل ، وأقيال حمير ، وأديان العرب ، والاصنام والكهان . ومنها كتب في المآثر والبيوتات والألقاب، مثل : فضائل قيس عيلان، وبيوتات قريش ، والموءدات ،وشرف قصي بن كلاب ، والمثالب ، والنوافل ، وملوك الطوائف ، وملوك كندة ، وافتراق الأزد ، وطسم وجديس . وله كتب في أحلاف العرب ، مثل : حلف الفضول ، وحلف كلب وتميم ، وحلف عبد المطلب وخزاعة . وفيما قارب الاسلام من الجاهلية ، له : اليمن وأمر سيف بن ذي يزن ، ومناكح أزواج العرب ، والديباج في أخبار الشعراء ، وكتاب الجن وأشعارهم . وفي الشعراء وأيام العرب له كتب ، مثل : ما في شعر امرىء القيس من

(١) طبعة دار الكتب ، ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ م .

أسماء الرجال والنساء وانسابهم: والمنذر ملك العرب، وداحس والغبراء ، وأيام فزارة ووقائع بني شيبان • هذا الى جانب ما كتبه في الأخبار والأسحار ، وما كتبه في أخبار الاسلام •

وكتاب الأصنام الذي وصل الينا يمكن أن يكون نموذجا لهذه الكتب التي ألفها ابن الكلبي ، والتي تبين سعة اطلاعه على أخبار ما قبل الاسلام ، ومعرفته التي لا تحد بأحوال العرب في الجاهلية • ويعرّف الكتاب بكل ما كان يعبده العرب في تلك العصور القديمة من الأحجار والاصنام والانصاب والاوثان الى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب، كالكعبة ، وكعبة نجران ، ورئام • وهو يعرف بطقوس العبادة ، من : الاهلال ، وتقديم الذبائح والقرابين ، والشعائر الخاصة بالحج القديم • ويعرّف أيضا باليهودية والنصرانية بين العرب ، وبقايا ديانة ابراهيم واسماعيل مما عرف بالحنيفية •

ولما كان من الطبيعي أن يورد ابن الكلبي ما كان قد تعارف عليه الأخباريون والقصاص من الأخبار ذات الطابع الاسطوري ، فليس مما يقلل من أهمية معلوماته ما رمى به من الكذب من جانب العلماء الذين اتبعوا منهج النقد التاريخي مما عرفه أهل الحديث بـ « الجرح والتعديل »، فالموضوع مختلف تماما عن موضوع علم الحديث من حيث الجدية ومن حيث المنهج • ولهذا كانت أخبار ابن الكلبي هي المنهل الذي استقى منه كبار العلماء في هذه الموضوعات، من وهب ابن منبه الى الطبري والمسعودي وابن عبد ربه والهمداني وغيرهم ممن أتى بعدهم •

انساب الخيل :

أما كتاب أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام [1] فيبين فيه هشام بن

(1) طبع دار الكتب ، سنة ١٩٤٦ ، تحقيق احمد زكي •

محمد بن السائب الكلبي كيف أولع العرب بالخيل في الجاهلية والاسلام الى حد أنهم كانوا يصبرون على الشدة وضيق العيش ويكرمونها حتى يؤثروها على الأهل والولد •

أما عن بداية استخدام الخيل فتنسب الى اسماعيل بن ابراهيم ، كما تنسب الى داود ثم ابنه سليمان • وفيما يتعلق بأصولها ، قيل : ان الله أخرجها من البحر ، وأن خيل سليمان كان لها أجنحة (حتى تتمكن من الطيران به ولا شك) •

وأول ما انتشر في العرب من تلك الخيل التي يقال لها : « الخير » ، كان في جماعة من الأزد من أهل عمان الذين قدموا على سليمان بعد زواجه بلقيس ملكة سبأ • اذ لما سألوه زادا للعودة ، أعطاهم فرسا من خيله يصطادون عليه ، فسموه : « زاد الركب » • وعن الأزد اتخذها بنو تغلب ثم بكر بن وائل ثم بنو عامر • وهكذا تناسلت تلك الخيول في العرب وانتشرت وشهر منها خيل منسوبة الآباء والأمهات •

وعندما يذكر ابن الكلبي أسماء مشاهير خيل العرب في الجاهلية ، يعرض لبعض أخبار العرب وأيامها في الجاهلية • فأعوج كان سيد الخيل المشهورة ، وكان لملك من ملوك كندة غزا بني سليم عليه يوم علاف ، فهزموه ، وأخذوا الأعوج الذي آل الى بني هلال • وداحس كان من خيل غطفان وأبوه هو ذو العقال وأخته الخنفاء • أما الغبراء التي سميت بها وبداحس الحرب المشهورة بين عبس وذبيان ، فكانت خالة داحس ، وأخته لأبيه [1] • ويتضح من هذا العرض لأسماء الخيل أن بني أسد كان لهم نصيب الأسد في مشاهير الخيل عند العرب •

أما عن الشعراء الذين مدحوا الخيل وقدروا بلاءها في حروب العرب

(1) انظر ص ٢٤ — ٢٥ •

وأيامها ، فمنهم : قرابة الضبي ، وكلحبة اليربوعي ، ومالك بن نويرة ، والعائب الضبي ، والزبرقان بن بدر ، والأسود بن يعفر، وعامر بن الطفيل، وعنترة بن شداد العبسي وفرسه الأدهم ... الخ .

هذه الكتب تمثل نوع الادب التاريخي الذي عرفته المكتبة العربية القديمة في تاريخ العرب قبل الاسلام ، فعنها أخذ المتأخرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، كما فعل الطبري (توفي ٣١٠ هـ – ٩٢٢ م) ، بالنسبة للسابقين عليه ، في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، الذي لخصه وأضاف اليه ابن الأثير (توفي ٦٣٠ هـ – ١٢٣٣ م) في كتابه الكامل . ومثل هذه المعلومات نجدها في كتاب المسعودي (توفي ٣٤٦ هـ – ٩٥٦ م) مروج الذهب ، كما نجدها في تواريخ المتأخرين وموسوعاتهم ، مثل : مختصر أبي الفدا ، وعبر ابن خلدون ونهاية الارب للنويري ، ومسالك الابصار للعمري ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، وغيرها .

وقبل عرض بعض النماذج من هذه الكتب نلاحظ أن كتاب حمزة بن الحسن الأصفهاني (الذي دوّن في منتصف القرن الرابع الهجري – ١٠ م) استرعى اهتمام المستشرقين الذين كتبوا في تاريخ العرب القديم ، دون غيره ، كما فعل ده برسفال منذ قرن وربع قرن .

كتاب سني ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني (١) :

والحقيقة ان كتاب حمزة يتميز بطابعه العلمي الجاف ، اذا ما قورن بغيره من الكتب التي عرضناها . فهدف المؤلف ، كما يتضح من العنوان ، هو تسجيل التواريخ الخاصة بعهود الملوك وأعمال الدول – أولا وقبل كل شيء . فالكتاب من هذا الوجه ينطبق عليه مصطلح « تأريخ » أي توقيت (historiographie) قبل أن يكون « تاريخا » (histoire)

(١) ط. كاويائي – برلين .

ومع ذلك تزداد أهمية « سني ملوك الارض » بفضل المقارنات بين عهود الملوك والدول المختلفة ، وهو الأمر الذي اجتذب أنظار المحققين من المؤرخين المحدثين .

والكتاب يتناول التأريخ منذ « المبتدأ » أي منذ بدء الخليقة وحتى أيام المؤلف . والقسم الأول منه مما يتعلق بعصور ما قبل الاسلام هو الذي يهمنا . وفيه يعالج حمزة الاصفهاني تاريخ عمران الارض وتاريخ الدول القديمة ، من : البابليين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والبيزنطيين ، كما يعالج دول العرب ، في : اليمن ، الحيرة ، ونجد ثم الحجاز ، وذلك في ١٠ (عشرة) أبواب مقسمة الى ٢٧ فصلا : ٥ (خمسة) لكل من البابين الاولين في ملوك الفرس والروم وباب واحد لكل من اليونان والقبط والاسرائيليين واللخميين وغسان وحمير وكندة ثم ١٠ (عشرة) فصول في ملوك الاسلام من قريش .

ويتميز حمزة الاصفهاني بميزتين : أولاهما انه ايراني (موطنا على الأقل) فهو على دراية تامة بأحوال الفرس ، أخبارا ولغة ، وهو عالم مدقق – على قدر ما كانت تسمح به وسائل البحث على أيامه – يهتم باختيار مصادره ، كتبا كان أم رجالا – وهذا مما لفت اليه الانظار من غير شك . فهو لا يكتفي بالكتاب الواحد مما ترجم في تاريخ الفرس بل يجمع كل ما وقع بين يديه منها مما يوثق به ، ويقارن بينها ، ويحاول تفسير وجه الاختلاف فيها ، لكي يخرج بما يراه صحيحا من التواريخ . وهو يستخدم في مقارناته تاريخ اليونان الذي يبدأ بالاسكندرية والتاريخ السرياني الى جانب تاريخ الهجرة .

وفيما يتعلق بتاريخ البيزنطيين ينظر في بعض الكتب التي ترجمت الى العربية ولكنه يفضل عليها رواية رجل من الموالي الروم ممن كان في

خدمة بعض رجال الدولة ، والذي كان يحسن الرومية ولا يجيد العربية ، فكان ابنه الذي تربى في كنف العرب هو الذي يتولى الترجمة لحمزة . وهكذا اجتهد المؤلف في التحقيق ، حسبما تتطلبه أصول المنهج العلمي ، فجاء توقيته للاحداث متزنا أكثر من غيره ، مما جعل المستشرقين الاوائل يعتمدون عليها قبل غيرها ، كما فعل ده برسفال ، وذلك قبل اكتشاف النقوش العربية القديمة وتفسير خطوطها .

ويظهر اجتهاد حمزة بشكل خاص في تاريخ فارس والعراق القديم : فهو عندما يتحدث عن بداية العالم منذ آدم ومن خلفه من الانبياء يركز على التراث الفارسي ، فآدم يعادل عند الفرس كيومرت ، كما يضع كل نبي في عهد معاصره من ملوك ايران ، سواء كانوا من الدولة الاولى أو من ملوك الطوائف (الاشغانية) أو من الساسانيين . وملوك الحيرة الذين عاشوا (٦٢٣ سنة) وكذلك ملوك غسان الذين دام ملكهم (٦١٦ سنة) يقارنون بعهود معاصريهم في ايران وفي القسطنطينية ، ومثل هذا يقال عن تأريخه لليمن القديمة ، وان كان لا يصل الى مستوى تاريخ الفرس ومناذرة الحيرة وبني جفنة الغساسنة .

تاريخ الرسل والملوك للطبري (١) :

ويعالج الطبري (توفي ٣١٠ هـ — ٩٢٢ م) في تاريخه العام المعروف بتاريخ الرسل والملوك أو تاريخ الامم والملوك تاريخ الامم قبل الاسلام ، ومن بينها تاريخ العرب كمقدمة طبيعية لتاريخ دولة العرب الاسلامية . والطبري هو عمدة المؤرخين حتى عصره رغم أنه كان عالما فقيها قبل أن يكون مؤرخا : فهو صاحب مذهب معروف ، وأعظم أعماله هو تفسيره للقرآن المشهور بتفسير الطبري . وهكذا يكون الطبري قد

(١) ط . دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٠ .

اشتغل بالتاريخ كعلم مساعد لتفسير القرآن الذي يحوي قصص الانبياء والملوك القدامى ، كما يحوي اشارات الى كثير من الشعوب والقبائل والأديان ، وهي من موضوعات التاريخ القديم .

والطبري يعرض تاريخه في شكل حوليات ، ويجمع مادته على طريقة المحدثين وأهل السيرة في شكل روايات يؤيدها الاسناد، قويا كان أم ضعيفا دون تفضيل رواية على أخرى الا بالاشارة الى صحة الاسناد أو ضعفه ، مما يجعل من تاريخه مادة أولية يقع على عاتق المؤرخين دراستها لاستخلاص النتائج .

وفي التاريخ القديم وأحوال الأمم السابقة على الاسلام يبدأ الطبري بالكلام في الزمان ، وفي عمر العالم ، مما يشكل حاسة تاريخية ممتازة ، اذ لما كان الزمان هو الاطار الذي يحدد مجرى الاحداث فهذا يعني في ثناياه ان الاحداث متصلة لا تنفصل ، تبني المتأخرة منها على المتقدمة ، كما هو الحال بالنسبة للزمان أو الوقت . ثم يتحدث في « المبتدأ » (بداية العالم) من آدم وأولاده الى الأنبياء من نوح الى ابراهيم واسماعيل ومن عاصرهم من الأمم والملوك من العرب والعجم والاسرائيليين الذين يخصهم بفصول مطولة .

وبسبب منهجه في جمع الروايات على طريقة المحدثين مع الاسانيد ، ثم بفضل اهتمامه بمقارنة تواريخ الأنبياء والملوك بمعاصريهم في الأقاليم والامم الاخرى نلاحظ ان أخبار الموضوع الواحد تنقطع أوصالها وتظهر متناثرة في أكثر من مكان من الكتاب . فهو عندما يعالج ملوك اليمن يقارنهم بمن عاش ايامهم من ملوك فارس وكذلك الأمر بالنسبة لأخبار بني اسرائيل واليونان والروم ، وفي نزول عرب العراق بالحيرة والانبار ،

وفي العرب العاربة من طسم وجديس وغيرهاه وهو ينقل مادة من الاخباريين وأصحاب السير والمحدثين الأوائل ، مثل : عبد الله بن عباس (وله نصيب الأسد) ومولاه عكرمة ، وسفيان الثوري ، ومحمد بن عبد الحكم المصري ، والاوزاعي الشامي ، وابن اسحق صاحب السيرة ، وهشام بن محمد الكلبي [1] ، ووهب بن منبه [2] . أما روايته الخاصة فتأتي منسوبة اليه مباشرة ، بينما تنسب أخبار أخرى ، الى : ما زعمه اليهود ، وما قاله أهل الكتاب . ونظن ان الروايات التي سبقتها عبارة ، « وزعم بعضهم » ، أو « وقال آخرون » هي التي لم يرض عنها الفقيه الورع الذي يقول في نهاية مقدمته لتاريخه : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو لا يستسيغه سامعه ، من أجل انه لم يعرف له وجها في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا » [3] .

كتاب الكامل لابن الأثير (٤) :

من المعروف ان ابن الأثير (توفي ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٢ م) لخص في كتابه « الكامل في التاريخ » كتاب الطبري في أخبار الرسل والملوك ، على انه

---

(١) وله على سبيل المثال : اخبار في اليمن ، ج ١ ص ٤٤٢ ، وفي فارس، ص ٥٠٧ ، وفي بني اسرائيل ، ص ٥٣٨ ، ٥٩٠ ، وفي اخبار عرب الحيرة ، ص ٦٠٩ .

(٢) وله على سبيل المثال : اخبار في بني اسرائيل ، ج ١ ، ص ٤٣٣ ، ٤٥٧ ، ٥٤٨ ، وفي اليمن : بلقيس ، ص ٤٩٤ ، وفي حصون اليمن ، ص ٤٩٥ .

(٣) انظر : ج ١ ، ص ٨ .

(٤) ط . بيروت ، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

كان عمدة التواريخ بالنسبة للقرون الهجرية الثلاثة الاولى . وابن الأثير مؤرخ موهوب يعرف أصول التحقيق التاريخي ، وهو خبير في جمع المادة الصحيحة . وهو لذلك لا يكتفي بتلخيص الطبري فيرفع منه الاسناد الذي كان يثقل الرواية التاريخية ويقطع أوصالها بل انه عرف كيف ينتقي الروايات الموثوق بها منه ويستغني عن الفضول ، كما انه سد الثغرات التي وجدها في كتاب الطبري بمعلومات أحسن انتقاءها حتى صار كتابه هو الآخر من أهم مصادر التاريخ الاسلامي حتى بالنسبة لعصر صدر الاسلام الاول ، وبالنسبة لكل الأقطار في المشرق وفي المغرب على السواء .

وابن الأثير يعرف قدر كتابه فيقول : « قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ، ومن تأمله علم صحة ذلك » [1] ، كما يشير الى تلخيصه للتاريخ الكبير للامام أبي جعفر الطبري ، وكيف عدّله بالنقصان والزيادة « الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله (ص) ، فاني لم أضف الى ما نقله ابو جعفر شيئا ... » [2] .

ويبدأ ابن الأثير كتابه بقصة وضع التاريخ الهجري على أيام عمر بن الخطاب ، ثم يلخص الطبري ابتداء من « القول في الزمان » ، وابتداء الخلق ، وآدم وبنيه ، والرسل من نوح الى اسماعيل ، وتاريخ الفرس ، وأخبار ملوك الروم قبل المسيح وبعده ، والعرب وعلاقاتهم بهؤلاء الملوك، ويرتب أيام العرب بطريقة تجعل من السهل تناولها ، وهو الامر الذي كان من الصعوبة بمكان في كتاب الطبري ، مثل : يوم خزاز ، وعين أباغ ، ومرج حليمة ، وأيام أواره ، وحروب الفجار ، ويوم بعاث ، مما يسمح له بنسبة هذا التلخيص الواضح الى نفسه .

---

(١) انظر مقدمة الكتاب ، ج ١ ، ص ٣ .

(٢) نفس الصفحة .

كتاب مروج الذهب للمسعودي [1] :

يعتبر كتاب مروج الذهب للمسعودي (توفي ٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) من المصادر الاساسية بالنسبة لتاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك بفضل ما كتبه في تاريخ العالم القديم وفي العرب قبل الاسلام مما يستغرق حوالي ٧٥٠ صفحة ، هي كل الجزء الأول ومعظم الثاني • والمسعودي عالم كبير ورحالة نشيط جاب معظم المشرق الاسلامي من الصين الى مصر ، وهو لذلك لا يكتفي بالنقل بل يقدم لنا معلومات الخبير شاهد العيان • ويتميز كتاب المسعودي بالمقدمة الجغرافية التي عرف فيها بالبلاد وبأثر البيئة على الانسان والحيوان والنبات ، وهو الامر المهم بالنسبة للمؤرخ الحديث ، فالتاريخ في شكله البسيط هو : تسجيل الاحداث المتعلقة بالانسان في مكان معين وفي زمان محدد • وميزة أخرى انفرد بها المسعودي دون غيره من كبار المؤرخين ، وهي انه لم يهتم بتاريخ الملوك وكبار الرجال فقط ، بل اهتم بأحوال الناس والجماعات بشكل عام • فهو لا يركز على التاريخ السياسي بل يسجل أنواعا من النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها ، فكأنه فهم التاريخ في شكل حضارة أي على انه تفاعل عدد عديد من العوامل البيئية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والنفسية أيضا • فهو من هذا الوجه استاذ ابن خلدون ، ولا شك ان مقدمة مروج الذهب التي تعتبر خلاصة لمعارفه ، كما يشير المسعودي الى ذلك في مقدمته [2] هي التي أوحت الى ابن خلدون بكتابة مقدمته الفريدة ، وهذا ما يكاد يقوله المؤرخ المغربي الكبير في حديثه عن المسعودي [3] •

---

(١) تحقيق يوسف داغر ، ط. بيروت .

(٢) انظر : ج ١ ، ص ١٨ — ١٩

(٣) انظر المقدمة ، الفصل : فيما يعرض للمؤرخين من المغالط .

ويبدأ المسعودي تاريخه، كما فعل الطبري بذكر المبدأ وشأن الخليقة، من آدم وبنيه ، ومن أتى بعده من الأنبياء من نوح الى ابراهيم ، وأخبار الشعوب البائدة ، مثل : طسم وجديس وعمليق ، قبل أن يركز على بني اسرائيل ، الذين يرتبط تاريخهم بتاريخ اليمن عن طريق سليمان ، كما يرتبط بتاريخ العراق بفضل بختنصر • وبصرف النظر عن أخباره في الهند والصين والترك وأخبار ملوكهم وعاداتهم ، فانه يقسم ملوك العالم القديم الى عشر طوائف ، هم ملوك : السريان ، الموصل ونينوى ، بابل ، الفرس الاولى ، ملوك الطوائف ، الفرس الثانية ، اليونان ، الروم ، العرب وأخيرا السودان (وبضمنهم مصر والاسكندرية) [1] • وهو يعالج تاريخ كل مملكة أو أمة من هذه الأمم ولا يكتفي بالتاريخ السياسي ، كما سبقت الاشارة ، بل يعالج كثيرا من موضوعات العمران منها : الجنس والزراعة والتجارة والعلم والدين ونظم الحكم •

فهو يجيد معرفة أخبار الفرس ابتداء من أول ملوكهم كيومرث الذي يعادل آدم عندهم الى جمشيد وبيوراسب وافريدون ، وايران وابنه منوجهر ••• الخ • وهو ينقل عن عمر المعروف بكسرى لشهرته بعلم فارس وأخبار ملوكها • وفي ثنايا ملوك الطوائف يأتي ذكر لملوك العرب من مضر وربيعه وانمار واليمن [2] ، وعلى أيام الساسانيين يتحدث عن علاقاتهم بالعرب [3] •

وفي تاريخ اليونان يشير الى علاقات البطالمة والسلوقيين بالشام ،

---

(١) انظر : ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٢) انظر : ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : ج ١ ص ٢٦٥ ، ص ٢٧٩ وما بعدها ، ص ٣٠٦ وما بعدها .

وكذلك الحال بالنسبة للرومان ثم البيزنطيين • وفي تاريخ مصر القديم يشير أيضا الى العلاقات ببلاد الشام [١] • وفي تاريخ السودان يشير الى علاقة الحبشة باليمن [٢] وفي تاريخ العرب [٣] يبدأ بالعرب البائدة من عاد وثمود ، ثم أخبار مكة والبيت الحرام من لدن اسماعيل ، وفيه أخبار جرهم وبني مضاض ، وعبادة التماثيل والنسيء • قبل أن يتحدث في قريش [٤] • وبعد ذلك تأتي أخبار اليمن من الملوك والتبابعة [٥] الى غزو الحبشة البلاد [٦] ثم محاولة غزو مكة والعلاقة بفارس • وفي تاريخ اليمن يلخص المسعودي رواية عبيد بن شرية [٧] • ويلخص المسعودي تاريخ الحيرة بعد ذلك تلخيصا جيدا تظهر فيه وحدة الموضوع وتثبت المؤلف منه [٨] ، ويتبع ذلك بتاريخ الغساسنة في الشام [٩] • وأخيرا تأتي أخبار البوادي من العرب «الباقية»[١٠] وأيامها ووقائعها وحروبها ودياناتها وعاداتها وتقاليدها وأساطيرها • فهو يتكلم ، في : النفس ، والهام ، والغول ، والسعلاة ، والشياطين ، والهواتف ، والجان ، والقيافة ، والعيافة ، والزجر ، والعرافة ، والكهانة ، والرؤيا ، ••• الخ •

(١) انظر : ج ١ ، ص ٣٩٧ وما بعدها .
(٢) انظر : ج ١ ص ٤٣٨ .
(٣) ج ٢ ، ص ١١ .
(٤) ج ٢ ، ص ٣١ وما بعدها .
(٥) ج ٢ ، ص ٤٨ وما بعدها .
(٦) ج ٢ ص ٥٢ وما بعدها .
(٧) انظر : ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها .
(٨) ج ٢ ، ص ٦٥ — ٨١ .
(٩) ج ٢ ، ص ٨٢ — ٨٦ .
(١٠) ج ٢ ، ص ٨٧ وما بعدها .

والمسعودي لا يذكر مصادره في معظم الاحيان ، وهو فيما يتعلق بأخبار العرب يذكر أحيانا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، ووهب بن منبه ، ومحمد بن اسحق صاحب السيرة الذين يذكرهم في المقدمة ، كما يثني على الطبري [١] •

أما أهم ما ينبغي الاشارة اليه فهو ان المسعودي مؤرخ عبقري موهوب ، فهو لا يكتفي بالنقل بل يمارس النقد ويعمل الفكر والعقل ، وهو لذلك ، عندما يقدم الروايات التي قد لا تكون مستساغة من حيث العقل أو من حيث ما هو متعارف عليه من المفاهيم الدينية ، يشير بعقل راجح وضمير حي الى انه انما يحكي هذه الاخبار حسب ما وجده في كتب الاخباريين ، « وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها ، وليس قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم لانهم ينكرون هذا ويمنعونه ••• » [٢] •

كتاب العبر لابن خلدون (ج ٢) :

ويكاد ابن خلدون (توفي ٨٠٨ هـ — ١٤٠٦ م) يلخص كل ما كتبه قدامى الكتاب من المشارقة في الجزء الثاني من كتاب العبر ، وهو الجزء الاول من تاريخه الذي يعقب المقدمة ، الى جانب ما يضيفه اليها مما نقله من نسابة الأندلس والمغرب ، مثل : ابن حزم وابن سعيد •

وابن خلدون يجعل عنوان هذا الجزء : « في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد » ، ويقدم له بمقدمتين ، الاولى منهما : « في أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة في

(١) المقدمة ، ج ١ ، ص ٢٣ .
(٢) ج ٢ ، ص ٥٠ .

أنسابهم » . والثانية : « في كيفية وضع الانساب في كتابنا لأهل الدول وغيرهم » ، وذلك أن ابن خلدون انفرد دون غيره من الكتاب برسم الأنساب في كل منها في هيئة « شجرة نسب » تلخصها في شكل مبسط يرتسم بسهولة في الخاطر .

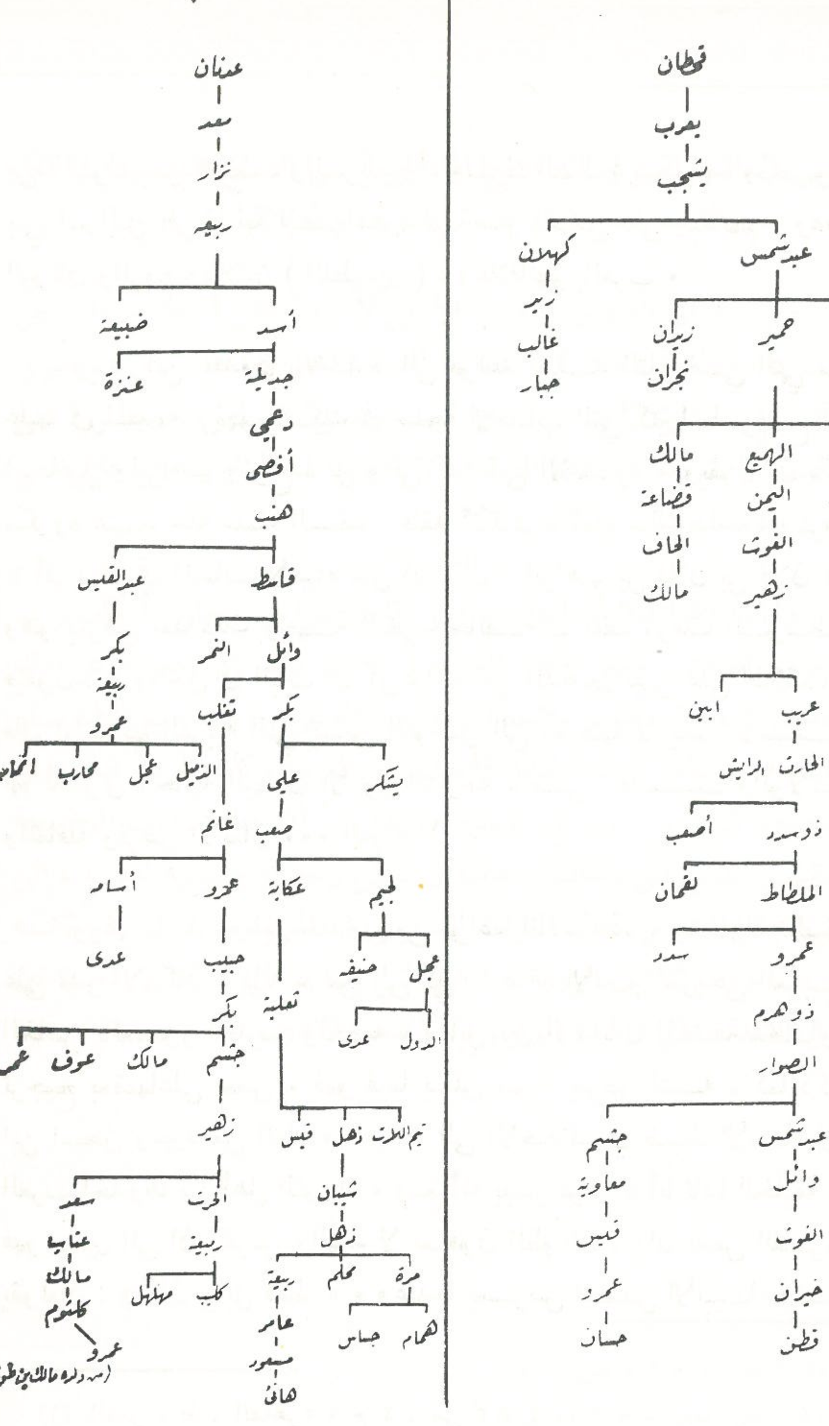
ودول العرب السابقة على الاسلام ــ حسب خطة ابن خلدون ــ مقسمة الى ثلاث طبقات :

١ ــ الطبقة الاولى ، وهم : العرب العاربة أو العمالقة ، من : عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت ، ويتلو ذلك الخبر عن ابراهيم أبي الأنبياء وبنيه .

٢ ــ الطبقة الثانية : وهم : العرب المستعربة ، ويدخل بضمنهم اليمنية أو السبائية ، وبذلك يدخل في هذه الطبقة ملوك التبابعة من حمير ، وملك الحبشة لليمن ، وغزو الحبشة للكعبة ... الخ .

٣ ــ الطبقة الثالثة ، وهم : العرب التابعة للعرب ، بين : العرب البادية أهل الخيام « الذين لا أغلاق لهم » ، من : العدنانية والمعدية (والقحطانية وقضاعة) ، وتفرقهم في البلاد بعد غزو بختنصر لهم وفيه يعرض لتاريخ حمير ، وقضاعة ، وكهلان . ويدخل في هذه الطبقة ملوك الحيرة من آل المنذر وملوك طيء ، وكذلك ملوك يثرب من الأوس والخزرج أبناء قيلة ، والخبر عن عدنان ومضر وخندف ، وأخيرا قريش التي تصل كل ذلك بظهور الاسلام .

فأهل هذه الطبقة الثالثة من العرب هم الذين سيجتمعون على الاسلام ويقومون بتكوين الدولة العربية الاسلامية . وخلال تقسيم العرب الى هذه الطبقات الثلاث يسجل ابن خلدون تواريخ دول العجم المعاصرة



(٢) شجرة أنساب العرب من القحطانية والعدنانية

ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٤٩ ، ص ٣٠٤ .

من : ملوك بابل النبط ، والسريانيين ، وملوك القبط (بمصر) ، وأحـوال بني اسرائيل الى بداية النصرانية ، ثم أخبار الفرس على طبقاتهم ، ودول اليونان والروم واللاتين (اللطينيين) ، وعلاقاتهم بالعرب •

ويبدأ ابن خلدون بالاشارة الى قواعد النقـد التاريخـي التي نبّه عليها في المقدمة ، فهو يشكك في صحة الأنساب التي كثيرا ما ترفـع الى اسماعيل وابراهيم ونوح ، بل والى آدم أبي الانسانية • ويقول ان ذلك مكروه عنـد جلة علماء السلف ، فلقد أنكـر الامام مالك ذلك ، وكره : « أن يرفع في أنساب الأنبياء مثل أن يقال : ابراهيم بن فلان بن فلان » ، وهو يعرض بعد ذلك وجهـة النظر المخالفـة ثم يقف موقف الـوسط ، فيقول : « والحق في الباب ان كل واحد من المذهبين ليس على اطلاقـه ، فان الأنساب القريبة التي يمكن التوصل الى معرفتها لا يضر الاشتغـال بها لدعوى الحاجة اليها في الأمور الشرعية ، مـن : التعصيب والولايـة والعاقلة وفرض الايمان ••• الخ » (١) •

ورغم ما يقرره ابن خلدون من قواعد النقد هذه ، ومحاولة تطبيقها على قدر الامكان ، فانه عرض الى كل ما عرفه الأدب التاريخي العربـي الخاص بالعصور القديمة ولخصه ، وقابل بين الروايات المختلفة محـاولا ترجيح بعضهاعلى بعض • فهو فيما يتعلق بنوح يعرض لنسبه ، كما ذكره ابن اسحق وغيره من العلماء ، وينبه الى الاختلاف في ضبط الأسماء لأن العرب أخذوها من أهل التوراة • ومع أنه يعتبر نوحا « أبا ثانيا للخليقة »، فهو يشير الى ان الفرس والهند لا يعرفون الطوفان ، وان بعض الفـرس يقولون : « كان ببابل فقط » • وعندما يعـرض لقصص الأنبيـاء ونسب

---

(١) العبر ، ط. القاهرة ، ج ٢ ، ص ٣ ، ٤ •

موسى في التوراة يرى انه يصح اذا أخـذ من النسخ الصحيحة والنقل المعتبر ، فهو لا يشكك الا في تفاسير التوراة وتأويلاتها (١) •

وفيما يتعلق بالعصور العربية الأولى لا يعول على أساطـير القصص وكتب بدء الخيلقة ، وان كان منها ما ألفه مشاهير العلماء ، مثل : الطبري والكسائي ، وذلك لأنهم : « نحوا فيها منحـى القصاص ، وجـروا على أساليبهم ، ولم يلتزموا فيها الصحة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها ، فلا ينبغي التعول عليها ، وتترك وشأنها » (٢) •

ولكنه نظرا لكثرة الروايات التي كانت تتزايد ــ على ما يظهـر ــ مع مرور الوقت ، ومع اجتهاد العلماء في تقديم معلومات جديدة عن تلك الأحداث البعيدة ، تنغمر ملاحظات مؤرخنا العبقري وسط سيل الأخبـار المتضاربة ، ويظهر تأريخه لهذه الأجيال من العرب وكأنه تاريخ تقليـدي لا يختلف كثيرا عن تواريخ سابقيه • هذا ولو أن خطة الكتاب الواضحة في تقسيم العرب الى طبقات : قديمة ووسطى وحديثة بالنسبة لعصره ، الى حانب جمعه الشامل لمعظم التراث العـربي في الموضوع ، ثم ملاحظاتـه النقدية ، ومقابلاته بين الروايات ، هي التي سهلت على الباحثين المحـدثين سبيل الاقدام على دراسة الموضوع ، العسير التناول •

---

(١) العبر ، ج ٢ ، ص ٦ •

(٢) انظر العبر ، ج ٢ ، ص ٨ •

الفصل الثاني

البلاد والسكان

البلاد : طبيعتها ومسمياتها :

لما كانت التغيرات الطبيعية التي تطرأ على البيئة من حيث شكل الأرض وأحوال المناخ تتم بطريقة بطيئة ، غير محسوسة عبر الأجيال ، نلاحظ انأحوال بلاد العرب الجغرافية ، كما سجلها الكتاب نتيجة لمشاهداتهم منذ القرون الاسلامية الاولى لا تختلف (كثيرا) عما كتبه الرحالة الأوروبيون عن بلاد العرب في العصور الحديثة ، وعما نجده في كتب الجغرافية المتداولة بين أيدينا الآن • وهكذا ، فاذا كانت طبيعة البلاد لم تتغير بشكل محسوس منذ أكثر من ألف سنة ، أي منذ ظهور الاسلام ، فانه يمكن القول ــ بشيء من الاطمئنان ــ أن طبيعة البلاد لم تكن تختلف كثيرا في ذلك الحين عما كانت عليه في الألف سنة أو في الألفي سنة السابقة على الاسلام ، كما يقضي القياس أو سلامة المقارنة •

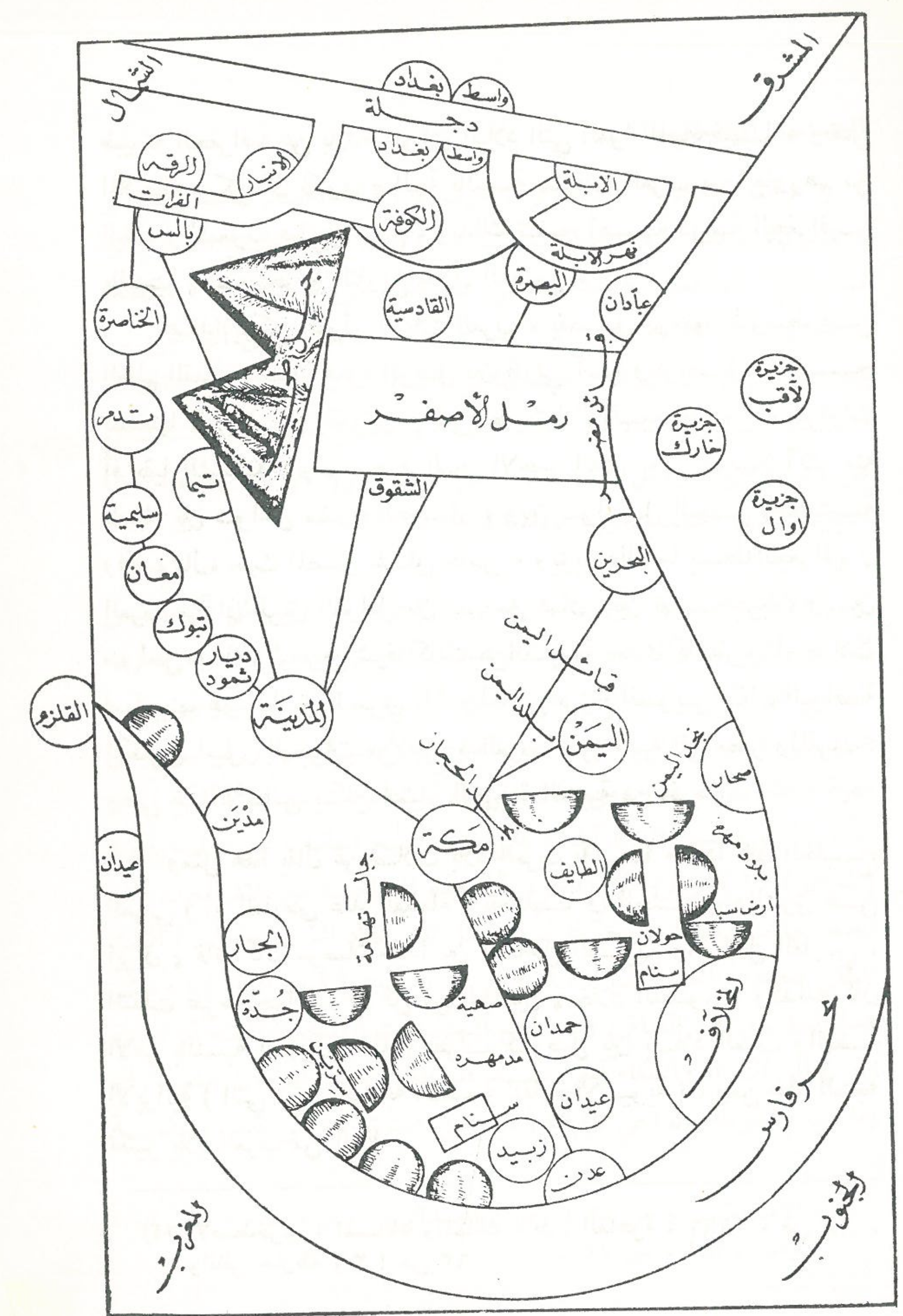
حقيقة ان الروايات العربية القديمة تتحدث عن تغيرات طبيعة عنيفة ألمت بالبلاد واتنهت بهلاك عدد من الشعوب أو الأجيال التي عاشت في البلاد قديما ، كما تتحدث كتب الجغرافيين والرحالة القدماء من اليونان

والرومان عن موارد للمياه لم تعد موجودة الآن في صحراوات الجزيرة • وأغلب الظن أن كثيرا مما يشيرون اليه لم يكن الا تطورات طبيعية طارئـة من عوارض الطبيعة وكوارثها المتادة ، من : الزلازل والعواصف والسيول وغيرها• أما عن الاشارة الى منطقة كانت خصبة فصارت قاحلة أو اقليم عرف بجدبه أصبح خصبا ، فهذا يمكن ارجاعه ــ في كثير من الاحوال ــ الـى طبيعة العلاقة بين الارض والانسان • فالمجهود البشري في استغلال الارض وما في باطنها من المياه ، وخاصة عندما يكون الجهد مكثفا ، يمكن أن يكون له أثره فيما يتعلق بالخصوبة والجدب ، وهذا ما سجلته كتب التاريـخ قديما ، وهذا ما يشاهد في كثير من البلاد على أيامنا هذه •

واذا كان الأمـر كذلك فلا بأس من الرجـوع الى كتب الجغرافية العربية الى جانب المصادر التاريخية ، التي سبقت الاشارة اليها ، في التعريف بالاحوال الجغرافية كمقدمة للموضوع ، تهدف الى بيان أثر البيئة في مسار التاريخ ، أو الى القاء الضوء على العلاقة بين الانسان والمكان •

الموقـــع :

تقع شبه جزيرة العرب وسط سلسلـة الصحراوات التـي تمتـد كالحزام حول العالم القديم ، نحو الغرب عبر النيل في الشمال الافريقـي فيما يعرف بالصحراء الكبرى ، ونحو الشرق عبر سهول دجلة والفـرات وخلال الهضبة الايرانية الى بلاد التركستان وصحراوات آسيا الوسطـى في التبت وغوبي • وهذا الأمـر له أهميته فيما يتعلـق بتاريخ العـرب والاسلام ، اذ على أساسه فسر بعض الباحثين طبيعة التوسع العـربي في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، في شكل أفقي من اسبانيا الى التركستان ، بمعنى ان العرب توسعوا خلال هذا الحزام الارضي لانه لا يختلف كثيرا في



(٣) صورة ديـار العرب للاصطخري

خارطة رقم ١٦ من كتاب العراق والخوارط القديمة ــ جمع وتحقيق أحمد سوسه

طبيعته الجغرافية عن بلادهم ، أي البلاد التي ألفوا الحياة فيها • ونفس الملاحظة يمكن أن تكون صالحة بالنسبة لعلاقات العرب بمن جاورهم من البلاد والشعوب قبل الاسلام ، وبذلك تتضح أهمية دراسة الجغرافية بالنسبة لتفسير حركة التاريخ خلال العصور •

هكذا يمكن القول ان بلاد العرب ، بفضل موقعها المتوسط من العالم القديم ، تمثل همزة الوصل بين قارتي آسيا وافريقيا مما يسمح بنسبتها الى كل من القارتين • فهي بطبيعتها الاقليمية جزء من صحراوات أفريقيا الشمالية ، رغم وجود البحر الاحمر الذي يعتبر موصلا أكثر منه فاصلا بين سواحل مصر والحجاز ، وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال، حيث المضيق بشكل خاص • ويؤيد ذلك ما يسجله الجغرافيون العرب من ان طريق القوافل بين سواحل عمان وبين تهامة غربا ، وبين سواحل عمان والبحرين شرقا كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري [1] • أما عن برزخ السويس فكان البوابة الكبرى لعبور الهجرات من جزيرة العرب ومن آسيا الى مصر والمغرب ، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الجزيرة العربية من أفريقيا •

ومثل هذا يقال عن صلات بلاد العرب بآسيا • فاذا كان الخليج العربي (أو الفارسي عند القدماء) يفصلها في الجنوب والشرق عن ايران ، فانه كان موصلا جيدا بين الساحل العربي والساحل الفارسي ، انتقلت عبره الجماعات في كل من الجانبين ، خلال العصور • وكذلك كان الامر بالنسبة لسهول دجلة والفرات كموصل بين بلاد العرب والهضبة الايرانية (التي تعتبر البداية الطبيعية للقارة الآسيوية) ، ومن هذا الوجه تعتبر بلاد العرب من آسيا •

(١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ط. القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٨ • وأنظر خارطة (٣) ص ٦٣ •

الحدود الاقليمية :

عرفت البلاد باسم « جزيرة العرب » ، وقد تختصر التسمية الى « الجزيرة » فقط ، من باب التسهيل • وذلك كان منطق العرب في تسمياتهم ، كما فعلوا بالاندلس التي سموها « جزيرة الاندلس » وكذلك « الجزيرة » • هذا ولو أن من الجغرافيين العرب من رأى أنها جزيرة فعلا على أساس ان الفرات يحيط بها من الشمال الى ان تتصل روافده الشمالية الغربية أو تكاد بسواحل الشام ، وبذلك يكون حدها الشمالي من الغرب هي سواحل بلاد الشام التي تسير جنوبا الى أن تختلط بمياه النيل ، الذي يختلط بدوره بمياه القلزم جنوبا •

والحقيقة ان بلاد العرب شبه جزيرة تحدها المياه بشكل أكيد من الشرق والجنوب والغرب : من : « عبادان » حيث مصب دجلة على طرف الخليج العربي الى « عمان » على مدخل الخليج ـ مرورا بالبحرين • ومن عمان الى « عدن » على مدخل بحر القلزم (الأحمر) ـ مرورا بسواحل مهرة وحضرموت ـ ، ومن عدن على طول امتداد سواحل اليمن ، عبر جدة والجار ومدين الى « أيلة » على طرف خليج العقبة ، عبر « تاران » (ثيران) [1] • ويقرر الاصطخري أن هذه المساحة من بلاد العرب التي تحيط بها مياه البحار (بحر فارس) تمثل ثلثي بلاد العرب • وأما الثلث الباقي فحدوده الغربية من « أيلة » الى « بالس » (قرب الرقة) ، ويعتبر هذا الحد من بلاد الشام ، ويمر على البحر الميت (البحيرة المنتنة أو بحيرة زغر) الى الشراة والبلقاء (من عمل فلسطين) ، الى أذرعات وحوران والبثنية والغوطة ونواحي بعلبك (من عمل دمشق) ، الى تدمر وسلمية

(١) الاصطخري ، ص ٢٠ ، وقارن الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ليدن ١٨٨٤ ، ص ٤٧ •

(من عمل حمص) ، ومن هناك الى الخناصرة وبالس (من عمل قنسرين) عند الفرات •

وفيما يتعلق بالحدود الشمالية ، فهي تمتد من بالس الى عبادان على طول الفرات الذي يحيط بديار العرب من بالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة والحديثة وهيت والأنبار ، الى الكوفة وبطائح الفرات والحيرة ، الى واسط قرب دجلة ثم الى البصرة حتى عبادان حيث ينتهي [1] •

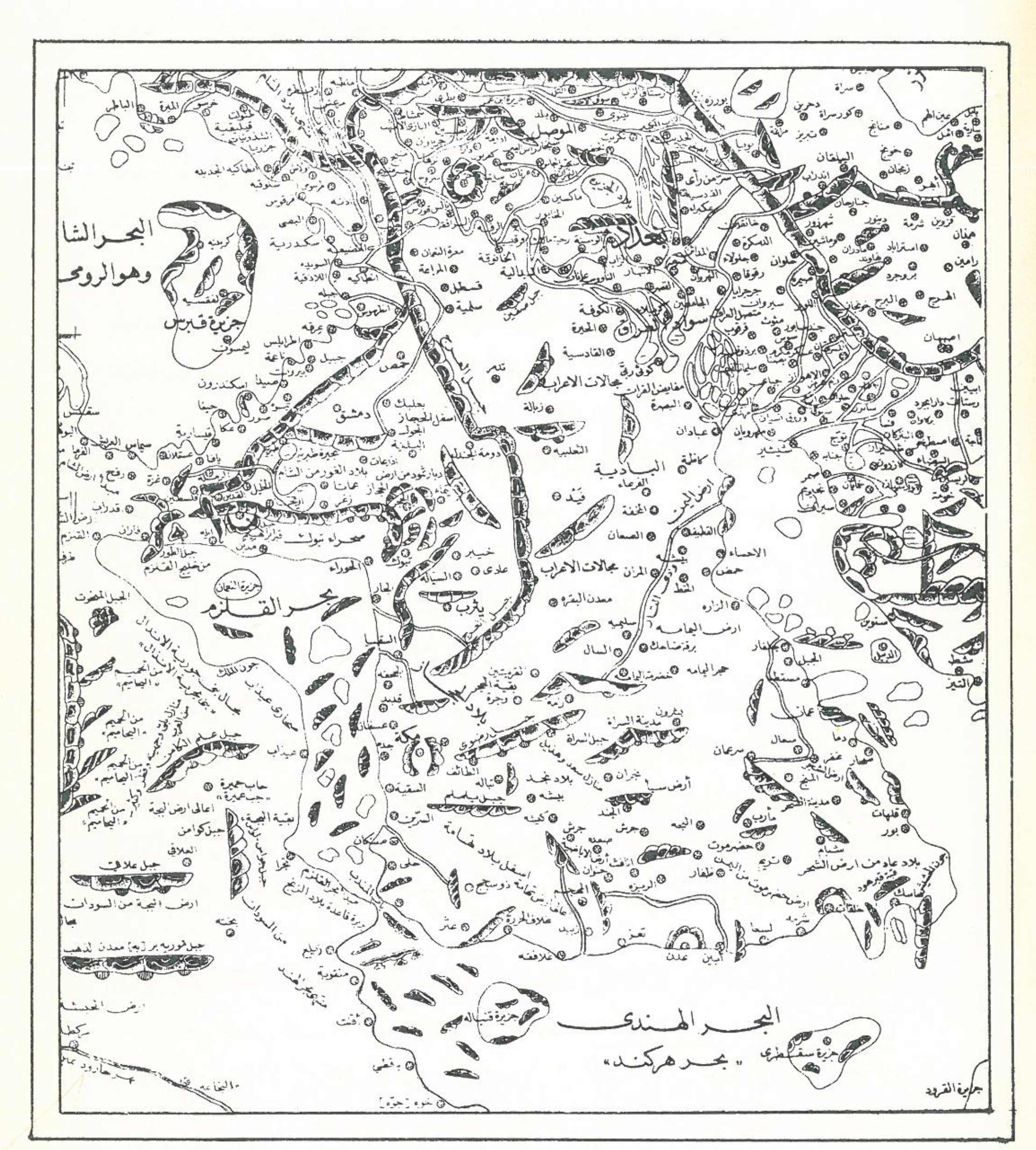
وهكذا يحد البحر بلاد العرب من ناحية الشرق والجنوب وبعض الغرب حتى أيلة على نهاية خليج العقبة • وبعد ذلك تتداخل بقية حدودها الغربية مع الشام ، حيث الاقليم من أيلة الى بالس يعتبر من الشام • وتتداخل الحدود الشمالية مع الجزيرة فيما بين بالس والأنبار ثم مع العراق فيما بين الأنبار وعبادان • ولا يرى الاصطخري ادخال سيناء التي يسميها برية أيلة والتي تعرف بتيه بني اسرائيل ، في بلاد العرب ، رغم اتصالها بها لموقعها « بين أرض العمالقة واليونانية وأرض القبط » • كما يرى أيضا استثناء بلاد الجزيرة شمالا لأن من بها من العرب خضعوا للروم والفرس ، وبعضهم تنصر [2] ، وهو نفس الوضع الذي كان عليه ذلك الاقليم قبل الاسلام •

التقسيمات الطبيعية ومسمياتها :

بلاد العرب تمثل في كتلتها الرئيسية هضبة تنحدر بلطف من الغرب الى الشرق نحو الخليج وسهول الفرات • وتقسمها سلسلة الجبال المعروفة

---

(١) الاصطخري ، ص ٢٠ •
(٢) الاصطخري ، ص ٢٠ •



(٤) خارطة الجزيرة العربية (وما حواليها) للادريسي

من خارطة رقم ٣٠ من كتاب العراق في الخوارط القديمة
جمع وتحقيق احمد سوسه

باسم السراة (لاستوائها وارتفاعها كسراة الفرس أي ظهره) [1] والتي تسير محاذية للبحر الاحمر ، من أعلى اليمن الى أسفل الشام ، الى قسمين : نجد بمعنى المرتفع (والجمع نجاد)، وهو الهضبة الوسطى المنحدرة نحو الشرق ، والحجاز بمعنى الحاجز أو السد (لانه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر) ، وهو الاقليم الغربي ويشمل جبال السراة (وعرضه أربعة ايام) ، وما يليها غربا من السهل الساحلي الذي يعرف بتهامة بمعنى الارض السهلة أو الواطئة ، كما تعرف الارض الاكثر انخفاضا منها باسم الغور (والجمع أغوار) [2] •

وبالنسبة لنجد والحجاز استعمل العرب في العصر الجاهلي الفعل أنجد بمعنى ذهب الى نجد ، والفعل انحجز واحتجز بمعنى سار الى الحجاز ، مما يستنتج منه ان التسمية سابقة على الاسلام ، رغم الاختلاف في تحديد مدى كل من الاقليمين وقتئذ [3] • وتظهر الحدود غير واضحة أيضا في العصور الاسلامية الاولى ، فقد كان لليمن نجدها شمالا وللحجاز نجده جنوبا [4] • وبلغ الامر الى حد الاختلاف في عاصمتي الحجاز الكبيرتين : فرأى البعض ان المدينة من نجد لقربها منها ، وان مكة من تهامة اليمن [5] • هذا ، ورغم ان المعروف هو ان تهامة تعني الارض السهلة ، فالظاهر ان تهامة اليمن اختلطت بنجد الجنوبية حتى وصفت بأنها جبال مشتبكة تمتد الى نواحي نجران • والمعروف ان الحجاز يمتد

---

(١) عن معنى السراة لغويا أنظر شرح المعلقات للزوزني ، هامش ١ ص ٤٦ في وصف امرىء القيس للفرس : « كأن سراته لدى البيت قائما ».
(٢) أنظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٧ .
(٣) أنظر لامانس ، مهد الاسلام ، بالفرنسية .
(٤) الاصخري ، ص ٢٧ .
(٥) الاصطخري ، ص ٢١ .

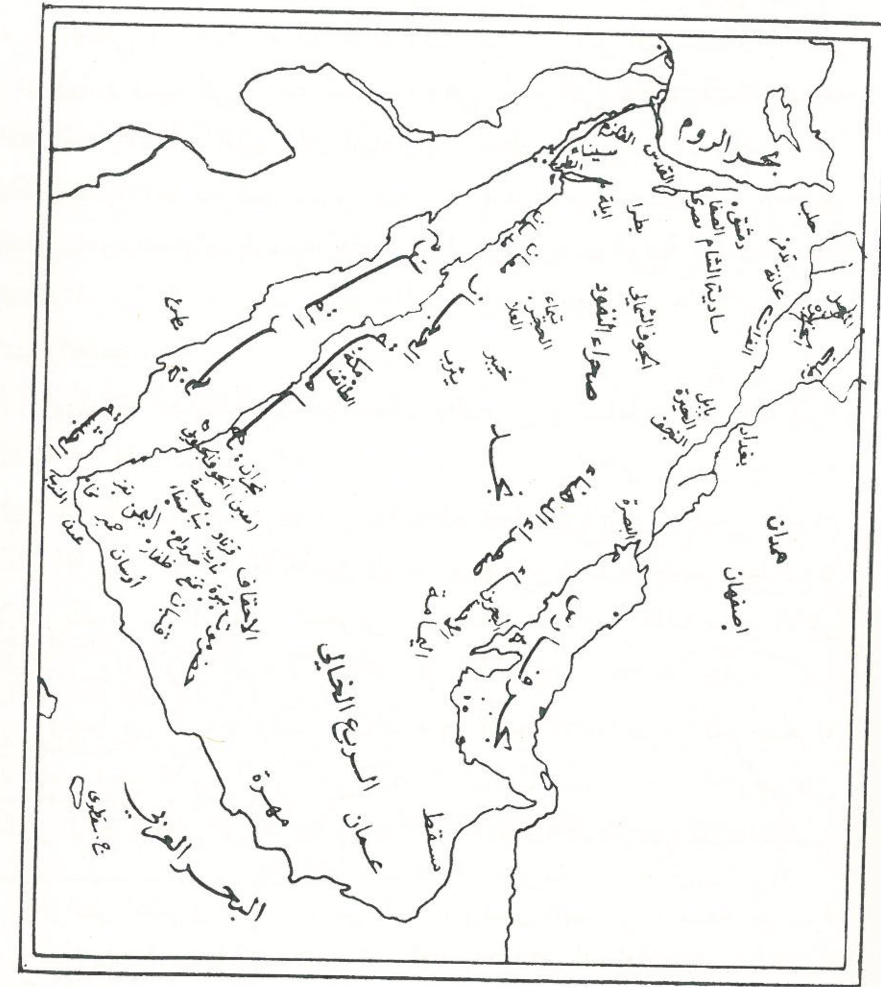
من جنوبي الطائف ومكة الى ما بعد تبوك وتيماء في الشمال بثلاثة ايام ، حيث تبدأ مشارف بلاد الشام [1] •

وبعد نجد والحجاز تأتي بلاد اليمن التي تقع في جنوبي الحجاز ، وله تهامته أي اقليمه الساحلي الذي قد يمتد شمالا حتى يختلط بتهامة الحجاز شمالي سواحل نجران التي تعتبر أول الاقاليم اليمنية جنوبي الحجاز ، وقد تصل الى سمت مكة • أما اليمن الحقيقية فهي التي تشغل الاقليم الجبلي في ركن جزيرة العرب الجنوبي الغربي على سواحل كل من البحر الاحمر (القلزم أو بحر عدن أو خليج الحبشة) وسواحل بحر العرب ، وكان كلا البحرين يعرفان مع خليج العرب باسم بحر فارس [2] بمعنى المحيط الهندي •

أما عن تسمية بلاد اليمن فقد اختلف في تفسيرها فقيل انها نسبة الى اول من قطنها من العرب ، وهو يعرب الذي قال له والده قحطان انت أيمن ولدي [3] — وذلك حسب القاعدة التي اتخذها العرب في تفسير أسماء الأشخاص والأماكن ، والتي استند اليها علم الأنساب • وقيل انها من اليمن مباشرة بمعنى الخير أو البركة على أساس انها اخصب بلاد العرب ، ولذا سماها الهمداني باليمن الخضراء [4] ، مثلما فعل الجغرافيون القدماء من الرومان الذي سموها بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) وهناك تفسير آخر يقول انها سميت اليمن، نسبة الى اتجاه اليمين — وذلك بالنسبة لمن يتجه من مكة الى الشام • ونحن نميل الى الاخذ بهذا الرأي

---

(١) الاصطخري ، ص ٢٥ . وقارن خريطة الادريسي (٤) ص ٦٧ .
(٢) الاصطخري ، ص ٢٠ .
(٣) آنظر الهمداني ، التيجان ، ص ٣٢ ، ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
(٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ .



(٥) جزيرة العرب : الاقاليم والبلاد

على اساس ان اتجاه اليمين يكون في هذا الحال عكس اتجاه الشمال الذي تمثله بلاد الشام . فتصبح اليمن بمعنى البلاد الجنوبية ، كما كانت الشام تعنى البلاد الشمالية [١] .

والمهم في كل هذا ان النقوش الاثرية أكدت ان التسمية ترجع الى عصور قديمة قبل الاسلام ، اذ يظهر اسم « يمنت » الـى جـانـب اسم « حضرموت » الواقع الى الشرق منها ، كما سيأتي في تاريخ اليمن القديم. والاقليم الداخلي من حضرموت الذي يوصف بان به رمال كثيرة في شكل تلول يعرف بالاحقاف [٢] . والى الشرق من حضرموت تقع بلاد مهرة التي عرفت أيضا باسم مدينتها « الشحر » ، وتوصف بانها قفرة لا نخيل بها ، ولذلك كانت ثروة اهلها الابل . ويختلط هذا الاقليم بعمان حتى اعتبر من بلادها . وتأتي بعد ذلك عمان في الركن الجنوبي الشرقي على مدخل الخليج ، وهي بلاد غنية بالنخيل والزراعة ، وعاصمتها مدينة « صحار » البحريـة [٣] .

والاقليم الواقع على ساحل البحر ما بين عمان ومصب دجلة عنـد عبادان والبصرة ، فهو البحرين . والجزء الجنوبي منه عرف باسم الاحساء (مفردها الحسا) ، وهو يعني الأرض الرملية التي تحوي الماء في باطنها على عمق قليل ، وهي لذلك عرفت بكثرة نخيلها [٤] . وقد يعرف اقليم البحرين عند

---

(١) الهمداني ، الاكليل ، ج ١ (ليدن) ص ٤٦ ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣٠ ، ص ١٥٤ (رياح الجنوب من اليمن ويقابلها الشمال من قصد الشام) ، وانظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣ (اليمن : يمين الكعبة ، والشام : شمال الكعبة) .

(٢) الاصطخري ، ص ٢٦ . مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) الاصطخري ، ص ٢٧ .

(٤) انظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ .

بعض الجغرافيين العرب باسم عاصمته مدينة « هجر » التي ضرب بها المثل في كثرة التمر حتى قيل لناقل الشيء الى البلد الذي لا ينفق فيه : « كمن حمل التمر الى هجر » .

واليمامة تقع في جنوب نجد ، يفصلها عن عمان والبحرين منطقة الربع الخالي ، وكانت تعرف قديما باسم جو" [1] قبل أن تستبدل به اسم « اليمامة » نسبة الى زرقاء اليمامة ، وهي المرأة التي عرفت بحدة بصرها العجيبة . واليمامة اقليم وفير المياه كثير النخل اذ تعترضه الاعراض وهي الاودية التي تخترقه كما تخترق صحراء الدهناء حتى تصب في الخليج العربي . وهذه الاودية مليئة بالقرى والزروع، ومنها أودية : نساح وملك ولحا والعرض [2] . وبسبب وقوع اليمامة جنوبي نجد اعتبرها الاصطخرى من الحجاز .

والمنطقة الداخلية فيما بين عمان والبحرين واليمامة عرفت بانها قفرة ممتنعة أي لا يمكن سلوكها ، ولهذا سميت بالربع الخالي بمعنى الخراب. وفي ذلك يقول الاصطخرى : « ولا أعلم فيما بين العراق واليمن والشام مكانا الا وهو في ديار طائفة من العرب ، ينتجعونه في مراعيهم ومياههم ، الا ان يكون بين اليمامة والبحرين وبين عمان ... برية خالية من الابار والسكان والمراعي ، قفرة لا تسلك ولا تسكن » [3] .

وفيما بين اليمامة ونجد شمالها وبين الاحساء والبحرين تقع صحراء الدهناء ، وهو الاسم الذي يعنى الحمراء بسبب حمرة أرضها . وهي على عكس الربع الخالي توجد بها المياه [4] ، وخاصة في الربيع بعد موسم

---

(١) انظر الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، وقارن الهمدائي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦١ (جو وهي الخضرمة وهي اليمامة) .

(٢) الهمدائي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٠ .

(٣) المسالك والممالك ، ص ٢٥ .

(٤) الهمدائي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٥٣ ، وانظر خريطة (٥) ص ٧١ .

الامطار الذي يعتبر عيدا — يستمر لمدة شهرين — بالنسبة للانسان والحيوان . ومثل هذا يقال عن صحراء النفود ، جنوبي بادية الشام . والنفود (ومفردها نفد بمعنى التل) هي صحراء التلول ، وذلك لطبيعة أرضها المتموجة في شكل كثبان رملية بفعل الرياح .

أهميـة التسميـات :

يتضح من هذا الوصف ان العرب أطلقوا على اقاليم بلادهم المختلفة أسماء معبرة عن حالة هذه الاقاليم الطبيعية ، مما ينم عن دقة في الملاحظة ومعرفة بخصائص البيئة . فالحجاز من الفعل حجز واحتجز بمعنى فصل ، فهو الجبل الفاصل . وعرفت جبال الحجاز باسم جبل السراة تشبيهها بسراة الفرس ، بمعنى المرتفع المستوى حيث تنتشر القرى وواحات النخيل على ظهره . أما نجد فهي من الفعل أنجد بمعنى ارتفع (ومنها المرتفع) أو صعد (ومنها الصعيد في مصر) . أما الاحساء فاغلب الظن انها من حسو الماء — الموجود قريبا من سطح الارض هناك — بمعنى ارتشافه بعد استنباطه ، فكأنها بمعنى النبط الذي يقال انه الماء .

أما الدهناء فهي الحمراء والنفود تعني التلول . وفيما يتعلق باليمن الذي يرى معظم الكتاب انه من الخير والنماء والبركة ، نميل الى أن نأخذه بمعنى الاتجاه اليميني الذي يقصد به الجنوب على عكس الشام الذي يعنى الشمال . وهكذا يمكن أن تكون دراسة هذه المسميات ذات أهمية على المستويين : اللغوي والجغرافي .

الطـرق :

والذي يستنتج ايضا من الوصف السابق انه على الرغم مما هو شائع من ان بلاد العرب تمثل بلاد الصحارى — أي بلاد العطش كما

يقول البعض ـ دون منازع ، فالحقيقة ان البلاد ليست قحلة مقفرة ، باستثناء اقليم واحد هو الربع الخالي • فرغم عدم وجود اي نهر ـ باستثناء الاودية التي تسيل شتاء في موسم الامطار ـ فان الجداول والعيون والسواني والآبار كثيرة في البلاد [1] • ولهذا انتشرت القرى وواحات النخيل في معظم أرجائها ، مما ترتب عليه وجود طرق للقوافل تقطع الجزيرة في كل اتجاه ، مما كان مستخدما في نقل التجارة منذ العصور التاريخية القديمة •

واذا جاز لنا أستخدام معلومات الاصطخرى الذي اهتم بالطرق والمسافات فحدد ١٤ (اربعة عشر) طريقا تقطع البلاد ، فاننا نلخصها في ان الطرق الرئيسية كانت تشق البلاد في وسطها : من العراق والخليج الى الحجاز ، وفي غربيها : من اليمن الى الشام وبلاد الجزيرة عبر الحجاز وكذلك الى مصر [2] • والذي يستحق الملاحظة هو اننا لا نجد فيما سجله الاصطخري طريقا مباشرا بين العراق والشام عبر البادية ، وأغلب الظن ان ذلك الطريق ، الذي كانت له أهميته منذ الزمن القديم ، كان يسير خلال الجزيرة وعلى طول الفرات ، عبر المراحل التي سجلها الاصطخرى عندما حدد ديار العرب في الغرب وفي الشمال : من دمشق الى بالس ، ومن بالس الى الكوفة •

---

(١) الاصطخري ، ص ٢١ .

(٢) الاصطخري ، المسالك ، ص ٢٨ . وانظر نيلسن ، تاريخ العرب القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، ص ٣٧ (حيث يقرر ان البقايا في المنطقة الصحراوية القاحلة التي تكشف طرق التجارة المارة بمكة والمدينة توجد في العلا، والحجر (مدائن صالح) ، والبطراء ، وبصرى . كما توجد في قلب نجد وفي الجانب الغربي لبادية الشام ، بالاضافة الى شبه جزيرة سيناء) .

والى جانب الطرق البرية كان الطريق البحري مسلوكا ما بين الخليج وبحر القلزم ، وكان النقل البحري يستبدل بالنقل البري عندما تكون الطرق البرية وعرة ، كما هو الحال في الطريق ما بين عمان والحجاز ، وما بين عمان والبحرين •

الخلاصة :

نخرج مما سبق ان بلاد العرب تميزت بالآتي :

١ ـ موقع وسط بين بلاد العالم القديم التي تتصف بنفس النمط الطبيعي : الصحراوي أو شبه الصحراوي ، والذي يصفه البعض بانه بلاد العطش ، مما ترتب عليه تشابه في النمط الاجتماعي بين بلاد العرب وبين العالم المحيط بها •

٢ ـ رغم ذلك فان الحياة كانت تدب في كل جنبات جزيرة العرب حيث سكنت أحياء العرب مما سمح بعمران البلاد بالسكان ، بل وبتكون انفجارات سكانية ، كما يقال الآن •

٣ ـ رغم العقبات المتمثلة في الصحارى والجبال والبراري الصعبة كانت طرق القوافل تربط ما بين جميع أطرافها في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، مما سهل للمتاجر وللسكان التنقل بين أرجاء البلاد •

٤ ـ ان اكثر الاقاليم عمرانا هي البلاد الساحلية والقريبة من السواحل في النصف الجنوبي من الجزيرة ، الذي تحدده الطرق بين العراق والحجاز ، ثم الاقاليم المتاخمة للفرات والشام في النصف الشمالي •

ترتب على كل ذلك ان بلاد العرب كانت عامرة بالسكان ، وان الظروف الطبيعية الجيدة كانت تسمح في بعض العصور بازدياد الكثافة السكانية

التي تصل الى حد الانفجار • وانه رغم المسافات الكبيرة بين أطرافها ، التي يمكن تصور اتساعها اذا ما عرفنا ان دورها ـ على طول الطرق المحيطة بها ـ كان يمتد ، حسب مقاييس العصور القديمة ، الى ما يزيد على مسيرة ستة أشهر [1] ، فان الاتصالات بين هذه الاطراف كانت مؤكدة عن طريق التجارة وعن طريق الهجرة • وهذا مما يسهل تفسير كثير من الاحداث السياسية والاجتماعية التي عرفتها البلاد قديما • وانه بسبب سخاء الطبيعة في عدد من الاقاليم المتطرفة ، مثل : اليمن وتخوم العراق والشام ، عرف الناس حياة الاستقرار فكونوا الحكومات ، واحسنوا استغلال مواردهم ، ونشطوا في معاملاتهم مع العالم الخارجي المحيط بهم • وعلى هذا الاساس يمكن تفسير كثير من مظاهر الحضارة العربية في القديم وفي العصور الاسلامية •

وعن هذا الطريق يمكن فهم الشخصية العربية ، فلا تقتصر على شخصية البدوي راعي الابل أو الغنم ، بل تتعدد أشكالها وتتنوع انماطها وتثرى مواهبها •

---

(١) الاصطخري ، المسالك ، ص ٢٧ . ولكي يقرب فريتز هومل الى الاذهان المسافات في جزيرة العرب ، حددها بالكيلومترات ، وقارنها بالمسافات ما بين العواصم الاسكندينافية وجنوب ايطاليا او صقلية. فالمسافة طولا من خليج العقبة الى باب المندب = ٢١٠٠ ك.م ، وعرضا من راس محمد حتى البصرة = ١٣٠٠ ك.م ، والعرض الجنوبي من باب المندب الى مسقط = ٢٠٠٠ ك.م ، والمسافة من عدن الى نجران وعسير = ٥٥٠ ك.م . (أنظر تاريخ العرب القديم لنيلسن وآخرين ، الترجمة ، الفصل الثاني ، ص ٥٥) .

السكـــان :

العـرب : التسميـة ومفهومهـا :

المقصود بالعرب هم أهل البلاد الذين أعطوها اسمهم ، فصارت بلاد العرب ، والذين اشتهروا في التاريخ العالمي منذ كونوا دولتهم الاسلامية ، وجاوروا الصينيين الذين سموهم بالتاتشي (من التاجك الفارسية التي يظن انها نسبة الى طيء) ، كما سماهم الفرنج بالسراسين (Saracens) أو بالمور (Maures) وهي الاسماء اليونانية الرومانية القديمة • فالاول يمكن أن يكون نسبة الى الشرق [1] ، والثاني ينسب الى ولاية مورطانية في المغرب •

ولقد التزم الكتاب العرب الاوائل وبعدهم من نقل عنهم من المتأخرين في تفسير التسمية بمنهجهم التقليدي في علم الانساب ، الذي يرجع ـ عادة ـ أسماء البلاد والشعوب الى الجدود القدماء او الابطال الاسطوريين • فلقد قالوا عن « الترك » انهم أبناء ترك بن يافث بن نوح ؛ وان « الخزر » هم ابنا الخزر بن يافثوان « الفرس » ابناء فارس بن لاوذ بن سام ، وان « النبط » هم ابناء نبيط بن ماش بن ارم ، وان المريان هم أبناء سريان بن نبط • أو كما قالوا ان « اسبانيا » نسبة الى الملك اشبان ، أو ان افريقية نسبة الملك افريقش (ملك اليمن الحميري) او الملكة افريقية ، أو ان مصر نسبة الى مصر او مصرايم بن حام • وهم في بعض ذلك قد تأثروا بالتقاليد اليهودية المعروفة بالاسرائيليات ، والتي تضع شعوب العالم في شجرة نسب واحدة أصلها : آدم أبو الانسانية الاول ثم نوح الأب الثاني لها [2] •

---

(١) انظر : ديسو، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ١٦٣ (حيث يمكن ان تكون من كلمة شر"قو السريانية بمعنى ساكن الصحراء .

(٢) انظر : الطبري ، ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

في نطاق هذه التقاليد المأثورة نسب عبيد بن شرية الجرهمي (وتبعه الكتاب في ذلك) اسم العرب الى جدهم يعرب ، وهو ابن قحطان بن عابر (هود) الذي كان اول من تكلم باللغة العربية ، وعن طريقه تعلمها اخوته وبنو عمومته الذين تركوا بابل ليقيموا بجواره في اليمن ، من : عاد وثمود وجديس وعمليق وطسم وجرهم وغيرهم [1] من العرب المعروفين بالبائدة اي الهالكة .

ولكنه لما كان الترتيب الزمني يقتضي أن يكون العرب البائدة ، الذين هلكوا قبل الاسلام فلم يبق من نسلهم أحد ، قد سبقوا بني يعرب (ابن قحطان الذي تنسب اليه قبائل اليمن التي عرفها الاسلام) رأى بعض الكتاب ان العرب البائدة ينبغي ان يكونوا اصل الارومة العربية ، قبل القحطانية ، ولهذا نسبوا اليهم اسم العرب العاربة . وبناء على ذلك وجب ان يكون البائدة اول من تكلم بالعربية . وهذا ما نص عليه الطبرى، كما ينقله ابن خلدون ، اذ يقول : « وفهم الله لسان العربية عادا وثمودا وعبيل وطسم وجديس وأميم وعمليق ، وهم العرب العاربة ... ويسمون أيضا العرب البائدة » [2] .

ولقد ترتب على ذلك ان جعلت بعض الروايات موطن قبائل عاد في اليمن قبل يعرب الذي غزاهم وملكه من أيديهم ، وفرق اخوته كحكام على الحجاز والشحر وعمان [3] . وتبعا لهذه الرواية يكون يعرب وبنوه قد تعلموا العربية من بني عاد .

---

(١) اخبار عبيدة بن شرية ، ص ٣١٤ — ٣١٩ .
(٢) العبر ، ج ٢ ، ص ٧ ، وقارن الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .
(٣) العبر ، ج ٢ ص ٣٠ .

ومع ان ابن خلدون يتردد في اخراج القحطانية من العرب العاربة ، فيسجل : « وربما يقال ان من العرب العاربة يقطن (أي قحطان) ايضا [1] ، فانه في تقسيمه العام للعرب في طبقاتهم المختلفة ، يضع القحطانية في الطبقة الثانية من العرب ، وهم العرب المستعربة اي الذين اصطنعوا اللسان العربي ، ويأخذ بالرواية التي تقول عن قحطان (أبو العرب) : « انه اول من تكلم بالعربية » . وهو يشرح ذلك بقوله : « ومعناه من اهل هذا الجيل الذين هم العرب المستعربة من اليمنية ، والا فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة ، ومنهم تعلم قحطان تلك اللغة ضرورة » [2] . وابن خلدون يأخذ هنا بالرواية التي تقول : « بأن قحطان من ولد اسماعيل » ، ويبني عليها ان تكون العرب كلهم من ولده : « لأن عدنان وقحطان يستوعبان شعوب العرب كلها » [3] .

وهذه النظرية تعني ان كل العرب الذين عاشوا في الجزيرة مع مطلع الاسلام كانوا مستعربة ، ولم يكن في الجزيرة من العاربة أحد ولذلك أطلق عليهم اسم البائدة أي الهالكة .

وفي ظل هذه الفكرة اذن كان العرب البائدة هم : « العاربة بمعنى الرساخة في العروبية ، كما يقال : ليل اليل ، وصوم صائم ، أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها : بما كانت أول أجيالها ... » [4] ، بينما ظل للعرب « الباقية » — اذا جاز استخدام هذه التسمية — وهم المستعربة،

---

(١) العبر ، ج ٢ ، ص ٧ .
(٢) العبر ، ج ٢ ، ص ٤٦ — ٤٧ .
(٣) العبر ، ج ٢ ، ص ٤٦ .
(٤) العبر ، ج ٢ ، ص ١٩ .

فخر الانتساب الى جدهم يعرب الذي أخضع العرب العاربة من : عـاد في اليمن ، والعمالقة في الحجاز ، والذي أخضع لسلطانه : الشحر وحضرموت وعمـان [1] .

وللتوفيق بين فكرة أن صانعي العروبة القدماء سبقوا يعرب وبنيـه من المستعربة ثم انهم بادوا في عصور تالية ، قسم النسابة العرب البائـدة الى طبقتين : أولى وثانية ، فقالوا : عـاد الاولى وثمود الاولى ثم عـاد الآخرة وثمود الآخرة .

والظاهر أن المقصود « بالعروبية » التي ابتدعها العاربـة ورسخـوا قواعدها ، كما يقول ابن خلدون ، ليس اللسان العربي وما اشتهر به العرب من الفصاحة ــ التي يقال لها الاعراب ــ والغرام بالشعر ، بل يقصد بهـا أيضا العادات التي تميز بها العرب في عصر ما قبل الاسلام ، من : الفروسية والاعتداد بالنفس والشهامة مما يدخل في نطـاق ما عرف عنـد العـرب « بالمروءة » .

والظاهر ان « العروبية » أو ما نسميه الآن بالعروبة كانت تعنى في بداية أمرها « البداوة » ، وهي الصفة الغالبة على سكان بـلاد العرب بالمعنى الذي ترمز اليه كلمة « الاعراب » ، وما تعنيه من أسلوب في الحياة. فكلمة العرب كان يقصد بها عند بعض الشعوب القديمة : مثل : البابليين والآشوريين (الذين كتبوها في شكل : أربى) ، البداوة أو المشيخة (أي حكومة البادية المتاخمة لبلادهم فيما بين الفرات والشام) ، كما وردت الكلمة في التوراة بمثل هذا المعنى ، من البداوة والقفر [2] .

(1) العبر (عن ابن سعيد) ، ج ٢ ، ص ٤٧ .
(2) زيدان ، ص ٣٨ ــ ٣٩ ، جواد علي ، ج ١ ، ص ١٦ ــ ١٨ .

ويؤيد ذلك ما ظهر في النقوش العربية القديمة سواء في شمـال الجزيرة او في جنوبها من اشارات الى الحضر والى العـرب ، بمعنى ان كلمة العرب صارت منذ وقت مبكر علما على البدو بينمـا اصبحت كلمة الحضر علما على أهل القرى والمدن . وهذا ما يتفق مع تقسيم اهل البلاد الى اعراب (بدو) وعرب (حضر) في مطلع الاسلام . وهذا التقسيم هـو الذي ألهم ابن خلدون نظريته في قيام الدول عند العرب واسباب انهيارها، وعلى أساسه فسر اضمحلال ملك العرب البائدة من عاد وثمود وغيرهـا بانهم مالوا الى أسباب الدعة والترف فضعفوا ، مما سمح لاخوانهم من المستعربة الذين ظلوا في بواديهم محافظين على قوة الشكيمة من القضاء عليهم ، والقيام بأمر الدولة بعدهم [1] ، تمامـا كما هو الحال بالنسبـة للدول الاسلامية التي قرأ تاريخها ، ومنه استنبط نظريته هذه .

العـرب بـين الامـم :

شجرة الأنساب وتفريعاتها عند العـرب :

ويتضح من دراسة الانساب ، كما عرفها العرب وفي الشكل الـذي تطورت اليه في الاسلام، حيث أصبحت علما مساعدا للعلوم الشرعية [2] ، انها تحتوي مجموعتين متميزتين من تلك الانساب : الاولى لها مسحـة عربية واضحة ، وهي التي تتعلق باصول العرب القدماء من العـاربة أو البائدة (عاد وثمود وغيرها) ، والثانية لهـا مسحة عبرانيـة متأثـرة بالاسرائيليات ، وهي الخاصة بأنساب العرب المستعربة من أبناء ابراهيـم واسماعيل .

(1) العبر ، ج ٢ ص ٤٧ (حيث يطبق النظرية على العاديين ومن بعدهم القحطانيين) .
(2) انظر ما سبق ، ص ٥٦ و هـ ١ لابن خلدون .

ويظهر للباحث في تاريخ العرب قبل الاسلام ان محاولة التوفيق بين هذين النوعين من المعلومات تطلب جهودا مضنية من الكتاب على طول العصور ، ولكن الاجتهاد لم يؤد الى نتيجة مرضية • فقد ظلت الاختلافات واضحة في أصول الشجرة الجديدة (المهجنة) ، وفي فروعها • فبسبب الحاح الكتاب على التفصيلات التي ملأوا بها كتبهم ، تشابكت الامور بحيث أصبح من العسير رسم خطوط واضحة حتى بين التقسيمات الكبرى لاجيال العرب • والمثل لذلك عرب اليمن وهل هم من العاربة ام من المستعربة حتى اضطر ابن خلدون الى وضعهم في الجيلين جميعا ، رغم جهود المؤرخ الكبير في سبيل تنظيم شجرة النسب ، ورغم اقتراحاته العبقرية في محاولة اماطة اللثام عن غموضها •

وبصرف النظر عن التفصيلات المرهقة ، ينقسم تاريخ الانسانية القديم ، كما يظهر في شجرة النسب ، الى مرحلتين كبيرتين : الاولى ، منذ بدء الخليقة بظهور آدم في الحجاز • فحسب رواية وهب بن منبه نزل آدم من الجنة ــ التي يمكن ان تكون جنة ارضية ــ الى جبل لبنان ، ومنها سار الى بيت المقدس ، ثم الى مكة حيث التقى بحواء في عرفات الذي ما زال اسمه يحيي ذكرى ذلك اللقاء [1] • وتتضمن هذه المرحلة تكاثر ابناء آدم « أبو الانسانية الاول » ، وكيف بدأ بينهم الشقاق منذ البداية (في قصة هابيل وقابيل) • والروايات هنا لها طابع اسطوري ، فالاعمار تقاس هنا بمئات السنين ، وتجاوز بعضها الالف سنة في بعض الاحيان مما يسمح بان يعاصر الاحفاد الاقربون اجدادهم الابعدين • وعن هذا الطريق يمكن تفسير اختلاط أنساب العائلة الاولى التي كانت قد تضخمت بشكل فريد ، وانتشرت في الارض تحمل بذور الخطيئة والفساد ، فكان لا بد من هلاكها في الطوفان على عهد نوح •

(١) التيجان ، ص ٩ ــ ١٥ •

وبعد الطوفان تبدأ دورة جديدة للانسانية ، كأنها بداية للعصور التاريخية • ومع ان الكتاب العرب ناقشوا مسألة الطوفان باستفاضة ، وعرفوا ان الصينيين والفرس ليس لهم علم بطوفان حل باقطار العالم أجمع [1] ، وانه ربما كان بأرض بابل فقط ، فلقد اصبح نوح ابا ثانيا للانسانية بعد آدم ، كما يقول ابن خلدون [2] • فالى نوح ، والى بنيه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، نسبت كل الشعوب المعروفة ، التي تفرقت فيما بين المشرق والمغرب • فابناء يافث عند عبيد بن شرية ، هم : الترك والصقالبة و « ياجوج وماجوج » [3] ، ويضيف اليهم وهب بن منبه : الخزر والسكس والقوط [4] •

وأبناء حام عند عبيدة ، هم : الكنعانيون والبربر والحبشة (أي السودان على الجملة) [5] ، ويضيف اليهم وهب : القبط (أي المصريين) والسند و « القول » ، و « العاموريون » والنوبة [6] •

أما سام فكان له ولدان ، هما : ارفخشد والى حفيده عابر ينسب العبرانيون ، وارم واليه ينسب العرب والى بنيه ، وهو الامر الذي يهمنا [7] •

(١) انظر الطبري ، ج ١ ص ١٩٢ ، وقارن ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٧٣ •
(٢) العبر ، ج ٢ ، ص ٥ (اباثانيا للخليقة) •
(٣) اخبار اليمن ، ص ٣٢٠ •
(٤) التيجان ، ص ٢٥ •
(٥) اخبار اليمن ، ص ٣٢١ •
(٦) التيجان ، ص ٢٥ •
(٧) اخبار اليمن لعبيدة ، ص ٣١٦ ــ ٣١٩ ، التيجان ، ص ٢٧ • الطبري ، ج ١ ، ص ٤٠٩ •

العـرب والجنس السامـي :

هكذا قسم نسابة العرب البشرية الى ثلاث مجموعات كبرى من الاجناس : أبناء سام ، وأبناء حام ، وأبناء يافث ، ووضعوا العرب في المجموعة الاولى • وعن العرب انفسهم فقد قسموهم ــ دون الدخول في متاهات التفصيلات وما تحمله في ثناياها من الاختلافات والاغلاط ــ الى مجموعتين كبيرتين ، هما : العرب البائدة ، والعرب الباقية • والاول هم الذين عرفوا باسم العرب العاربة أصحاب اللسان العربي « الذي جبلوا عليه » (١) ، والآخرون ، هم العرب المستعربة أو المتعربة (٢) (أي الذين تأثروا بالعاربة واخذوا عنهم اللسان العربي بدل لسانهم الاصلي) •

ولما لم يكن هناك فاصل حدي بين العرب البائدة والعرب الباقية ، كما هو الحال في قصة الطوفان الذي أنهى الخليقة فيما قبله لكي تبدأ بعده بدءا جديدا ، وجب وجود طبقة عاربة من حيث الاصالة والقدم ، وتكون في نفس مستعربة من حيث اصطناع اللغة ، وهؤلاء هم القحطانية (٣) الذين يمثلون أهل جنوب بلاد العرب في مقابل اخوانهم المعدية او العدنانية سكان نجد والحجاز والشمال •

وهكذا اصبحت جميع هذه الطبقات من العرب كما اصبح العرب الحاليون سواء في بلادهم أو في خارجها ، يمثلون الكتلة الكبرى من ابناء سام ممن اصطلح على تسميتهم حاليا بالجنس السامي (٤) •

---

(١) الطبري ، ج ١ ص ٢٠٤ •

(٢) نفســه •

(٣) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٤٧ •

(٤) عن استخدام الاوروبيين للفظ «الساميين» ، انظر ستينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة ، تعريب السيد يعقوب بكر ، ص ٤٢ وما بعدها ، وعن بداية استخدام المصطلح بمعرفة ا.ل. شلوتسر انظر هامش المترجم رقم ١ ، ص ٢٣٩ •

والحقيقة ان الباحثين المحدثين اخذوا ذلك التقسيم التقليدي القديم، وحاولوا ان يدرسوا الجماعات البشرية على أساسه ، فكان تقسيمهم الحديث ، الى الاجناس : السامية والحامية والهندو أوروبية أو اليافثية • ولقد بدأت دراسة هذه الاجناس من حيث الصفات العرقية او السلالية ، من : الطول والقصر ، وبياض البشرة او سوادها ، وسباطة الشعر أو تجعيده ، وزرقة العيون أو سوادها • ومن حيث شكل الجمجمة والفك والانف الى آخر ما هو موضوع دراسة الاثنوجرافيين ، من علماء الاجناس (١) ، الى جانب الاحوال الحضارية وما هو موضوع الدراسات الانتروبولوجية من العادات والتقاليد •

وفي هذا المجال يصف الهمداني العرب بـ « الفصاحة والصباحة واعتدال المزاج ، وحسن الالوان : لا الصهبة ولا الزرقة ، ومتوسط النبات في الشعر : لا القطط ولا السبط ، واسوداد الاحداق واحورار المقل ، مع الحمية والاريحية والسخاء والكرم والجود بما تشح به الانفس ، والصبر بساعة اليأس • وبها (أي جزيرة العرب) أفرس من ركب الخيل •• وأحسن من امتطى الابل ••• ، وأوفى من تقلد ذمة ،

(١ وفيما يتعلق بالجنس السامي يرى المحدثون ان هناك نمطين :

١ ــ شرقي الطابع وهو السائد : ويتميز ببشرة بيضاء لوحتها الشمس ، وشعر اسمر ، وعينين داكنتين ، وشعر كثيف في موضع اللحية وعلى الجسد ، وقامة متوسطة، وبنية نحيلة ، وراس طويل له مؤخرة بارزة ، ووجه طويل وانف قوي اشم مستقيم او محدودب ، وشفتين ممتلئتين ، وذقن بارز •

٢ ــ أرمني الطابع وهو وافد : ويتميز ببشرة بيضاء باهتة ، وبنية قوية ممتلئة ، وراس قصير شامخ له مؤخرة مسطحة ، وانف قوي بارز مرتفع الاصل ، وشفتين رقيقتين (س. موسكاتي، الترجمة ، ص ٥٠) •

وأبرع من نطق بحكمة ... [1] » • اما عـن تصوير العرب في النقوش الاشورية ، فلهم لحى وشعور طويلة تتدلى على اكتافهم في شكل ضفائر ، وهم عراة على جمالهم او يشدون الازار الذي يمتد من البطن الى الركبة بمنطقة ثخينة [2] • أما هيرودوت فيصف ملابس جنود العرب بانها طويلة وتشد عليها الحزم ، بينما يحمل الرجال القسى الطويلة علـى اكتافهم اليمنى او يشدونها على ظهورهم [3] •

ولكنه لما لم يكن هناك جنس نقي بعدما عرفته البشرية من اختلاط الشعوب والأجناس وما ترتب على ذلك من تشابه في النمط الخلقي وفي نهج الحياة ، رؤي العدول عن هذا المنهج الى دراسة الشعوب والجماعات على أساس اللغات التي يتكلمونها والتي تحدد درجة القرابة بينها •

وفيما يتعلق بالساميين كان على الباحثين ان يبدأوا من حيث انتهى القدامى ، فكان تركيزهم على جزيرة العرب من حيث ان سكانها يكونون حاليا الكتلة الكبرى من الساميين الخلص ، كما وجهوا انظارهم الى ما يحيط بها من البلاد ، مثل : العراق والشام وما بينهما من بادية الشـام والجزيرة ، ثم مصر والحبشة ـ رغم اعتبارهما من بلاد الحاميين •

وبناء على ما وجده العلماء من التشابه في اعداد من الكلمات ، مما يتعلق بمظاهر الطبيعة من انهار وجبال أو صفات انسانية او حيوانية ، ومما يتعلق بالتشابه في تركيب الجمل او في نهاية الكلمات من السكون والاعراب بين اللغات القديمة التي عرفتها هذه الاقاليم ، من : البابلية

(١) صفة جزيرة العرب ، ص ٣ •
(٢) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ١ ، ص ٦٠٦ •
(٣) نفس المرجع ، ص ٦٢٧ •

والاشورية والفينيقية والارامية وغيرها ، وبين اللغات التي مـا زالت حية كالعربية أو ميتة ـ حية كالعبرية والسريانية ، وبناء على مـا وجدوا من تشابه بين هذه اللغات وبين لغة الحبشة (الامهرية) وبعض اللهجات السودانية واللغة المصرية القديمة واللهجات البربرية في بلاد المغرب ، وجه كل منهم بحثه وجهة معينة ، وخرج بنظرية تتفق مع أسلوبه في البحث عن أصل الساميين ، وعما يمكن ان يكون من البلاد مهدهم • وتراوحت النتائج اقليميا ما بين ايران والحبشة ، مرورا ببلاد العرب مـن شمالها الـى جنوبها [1] •

فلقد رأى البعض ان أعالي دجلة والفرات هي مهد الساميين الاول ، كما يمكن ان يكون ذلك في شمال البلاد السورية • واصحاب هـذين الرأيين متأثرون في ذلك بقصة الطوفان • هذا ولو انه بناء علـى نفس القصة يرى البعض انسهول دجلة والفرات ، في الجنوب ، حيث الفيضانات معروفة مـن القديم وحتـى الآن ، أنسب من الاقاليـم الشمالية كمهد للسامية •

وبسبب العلاقة التي وجدت بين مجموعة اللغـات السامية وبـين مجموعة اللغات الحامية (من الحبشية والسودانية والمصرية) مـال بعض الباحثين الى أن تكون افريقيا أو الحبشة ، على وجـه الخصوص ، بسبب علاقتها الوثيقة ببلاد العرب الجنوبية منذ أقدم العصور ، هي مهد السامـيـة •

(١) انظر جورجي زيدان ، ص ٤٠ ـ ٤١ ، ولمزيد من التفصيلات أنظر س. موسكاتي ، الترجمة ، الفصل الثاني ، ص ٤٢ ـ ٥١ . حسـن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، ص ٥ وما بعدها •

وأخيرا ربما كان للرأي الذي يقول ان بلاد العرب هي المهد الاول للسامية له ما يرجحه على غيره لعدة اسباب ، منها :

١ ــ اندراسة تاريخ البلاد المحيطة بجزيرة العرب ومظاهر الحضارة فيها تشكك في ان تكون شعوب هذه البلاد القديمة هي المثل المفضل للساميين ، رغم وجود التشابه السلالي واللغوي فيما بينها •

٢ ــ ان دراسة اللغة العربية الفصحى يمكن ان يؤدي الى اعتبارها اقدم صورة حية لما كانت عليه اللغة الام (لغة نوح وبنيه) التي تفرعت عنها مجموعة اللغات السامية (بعد ان « تبلبلت الالسن » حسب القصة المعروفة في مصادرنا) ، مثلما تفرعت اللهجات العربية في أرجاء الوطن العربي الكبير منذ العصور الاسلامية الاولى ، وكما تفرعت اللغات اللاتينية الحديثة (من فرنسية وايطالية واسبانية) من اللغة اللاتينية القديمة •

٣ ــ وأخيرا تأتي الظاهرة التاريخية المعروفة منذ أقدم العصور في بلاد العرب ، وهي الهجرات المستمرة لقبائلها وشعوبها من جنوب الجزيرة ومن وسطها ، الى الشرق في العراق وايران ، والى الشمال في الشام والجزيرة ، والى الغرب في مصر والحبشة ، مما جعل جزيرة العرب ؛ على ممر العصور ، « منطقة طرد » سكاني ، كما يقول الجغرافيون المحدثون •

وأمر الهجرة وترك الوطن لا يأتيها الانسان عن طيب خاطر ، انما هي ظروف الطبيعة القاسية التي تدفعه الى وحشة الغربة ، عندما يشح الماء والزاد في بعض السنوات ، او عندما تلم بالبلاد كوارث الطبيعة ، من :

السيول الجارفة او تفجر البراكين أو ثورات الرياح او انتشار الاوبئة • بسبب مثل هذه الظروف ، التي كانت عادية في بلاد العرب ، تفرق السكان في كل ارجاء الجزيرة ، وفيما جاورها من البلاد • وفي مثلها ايضا هلكت شعوب وبادت أقوام ، كما في القصص الذي يروى عن اخبار العرب القدماء ، من عاد وثمود وغيرها •

الفصل الثالث

تاريخ العرب القديم

العرب الاوائل وعلاقاتهم بالدول القديمة :

مع اننا نريد أن نلتزم بتحديد الموضوع في تاريخ العرب دون غيرهم من الشعوب القديمة ، حتى لا نخرج عن الهدف الذي يبرر هذه الدراسة، كما اشرنا في البداية ، وحتى لا نجترىء على الدخول في ميدان بعيد عن تخصصنا ، له أصحابه ممن يمتلكون أدوات البحث اللازمة للعمل فيه ، وخاصة ما يتعلق منها باللغات القديمة ، فاننا نجد انفسنا مضطرين الى الاشارة ، ولو من بعيد ، الى التواريخ القديمة للدول والشعوب المحيطة بجزيرة العرب ، لما كان بينها وبين العرب من علاقات سياسية واقتصادية وحضارية لا يمكن انكارها •

والحقيقة ان أمر علاقات العرب بمن جاورهم من الشعوب لازم لتفهم طبيعة ما قام به العرب في نهضتهم الكبرى في العصور الاسلامية • هذا ، الى جانب ان المصادر العربية التي رأينا ان يكون اعتمادنا عليها في المقام الاول تشير فعلا الى ان العرب ، في تاريخهم القديم ، ورغم الطابع الاسطوري لهذا التاريخ ، لم يكونوا منعزلين عن الشعوب القريبة منهم ، ولما كان يجري من الامور فيما حولهم من البلاد •

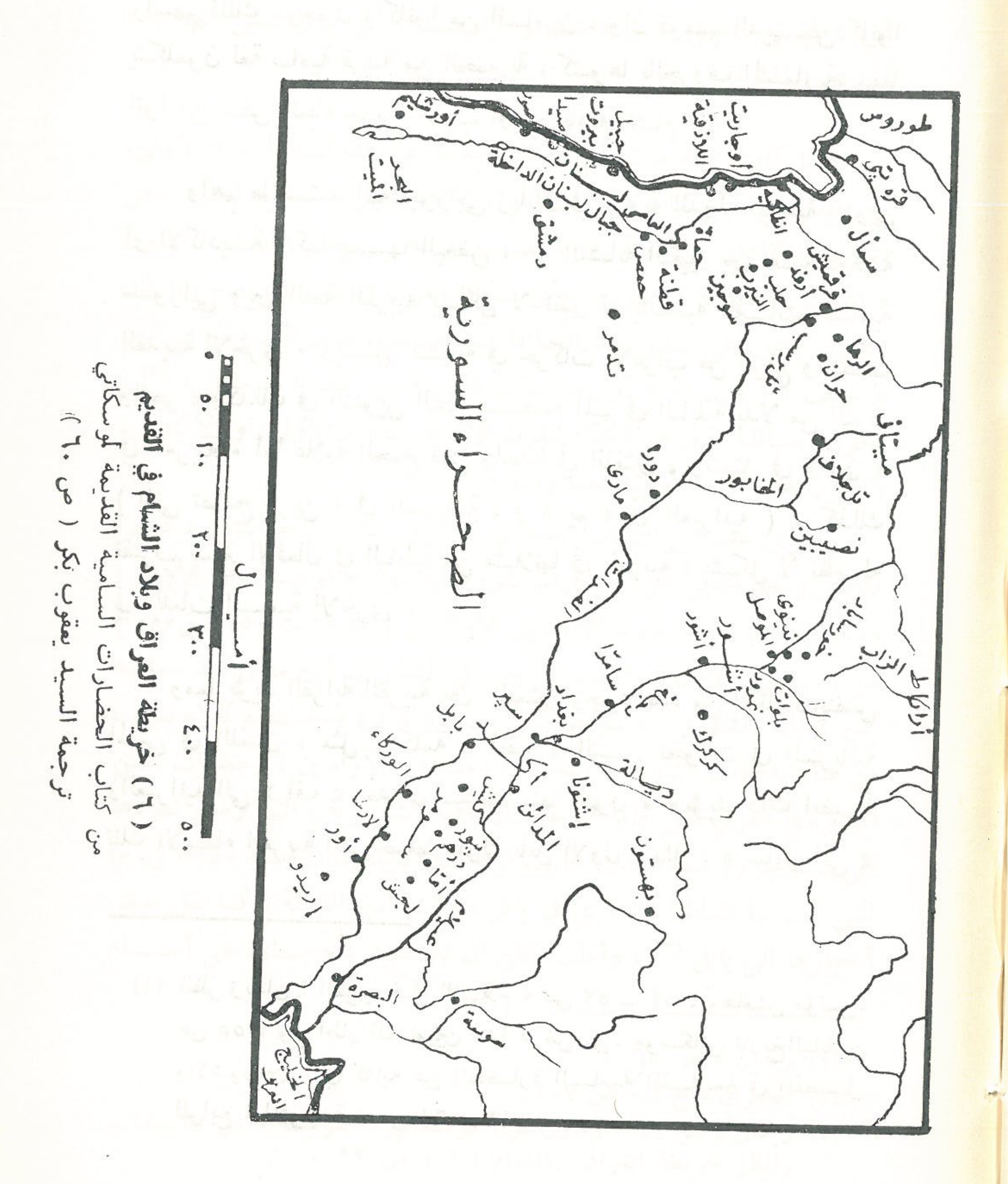
علاقات العرب القدماء بالعراق :

فقصة تجمع ابناء نوح في بابل بفضل الارواح (الرياح) الاربعة ، وهي : الشمال والجنوب والصبا والدبور ، قبل انتشار ابناء سام من أجداد العرب، والاشارة الى أنهم وقتئذ كانوا يتكلمون اللغةالسريانية[١]، تحمل في ثناياها معنى وجود علاقات قديمة بين العرب وبين بلاد العراق من ناحية ، كما تعنى ان المقصود بالعرب في هذه الازمان السحيقة هي جماعات البدو التي كانت تعيش في العراق ، وفي البلاد المحيطة بالجزيرة العربية قبل ان يتعربوا اي قبل ان يعرفوا باسم العرب • وذلك عندماعرف البدو في هذه البلاد بالاسماء التاريخية المعروفة ، من : اريبى (في العراق)، وأمورو (في بادية الشام) ، وشاسو او هكسوس (في مصر) ، وغيرها ، كما يأتي • وهذا لا يمنع من ان يكون ما قصده الكتاب العـــرب من علاقات العرب القدماء بالعراق يرمز في حقيقة الامر الى العلاقاتالتاريخية المعروفة بين العرب وبين البابليين والعبرانيين ، وان فكرة التجمع في بابل ربما كانت تعنى ما هو معروف في تاريخ اليهـود بالاسر البـابلي ، وان التفرق في البلدان يعني فك هذا الاسر ، وعودة اليهود الـى بلاد الشام والى غـيرها •

هكذا رأى بعض الباحثيناعتبار بعضتواريخهذه البلاد، وخاصة تاريخ العراقالقديمكتواريخعربية أو شبهعربية• وهذا ما أخذ به جورجي زيدان الذي مال الى رأي من رأى ان تاريخ بابل في العصر المعروف باسم الدولة البابلية الاولى او دولة حمورابي ، نسبة الى ملكها ومشرعها « حمورابي » صاحب القوانين الشهيرة ، على اساس ان مؤسسي هذه الدولة ، وعلى

---

(١) عبيـد بن شريـة ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ، الطبري ، ج ١ ، ص ١٧١ (نوح يتكلم السريانية) •



(٦) خريطة العراق وبلاد الشام في القديم
من كتاب الحضارات السامية القديمة لموسكاتي
ترجمة السيد يعقوب بكر (ص ٦٠)

رأسهم الملك سرجون ، كانوا من الساميين ، وان قومهم الذيـــن كانوا يتكلمون لغة سامية قريبة من الحميرية ، كتبوها بالحروف المسمارية، ربما اتوا من بعض أنحاء جزيرة العرب أو من بادية الشام [1] .

وأهم ما يستند اليه جورجي زيدان في عروبة الدولة البابلية الاولى أو الاكاديـة ، كما يسميها البعض ، هو التشابه الكبير بين لغـة دولـة حمورابي وبين اللغة العربية بشكل لا نظير له بالنسبة للغات السامية القديمة الاخرى . ويتمثل التشابه في حركات الاعراب من الرفع والنصب والجر ، وكذلك في التنوين الذي يستخدم الميم في البابلية بدلا من النون في العربية . أما علامة الجمع فهي واحدة في اللغتين ، وتتمثل في « ون » (التي تصبح « ين » في السريانية ، و « يم » في العبرانية) . كذلك تقترب صيغ الافعال في البابلية من مثيلاتها في العربية ، بشكل لا نظير له في اللغات السامية الاخرى .

ومما يؤيد القرابة القريبة بين اللغتين وجود عدد من الكلمات بنفس المعنى في اللغتين ، مثل : كلمة « أنف » التـي تحورت في السريانية والعبرانية الى « أف » بعد ان سقطت منها النون . ويؤيد ذلك ايضـا تلك الاسماء العربية التي حملها ملوك بابل الاول ، مثل : « سامو أبي »

---

(1) انظر زيدان : العرب قبل الاسلام ، ص ٥٢ – ٥٤ ، وهامش مؤنس، ص ٥٥ ، وفي اطار الساميين هذا عرض س. موسكاتي تاريخ البابليين والاشوريين) في كتابه عن الحضارة السامية القـديمة في الفصـل الرابع ، الترجمة ، ص ٦١ – ١١٢ .

أي « أبـى سام » ، و « شمسو ايلونـا » أي « الشمس الهنا » ، وغيرهـا [1] .

ولما كانت المعلومات التي عرفت حديثا عن الدولـة البابلية الاولى، من حيث عدد ملوكها وسني حكمهم ، تكاد تقتـرب مما يذكـره بعض مؤرخي الكلدان عن دولة بدوية يسميها عربية ، رجح زيدان أن يكـون « العربي » هم الـ « عمورو » أي سكان الغرب في بادية الشام . ولما كان الطبري يطلق على عمليق جد العمالقة ــ وهم من العرب القـدماء ــ اسم « عريب » ويقول انه « أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل » [2] ، يكون العمالقة بدورهم أجداد ملوك الأسرة البابلية الاولى او الاكادية ، وتكون هذه الدولة عربية لحما ودما .

ويرى عدد من الكتاب المحدثين أن بدو بادية الشام الذين عرفـوا بالأمورو هم الذين أتوا من غرب سوريا ليقيموا حكومـة بابل الأولى ، وذلك بعد ما قام به ملوك الأكاديين الأوائـل (٢٣٥٠ – ٢١٥٠ ق.م.) من : سرجون الاول (والاسم ظل حيا في الشام الى أيام معاوية اذ حملـه كبير أمنائه المشهور : « سرجون بن منصور ») ، وحفيـده نارام سين ، من منافسة المدن الشومرية القديمة ، ومناهضة الآراميين ، وجماعات مـن البدو أي العرب قبل اقامة الوحدة الأكادية الشومرية ، التي وصل نفوذها الى شبه جزيرة سيناء حيث حارب نرام سين قبيلة مغان (سنة ٣٧٥٠ ق.م) التي كان لها نشاطها التجاري في بابل ، وأسر أمير القبيلة ، كما نقل بعض أحجارها الى بابل [3] ، وأغلب الظن ان المقصود بالحجـارة هي أصنـام

---

(١) زيدان ، ص ٦٥ .
(٢) الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .
(٣) زيدان ، ص ٦٩ ، وقارن س. موسكاتي ، الترجمة ، ص ٦٧–٦٨ . وانظر خريطة العراق والشام (٦) ص ٩٣ .

القبيلة أو أنصابها . ولقد هدد هذه الدولة ظهور العيلاميين في ايران ، فعندما ظهروا تقدم الامورو من بادية الشام نحو بابل وأقاموا لهم بها حكومة نجحت في رد غارات العيلاميين ، وأقاموا الأسرة البابلية الاولى (١٨٣٠ — ١٥٣٠ ق.م.) التي اعتبرت استمرارا للمملكة الأكادية الأولى التي كونها سرجون الأول ، والتي اشتهرت بسادس ملوكها « حمورابي » الذي عاش حوالي سنة ١٧٠٠ ق.م. ، والذي ازدهرت الدولة على أيامه فامتدت سلطة بابل الى أشور وبعض بلاد الشام [١] .

ويرجع الفضل الى حمورابي في توحيد الامبراطورية الضخمة ، الأمر الذي كان من أهم نتائجه توحيد اللغة الأكادية التي صارت لغة بابل الرسمية بعد اللغة السومرية التي اندثرت ، ولم يبق منها الا الخط المسماري ، الذي كان نقشا ، في أول الأمر ، مثل الهيروغليفي ثم تحول الى شكله المعروف بفضل الخط المسماري [٢] .

أما أهم ما أذاع صيت حمورابي فهو مجموعته القانونية التي رتبت في حوالي ثلاثمائة مادة ، والتي تدل على ما وصلت اليه تلك الدولة من الرقي وخاصة فيما يتعلق بأمور الزواج والتبني والوراثة والتجارة [٣] .

---

(١) حسن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، ص ٣٤ — ٣٧ ، وقارن س. موسكاتي ، الترجمة ، ص ٦٦ — ٦٨ ، وهوامش يعقوب بكر ، رقم ١٠ ، ص ٢٥١ (الذي يشرح اصطلاح الاكديون بأنه جامع للبابليين والاشوريين) ، رقم ١٣ ، ص ٢٥٢ (عن الامورو وهم الامر"و A murru وهم من البدو الساميين الذين سلكوا صحراء الشام) . وانظر نابيا أبوت ، قيام وتطور الخط العربي الشمالي (بالانجليزية ط. شيكاغو) ، ص ١ (عن ملوك عريبي — البدو ، سن القرن ٩ ق.م.) .

(٢) انظر س. موسكاتي ، الترجمة ، ص ٦٤ — ٦٥ (حيث يشرح كيفية الانتقال من مرحلة الكتابة التصويرية الى التخطيطية الى ان وصلت الى مرحلة الكتابة الصوتية) .

(٣) زيدان ، ص ٥٩ ، وقارن موسكاتي ، الترجمة ، ص ٩٦ وما بعدها .

ولا غرابة في أن تكون دولته التي وصلت في سلم الرقي الى تلك الدرجة أن تكون قد ضربت بسهم وافر فيما يختص بالأمور الدينية ، وأن تكون قد عرفت ضربا من عقيدة التوحيد . فحمورابي يقول انه تلقى شريعته من السماء ، من اله الشمس ، وكلمة الشمس في البابلية هي « شمش » [١] التي تكاد تكون نفس الكلمة العربية في بعض لهجاتنا الدارجة .

وفيما يتعلق بترتيب طبقات المجتمع فقد انقسم الناس في بابل الى ثلاث طبقات منها : طبقة الأحرار أو الأشراف ويسمى الواحد منهم « أويلو » وطبقة العبيد ويسمى الواحد منهم « وردو » ، كما كان معروفا في مجتمعات العالم القديم ، ثم طبقة ثالثة وسط بين هاتين هي طبقة المساكين بلغتنا العربية — والواحد « مشكينو » — والتي يقارنها زيدان بطبقة الموالي عند العرب في صدر الاسلام ، على أساس ان المولي في مرتبة بين الحر والعبد . فالعبد اذا تحرر يصبح في درجة المولى ، وهذا ما كان يحدث للعبد عند البابليين اذا تحرر فيصبح في طبقة «المساكين» . ويؤيد ذلك أنه فيما يتعلق بالحقوق المالية والواجبات ، من : الدية والعلاج من المرض وما شابه ذلك ، كانت طبقة « المساكين » في منزلة وسط بين الأحرار والعبيد [٢] ، اذ كان لكل طبقة وضعها القانوني الخاص . فأفراد كل طبقة يتعاملون فيما بينهم معاملة متساوية : العين بالعين والسن بالسن ، ولكن الشريف اذا أفسد عين رجل من العامة كان عليه الدية (من الفضة) [٣] .

---

(١) ظاظا ، ص ٤٠ .

(٢) انظر زيدان ، ص ٥٩ ، وقارن ظاظا ، ص ٤١ ، وانظر موسكاتي ، الترجمة .

(٣) انظر س. موسكاتي ، الترجمة ، ص ٩٧ .

ومع أنه لا يوجد وجه للمقارنة بين قانون حمورابي الحضري ، الذي لا يعتبر الزواج نافذا الا بعقد مكتوب ، وبين ما وصلنا من الاعراف العربية القديمة ، فيمكن الاشارة الى بعض العقوبات القاسية التي ينص عليها ، والتي عرفت مثلها الجماعات البدوية منذ القدم • فعقوبة الزنا هي القتل ذبحا أو غرقا ، واذا افترت امرأة على زوجها كانت عقوبتها الاغراق في الماء • ومثل تلك العقوبات التي فرضت على المهنيين اذا أخطأوا في عملهم : فالطبيب اذا عالج عين مريض بسكين وتلفت العين قطعت يداه بنفس السكين ، والبيت اذا سقط على ساكنه فقتله كانت عقوبة البناء القتل ، واذا لم يترتب على السقوط ازهاق روح كان على البناء اعادة تشييده (١) •

دولة حمورابي وتموجات البدو فيما بين نهاية الالف الثاني وبداية الالف الاول ق٠م٠ :

ولم يقدر للدولة البابلية الاولى أن تعيش طويلا بعد عصرها الذهبي على أيام حمورابي اذ تهددتها الاخطار من كثير من الجهات :

١ ــ من المشرق الايراني حيث ظهر الكاشيون ، وكانت بينهم عناصر من الجنس الهند أوروبي أو اليافثي •

٢ ــ من الشمال في منطقة الجزيرة والموصل حيث بدأ الآشوريون في الظهور (منذ القرن ١٩ ق٠م٠) ، وهم من الجنس السامي كالبابليين ، وتعتبر دولتهم مجددة لدولة حمورابي • فقد نجحت الدولة الآشورية بعد فترات من الضعف في ان تفرض سلطانها منذ القرن ٨ ق٠م٠ على

(١) انظر زيدان ، ص ٦٠ ــ ٦٢ ، وقارن س. موسكاتي ، الترجمة ص ٩٧ ــ ٩٩ .

سوريا وفلسطين ، كما سيطروا على الطريق المؤدي الى مصر التي فُتحت في القرن ٧ ق٠م٠

٣ ــ من الجنوب ، من منطقة الخليج العربي حيث ظهرت الاسرة التي كونت الدولة البابلية الثانية •

٤ ــ وكانت أشد الأخطار تلك التي أتت من آسيا الصغرى حيث ظهر الحيثيون الذين قدر أن يكون خراب الدولة الحمورابية على أيديهم حوالي سنة ١٥٣٠ ق٠م٠ (١) •

مصر والهكسوس (عمالقة العرب) :

في الوقت الذي قامت دولة حمورابي وفعت مصر بين أيدي جماعات البدو الذين أتوا من بوادي الشام الجنوبية عبر سيناء وصحراء مصر الشرقية ، والذين عرفهم المصريون باسم الشاسو ، وهي الكلمة التي تعادل البدوي أو العربي ، وكونوا في مصر دولة (سامية) خاصة بهم ، هي التي عرفت في التاريخ بالاسم اليوناني « هيكسوس » أي ملوك الرعاة والتي عاشت حوالي سنة ١٦٧٠ ــ ١٥٧٠ ق٠م٠ (أي قرابة قرن واحد) ، وهي تؤكد سلطانها في الدلتا في مواجهة معارضة المصريين في الصعيد (٢) •

هؤلاء البدو عرفهم المصريون على تخوم مصر الشرقية في سيناء وفي شرق الدلتا والصحراء الشرقية منذ فجر التاريخ المصري القديم ، وكانوا يخافونهم ويخشون بأسهم • ففي بعض الأحيان كانوا يجردون

(١) انظر ظاظا ، ص ٤٢ ــ ٤٣ ، س. موسكاتي ، الترجمة ، ص ٧٠ .

(٢) انظر نجيب ميخائيل ، البحرية المصرية في العصر الفرعوني ، في كتاب تاريخ البحرية المصرية، مطبوعات جامعةالاسكندرية ــ دار المعارف، ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

ضدهم الحملات لطردهم بعيدا عن أرض الوادي ، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمونهم لمحاربة من وراءهم من بني جلدتهم من البدو ، وذلك جريا على السياسة التي اتبعتها الدول منذ القديم والتي أنبنت على مبدأ « فرق تسد » الذي طبقته روما بكثير من النجاح . ولكنه مع مرور الوقت ، وبعد أن استقر هؤلاء الشاسو على حدود مصر الشرقية ، طمعوا في البلاد وانتهزوا فرصة الضعف التي ألمت بمصر (فيما يعرف في تاريخها القديم بالدولة الوسطى) ، ونجحوا في السيطرة على الدلتا ، ومنذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ مصر بتاريخ الشام والعراق وما بينهما من بلاد العرب [1] .

فالظاهر أن جماعات البدو السامية كانوا قد كونوا لهم امارات في شرقي البلاد ، قبل أن يتغلبوا على الوجه البحري ، وأن زعماءهم الذين استقروا على حدود مصر كانوا على علاقات وثيقة مع بني عمومتهم أصحاب الامارات في جنوب بلاد الشام ، وان هؤلاء الاخيرين كانت لهم صلات مع أمراء مصر في الوجهين البحري والقبلي ، وكانت تلك الصلات تتراوح ــ كما هو المعتاد ــ ما بين المودة والعداء .

هكذا عندما اضطربت الامور في مصر في أعقاب الدولة الوسطى ، (اعتبارا من الاسرة ١٢) وآل حكم البلاد الى سنوسرت هرب الامير المصري « سنحات بن امنحعت » أو سنوحي الى فلسطين حيث أقام في كنف بعض ملوكها « عموانشي » الى أن تقدم به العمر قبل أن يعود الى مصر . وفي مقابل ذلك تذكر النقوش المصرية انه في عهد الملك سنوسرت

(١) عن ممالك العماليق في الحجاز والشام ومصر ، انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٢ .

الثاني قدم أحد ملوك العرب « ابيشع » أو ابشاي لزيارة بعض أمراء المصريين في الصعيد الأوسط . ولكنه أثر هذه العلاقات الودية تغيرت الامور فخرج الملك سنوسرت الثالث من مصر الى الشام لمعاقبة ملك فلسطين ، فكانت هذه فرصة انتهزها بدو « الشاسو » أو « الهكسوس » الذين تسميهم الروايات العربية « العمالقة » ، للانقضاض على مصر والاستيلاء على الدلتا [1] .

ورغم ما تقوله الروايات المصرية من ان البلاد تعرضت لاعمال من التدمير والقتل وانتهاك الحرمات، من قبل هؤلاء البدو، الا انه من الثابت تاريخيا ان احتكاك المصريين بهؤلاء الرعاة الفرسان ادى الى تعلم المصريين فنونا جديدة في الحرب، اهمها استخدام الخيل والعربات الحربية. ثم انه عندما انطلق المصريون يطاردون الغزاة فيما وراء حدود مصر الشرقية توثقت العلاقات مع بلاد الشام والعراق . فكان ذلك فاتحة عهد الامبراطوريات الكبرى التي توحد البلاد فيما بين مصر والعراق ، والتي كانت امبراطورية العرب المسلمين آخرتها .

العرب القدماء (العمالقة) في تاريخ مصر القديمة :

والحقيقة ان الروايات العربية الخاصة بتاريخ مصر القديم ، والتي تصنف على وجه الاجمال ضمن علم العجائب ، وهي التي جمعها ابن وصيف شاه في كتابه المعروف بـ « العجائب » (الذي ترجمه كارادى فو) والذي نقله البكري (عن المسعودي) في كتابه « المسالك والممالك » عندما تعرض لوصف مصر ، ثم نقله عنه صاحب كتاب الاستبصار في

(١) انظر زيدان ، ص ١١٠ ، نجيب ميخائيل ، الشرق الادنى القديم ، سورية ، ١٩٦٤ ، ص ٨١ ـ ٨٦ .

الفصول التي خصصها لمصر [١] ، تستحق عناية المختصين بدراسة تاريخ هذه العصور . فتاريخ مصر القديم ينقسم الى فترتين يفصل بينهما الطوفان ـ الامر الذي أصبح تقليديا بالنسبة لتاريخ العالم القديم ، كما سبقت الاشارة .

والفترة الاولى تبدأ بعمران مصر من لدن آدم ، وأول ملوكها هو « نقراوش ابن أضرم » (ملك ٢٣٠ سنة) ثم يتبعه في الملك ابنه «سورت» الذي كان موحدا فخلع ، وولى بعده مصرام الذي زاد في هياكل الكواكب واحتفل في شكرها ، وبر سدنتها وزاد في دخلها وقرابينها [٢] .

وفي هذه الفترة بنيت الاهرام بمعرفة « شوندين بن سلمون » عندما أخبره الكهان بنبأ الفيضان الذي يحل بالعالم . وعلى أيام فرعان ، الذي اشتق من اسمه اسم الفراعنة ، شاع خبر نوح .

والفترة الثانية تبدأ بعد الطوفان ، وأول ملوكها مصر حفيد حام بن نوح (وبذلك يصبح أهل مصر ضمن مجموعة الشعوب الحامية) . وبعده ولى ابنه قطيم (ابو الاقباط الذي ملك ٤٠٠ سنة) ، وفي أيامه هلكت عاد بالريح [٣] . والملك عديم هو أول من صلب على جريمة الزنا . أما أول من عبد البقر ونشر عبادتها في مصر فهو الملك « ساوس » ، الى ان ولى الملك « ماليق » الذي عاد الى التوحيد ديانة أجداده الأوائل ،

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، ط. جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، بمعرفة المؤلف ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٩٦ وما بعدها ، والاكليل للهمداني ، ط. ليدن ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) كتاب الاستبصار ، ص ٥٢ .

(٣) نفسه ، ص ٦٦ .

مصر وقطيم . ولا نعرف ان كان اسم ماليق له علاقة بالعماليق (ملوك الشام الذين سيذكرون فيما بعد) وذلك أن الرواية تسجل له غزوات في بلاد البربر حتى افريقية والاندلس ، مما يذكر بالعلاقات القديمة بين الكنعانيين والبربر .

ومنذ عهد الملك « كلكن » تبدأ علاقات مصر مع المشرق العربي. ففي أيامه كان نمرود ابراهيم الخليل (عم) الذي ملك العراق وعرف بشدة البأس حتى أراد أن يستبد بملك مصر ، لولا ما أظهره « كلكن » من الحكمة والقوة .

وأول الفراعنة بمصر ، كما يزعم القبط ، هو فرعون ابراهيم (عرف بذلك لبأسه وكثرة قتله) . وعلى أيام ابنته « حورية » بدأت الحرب الأهلية في مصر ، وهرب أكبر خصوم الملكة (أمير مدينة أتريب) الى الشام حيث كان الكنعانيون من ولد عمليق ، وطلب من ملكهم المعونة . وكاد الامير المصري الهارب أن يدخل مصر على رأس جيش أهل الشام لولا احتيال الملكة المصرية التي أوقعت بين « جيرون » ملك الكنعانيين وبينه ، وانتهى الامر بقتل الامير المصري بيدي الكنعاني الذي استخدمته « حورية » في بناء الاسكندرية ثم قتلته ، وهي تقول : « دماء الملوك شفاء النفوس » وهو الامر الذي كان يعتقده العرب في الجاهلية .

وعندما ثار ابن أخت امير اتريب فيما بعد واستنصر بملك العماليق صاحب الشام ، وهو الوليد بن دومع ، خرج هذا الاخير لنصرته وغلب على مصر . وهنا تؤكد الرواية ان عماليق الشام الذي غلبوا على مصر من العرب العاربة (أي البائدة) .

وبعد الوليد ملك ابنه الريان الذي عرفه القبط باسم «نقراوش» ، وهو فرعون يوسف (عم) • أما وزيره الذي آلت اليه أمور الدولة ، فهو « قطفير » الذي يعرف باسم « العزيز » ، والذي ورد ذكره في القرآن العظيم في قصة يوسف (عم) • وقصة بيع يوسف تشير الى العلاقات التجارية بين مصر والشام ، اذ اشتراه الوزير من بعض قوافل أهل الشام التي كانت تنزل بناحية « الموقف » من الفسطاط ، وهو سوق الدواب في العصور الاسلامية • وتستمر العلاقات بين مصر والشام بمجيء آل يعقوب الى مصر اثر مجاعة حلت بالشام •

وعلى أيام الملك « دارم » بن الريان ، وهو رابع الفراعنة من العماليق ، كانت وفاة يوسف الذي شغل منصب نائب الملك ، وقام باعمار اقليم الفيوم • هذا ، ولو أنه توجد رواية أخرى تقول أن الريان بن الوليد صاحب يوسف عاش الى زمن موسى ، وأنه أدركه الاعجاب فتأله ودعا الناس الى عبادته ، فهو فرعون موسى (عم) المذكور في القرآن •

والرواة مختلفون في أمر فرعون موسى ، فهو الوليد بن مصعب في رواية أخرى • وهو أجنبي ليس من أهل مصر ، والغالب أنه من العماليق أو من عرب لخم من الشام • وذلك ان الرواية الراجحة تقول انه قدم من البادية يحمل خمرا للبيع في وقت كان أهل منف يتنازعون فيمن يولونه أمرهم ، فوقع الاختيار عليه • وبصرف النظر عن الطابع الاسطوري لهذه القصة فانها تعني أنه شامي الاصل اذ كانت الشام هي بلاد النبيذ دون منازع •

وتختم الرواية تاريخ مصر القديم بتمليك موسى بلاد مصر والشام لبني اسرائيل يتوارثونها ملكا عن ملك ، ومنهم كان داود وسليمان (عم)

الى أن بعث الله عيسى (عم) فملك النصارى مصر الى آن جاء الاسلام •

وهكذا فرغم طابع الرواية القصصي أو الاسطوري ، ورغم عدم تشابه الاسماء التي توردها مع ما كشف عنه العلم الحديث من تاريخ مصر القديم ، فان قصة بداية تحرش العماليق والكنعانيين في جنوب الشام بمصر ثم تمكنهم من السيطرة عليها ، بفضل النزاعات الداخلية ، يمكن ان تتفق بشكل عام مع تاريخ تغلب جماعات البدو الذين عرفوا بالهكسوس على مصر • واذا كانت الرواية العربية تربط بين ملوك هذه الدولة وجماعة الأنبياء الذين دخلوا الى مصر عن طريق الشام ، من : ابراهيم ويوسف ويعقوب وموسى ، فان هذا الربط معقول على أساس ان ملوكها كانوا من قرابتهم •

هذا ويحاول العلماء المحدثون فعلا تحديد تواريخ ظهور هؤلاء الأنبياء بالنسبة لهذه الفترة • والرأي ان عصر ابراهيم يقع فيما بين أواخر الألف الثالث ق٠م٠ وأوائل الألف الثاني (ما بين ٢٠٦١ — ٢٠٠٠ ق٠م٠ و ١٩٨٦ — ١٧٠٠ ق٠م٠) ، ولو انهم يجعلونه أصلا من أهل العراق ، من الجنوب حيث مدينة أور الكلدانيين أو من الشمال حيث حران بالجزيرة ما بين دجلة والفرات • أما يعقوب ويوسف فالمفروض انهما دخلا مصر في القرن ١٨ أو ١٧ ق٠م٠ ، بينما المفروض ان موسى عاش في مصر في القرن ١٣ ق٠م٠ وبناء على ذلك يكون موسى وحده غير معاصر للهكسوس ، ومن الجائز أن تكون قصة طفولته وخروجه من مصر قرينة على استبداد الفراعنة بالاسرائيليين بعد طرد الهكسوس على أساس أنهم من بني جلدتهم [1] •

(١) انظر محمد بيومي مهران ، اسرائيل ، ص ١٧١ — ١٧٧ ، ٢٥٥ وما بعدها •

أما عن الجزء الخاص بتمليك موسى مصر والشام لبني اسرائيل يتوارثون ملكها على أيام داود وسليمان فليس بصحيح ، وذلك انالثابت تاريخيا هو أن ملوك مصر منذ أحمس الذي طـرد الهكسوس ومن أتى بعده ، مثل : تحوتمس الثالث (حوالي ١٥٠٠ ق٠م٠) ، ثـم رمسيس الثالث (حوالي ١٢٠٠ ق٠م٠) رأوا ان خير وسيلة للدفاع عن حدودهم هي مطاردة الغزاة في قلب بلادهم شرقي مصر ، وعن هذا الطريق اتسعت الامبراطورية المصرية في الدولة الحديثة فوحدت بين مصر وشمال بـلاد العرب والشام حتى العراق وبلاد الحيثيين ٠

وكان رمسيس الثالث من الملوك الذين اهتموا باكتشاف سواحـل البحر الاحمر حتى بلاد بونت ، التي يمكن أن تكون الصومال واريتريا أو ما يواجههما من سواحل اليمن ٠ وبفضل الأسطول الذي بناه في البحر الاحمر أمن طرق التجارة بين مصر والشرق الاقصى ، كما اعتنى بطريـق القوافل الموصل بين ثنية النيل عند مدينة قفط (قنا) وساحـل البحـر الاحمر عند القصير ، وهو طريق عيذاب الـذي ازدهـر ابان الحـروب الصليبية عندما انقطع طريق سيناء والعقبة ٠ والى جانب ذلك فمن المعروف ان المصريين غزوا القدس أيام شيشنق ، والمعروف ان ذلك تم على عهـد خلفاء سليمان (١) ، ولو انه من المحتمل أيضا ان يكون ذلك قد حـدث على أيام سليمان (٢) ٠ هذا ، كمـا أن الامارة الآرامية في دمشق كانت قد هددت المملكة الاسرائيلية أيام سليمان نفسه ، واستولت على الجليل وجلعاد (٣) ٠

---

(١) نجيب ميخائيل ، الشرق الادنى القديم ، سورية ، ص ٣٥٥ ٠
(٢) ظاظا ، ص ٨٦ ٠
(٣) نجيب ميخائيل ، الشرق الادنى القـديم ، سوريـة ، ص ٣٣٧ ٠
مهران ، اسرائيل ، ص ٤٨٣ ٠

عـاد :

المملكـة الاولـى :

اذا كان الهكسوس الذين دخلوا مصر منذ أوائـل الألف الثـاني قبل الميلاد يمثلون جماعات العمالقة من العرب البائـدة ، فالمفروض أن يكون بنو عمومتهم البائدة من عاد وثمود وطسم وجديس وارم وجرهم وغيرهم قد عاصروهم ٠ ولكن الروايات العربية تريـد أن تكون قبائـل عاد هي أقدم قبائل العرب على الاطلاق ٠ ولهذا تجعـل الرواية العربيـة الخاصة بتاريخ مصر القديم هلاك قبائل عاد بالريـح ــ وهـي القصـة المعروفة في القرآن الكريم (١) ــ معاصرة للفترة الاولى من التاريخ المصري القديم ، على عهد قطيم بن مصر « أبو الأقباط » ٠ وهذا أمر مقبـول في اللغة العربية اذ أصبحت كلمة عادي تعني : القديم أو الضارب في القدم ، ومنها اشتقت كلمة العاديات بمعنى التحف أو الآثار القديمة ٠

وحسب الأنساب العربية فان عاد جد القبيلة هو عاد بن عوص بن أرم بن سام ، الذي سار من بابل حيث تجمع حفدة نوح ليستقر مع بنيه الى جانب يعرب في اليمن ، في منطقة الأحقـاف (٢) ٠ وكان لعـاد عشرة

---

(١) انظر الطبري ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، وما بعدها حيث الاشارات الـى سور : هود : ٥٠ ــ ٥٣ ــ ٥٤ ــ ٦٢ ــ ٦٥ ٠
ــ الشعراء : ١٢٨ ــ ١٣٦ ــ ١٥٥ ٠
ــ الاحقاف : ٢٣ ــ ٢٤ ــ ٢٥ ٠
ــ الحاقة : ٦ ــ ٧ ٠
ــ القمر : ١٩ ٠
ــ الاعراف : ٧٣ ٠٠٠ الخ ٠
(٢) عبيد بن شرية ، اخبار اليمن ، ص ٣١٦ ــ ٣١٧ ٠

أبنـاء • ولا ندري ان كان الرقـم عشرة هنـا مقصودا لذاتـه أم لا ، اذ المعروف عند العرب أن من أهم أماني الرجل أن يصل أبناؤه الى عشرة حتى انه كان ينذر العاشر منهم للآلهة كنوع من الشكر حتى يحفظ لهـم الزيادة والنماء • والحقيقـة ان العدد الذي يقدمه عبيد بن شريـة هو ١٢ (اثنا عشر) ، وهم : شداد ، والخلود (رهط النبي هود) ، وتيم ، وبر ، وبهار ، والعنود ، والحقود ، والصور (رهط أبي سعيد المؤمن)، وصد (رهط لقمان صاحب النسور) ، وفد ، وثمود (وان كان وضـع ثمود هنا صحيحا فهذا يعني فرعا آخر غير ثمـود المعـروف) وأخـيرا متاب (رهط صاحب السحابات) (١) •

وحسب الروايات القديمة كان العاديون يتمتعون ببسطة في الجسم وقوة البدن وطول العمر وسعة الرزق ، مما يميزهم عـن غيرهـم مـن الناس ، وفي ذلك تقول الآيات : « وزادكم في الخلق بسطه » ، و « أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون » (٢) • وفي ذلك ينسب الى عاد شعر يقـول فيـه :

اني أنا عاد الطويل النادي ... ذو العـز والقـوة والسداد

والبطش والاموال والأولاد ... يا قوم أجيبوا صوت المنادي (٣)

---

(١) نفس المصدر (ابن شرية) ، ص ٣٢٥ ، وقارن ، الاكليل للهمداني ، ط. ليدن ، ج ١ ، ص ٣٧ حيث يجعلها احدى عشرة قبيلة .

(٢) ابن شرية ، ص ٣٢٥ ، وقارن الطبري ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، « صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية » : سورة الحاقة : ٧ ، مروج الذهب ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن شرية ، ص ٣١٧ ، وقـارن المسعودي ، ص ١١٠ حيـث بيت الشعر الاول :

انى انا عاد الطويل البادي ... وسام جدي ابن نوح الهادي

أما منطقة الأحقاف التي نزلوهـا ، والتي ورد ذكرها في الايـة : « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف » (١) ، فهي اقليـم الرمال الممتد ما بين حضرموت وبحر عدن • والمفروض ان شداد بن عاد هو الذي أقر ملكهم هناك بفضل بنائـه للعاصمـة الاسطورية المعروفة بـ « أرم ذات العماد » التي ظن أنها الموضع القديم الذي بنيت عليه الاسكندرية • وفي ذلك تقول الروايات العربية أن الاسكندر عندما أتى موضع الاسكندرية أصاب به أثر بنيان وعمد رخام ، منها عمود عظيم مكتـوب عليه بالقلـم المسند ، وهو القلم الأول من أقلام حمير ، وملوك عـاد : أنا شداد بن عاد ، سددت بساعدي الوادي ، وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوطاد ، وبنيت أرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد •••» (٢) هذا ، كما قيل انها الموضع من دمشق الذي بناه جيرون والذي يعـادل السوق المجاور للمسجد ، وبعض المسجد الجامع نفسه ، كمـا يقـول المسعودي (٣) •

أما عن السبب في هلاك قبائل عاد وزوال مملكتهم ، فهو عتوهم في الارض ، كما تقول الآية : « وأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة » ، وعدم انصياعهم لنبيهم هـود ، واستمرارهم في عبادة أصنامهم ، ومنها : صداء ، وبغاء ، وصمود • فعندمـا دعاهـم « هود » ردوا نصيحته وظنوا أن بعض آلهتهم أصابـه بجنـون • وفي ذلك ، تقول الآية : « وقالوا يا هود ما جئتنا ببينـة ، وما نحـن بتاركي

---

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٢٥ .

(٢) كتاب الاستبصار ، ص ٩٢ ، المسعودي ، مروج الـذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ٢٥٠ ، وانظر زيدان ، ص ٧٥ .

آلهتنا عن قولك ، وما نحن لـك بمؤمنين ، أن نقول الا اعتـراك بعض آلهتنا بسوء (هود : ٥٣ — ٥٤) .

وبدأ العذاب ينزل عليهم بالقحط المتوالي ثلاث سنين . الاولى سموها جحرة ، والثانية كحلا ، والثالثة كلحا (١) . وفي ذلك ، قيل شعر :

ازما جاءت ثلاثا   ما يبل القطر عودا
جحرة تبعت بكحل   واحتوت كلح العودا (٢)

وكما كانت عادة العرب ذهب وفد منهم الى البلد الحرام مكة يطلبون من الله الفرج ، وعلى رأسهم الأشراف ، ومنهم لقمان صاحب النسور . ولكن الوفد نسي ما جاء من أجله ، في غمرة كرم الضيافة التي قوبلوا بها ، فانصرفوا الى أكل الخبز واللحم وشرب الخمر وسماع القيان . وفي مثل هذه الظروف لم يجد الدعاء من أجل : « القطر الذي ينبت الشجر ويكثر الثمر ويحيي البشر » . وكان الرد أن نادى المنادي : « رمادا أرمد ، لا يبقى من عاد بن عوص أحدا ، لا والـدا ولا ولـدا ، الا القبيل الأبعدا (أي أبناء سعيد المؤمن) » (٣) .

وأتتهم الريح الصرصر العاتية — من واد كان يقال له مغيث ، كان تيهم من قبله الغيث — كأمثال الجبال لها لجم بأيدي رجال ، كأن في وجوههم شهب النار ، كما وصفتها « مهد » نائحة عاد — التي اعتبرت

(١) عبيد ابن شرية ، ص ٣٢٥ — ٣٣١ ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .
(٢) عبيد ابن شرية ، ص ٣٤١ .
(٣) عبيد ابن شرية ، ص ٣٣١ — ٣٣٥ .

أول نائحة على الأرض — ذلك الوصف الرائع . وفي ذلك ، قال أمية بن الصلت او النابغة الذبياني :

رأت ما رأت « مهد » فقيل لهـا   ماذا ترين فقـالت أنظر العجبـا
أرى رياحـا كأمثال الجبال لهـا   لجم بأيدي رجال تشبه اللهبا

وعصفت جبال الريح بجبابرة عاد فصرعتهم وأهلكتهم طول « سبع ليال وثمانية أيام حسوما » ، وتركتهم « كأنهم اعجاز نخل خاوية » ، كما تقول الآية (الحاقة : ٧) (١) .

الهالكة الثانيـة :

وهكذا انتهت عاد الأولى ، وبقيت عاد الآخرة ، ولكن في مناطق جديدة من احواز مكة ، وهم أبناء أبي سعيد المؤمن الذي آمن بهود . وكان متزوجا من هزيلة العمليقية ، أخت بكر بن معاوية الذي أضاف الوفد في مكة . كذلك نجا لقمان الذي لاذ بالبيت وتضرع وطلب العمر ، فأعطي عمر سبعة أنسر ، فعاش ١٧٦٤ سنة منها ١٤٠٠ سنة عمر النسور (٢) .

ولكن هؤلاء أيضا انتهى بهم الأمر الى البغي والعتو ، ووقع الشر بينهم وبين ثمود الذين أفنوهم عن وجه الأرض، في قصة من ذلك القصص المعروف بأيام العرب ، حتى لم يكن لهم عقب عندما كان عبيد بن شرية يروي أخباره (حوالي سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م) (٣) .

هذا عن قصة عاد ، كما روتها أقدم الأخبار العربية مستندة الى القرآن والتفسير في كثير من أطرافها . ورغم ما تشير اليه الروايات

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٣٧ — ٣٤٠ .
(٢) عبيد بن شرية ، ص ٣٦٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ — ٣٧٠ .

العربية من وجود قبر هود بالاحقاف في كثيب أحمر تخالطه مدرة حمراء ، ورغم ما تشير اليه من ان الناس كانوا يطلبون زيارته ، وان بعضهم كان يوفق في الوصول الى موضعه (١) ، فان الدراسات الحديثة لم توفق حتى الآن في العثور الى ما يشير الى عاد . هذا ويشير بعض الكتاب اليونان بين ما يذكرونه من قبائل اليمن ، الى قبيلة اسمها « ادرميتاي (Adramitai) » يظن بعض الكتاب أن المقصود بها هم العاديون أو « العادرميون » على أساس انها عاد أو عاد أرم (٢) ، ولو ان الاقرب من ذلك أن يكون المقصود الحضارمة ، حسبما توحي الكلمة .

ثمود :

المملكة الاولى :

وعندما تذكر قبائل عاد تذكر الى جانبها قبائل ثمود فكأنهما توأمتان ، وهما كذلك ولكن في سوء السيرة وتعاسة المصير . والحقيقة ان قصة كل من الشعبين هي في نفس الوقت قصة نبي من الأنبياء عصاه قومه فكان جزاؤهم سوء العذاب ، فهود هو نبي عاد ، ونبي ثمود هو صالح صاحب الناقة .

وثمود حسب شجرة الأنساب العربية هو ثمود بن عابر بن أرم ، فهو ابن عم عاد ، وكانت هجرته مع بنيه وآله من بابل الى اليمن بعد هجرة عاد . أما استقراره في اليمن فكان في قلب اليمن، في وادي صنعاء، مجاورا ليعرب حيث تكلم باللسان العربي . ثم ان الثموديين انتشروا بعد ذلك في مواضع من الحِجْر الى قرح أي نحو وادي القرى (وهي

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .
(٢) انظر زيدان ، ص ٧٥ — ٧٦ .

مدائن صالح الحالية) (١) الى رملة فلسطين على ١٨ (ثمانية عشر) ميلا بين الحجاز والشام (٢) ، وذلك في دولتهم الثانية ، كما يأتي .

والنزول في وادي صنعاء يعني الاقامة في منطقة غنية كثيرة الماء والخصب . أما التوسع نحو وادي القرى وجنوبي الشام ، فيعني الهجرة نحو الشمال ، اما بسبب زيادة الكثافة السكانية بين الثموديين أنفسهم مما دعا بعضهم الى البحث عن موارد جديدة للعيش ، واما ان يكون نتيجة لصراعات فيما بينهم ، أو بينهم وبين غيرهم من أبناء عمومتهم المهاجرين من العراق — حسبما تنص الرواية — أو بسبب ظروف طبيعية طارئة . والذي يتضح من الرواية فعلا هو أن الهجرة الى وادي القرى كانت بعد هلاك عامة ثمود ، وان المهاجرين هم الذين آمنوا بصالح . فكأن ثمود وادي القرى هم ثمود الآخرة ، كما كانت عاد الآخرة هم رهط أبي سعيد المؤمن .

أما عن الفاصل الزمني بين « هود » عاد وبين « صالح » ثمود فتقدرها الرواية بـ ٥٠٠ (خمسمائة) سنة (٣) ، وذلك بعد فناء عاد الآخرة (٤) . ولما كانت الرواية تحدد الفارق بين صالح وبين ابراهيم بعده بـ ٢٠٠ (مائتي) سنة ، ولما كان عدد من الباحثين المحدثين يرون تحديد عصر ابراهيم بحوالي سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، كما سبق ، فكأن رواية عبيد تحدد هلاك عاد بحوالي سنة ٢٤٠٠ ق.م. ، وابادة ثمود بعد ذلك بـ ٥٠٠ سنة ، أي حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م.

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣١٧ — ٣١٨ ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٤ (يعتبر المسعودي عابر بن ارم اول ملوك ثمود) ، ص ١١١ .
(٢) عبيد بن شرية ، ص ٣٧٠ ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٧ .
(٣) عبيد بن شرية ، ص ٣٢٤ .
(٤) عبيد بن شرية ، ص ٣٧٠ .

والثموديون ـ مثلهم مثل العاديين ـ يتصفون بالفضل في الأبدان والقوة وطول العمر ، الى جانب السعة في الرزق • أما عن سبب دعوة النبي صالح بينهم ، فهو ما انتشر فيهم من الطغيان والفساد ، وخاصة عبادة الأصنام • ويفهم من الرواية ان الجماعة الثمودية كانت منظمة في دولة لها مؤسساتها السياسية والدينية • فكان لهم رئيس (رأس) هو : جندع بن عمرو بن خراش وهو الملك كما يرى المسعودي بحق [1] ، وصاحب حرب هو : خليفة بن عمرو بن لبيد بن خراش ، ولهم كاهن هو زيان بن صمغة ، كما كان لهم صاحب أوثان ، هو : ذؤاب بن عمرو •

أما عن أعيادهم فالظاهر انها كانت مواسم تجارية دينية اجتماعية ، تقع في فصول السنة الخصبة ـ مثلما كان الحال عند بقية العرب • فقد « كان لثمود عيد في كل سنة يخرجون فيه الى بعض نزهاتهم بأوديتهم . فيخرجون بالخمر والطعام والأجزار ، ويخرجون معهم أصنامهم التي يعبدونها ، ويقيمون هناك أياما يأكلون ويشربون ويلعبون ، وتضرب لهم القيان بالدفوف والمعازف ، ويجتمعون لذلك العيد من قراهم كلها في ذلك الموضع لذلك اليوم » [2] •

ومثل هذا العيد كان فرصة مناسبة لمناقشة أمور الجماعة على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدينية • ففي هذا العيد طلبت الجماعة من صالح النبي أن يصنع لهم آية يعتبرون بها ، بأن يخرج لهم من بعض الهضاب (الصخور) : «ناقة حمراء شعراء وبراء مهبرجة» ـ وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمجتمع بدوي يعيش على نتاج الابل ـ « لها ضجيج

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٥ .
(٢) انظر عبيد بن شرية ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

وعجيج ورغاء شديد ، تفور لبنا سائغا » [1] • وكان من الطبيعي ان يستجيب الزعماء السياسيون للدعوة ، وأن يرفضها أصحاب المصلحة من رجال الدين ، مثل : صاحب الكهانة وصاحب الأوثان [2] •

وقصة الناقة مهمة بالنسبة الى تنظيم ذلك المجتمع البدوي ، من قسمة الماء بين الدواب على أيام الاسبوع ، وكيف كان للدواب طريق لورود الماء ، وطريق آخر تصدر منه بعد أن تمتلىء ، ومن : صعودها على ظهر الوادي للرعي صيفا ، وهبوطها الى بطن الوادي شتاء ، وكيف يسكن أن تصطدم مصالح الجماعات المختلفة بسبب هذه المسائل •

وفي القصة أشياء لها مغزاها ، من : طبيعة الاسماء ، وبعض العادات الاجتماعية التي عرفها العرب قديما • فالعجوز الفاسقة صاحبة الماشية ، التي حقدت على الناقة ، اسمها : عنيزة وكنيتها أم غنم ، وابنتها الجميلة ، هي : الرباب • أما أختها الجميلة الغنية ، فهي : الصروف ، وزوجها الفقير الذي كانت قد فوضته في مالها . كما تفوض المرأة زوجها ، فهو : ضيم • وعندما تختلف الصروف مع زوجها ، تطلب مناظرته في حضرة بعض بني عمومتها :

والرجلان اللذان عقرا الناقة بتحريض عنيزة والصروف ، ثم بتشجيع الاولى بدفها وانشادها واغراء ابنتها الرباب ، وهي في زينتها ، فهما : مصدّع وقدّار • والاول رمى الناقة بسهم في ساقها ، والثاني ضرب عرقوبيها بمعوله حتى أبانها ثم طعنها بالسيف في لبتها فنحرها ،

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٧٢ .
(٢) عبيد بن شرية ، ص ٣٧٣ ، وقارن المسعودي (الذي ينقل من ابن شرية) ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٥ ـ ١٧ .

وأتبع ذلك برمي سقبها (صغيرها) وكانت فرصة لكي يقتسم الناس لحمها [1] •

وكانت مذبحة الناقة بعد صدورها من الماء في يوم «الاربعاء» الذي كان يعرف عند العرب قديما بـ « دبار » ، وذلك أن أيام الاسبوع الجاهلية كانت كالآتي : ابتداء من يوم الاحد : يوم أول ، أهون ، جبار ، دبار ، مؤنس ، عروبة ، شيار [2] •

وعندما أغتيلت الناقة ، « كان (صالح) نازحا عنهم في دار قومه ، لا علم له بما فعلوا بالناقة » ، وكان طبيعيا أن يدعو عليهم ، وأن يجيب الله دعاءه • وبدأت نقمة الله بقتل السفهاء الذين شاركوا في الجريمة ، واتهمت عامة ثمود صالحا وأصحابه بقتلهم • وردّ عليهم صالح بأن الله سينزل بهم العذاب في ثلاثة أيام ، وتم الاتفاق بين عامة ثمود وبين آل صالح على الانتظار تلك المدة ، فان نزل بهم العذاب فهو صادق والا سلمه أهله اليهم « بما جنى على نفسه من الكذب » [3] • وهذا ما يعرف عند العرب « بالمباهلة » — أي الاحتكام الى القوى الالهية عن غير الحرب ، مثل التعرض للماء أو النار — ومثل هذا ما عرفته الشعوب البدوية الأخرى من البرابرة في العصور الوسطى في أوروبا ، مثل الجرمان ، وكان يعرف عندهم باسم « الأوردالي » (Ordalie) •

ونزل العذاب بثمود خلال ثلاثة أيام ، فاصفرت وجوههم في الاول

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٧٥ — ٣٨١ •

(٢) عبيد بن شرية ، ص ٣٨٤ ، وعن أسماء سني العرب وشهورها واياها ، انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩١ ، الهمداني ، الاكليل ، ط. ابسالا ، ج ١ ، ص ٣٥ •

(٣) عبيد بن شرية ، ص ٣٨٣ — ٣٨٥ •

منها ، واحمرت في الثاني ثم اسودت في الثالث ، وأتتهم الصعقة في اليوم الرابع ، فقضت عليهم • ولا ندري أي نوع من الوباء هو الذي يؤدي الى مثل هذا التغير في الألوان والأبدان • وربما كان من المهم أن نشير الى ان القوم حفروا قبورهم في بيوتهم ، وأنهم تحنطوا ولبسوا الاكفان • وكانت أكفانهم من الانطاع وخيوطهم من المر [1] •

المملكة الثانية :

أما صالح ومن آمن به ، فقد خرجوا الى الشام حيث نزلوا رملة فلسطين ، وربما عنى ذلك أن سكان وادي القرى من ثمود ، فيما بين الشام والحجاز ، هم ثمود الثانية — كما كان بنو أبي سعيد المؤمن هم عاد الثانية في الحجاز ، فيما تقدم [2] •

وقصة استقرار ثمود في اليمن ثم هجرتها الى شمال الحجاز ، مقبولة اذ تتفق مع ما هو معروف من هجرات عرب الجنوب نحو الشمال • واذا كانت الأبحاث الأثرية والتاريخية الحديثة تدلل على ان بلاد ثمود كانت — قبل التاريخ الميلادي — في وادي القرى أو ما يعرف حاليا بمدائن صالح ، فان ذلك لا يقلل من أهمية الرواية العربية ، بل نرى انه يؤيدها أو يرجح صحتها •

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٨٧ •

(٢) انظر المسعودي الذي ينص على أن بيوت ثمود الى وقته ، عبارة عن : « ابنية منحوتة في الجبال ، ورسومهم باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى ، وبيوتهم منحوتة في الصخر بأبواب صغار ، ومساكنهم على قدر مساكن اهل عصرنا ، وهذا يدل على ان أجسامهم على قدر أجسامنا » • (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٤ — ١٥) •

(٧) من أطلس خط (النشور بمناسبة مرور الفي سنة على انشاء الامبراطورية الايرانية – اصفهان ١٣٩١ هـ) بمعرفة حبيب الله فضائلي (ص ١٠٨)

فلقد ذكرت بلاد ثمود ضمن البلاد التي استولى عليها الملك الأشوري سرجون في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد (سنة ٧١٥ ق.م) ، واذا كان ما يفهم من وصفها انها كانت تقع بالقرب من مكة أي جنوبي الحجْر ، فان ذلك يؤيد قصة الزحف من الجنوب نحو الشمال : ذلك أن الكتاب اليونان يحددون بلاد ثمود ، في مطلع التاريخ الميلادي ، بمنطقة الحِجْر التي يسمونها « آجرا A. n » [1] ، كما عرفت قوة الفرسان العربية التي كانت في خدمة الامبراطورية في بلاد الشام في القرن الخامس باسم السراسينين (العرب) الثموديين (Equites Saraceni Thamudeni) [2] .

ولما كانت منطقة مدائن صالح قد دخلت قبيل التاريخ الميلادي في نطاق دولة بطرا (البتراء) النبطية ، مما سيأتي ذكره فيما بعد ، واذا كانت النقوش التي وجدت فيها تعتبر من النوع النبطي أو الآرامي وليس من نوع المسند أي كتابة جنوب الجزيرة في اليمن ، فان هذا لا يمنع أن تكون ثمود قد سكنت المنطقة وأن يكون الثموديون قد اتخذوا بعض هذه الخطوط اثر نقلتهم نحو الشمال . وذلك ان قصة تطور الخط

---

(١) انظر زيدان ، ص ٧٨ ، وقارن تاريخ العرب القديم لنيلسن : الترجمة ، ص ٣٨ ــ ٤١ ، والحضارات السامية القديمة لموسكاتي . الترجمة ، ١٧٨ ــ ١٧٩ .

(٢) انظر كوسان ده برسفال (A P.Caussin de Perc val)دراسة في تاريخ العرب قبل الاسلام ، باريس ، ١٨٤٧ (بالفرنسية) ، ج ١ ، ص ٢٧ كما وجدت فرقة أخرى من الفرسان الثموديين الفلسطينيين (Eqllue. Thamudeni Illyriciani) وقارن جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٩ .

العربي لها ارتباطها بتغير البيئة والمجتمع والتقاليد • ومن هنا صنف المختصون الخطوط التي وجدت في أقاليم شمال الحجاز وجنوب الشام الى عدة أنواع ، منها : الكتابة المعينية واللحيانية ، والصفوية ، والثمودية ، ورأوا أنها جميعا فروع لخطوط عربية جنوبية ، أي من كتابة المسند اليمنية [1] • وهذا يعني أن أصحاب هذه الكتابات جميعا أصلهم من اليمن • واذا كان بعض المتخصصين (مثل جلازر) يرى أن لحيان (أصحاب الكتابة اللحيانية) هم من ثمود ، فان ذلك يرجح الرواية العربية التي تشير الى أن هذه المنطقة كانت جميعا لثمود الثانية أو الآخرة • وبذلك لا تكون مصطلحات : لحيانية وثمودية وصفوية ، أكثر من علامات لتسهيل دراسة النقوش الثمودية المتطورة على مر العصور •

مملكتا جديس وطسم :

جديس :

المفروض ــ حسب شجرة النسب العربية ــ أن جديسا هو أخو ثمود ، فهو جديس بن عابر بن أرم بن سام • وتبعا لأخبار عبيد بن شرية ، فان ثمودا هو الذي دعا أخاه جديسا الى ترك بابل واللحاق به في

(١) انظر جويدي ، ص ٨ ، ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (الترجمة) ص ٨٨ ، زيدان ، ص ٧٨ . هذا ، ولا بأس من الاشارة الى ان المسعودي الذي يعرف آثار الثموديين جيدا يقول ان قبيلة تعرف بـ « داسم » هلكت بالريح السوداء الحارة ، وكانت تسكن في الجولان وجازر من ارض نوى من بلاد حوران والبثنية ، وذلك بين دمشق وطبرية من ارض الشام (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٢٠). وانظر شكل (٧) ص ١١٩ (عن المقابلة بين الخطوط العربية القديمة) •

اليمن • وتؤيد القصة ذلك بالشعر الذي هو : « ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية » ، بصرف النظر عما يمكن أن يوجه الى هذا النوع من الشعر أو الرجز اذا ما أريد نسبته الى عصر ما قبل الاسلام ، أو اذا ما قورن بما هو معروف من أقوال العصر الجاهلي • فقد وجه ثمود دعوته الى أخيه ، قائلا :

أيا جديس يا جديس ويحكا ... أخوك لا تؤثر عليه عمكا

وعندما حضر جديس الى اليمن رد على أخيه ثمود بلسانه العربي الجديد :

أيا ثمود قد أجبت صوتكا ... وقد عرفت أن مجدي مجدكا

وكان نزول جديس وبنيه في أرض اليمامة [1] ، في جنوب شرقي نجد فيما بين عمان والبحرين ، التي كانت تعرف من قبل باسم قريتها « جوّ » [2] • وعلى عكس الرواية التفصيلية الخاصة بكل من عاد وثمود ، والتي جعلت من تاريخ ثمود استمرارا لتاريخ عاد ، كما سبق ، نجد الرواية هنا مبتورة فيما يتعلق بجديس اذ تتركهم في اليمامة لتعالج تاريخ اليمن من القحطانية ، فلا تعود الى ذكر جديس الا في ثنايا تاريخ اليمن ، وفي صراعها مع شقيقتها قبيلة طسم ، وذلك في نهاية تاريخ كل من القبيلتين • ومن وصف بطليموس لجديس التي يذكرها باسم

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣١٧ ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١١ •

(٢) عبيد بن شرية ، ص ٤٨٣ ، الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦١ ، المسعودي ، الذي ينقل اخبار ابن شرية ، مروج الذهب ، ص ١١٣ ــ ١١٤ •

جوديست (Jodicites) في موضع يتفق مع اليمامة ، يفهم ان قبيلة جديس كانت مزدهرة أيام بطليموس حوالي سنة ١٢٥ م [١] •

طسم :

وطسم هو ابن لاوذ بن أرم بن سام ، فهو شقيق عمليق الذي ترك بابل بعد جديس • والمفروض أن طسما لحق بأخيه عمليق [٢] ، ولكن ولده تبعوا جديسا في اليمامة ، لما علموا من سعة أرضهم • وهذا واضح من وصف الهمداني لليمامة وأوديتها وقراها الكثيرة النخل والزروع والأودية والآبار (البئار) [٣] • وتقول رواية عبيد ان طسما دخل بعد ذلك أرض فارس حتى قيل ان جميع أجناس الفرس من ولده [٤] •

وبعد أن تنقطع أخبار كل من جديس وطسم عند معالجة القحطانية في اليمن تظهر أخبارهما فجأة لتنهي تاريخ كل من القبيلتين ، على أيام ملك اليمن حسان تبع • وفي الرواية تحل قبيلة عمليق محل طسم ، بمعنى دخول تاريخ طسم وبنيه في تاريخ أخيه عمليق وبنيه ، مما يمكن أن يفهم منه أن عمليقا كان قد شخص الى اليمامة اثر جديس ثم تبعه طسم الى هناك ، أو مما يفهم منه أن جميع العرب البائدة يمكن أن يطلق عليهم اسم العمالقة ، كما رأى البعض •

أما عن استبداد طسم (أو عمليق) بجديس ، فيفهم منه أن القادمين الجدد غلبوا الجديسيين على أرض اليمامة • هذا ، ولو أن الهمدانى

(١) ده برسفال ، بالفرنسية ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٢) عبيد بن شرية ، ص ٣١٩ ، وقارن المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١٣) الذي يقول بنزول طسم البحرين :

(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٠ :

(٤) عبيد بن شرية ، ص ٢٣٠ :

عندما يصف بعض الحصون العتيقة في أرض اليمامة ، في القرية الخضراء ، وهي خضراء حجر ، ويقول انها : « حضور طسم وجديس ، وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم والواحد بتيل وهوهَن مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين » ، وأنه ربما ارتفع الواحد منها في السماء الى مائتي ذراع وأكثر ، يعود فيخصص ، قائلا : « كانت جديس تسكن الخضرمة ، وكانت طسم تسكن الخضراء » [١] • ولما كانت الخضرمة هي « جوّ » القديمة ، وهي التي كانت تعني اليمامة ، كما رأينا ، وكما يسجل الهمداني ذلك أيضا [٢] ، فان ذلك يمكن أن يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الوافدين الجدد من طسم غلبوا على بني عمومتهم من الجديسيين على قصبة البلاد — مع مرور الوقت • وفي ذلك يقول المسعودي ان جديسا ملكت عليها الاسود بن غفار ، وان طسما ملكت عليها عملوق بن جديس الذي تعدى على جديس واستبد بها في أحكامه ، كما استبد بملكهم وأذله [٣] •

وتشير الرواية الى أن الاستبداد بجديس بلغ الى حد ان أمر عمليق بالا تتزوج بكر من جديس الا ان يبدأ بها فيفترعها قبل ان ينالها زوجها • ومع أننا لا ندرى ان كان هذا الأمر يمكن أن يكون من العادات التي عرفتها بعض الجماعات المنقطعة في بعض العصور — فالى مثل ذلك

(١) صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٠ — ١٤١ ، وعن خصب بلاد طسم وجديس ، يقول المسعودي : « ... وبلادهم أفضل لبلاد ، وأكثرها خيرا ، فيها صنوف الشجر والاعناب ، وهي حدائق ملتفة ، وقصور مصطفة ... » (مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٤) .

(٢) صفة جزيرة العرب ، ص ١٦١ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١٤ — ١١٥ .

تشير بعض الروايات الخاصة بتاريخ المغرب الاسلامي عند بعض الجماعات المنقطعة في الجبال ــ فان الرواية تجعل جديسا تنظر بعين الاستنكار الى هذا الفعل الشائن ، حتى انها تدبر مقتل الملك عمليق غدرا • فلقد دعته الى طعام بعد أن دفنت سيوفها في الرمل ، ثم فاجأته ومن معه من طسم فافنتهم عن آخرهم ثم انتهبت ديارهم •

وسار من نجا من طسم الى حسان تبع الحميري ملك اليمن واستنصروا به ، فخرج لغزو اليمامة ، وهو يعمد الى التمويه عن طريق حمل الرجال للأشجار حتى تتم المفاجأة • ولم تغب الخدعة عن المرأة الاسطورية التي كانت تسمى زرقاء اليمامة ، التي كانت تكتحل بالحجر الاثمد ، والتي كانت تستطيع ان تبصر الركب من مسيرة ثلاثة ايام ولكن قومها لم يصدقوها • ولا بأس أن تكون المرأة ذات البصر الحديدي كانت قد اعتادت على النظر الى مسافات بعيدة من فوق الصوامع الشامخة التي كانت معروفة بالبتل والتي كان بعضها يصل الى ارتفاع ٥٠٠ ذراع (١) • وبذلك دخل ملك اليمن الى جو التي سميت اليمامة وأباد جديسا على بكرة أبيها ، وعن هذا الطريق لحقت جديس بعد طسم بعاد وثمود ، وصاروا من العرب البائدة (٢) •

ويضيف عبيد بن شرية الى ذلك خروج طىء من الجوف في اليمن الى جبلى طىء • وبذلك لا تعرفنا القصة الا بداية كل من جديس وطسم في اليمامة ثم نهايتهم على أيدي اليمنية • واذا صحت القصة ، وبناء على

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٤١ ، وانظر المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١٩ (الذي يقول ان الزرقاء اشرفت من منظرها ، زيدان ، ص ٨٠ •
(٢) انظر عبيد بن شرية ، ص ٤٨٣ — ٤٨٨ •

الابحاث الحديثة في تاريخ اليمن ، يمكن تحديد نهاية كل من طسم وجديس بأوائل القرن الخامس الميلادي ، حيث عاش الملك حسان بن تبع (١) •

ورغم فناء أهل اليمامة من جديس وطسم فان البلاد ظلت تتمتع بسمعة طيبة من حيث رخائها وخصبها وطيب مناخها ، وحسن المقام بها مما جعل شعراء الجاهلية والاسلام يلهجون بالثناء عليها ، كما يسجل الهمداني ، في صفة الجزيرة :

ففي قرية ملهم وهي غير بعيدة من وادي قران ، يقول مرقش :

بل هل شجتك الظعن باكرة
كأنهن النخل من ملهم

وفيها قال طرفة :

وان نساء الحي يركدن حوله
يقلن عسيب من سرارة ملهما (٢)

أما ذات غسل من أرض اليمامة ، فقال فيها الشاعر :

أيا ذات غسل يعلم الله انني
لجوك من بين البلاد صديق (٣)

ومنها موضع بلبول ، وفيه يقول عمارة حيث دفن ابنه :

(١) انظر زيدان ، ص ٧٩ ، وقارن ده برسفال ، تاريخ العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ج ١ ، ص ٨٩ الذي يرى استئصال طسم وجديس بعد سنة ١٤٠ م.
(٢) صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٢ •
(٣) نفسه ، ص ١٦٣ •

سقى الله بلبولا وجرعائه التي
أقام بها ابني مصيفا ومربعا

وعن حصن آل عصام ، فهم من ولد عصام خادم النعمان ملك الحيرة الذي قال فيه النابغة :

نفس عصام سودت عصاما
فخير ما وراءك يا عصام

ومن المواضع باليمامة « الدخول وتوضح » ، وإياها عني امرؤ القيس بقوله :

بسقط اللوى بين الدخول وحومل
وتوضح فالمقراة لم يعف رسمها (١)

وعن آثار اليمامة القديمة ، فالى جانب ما ذكره الهمداني من البتل أو الصوامع المبنية باللبن التي أقامتها جديس وطسم ، يذكر تحصينات مدينة جعدة ، وهي من مدن العروض ، ويشير الى ان جدرها تسمح بأن يركض عليها أربع من الخيل جنبا الى جنب ، وان « جهد الغالي بالسهم أن ينال رأسها » .

أما عن القصر الذي يصفه بالعادي ، في موضع الأبل ، وهو من عهد طسم وجديس ، فيصفه بأنه حصن يتكون من قسمين :

١ ــ قاعدة سفلى مبنية بالطين (أو اللبن) المدكوك الى ارتفاع ٣٠ (ثلاثين) ذراعا .

٢ ــ الحصن الحقيقي فوق القاعدة ، وهو مبني في الوسط ، وحوله منازل حاشية الرئيس ، يحيط بها النخل والأثل (٢) .

---

(١) صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٤ .
(٢) نفسه ، ص ١٦٠ .

والبناء بالطين في اليمامة ، قديما وحتى أيام الهمداني ، يدلل على استمرار خصب البلاد ، ووفرة الأرض الطيبة والمياه بها ، كما هو الحال في العراق القريبة منها . وكما هو الحال في وادي النيل منذ القديم . ولكنه لما كان من الخطورة أن تتعرض الحيطان الطينية للحصون لخطر الماء ، خصوصا اذا كان يحيط بها خندق . فنجد ان البنّاء احتاط في بناء اسوار مدينة « سوق الفلج » (القريبة من جعدة) التي بلغ سمكها ٣٠ (ثلاثين) ذراعا ، فمنطّقه بالفضاض والحجارة والشاروق « الى ارتفاع » قامة وبسطة ، فرقا ان يحصر أو يرسل العدو السيول عليه (١) .

أما القصر المنسوب الى سليمان بن داود ، والذي كان موجودا في قرية سدوس ، فكان مبنيا بصخر منحوت عجيب ، ورغم أن معظمه كان خرابا فان قصبته (أي قلعته) كانت سليمة على أيام الهمداني (٢) .

جرهم :

الملكة الاولى :

وآخر العرب البائدة الذين يعتبر عبيد بن شرية الجرهمي ــ أقدم أخباريينا بالنسبة لهذه الدراسة ــ آخر ممثليهم ، فهم قبائل جرهم، الذين استقروا بالحرم بمكة ، والذين صاهرهم اسماعيل بعد أن أقره والده ابراهيم هناك ، فكان جميع ولده من بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، زعيمهم المشهور (٣) .

والغريب انه رغم ان عبيد بن شرية يضع جرهما بين العرب العاربة ،

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٠ .
(٢) نفسه ، ص ١٤١ .
(٣) عبيد بن شرية ، ص ٣١٥ .

من : عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق [١] ، على أساس أنه ابن قحطان وأخو يعرب [٢] ، الا انه عند توزيع هؤلاء من بابل الى اليمن ثم الى غيرها من البلاد ، كما رأينا ، لم يخصص مكانا لجرهم • واكتفى بالاشارة الى أن الذين تركوا اليمن الى الحرم هم أبناء عمليق • ولا بأس من أن يكون الخلط هنا بين العمالقة وجرهم ، كما سبق الخلط بين العمالقة وطسم ، يعني اعتبار جميع العرب البائدة من العماليق ، كما أشرنا • والمهم هو أنه عاد وخصص لجرهم دورها في الهجرة الى مكة ، أي في المملكة الثانية بالحجاز •

وهجرة العرب البائدة (الأوائل) من اليمن تمثل دورة ثانية في تاريخ العربْ القدماء ــ بعد الدورة الاولى التي بدأت بالهجرة من العراق ــ يمكن أن تسمى بالدور اليمني • وعلى هذا الاساس قال الكتاب العرب : عاد الاولى وعاد الثانية وثمود الاولى وثمود الثانية وجرهم الاولى وجرهم الثانية وسبأ الاولى وسبأ الثانية وحمير الاولى وحمير الثانية ، وهم يقصدون الدول او الممالك التي كونتها هذه القبائل القديمة ، والتي يمكن ان ترتفع في عددها الى أكثر من مملكتين ، وهذا ما حققه العلماء الذين اهتموا بدراسة تاريخ اليمن القديم عندما كشفوا عن أكثر من دولة لكل من قبائل اليمن الكبيرة ، في جنوب البلاد وفي شمالها •

وعلى عكس قصة فناء عاد وجلاء ثمود (بعد ٥٠٠ سنة) التي تدخل في سير الأنبياء ، فان قصة خروج العماليق من اليمن ، وكذلك خروج جرهم ، تدخل في نطاق الأمور التاريخية المعتادة ، وذلك نتيجة لكثرة

(١) نفسه ، ص ٣١٤ •

(٢) نفسه ، ص ٣٩٨ •

العرب باليمن ، وبدء الصراعات فيما بينهم من أجل أسباب الحياة • واذا كانت قصة خروج العماليق من اليمن الى الحجاز مبتسرة ، فكأن العماليق لم يؤثروا في وطنهم الجديد باليمن ولم يتأثروا به ، فان قصة جرهم تمثل جزءا أساسيا من تاريخ اليمن ، كما عرفه العرب قديما •

فجرهم هو ابن قحطان بن عابر (هود) ، فهو ابن رأس ملوك اليمن قحطان ، وشقيق يعرب « أول من حيى بتحية الملوك أبَيْتَ اللعن » « وأنْعِم صباحا » [١] • ولقد استقر أبناء جرهم الذين تكاثروا في اليمن ، ومنهم : هزان ، وذيال ، والعاد ، ومصيار بين أبناء عمومتهم القحطانية • والظاهر أن فكرة الكتاب العرب عن جرهم ، أنهم تمتعوا بعظم الاجسام ، وطول الأعمار ، وزيادة القوة والبأس ، مثلهم في ذلك مثل عاد والعماليق • فعندما يذكر وهب بن منبه في تاريخه لليمن بني هزان (أول قبائل جرهم) في الأحقاف ، يقول انهم : « كانوا أطول الناس أجساما وأعناقا » ، ولذلك سموا بالغرانيق لان الغرنوق طويل العنق • ويقول عن أحدهم ، وهو سعدانة بن هزان ، انه : كان يأكل التمر جالسا من نخلة سحوق [٢] •

ما بين المملكة الاولى والمملكة الثانية :

وينتهي الامر بالحرب بين جرهم وبين بعض بني حمير ، ولما يجد الجرهميون أنه لا طاقة لهم بحمير ، فانهم يقررون الرحيل عن اليمن نحو الحجاز ومكة ، تحت قيادة زعيمهم المشهور مضاض بن عمرو الذي

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٩٦ ، الاكليل للهمداني (ط. ليدن) ، ج ١ ، ص ٥٠ (ط. القاهرة ١١٦) •

(٢) وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، ص ١٣٨ •

منكوه على أنفسهم [١] • ومع أن قصة عبيد بن شرية هذه مقبولة من حيث الشكل والموضوع ، فان وهب بن منبه يروي في « التيجان » رواية أخرى ، قد لا تصمد كثيرا أمام أصول النقد • فهو يريد أن تكون مسيرة الجرهميين الى مكة بناء على تولية شرعية لهم من قبل يعرب ملك اليمن ، ليس على بني عملاق في مكة فقط بل وعلى طسم وجديس أيضا [٢] • وان ذلك كان على عهد جرهم نفسه ، وهو الامر المستغرب •

أما عن فكرة اقامة دولة جرهمية في مكة، توارثها بنو جرهم كل عن والده ، وهم : عبد ياليل ، وجرهم ، وعبد المدان ، وبقيلة ، وعمرو الذي يعرف أيضا « بعبد المسيح » ، ثم مضاض وعمرو والحارث بن مضاض ، فهو أمر لا بأس به [٣] •

المملكة الثانية :

وهكذا ، وصلت جرهم الى مكة ، وكان أهلها العماليق ، واختاروا موقعا في أعلى الحرم كان يكثر فيه الشجر الذي قطعوه ، ونزلوا فيه • وهذا الموضع هو الذي صار يعرف باسم المعلاة — أي الحي المرتفع — من مكة في مقابل الأبطح أو البقيع الذي يمثل الحي المنخفض الذي عرف بالمسفلة • وتقول رواية عبيد بن شرية انه كان لجرهم قبيلة حليفة هي

(١) عبيد بن شرية ، ص ٣٩٨ ، وانظر الاكليل ، (ط. ليدن) ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(٢) التيجان ، ص ١٧٥ — ١٧٧ .

(٣) التيجان ، لوهب بن منبه ، ص ١٧٧ — ١٧٨ • ويضيف وهب بن منبه الى هؤلاء عمرو بن الحارث ، وبشر بن الحارث واخيرا مضاض الاصغر بن عمرو . انظر دي برسفال ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، الذي يجعل ملك هذه الاسرة من سنة ٧٤ ق.م. الى سنة ٢٠٦ ق.م.

قطورا وزعيمها هو السميدع نزلت في أسفل مكة حيث موضع جبلي قعيقعان وأجياد [١] ، اللذين سيأخذان اسميهما مما سيدور — فيما بعد — من الحروب بين الجرهميين أنفسهم من : قعقعة الدروع ، والجود بالدم [٢] •

والظاهر أن الجرهميين والعملاقيين تعايشوا في مكة لفترة من الزمان ، فهذا ما يمكن أن يفهم من رواية وهب بن منبه، من انهم حاربوا، جنبا الى جنب ، بني اسرائيل وحلفاءهم من الروم عندما أتوا من الشام يهددون مكة [٣] ، ولو أن وهب بن منبه يعود فيسجل لمكة انتصارين آخرين على الاسرائيليين والروم ، أولهما : يعرف بيوم « شنيف » قرب جبل المطابخ — غير بعيد من مكة — وكان قائد المكيين هو عمرو بن مضاض الجرهمي [٤] ، والثاني كان تحت راية اخيه الحارث بن مضاض• واذا صح ذلك تكون جرهم قد استقلت بملك مكة ، ولم يعد للعماليق فيها أي سلطان •

نهاية مملكة جرهم :

وعندما يستقر اسماعيل في مكة يصاهر جرهما ، فيكون بنوه جميعا ، وهم العرب المعدية من زوجته الجرهمية • ويأتي فناء جرهم فجأة دون مقدمات مناسبة • والظاهر أن ذلك كان بسبب خروجهم على

(١) اخبار اليمن ، ص ٣٩٩ .

(٢) انظر كتاب الاستبصار ، ص ٨ وهامش ١ .

(٣) التيجان ، ص ١٧٩ ، وقارن ده برسفال ، ج ١ ص ١٨٠ حيث يقرر ان حلفاء الاسرائيليين كانوا مدين والعماليق . وان اليهود اخذوا من المكيين من الاقراط الذهبية ما زنته ١٧٠٠ أوقية ، مما يعني انهم كانوا أغنياء من التجارة .

(٤) نفسه ، ص ١٨٣ .

دعوة ابراهيم واسماعيل ، فهذا ما يفهم من رواية وهب بن منبه الذي يقول : انه لم يبق منهم الا عشرون رجلا كانوا مؤمنين ، على دعوة اسماعيل [١] . وهكذا هام زعيمهم الحارث بن مضاض الجرهمي ، اذ خرج هاربا يجول في الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه ، وتغرب ثلاثمائة سنة وكثرت فيه الأمثال ، وسار بغربته الصوت حتى ذكره حبيب ابن أوس الطائي ، في الاسلام ، فقال :

غربة تقتدي بغربة قيس بـ — ن زهير والحارث بن مضاض
والفتى من تعرفته الليالي — في الفيافي كالحية النضناض [٢]

الحارث بن مضاض ،موضوع أدب شعبي طريف :

والحقيقة ان آخر ملوك جرهم العظام ، وهو الحارث بن مضاض كان موضوع أدب شعبي طريف ، بقيت أصداؤه حتى صدر الاسلام . فالملك الجرهمي « كان يملك مكة وما والاها من الحجاز والتهائم الى هجر والأنعمين ، وحضر العالمين الى مدائن ثمود » [٣] . وفي أواخر أيامه كا نشيخا جليلا « كالنخلة السحوق ، أعمى ، ولحيته تنطح ركبته »، يرتاع من يراه من عظم جسمه ، واذا وضع يده على منكب الرجل أحس وكأنها الجبل . والجمل لا يستطيع أن يحمله الا يوما واحدا ثم يقطر ، وهو يتنبأ بمولد النبي محمد ، في بني مضر ، وهو في طريقه الى مكة .

هذا ، كما كان الحارث طرفا في قصة غرام من النوع المفجع (مثل قصة ليلى والمجنون) ، بطلها ابن أخيه عمرو ، الملك السابق

---

(١) التيجان ، ص ١٨٠ .
(٢) التيجان ، ص ١٨٠ .
(٣) التيجان ، ص ١٨٢ .

وهو الشاب الفاتن : مضاض بن عمرو الذي هوى ميّة ابنة الزعيم مهليل بن عامر ، وكانت أجمل من رأته العيون . وكان من الممكن للحارث بن مضاض الرقيق الحاشية ، والذي أشفق على العاشقين المولهين أن ينهي قصتهما بالزواج ، لولا أن « هجم علينا الشهر الأصم — كما يقول الحارث — وكنا لا نحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ » . ومع تدخل الوشاة تنتهي فصول القصة التي تختم بالفاجعة . فتسير ميّة الى أخوالها ، ويتبعها مضاض ، هلعا جزعا مضربا عن الشراب حتى الموت ، وتلحق به ميّة ، ميتة عطشا هي الأخرى ، بعد أن أوصت بأن تدفن الى جانب مضاض في الدوحتين [١] .

وصار موت مضاض بن عمرو مثلا بين العرب ، فقال فيه رجل من أهل الطائف :

أموت اذا جد الفراق بيثرب
كما مات من حر الفراق مضاض

مقبرة ملكية للجرهميين في مكة :

أما مقبرة آباء الحارث ، وهم ملوك جرهم في مكة ، وحيث ذهب الحارث نفسه ليموت على سريره ، فهي لا تقل في وصفها عن مقابر قدماء المصريين . فقد كانت في أسراب مهولة ، مليئة بالدر والياقوت واللجين ، وتحرسها الحيات والتنين . وفيها قبر بقيلة بن عبد المدان ، وقبر عبد المسيح بن بقيلة ، وقبر مضاض بن عبد المسيح . وكان على قبر عبد المسيح لوح مكتوب فيه : أنا عبد المسيح بن بقيلة بن عبد المدان ، عشت مائة سنة ، وركبت مائة فرس ، وافتضضت مائة بكر ، وقتلت مائة مبارز ، وأخذني الموت غصبا [٣] .

---

(١) انظر وهب بن منبه ، التيجان ، ص ١٨٨ — ١٩٧ .
(٢) التيجان ، ص ١٩٩ — ٢٠١ .

والظاهر أن صيت مقبرة آل الحارث ، وما حوته من الكنوز والذخائر قد ذاع أمره قبيل عصر النبوة وفي صدر الاسلام . فثروة اياد بن نزار (أخي مضر وربيعة) تنسب الى وقر بعير حمله من المقبرة ثمنا لحمل الشيخ الحارث بن مضاض الى مكة [1] ، كما نسبت اليها أيضا ثروة عبد الله بن جدعان ــ الزعيم القرشي المعروف ــ اذ وجد فيها الجوهر والياقوت واللجين والعقيان ، الذي باعه في مصر ، فكان سبب غناه [2] .

والى الحارث بن مضاض ينسب الشعر الذي يرثى قومه جرهما :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

فصرنا أحاديث وكنا بغبطة
كذلك عضتنا السنون الغواير

آخر الجرهميين :

ولا تنتهي الأسرة الجرهمية عند الحارث بن مضاض اذ يجعل له ابن منبه خليفتين في حكم مكة ، هما عمرو بن الحارث ثم البشر بن عمرو

---

(١) التيجان ، ص ١٩٩ .
(٢) التيجان ، ص ٢١٠ ــ ٢١١ .

الذي سلم للاسماعيلية من المعدية والنزارية ملك مكة ، وبذلك يكون آخر ملوك جرهم [1] .

وهكذا تنتهي اخبار العرب البائدة ممن أشارت اليهم الروايات العربية القديمة بعد ان دخل من بقي منهم في عدد قحطان وعدنان ، كما يوضح المسعودي ، ولكنه يبقى أخبار دول من العرب البائدة التي كشفت عنها الابحاث الاثرية الحديثة والتي أشارت اليها أخبار اليونان والرومان بصفة خاصة ، وذلك لانها كانت دولا عاشت على حدود بلاد الشام . ودخلت في نهاية الامر تحت نفوذ الدولة الرومانية ، ومن اشهرها : دولة بطرا (البتراء) ، ودولة تدمر .

عرب الانباط في بطرا (البتراء)

لقد أصبح تاريخ عرب الانباط أو النبط ــ وأصلها نبطو ، كما وجد الاسم في نقوشهم [3] ــ في جنوبي بلاد الشام وشمالي الحجاز يكون فصلا هاما من تاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك بعد أن بدأ علماء الآثار واللغات السامية في الكشف عن انقاض مدينة بطرا (البتراء) ، ومنذ بدأوا في فك النقوش العربية القديمة التي وجدت في منطقة حوران وفي مدائن صالح ، وهي من اقليم وادي القرى المعروف بالعلا في شمالي الحجاز . ولا ندري ان كان من الممكن الربط بين تاريخ ثمود الآخرة في اقليم ما بين الحجاز والشام وبين تاريخ هؤلاء العرب الذين عرفوا بالانباط ، والذين لهم ذكر

---

(١) انظر وهب بن منبه (التيجان، ص ٢١٠) الذي يجعل البشر بن عمرو معاصرا لسليمان الذي أقره على سدانة البيت . وانظر المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٤) الذي يعطي قائمة باسماء ملوك جرهم في مكة مع سنى ملكهم : مضاض بن عمرو (١٠٠ سنة) ، عمرو بن مضاض (١٢٠ سنة) ، الحارث بن عمرو (٢٠٠ سنة) ، عمرو بن الحارث (٢٠٠ سنة) ، مضاض بن عمرو الاصغر (٤٠ سنة) .
(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ص ١٢ ، ٢٧ .

لا بأس به عند كتاب اليونان والرومان ، منذ غزوة الاسكندر المقدوني ٠
والحقيقة ان المسعودي له من بين آرائه العبقرية التي نرى انها كانت مصدر الهام ابن خلدون في مقدمته ـ نظرية تقول ان النبط وملوكها ترجع في انسابها الى نبيط بن ماش ، ومنهم كل العرب البائدة من عاد وثمود وجديس وطسم وعمليق الى جانب « عيلام في الاهواز وفارس ، ونبيط في بابل والعراق » ، فكأنه ربط بين تاريخ بلاد العرب القديم جميعا (١)

والثابت ان الانباط الاوائل هم من سكان العراق اذ ورد ذكرهم في آثار آشور منذ القرن السابع ق٠م، على ايام آشور بانيبال (٢) ٠ وهذا ما يفسر كيف ان العرب عندما عرفوا الانباط لاول مرة كان ذلك في بطائح العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا : « وسمي نبط السواد نبطا لاستنباطهم المياه وسقيهم الانهار » (٣) ، كما قالوا ان اسمهم مشتق من الماء ـ الذي هو النبط ـ عندهم ٠ وربما كان بسبب اشتهار النبط حتى صارت كلمة نبطي تعادل كلمة مزراع أو فلاح، وكتب الزراعة النبطية معروفة في المكتبة العربية الاسلامية ٠ ونعتقد ان هذا هو السبب فيما وقع فيه النسابة من الخلط بين اهل مصر وبين أهل سواد العراق ، وأيهم يمثلون الانباط من ابناء نبيط بن ماش بن ارم ، وان كانوا قد رجحوا في آخر الامر ان النبط هم نبط السواد اصحاب الملك في العراق (٤) ٠

واذا كان العرب يأنفون من النبط ويزدرونهم ، كما يشير الى ذلك

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ٠
(٢) زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٨٥ ٠
(٣) الهمداني، الاكليل، د٠ ليدن، ج ١ ص ٣٤ ٠
(٤) نفس المصدر ، وقارن المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦ ٠

جواد علي (١) ، فانهم لا يأنفون من صلتهم بالارميين او الآراميين ٠
والمفروض ان النبط قد دخلوا في نطاق العرب عن طريق اتخاذهم للثقافة الارامية واصطناعهم لكتابة الآراميين ، التي تأثرت فيما يتعلق بحروف الشكل او علامات العلة بالسريانية (٢) ٠ وعن طريق الانباط والآراميين يرى المختصون بتاريخ الكتابة العربية ، ان هذه الكتابة تطورت من شكل المسند اليمني القديم ، ذي الزوايا المستقيمة ، الى شكلها الشمالي الحديث ، المتمثل في الكتابة القرآنية ، عن طريق الانباط والآراميين (٣) ٠

والحقيقة ان الفضل في ذلك لا يرجع الى الانباط أنفسهم ، بل الى الموقع الممتاز لموطنهم في جنوبي الشام والسواحل الشمالية للبحر الأحمر، في الموضع الذي كانت تشغله مملكة الأدوميين القديمة (٤) ، وذلك في المنطقة التي عرفها الرومان ببلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) والتي كانت تتحكم بفضل موقعها المتوسط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وبين بلاد العرب والشام ومصر ، في طرق التجارة البحرية والبرية بين الشرق وبين الغرب في العالم القديم ٠
وعاصمة هذه البلاد عرفها الرومان أيضا باسم المنطقة فهي الحجر أو الصخر أي بطرا (Petra) أو « البتراء » ، كما عرفها بعض الكتاب العرب ٠ وهي تسمى أيضا باسم « سلع » أو « سلاع » المأخوذة من

---

(١) المفصل ، ج ١ ، ص ٥ ٠
(٢) نابيا أبوت ، الخط العربي الشمالي ، بالانجليزية ، ص ٢ ٠
(٣) زيدان : العرب قبل الاسلام ، ص ٨١ ، وقارن تاريخ العرب لنيلسن ، الترجمة ، ص ٤٠ ـ ٤١ (حيث يبين الاثر الآرامي فيما عثر عليه من الآثار في شمال غرب بلاد العرب وكيف أن النقوش النبطية التي عثر عليها هناك وفي سيناء وحوران ناطقة بالعرب والعروبة) ٠
(٤) زيدان ، ص ٨٢ ٠

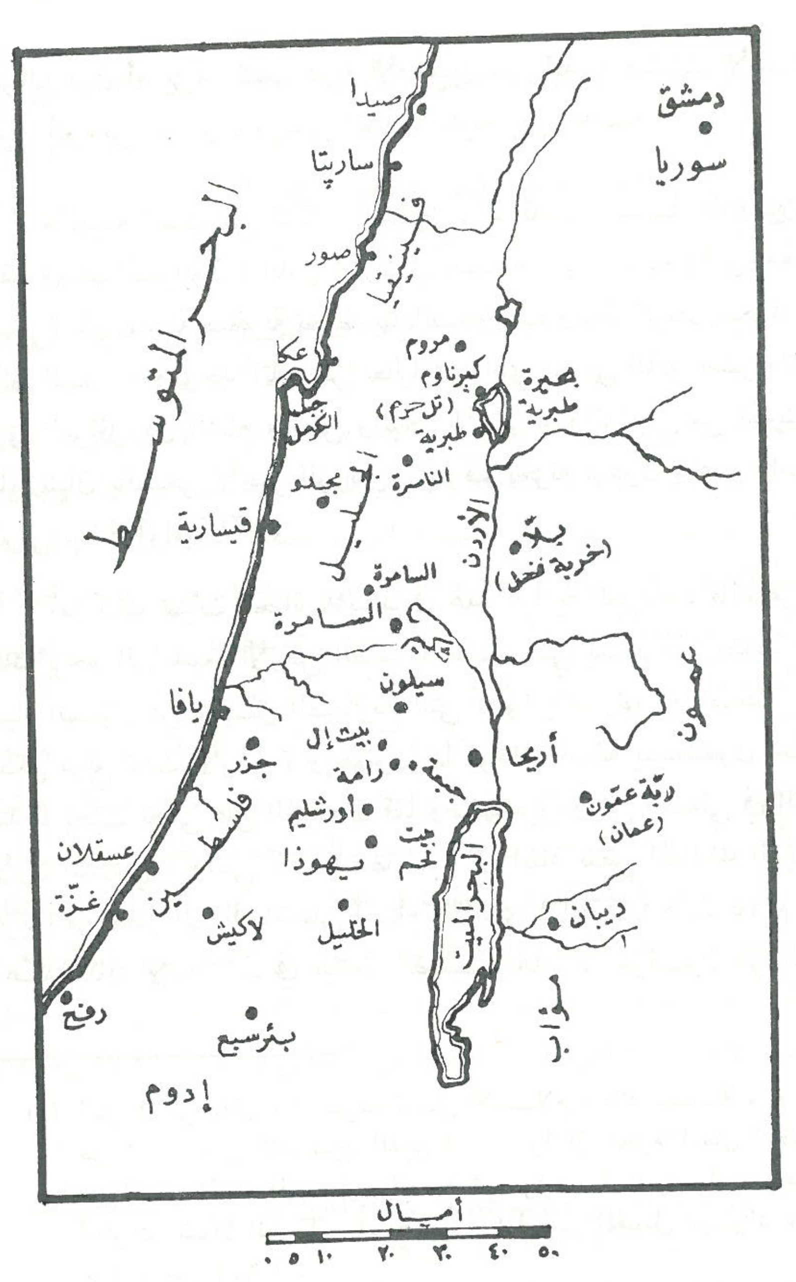
العبرانية بمعنى الحجر أيضا [١] . والمنطقة معروفة بكهوفها الطبيعية التي اتخذت مساكن ومدافن وبيوتا للهياكل . ولا ندري ان كانت هذه الكهوف من ذلك النوع الذي كانت تتخذه ثمود ، من البيوت المنحوتة في الجبال .

والمعلومات المعروفة عن دولة الأدوميين السابقة جاءت عن طريق علاقاتهم بالاسرائيليين وخاصة على عهد شاؤول الذي حاول غزوهم ، ثم على عهد داود وسليمان اللذين تمكنا من اخضاعهم، واستخدام سواحلهم كموانىء للوصول الى سواحل اليمن والحبشة والمحيط الهندي [٢] . ولكن هذا لا يعني استكانة الأدوميين اذ كانوا ينتهزون الفرص للقيام على الاسرائيليين . فبعد ملك سليمان ، وعندما بدأت اسرائيل تتعرض للغزو من الخارج ، كان الادوميون من بين المهاجمين ، من : الآراميين في دمشق ، والعمونيين ، والمؤابيين ، والعرب ثم الفلسطينيين [٣] .

وعندما هاجم الآشوريون اسرائيل ، وأتى بختنصر « نبوخذ نصر » ليدمر أورشليم (سنة ٥٨٦ ق.م.) كان الأدوميون أعوانا له على ذلك ، فكانت مكافأته لهم تتمثل في الابقاء على دولتهم وتأييده لسلطانها على حدود مصر [٤] . هذا ، ولو أن البعض يرى ان الأشوريين هم الذين أتوا بهم من العراق أيام نبوخذ نصر (بختنصر) [٥] . وبعد ذلك

---

(١) المصدر السابق ، وانظر ديسو ، الترجمة ، ص ١٥ .
(٢) زيدان ، ص ٨٢ ، وانظر نجيب ميخائيل ، سورية ، ص ٣٣٩ .
(٣) انظر ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، ص ٨٦ .
(٤) زيدان ، ص ٨٢ . وعن ادوم (دومة الجندل) التي تعتبر معقل العرب (اريبي) ، كما تقول النقوش الاشورية ، الذين اخضعتهم آشور ، انظر المفصل لجواد علي ، ج ١ ، ص ٥٩١ .
(٥) زيدان ، ص ٩٢ .



خريطة فلسطين

(٨) من كتاب الحضارات السامية القديمة لموسكاتي
الترجمة (ص ١١٣)

بحوالي قرن أو يزيد انتهت دولة الأدوميين على أيدي جماعات الأنباط الذين أتوا من الشرق ، والذين اتخذوا مدينة بطرا عاصمة (١) .

والمدينة ليست من ابتكار النبطيين ، اذ كانت حصنا للأدوميين . ولقد وصفها سترابون (الذي شارك في حملة غالوس سنة ٢٤ ق٠م٠ في اليمن) بأنها مدينة صخرية تحيط بها الصخور – وسط الرمال المحرقة – كأنها السور . وتوجد آثار بطرا حاليا في وادي موسى الذي يعتبر ملتقى طرق القوافل بين الشام واليمن والبحر الأحمر . ولقد بقي من المدينة بقايا بنيان بالصخر الأحمر الوردي ، يعرف بخزنة فرعون ، على واجهته نقوش نبطية آرامية (٢) .

أما كيف تهيأت الحياة للأنباط في هذه البادية الجرداء ، فالظاهر أن ذلك يرجع الى طبيعة الأرض الصخرية نفسها التي يمكن أن يحتفظ فيها بمياه السيول عن طريق الصهاريج التي كانوا يحفرونها في الصخر في شكل مربع تحت الأرض ، ويجعلون لها فوهات ضيقة يستطيعون احكام سدها بحيث تخفى على الغرباء ، كما وصفها ديودورس الصقلي في القرن الأول الميلادي ، والتي كان بعضها سببا في انقاذ بعض المماليك الذين هربوا من مصر الى الشام على أيام المقريزي (القرن ٩ هـ – ١٥ م) . وهكذا كان الأنباط – في بيئتهم الصعبة هذه لا يعرفون الزراعة

---

(١) انظر ده برسفال ، العرب قبل الاسلام ، بالفرنسية ، ج ١ ، ص ٣٦ . وعن الادوميين الذين استوطنوا كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت الى خليج العقبة ثم مزاحمة النبط لهم حتى اجلوهم شمالا الى ما وراء حيرون (انظر المفصل لجواد علي ، ج ١ ، ص ٦٠٤) .

(٢) نفسه ، ص ٨٣ .

ويعيشون على لحوم الابل والغنم وألبانها . وأن ثروتهم كانت تأتي من الاتجار بالأطياب والمر والعطريات التي يحملونها من اليمن الى مصر وشواطىء المتوسط ، وانهم كانوا يحملون القار الى مصر – على وجه الخصوص – لاستخدامه في التحنيط ، كما يقول ديودورس (١) .

ورغم قيام دولة الأنباط في بطرا فان اسم الأدوميين ظل يطلق على المنطقة من قبل الكتاب اليونان الذين سجلوا محاولات السلوقيين – خلفاء الاسكندر في الشام – لاخضاع المنطقة . فلقد طمع الاسكندر وخلفاؤه في البلاد بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة ، وبسبب خيراتها الوفيرة ، ولكنها لم تكن صيداً سهلا بالنسبة لهم . فعندما حاول الاسكندر الاستيلاء على غزة سنة ٣٣٢ ق٠م٠ ، وهي الميناء النبطي الهام ، تصدى له العرب فيها وقاوموه (٢) . وعندما حاول انتيجوناس ملك السلوقيين في الشام غزو الأنباط سنة ٣١٢ ق٠م٠ لم يقدر لحملتهم النجاح (٣) . ولكن ما فشل فيه السلوقيون نجح فيه – جزئيا – البطالمة الذين اهتموا بالسيطرة على البحر الأحمر من أجل تأمين تجارتهم في بلاد بونت (منطقة اريتريا والصومال وربما اليمن الجنوبية أيضا) والهند . فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها في بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالا بطريق البحر الأحمر أو بالطريق البري الى أيلة ثم الى بطرا . ولذلك اهتم البطالمة بارسال البعوث الكشفية للتعرف على سواحل البحر الأحمر . وعلى عهد بطلميوس الثاني (٢٨٣ – ٢٤٦ ق٠م٠)

---

(١) انظر زيدان، ص ٨٤ – ٨٥ ، ٩٠ ، وقارن جواد علي ، ج ٣ ص١٧ .

(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٢ ص ٨ .

(٣) جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٩ ، زيدان ، ص ٨٥ وهامش مؤنس ص ٨٢ ، نابيا أبوت ، ص ٢ .

وصلت بعثة بحرية من العقبة الى باب المندب ، كما سارت حملة الى بلاد العرب بهدف السيطرة على تجارتها [١] . ولقد عثر على نقوش بخط المسند الحميري في مصر ، موضوعها : دين على رجل اسمه زيد ايل بن زيد من آل ظيران ، وكان كاهنا لأحد المعابد ، وعليه أن يزود المعبد بما يلزمه من المر وقصب الطيب ، وذلك على أيام بطلميوس بن بطلميوس ، مما يؤكد العلاقة بين اليمن ومصر وقتذاك [٢] . وهكذا نجح بطلميوس الثاني في السيطرة على سواحل النبط في البحر الأحمر الشمالي ومنع النبط من التعرض لسفنه ، كما نجح في القضاء على القرصنة في سواحل البحر الجنوبية . وتم له ذلك بفضل بنائه لعدد من المستعمرات والمدن اليونانية، كان من أهمها مدينة برنيق Berenicia على خليج العقبة [٣] . وتقارير الكشوف التي قام بها البطالمة في البحر الأحمر هي التي اعتمد عليها الجغرافيون اليونان ، في القرنين الأولين للميلاد في وصفهم لبلاد العرب ، مثل : ديودور الصقلي وسترابون وبطلميوس الاسكندري .

وهكذا تمكن البطالمة من السيادة التامة على البحر الأحمر والتحكم في متاجره [٤] . وبفضل رحلات الملاحين البطالمة اكتشفت أهمية الرياح

---

(١) انظر محمد عواد حسين ، البحرية في عهد البطالمة ، كتاب جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٣ — ١٥٦ .

(٢) انظر جواد علي ، ج ٢ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) زيدان ، ص ٨٢ وهامش مؤنس ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٢١ .

(٤) انظر محمد عواد حسين، المرجع الاسبق ، وانظر ل. رودوكاناكيس الفصل ٣ من تاريخ العرب القديم لنيلسن ، الترجمة ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

الموسمية بالنسبة للسفن التجارية اذ تأكد بفضلها انتظام حركة السفن بين مصر والمشرق البعيد .

ولقد ترتب على ذلك أن قامت تجارة نشطة بين سواحل الحجاز حيث ميناء النبط « لوكه كومه Leuce Kome » وبين العاصمة بطرا التي أصبحت همزة الوصل بين كل من الشام واليمن والعراق ومصر . والظاهر أن احتكار البطالمة للتجارة في البحر الأحمر أضر بالتجار العرب الذين حرموا من المكاسب الكبيرة التي كانوا يحققونها . وهكذا نجد ان العرب يقفون الى جانب السلوقيين في الشام ، في صراعهم ضد البطالمة من أجل السيطرة على الأقاليم الجنوبية من الشام وبضمنها بلاد النبط . فعندما حاصر انطيوخس الثالث مدينة غزة سنة ٢١٧ ق.م. أيدته معظم القبائل العربية في المنطقة ، فكان في جيشه حوالي عشرة آلاف مقاتل من العرب [١] .

هذا كما كان من نتائج الحروب بين السلوقيين وبين البطالمة تقدم القبائل العربية من مواطنها في جنوب بلاد العرب نحو الشمال . فلقد ترتب على ضعف السلوقيين تقدم القبائل أكثر فأكثر نحو الشمال وفي دواخل الشام ، كما ترتب على ضعف البطالة تقدم العرب نحو شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية [٢] .

وهكذا أصبحت الظروف مؤاتية بالنسبة للأنباط ، فقد استطاعوا مقاومة المكابيين من الاسرائيليين ، وتمكن الحارث الثالث ملك الأنباط ، الذي حكم بعد سنة ٨٧ ق.م. من توسيع رقعة بلاده فهزم السلوقيين أيام

---

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٢ ، ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، الترجمة ، ص ١٥ ، وانظر جواد علي ، ج ٢ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

انطيوخس ١٢ (الثاني عشر) ، وتمكن من الاستيلاء على دمشق من البطالمة ، ثم التدخل في شئون مملكة يهوذا الاسرائيلية (١) . وانتهى الامر بأن توسعت مملكة النبط الآرامية ، وفرضت سلطانها ، على : دمشق ، وسهل البقاع (بقأث هالبنون) ، والأجزاء الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران ، وما كانت تشغله كل من مملكة أدوم ومملكة مدين حتى سواحل البحر الأحمر ، كما امتد نفوذها الى شرق الدلتا حيث سكنت جماعات من النبط هناك (٢) .

ولم يطل ازدهار مملكة النبط بسبب ظهور الرومان الذين فرضوا سيادتهم على الشام التي أصبحت ولاية رومانية ، واضطر نفس الملك الحارث الثالث الى الخضوع لهم فدفع الجزية حوالي سنة ٦٢ ق.م. على عهد بومبيوس (٣) ، كما دخلت مملكة يهوذا ضمن الولاية العربية الرومانية (٤) .

وبذلك دخل العرب في خدمة الرومان الذين استفادوا منهم في حروبهم ضد الفرس (البارث ـ الفرثيين) وضد من وراءهم من بني جلدتهم من العرب، كما حدث في حملة أوليوس غالوس (**Aelius Gallus**) التي قام بها الرومان سنة ٢٤ ق.م. أيام أغسطس ، والتي وصلت الى بلاد اليمن بهدف الاستيلاء على خيراتها من المر واللبان والبخور ، وهي الحملة

---

(١) زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٨٢ وهامش مؤنس .

(٢) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٥ ، وقارن موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، الترجمة ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٣) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

(٤) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

التي شارك فيها سترابون ووصفها (١) . فلقد وعد ملك النبط عبادة الثاني (٢٨ ـ ٩ ق.م.) تقديم كل معونة ممكنة الى الرومان ، وعندما وصلت الحملة الى ميناء لوكه كومه على ساحل الحجاز انضم الى الحملة ألف من جند النبط مع ٥٠٠ (خمسمائة) من اليهود (٢) . وبعد فشل الحملة كانت عودتها الى مصر عن طريق الحجر Egra ، وهي مدائن صالح اليوم (من بلاد الثموديين القديمة) ، ومنها وصلوا الى ساحل البحر الأحمر حيث انتقلوا بالسفن الى الساحل المصري المقابل لقفط من صعيد مصر حيث صعدوا شمالا مع النيل (٣) .

ومع مرور الوقت أخذ ملوك بطرا (البتراء) يظهرون بمظهر التابعين للرومان ، أكثر فأكثر . فالحارث الرابع (حوالي سنة ٤٠ م) عاون الرومان في حربهم ضد مملكة يهوذا . والظاهر أنه مع تشديد قبضة الرومان على ملوك النبط بدأ هؤلاء يهملون العاصمة البتراء . فلقد بنى عبادة الثاني مدينة أوارا التي بين أيلة وبطرا مما يدعو الى الظن أنها ربما كانت في موضع الحميمة ، كما يرى جواد علي (٤) . وكان المتأخرون من ملوك النبط يقيمون في مدينة بُصرى مما أدى الى ضعف العاصمة بطرا (٥) . وهكذا ستحل بُصرى محل البتراء كأهم مركز تجاري في

---

(١) زيدان ، ص ٨٨ ، جواد علي ، ج ٢ ، ص ٤٠ ـ ٤٣ ، وانظر تاريخ العرب القديم لنيلسن ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٢) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣) انظر زيدان ، ص ٨٨ ، جواد علي ، المفصل ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ج ٣ ص ٥٥ .

(٤) المفصل ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٥) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

جوب بلاد الشام ، على أيام دولة الغساسنة ــ آخر دول العرب في الشام قبل ظهور الاسلام .

وكانت نهاية دولة بطرا النبطية العربية سنة ١٠٥ م او سنة ١٠٦ م . عندما قررت روما انهاء استقلالها على عهد تراجان ، وأدخلتها ضمن ولايتها العربية في الشام (Provincia Arabia) ، التي كانت تحدها شمالا أرض دمشق مما يلي حوران والجولان ، ويدخل في نطاقها مدن : درعة ، وبصرى ، وديوم ، وجرش ، وبطرا [1] ، وعمان (التي كانت تعرف بفيلادلفيا) [2] ، كما كان يدخل في نطاقها مواضع من النقب غربي العربة [3] ، وأيلة والحجر (مدائن صالح) وكذلك سيناء [4] . هذا ، وربما سكنت جماعات من النبط في بعض النواحي الشرقية من دلتا النيل [5] .

وبفضل معلومات اليونان والرومان ، وما عثر عليه من النقود والنقوش ، أمكن عمل قوائم ــ وان كانت غير أكيدة ــ لملوك مملكة النبط في بطرا ، وما تم في عهودهم من الأعمال ، مما يستشف منه أن هذه المملكة عربية الأصل ، وأنه يمكن اعتبار ملوكها اسلافا لأمراء الغساسنة في بصرى .

---

(١) ديسو ، العرب في سوريا ، ص ١٠٣ ، وانظر ص ١٠٤ حيث رسم قطعة النقود التي ضربت لتخليد انشاء الولاية العربية . وقارن جواد علي ، ج ٣ ، ص ٥٩ ــ ٦٢ .

(٢) زيدان ، ص ٨٨ .

(٣) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٤٩ ، ٧٠ .

(٤) زيدان ، ص ٨٨ ، ٩٠ .

(٥) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٥ .

وأول ما يسترعي الانتباه هو كثرة وجود اسم الحارث (Aretas باليونانية) بين ملوكهم ، اذ وجد منهم حتى الآن ٤ (أربعة) يحملون هذا الاسم ، ويأتي بعد ذلك اسم عبادة (Obadas) ، ثم اسم مالك (Malichus) وحمل كلا منها ٣ (ثلاثة) من الملوك ، ثم رب ايل (صاحب الله) وحمله اثنان منهم ، وأخيرا زيد ايل (زيد اللات ؟) وحمله واحد من ملوكهم [1] .

ومما يسترعي الانتباه أيضا وجود أسماء ملكات في قوائم ملوك النبط ببطرا ، مثل الملكة « خلدو » (خالدة ؟) والملكة « شقيلة » وهما امرأتا الحارث الرابع ، و « شقيلة » أيضا امرأة مالك الثاني ، وسميتها والدة « رب ايل » الثاني ، وجميلت (جميلة) زوجته . هذا ويرى بعض الباحثين ان وجود صور هؤلاء الاميرات على النقود لا يعني انهن حكمن مملكة بطرا النبطية على وجه الضرورة ، اذ ربما لم يكن نقش صور معظمهن على النقود أكثر من تكريم لهن من جانب أزواجهن أو أقاربهن من الملوك . وربما حدث ذلك نتيجة من احتكاك العرب باليونان ، وتأثرهم بحضارتهم وثقافتهم [2] .

ويظهر الأثر اليوناني على ملوك العرب هؤلاء واضحا في الألقاب والأسماء اليونانية التي حملوها في بطرا ، الى جانب أسمائهم العربية . فالحارث الثاني عرف بلقب « ايروتيموس » ، والحارث الثالث عرف بلقب فيلهلين (أي محب اليونان) ، كما يظهر في النقود التي ضربها وهو يحمل لقب باسيليوس (أي الملك أو القيصر) . والحارث الرابع اشتهر بلقب

---

(١) زيدان ، ص ٨٦ ، جواد علي ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٨ .

(٢) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ٤٩٤ .

« فليوباتر » أي محب والده ، كما حمل « رب ايل » الثاني لقب «سوتر» المخلص أو الرحيم •

والأثر اليوناني واضح كذلك في النقود التي ضربها هؤلاء الملوك على النمط اليوناني — مما يذكر بما سيفعله المسلمون فيما بعد عندما قلدوا النقود البيزنطية قبل أن يعربوها • ومن القطع النقدية الجميلة التي عثر عليها ، ذلك الدينار الذي ضرب أحياء للاتفاق بين الحارث الثالث والقائد الروماني « سكاوروس » • فعلى أحد وجهي الدينار نقش يمثل القائد الروماني في عربته الحربية التي تجرها الخيول ، وعلى الوجه الآخر جمل بديع النقش ، يركع الى جانبه صاحبه وهو يمسك خطامه باحدى يديه ، ويمد اليد الأخرى بشجرة عطرية ، ربما كانت تمثل الجزية المفروضة على الملك النبطي (١) •

أما عن نقوش مملكة بطرا التي عثر عليها على بعض القبور ، والتي تحتوي على تبركات ووصايا من أجل المقبرة ، فانها تحتوي على أسماء أصحابها العربية ، مثل : وائلة وكليبة (من أسماء النساء) ، وعائذ والقسي ووهب اللات وعبد عبادة (من أسماء الرجال) ، كما انها تسجل عددا من أسماء الآلهة التي كان يعبدها أهل بطرا ، مثل : « ذو شري » ، واللات و « منوت » (مناة ؟) و « قيس » وهبل (٢) ، وهدد الذي يقابل عند اليونان الاله « زيوس » (٣) •

---

(١) انظر النقش في زيدان ، ص ٨٨ وعن صور النقود ، ص ٩١ ، وانظر ديسو ، العرب في سوريا ، ص ١٥ .

(٢) انظر زيدان ، ص ٧٨ ، ٩٥ .

(٣) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

أما الاله القومي عند جميع النبط فكان دوشرا ، وربما كان يمثل اله الخصب بعل • واللات هي زوجته • وكان الاله بعل يعرف في تدمر باسم بيل (البابلي) أو بعل — شمين بمعنى رب السماء • ومن بعل ظهرت أسماء مركبة ، مثل : يرحبول ، وعجلبون وملكبيل (١) •

وهكذا تحول زعماء أنباط القرن الأول قبل الميلاد ، من بدو يقدسون الحرية ولا يخضعون للأجنبي ، كما وصفهم ديودورس الصقلي، فيكتفون من أسباب المعاش بالقليل من الماء الى جانب لحوم الابل والغنم وألبانها ، فاذا هاجمهم أجنبي ردوه على أعقابه ، فان لم يكن لهم قبل به فروا الى الصحراء ، الى ملوك مرفهين يحملون الألقاب اليونانية وينقشون صور نسائهم على النقود • وهكذا فقدوا قواهم الحربية مما أدى الى فقدانهم ما كانوا يستأثرون به من أرباح التجارة ، أمام منافسيهم الأقوياء من الرومان • وهكذا قدر لدولة بطرا أن تختفي في ظل الامبراطورية الرومانية ، وأن يذوب أهلها وسط أخلاط سكان المنطقة من السريان والآراميين وغيرهم •

ولكن هذا لا يعني ان المنطقة فقدت أهميتها الاستراتيجية والتجارية، وذلك ان مركز الثقل انتقل قليلا من اقليم بطرا نحو الشمال الشرقي الى مركز عربي جديد في تدمر التي سيؤكد ازدهارها أهمية الأقاليم الشمالية من بلاد العرب كعصب الحياة الاقتصادية في قلب العالم القديم •

---

(١) انظر الحضارات السامية القديمة لموسكاتي ، الترجمة ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

عرب مملكة تدمر (مدينة النخل « بالميرا »)

اضمحلت بطرا في مطلع القرن الثاني الميلادي بادخالها في الولاية العربية الرومانية ، فكان ذلك بشير سعد لمدينة تدمر التي أخذت في الازدهار منذ ذلك الوقت الى ان بلغت ذروة مجدها في القرن الثالث الميلادي بفضل تملكها لناصية التجارة بين المشرق والبحر المتوسط .

وتدمر لا تدين بهذا الازدهار لاضمحلال بطرا فقط ، اذ الحقيقة انها كانت تتمتع بموقع ممتاز بفضل وقوعها في قمة بادية الشام في مركز وسط يكاد يمثل همزة الوصل بين أراضي الفرات الشمالية الغربية الخصبة وأراضي الشام الشمالية الشرقية . فكأن بادية الشام أسفلها مثلث متساوي الأضلاع : ضلعه الشرقي من الحيرة (أو الكوفة) الى تدمر ، وضلعه الغربي من تدمر الى بطرا ، بينما الضلع الجنوبي (أو القاعدة) يمر بشمال نجد والحجاز عبر البادية ، من الحيرة الى بطرا في جنوب الشام .

ولما كان طريق البادية الأخير من الطرق الصعبة ، حتى أن قوات المسلمين عندما عبرته بقيادة خالد بن الوليد (من العراق الى الشام) اعتبر ذلك عملا عبقريا من أعمال القائد العربي الكبير ، كان طريق الشمال عبر الرقة وبالس ، في العصور الاسلامية رغم طوله ، هو الطريق المطروق ما بين الشام والعراق ، كما سجل ذلك الاصطخري [1] ، وكانت تدمر تكاد تمثل في القديم موضع الرقة وبالس في العصور الاسلامية الاولى ، من حيث كونها عقدة المواصلات بين العراق والشام ، مع تميز طريقها

(١) انظر فيما سبق ، ص ٦٢ ، ٦٩ .

بأنه أقل طولا — اذ لا يصعد كثيرا نحو الشمال — كما انه يتفادى عبور الفرات ، وهذا كان يمثل عقبة صعبة بالنسبة لمرور القوافل .

وبذلك كانت تدمر منافسة لبطرا كواحدة من مراكز التجارة بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، بل ويرى بعض الباحثين أنها كانت مركزا تجاريا جيدا منذ القرن السادس قبل الميلاد . فقد كانت تمر بها القوافل التي تحمل الأمتعة والبضائع من اليمن الى الشام وآسيا الصغرى ، ومن الشام الى العراق وفارس وبالعكس [1] . وبناء على ذلك فالمدينة قديمة لا يعرف بانيها على وجه الدقة ، والعرب لم يعرفوا كثيرا عنها قبل الاسلام . والظاهر أن ما عرفه العرب عنها كان عن طريق الاسرائيليين الذين ذكروها في أسفارهم باسم « تمار » أو « تامار » بمعنى تمر الذي ربما تحول الى « تدمر » [2] . والراجح ان كلمة تدمر العربية هي تحوير بكلمة تتمر الآرامية التي تعني المدينة التي يكثر فيها النخيل ، فكأنها مدينة النخل ، وهو تقريبا نفس المعنى الذي عرفت به المدينة في اللغات الأوروبية حيث سميت « بالميرا (Palmyra) » [3] .

أما عن بقايا المدينة (التي كشف عنها في القرن ١٨ م) ، فهي تدل على مدينة عظيمة احتوت على [4] :

١ — هيكل عظيم مربع الشكل يحيط به سور ضخم ، ويحتوي على صفوف من الأروقة التي تحف بها الأعمدة الهائلة .

(١) زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٩٩ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٧٧ .
(٣) انظر ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، ص ١١٥ .
(٤) انظر زيدان ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

٢ ــ شارع أوسط وشارعين جانبيين يحفان به على طول أكثر من ألف متر ، تحف بها الأعمدة الضخمة . وقد وجد على عمودين من أعمدة هذا الشارع أو الرواق العظيم نقشان يرجعان الى سنة ٢٧١ م ، أي قبيل انهيار الدولة ، أحدهما يسجل اسم أذينة والآخر اسم زنوبيا [١] .

٣ ــ مدافن المدينة كانت منبثة حولها ، ويتألف كل مدفن من بناء يحتوي على أربع طبقات ترتفع الى أكثر من ٢٥ مترا .

وحسب الطريقة العربية القديمة في تفسير الأسماء ، نسبت المدينة الى امرأة من سلالة العماليق اسمها تدمر بنت حسان بن أذينة . وكما هو الحال بالنسبة الى بقايا الأبنية العظيمة قيل انها من بناء سليمان ، ولا بأس من أن يكون قد سخر الجن في بنائها ، كما هو معروف [٢] .

أما عن تاريخ المدينة الحقيقي ــ الذي أتى عن طريق ما عثر عليه من النقوش ، أو ما كتبه اليونان والرومان ــ فانه يكاد يكون نسخة طبق الأصل من تاريخ بطرا ، ولو ان أغلب ما كتب عن تدمر يرجع ــ بطبيعة الحال ــ الى القرون الميلادية الأولى .

فأهل تدمر عرب كالأنباط يكتبون بالآرامية التي كانت قد انتشرت ، في المنطقة ما بين فارس والشام والحجاز ، على أنقاض اللغة البابلية القديمة ، حتى أصبحت اللغة الرسمية في كل هذه البلاد ، كما كانت لغة التجارة والدبلوماسية . وملوك تدمر يظهر عليهم التأثر بالثقافة والعادات الرومانية كملوك بطرا ، فهم يحملون أسماء عربية والى جانبها ألقابا

(١) زيدان ، ص ١٠٧ .

(٢) انظر زيدان ، ص ٩٨ وهامش مؤنس، جواد علي ، ج ١ ، ص ٧٧ ، ٩٩ .

رومانية . واذا كان لبطرا ملكاتها الشرفيات أو الحقيقيات ، فقد كان لتدمر ملكتها الاسطورية الزباء أو « زنوبيا » ، الذائعة الصيت ، التي كادت تحيي بسيرتها العجيبة سيرة ملكة مصر البطلمية « كليوباترا » .

أما نقوشهم فتظهر فيها أسماء الأصنام العربية التي عبدوها الى جانب الأصنام الآرامية [١] . فمن أصنامهم : شمش (شمس) ، وبل (بعل) الاله الاكبر في تدمر وكذلك بعل ــ شمين أي رب السماء ، والت (اللات) ، وأشتر (عشتار) [٢] .

وبسبب وقوع المدينة بين العراق وبين الشام ، وبسبب ما تملكته من زمام التجارة ، وما جمعته من الثروات التي قد تثير أطماع الطامعين فيها ، كان على أصحابها أن يقيموا سياستهم مع جيرانهم الأقوياء ، وهم الفرس في الشرق ، والرومان في الغرب ، بما يحفظ التوازن بينهم وبين هؤلاء الجيران . فكأنهم كانوا يقفون من الفرس والرومان موقف خلفائهم أمراء الحيرة وأمراء غسان جميعا ، ولو أنهم كانوا الى الرومان أقرب ، فهم بالغساسنة من هذا الوجه أشبه .

والحقيقة ان المدينة كانت محط أطماع اليونان منذ فتوح الاسكندر، اذ خضعت للملك المقدوني ثم لخلفائه السلوقيين في الشام منذ سنة ٢٨٠ ق.م. والظاهر ان الرومان حاولوا اخضاعها منذ وقت مبكر على عهد الامبراطور طيبريوس (١٤ ــ ١٧ م) [٣] ولو أنه من الثابت أن تدمر لم

(١) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٨٠ ــ ٨١ .

(٢) جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ، وانظر س . موسكاتي ، الترجمة ، ص ١٨٤ ، ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٣) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ص ٨٥ ــ ٨٦ ، وقارن ده برسفال الذي رأى ان الاسرة التدمرية من بني اذينة قامت حوالي سنة ١٣٥ م من قبل الرومان لحفظ حدود الامبراطورية ضد الفرس (ج ٢ ، ص ١٩٠) .

تدخل في ملك الرومان الا بعد سنة ٤١ م باستيلاء مارك انطونيوس عليها [١] . وفي سنة ١٣٠ زارها الامبراطور هادريان ، وأظهر عناية فائقة بها حتى انه نسبها الى نفسه فسماها «مدينةهادريان Hadriana Polis أو « بالميرة هادريان Hadriane Palmyra » [٢] .

وفي ظل الحكم الروماني كان لمدينة تدمر نظمها على الطريقة اليونانية الرومانية ، فكان لها مجلس للشيوخ له حق اصدار القوانين (له رئيس وكاتب) ، وكان لها مكتب تنفيذي يتكون من عشرة أفراد ويرأسه شيخان ، كما كان للمدينة نظامها القضائي المستقل عن كل من السلطتين التشريعية والتنفيذية [٣] .

وهكذا فانه رغم اعتبار تدمر مستعمرة رومانية ، فان المدينة كانت تتمتع بنوع لا بأس به من الاستقلال . والحقيقة انه كان لتدمر أسرتها الوطنية الحاكمة ، التي توارثت الملك أو الامارة في البلاد ، والتي كانت صاحبة السلطة الحقيقية .

الملك أذينة :

وأشهر ملوك هذه الأسرة — التي تنسب الى قبيلة عاملة من العماليق [٤] — فهو الملك أذينة(Odenatus) بن خيران (أو حيران الملقب بسبتيموس) بن أذينة الذي كان يحمل لقب قائد العرب في الاقليم (فلارك) والذيأعطي لقب القنصل (سناتور) من قبل الامبراطور فاليريان،

---

(١) انظر زيدان ، هامش مؤنس ، ص ٩٩ .

(٢) زيدان ، ص ٩٩ ، وهامش مؤنس ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٣) انظر زيدان ، ص ٩٩ وهامش مؤنس ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٤) انظر ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

مكافأة له على معاونته له في الحرب ضد الفرس بقيادة سابور (سنة ٢٥٨ م) ، وهي التي انتهت بهزيمة فاليريان ووقوعه في الأسر [١] . ومع أن أذينة حاول التقرب من الملك الفارسي المنتصر الا ان الأمر انتهى بينهما بالحرب ، ونجح الأمير التدمري في الحاق الهزيمة بالقوات الفارسية سنة ٢٦٤ م ، واسترجاع البلاد التي كان سابور قد استولى عليها في الجزيرة ، وطارده الى ما وراء الفرات واستولى على عدد من مدن الجزيرة الفراتية ، ووصل الى اسوار طيسفون ، بعد ان استولى على الكثير من المغانم والاسلاب [٢] .

والظاهر أن أذينة شعر بأهمية موقفه بين كل من كسرى وقيصر فحاكاهما جميعا ، فاتخذ لقب « ملك الملوك » الفارسي ، كما اتخذ لقب القياصرة ، وهو « أغسطس » [٣] . وكأنه أصبح يقف موقف الحكم بين الامبراطوريتين المتصارعتين على سيادة المشرق ، بدلا من أن يكون بينهما وكأنه بين شقي الرحا .

ولا شك ان هذا التقدم السياسي الذي أحرزته المملكة التدمرية كان يؤدي الى ازدهار اقتصادي عن طريق تأمين القوافل وتنظيم التجارة واقرار الضرائب المقررة على التجارة وعلى تجارة العبور . وكان تجار

---

(١) زيدان ، ص ١٠٠ ، وانظر ده برسفال الذي يظن ان الاسرة الحاكمة في تدمر حملت لقب سبتيموس منذ ايام الامبراطور سبتيموس سيفيروس Septime Sevère أي حوالي سنة ٢٠٠ م .

(٢) انظر ده برسفال ، ج ٢ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، وقارن زيدان ، ص ١٠٠ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٣) انظر ده برسفال ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، زيدان ، ص ١٠٠ ، جواد علي ج ٣ ، ص ٩٧ .

تدمر وعلى رأسهم الأسرة الحاكمة – بطبيعة الحال – يتعاملون في منتجات جزيرة العرب من الذهب والجزع واللبان والصمغ ، وفي اللآلىء الآتية من الخليج ، وفي حرير الصين الثمين ، وطرائف الهند ، من القرنفل والبهار والعاج والابنوس [١] • ولا شك ان الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي كانا يؤديان الى الرقي الحضاري والثقافي والفكري ، وهذا ما تشير اليه النصوص في عصر « زينوبيا » أو الزباء •

الملكة الزباء (زنوبيا)

والملكة « زينوبيا » الشهيرة هي زوجة أذينة ، وكانت قد آلت اليها الوصاية على عرش ابنها « وهبلت » (وهبلات أو وهب اللات) الذي عرف في اليونانية باسم «اثينودورس» ، بعد وفاة زوجها سنة ٢٦٧ م [٢] • وأشهر الروايات العربية تجعل اسم الملكة نائلة بنت عمرو بن الظرب ، كما تسميها « تدمر » على زعم أنها بانية المدينة ، كما سبق [٣] • وتنسب اليها قيادة الجيوش التي كانت من بقايا العماليق واليهود والعرب من قبائل الشام والجزيرة والانتقام ، غدرا ، من قاتل والدها وهو جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، وتنهي قصتها بانتقام ابن أخت جذيمة ، الذي ملك الحيرة

(١) زيدان ، ص ١٠٧ .

(٢) زيدان ، ص ١٠١ ، وقارن جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، وقارن ده برسفال ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٣) اختلف الكتاب العرب في اسمها ، فقالوا : نائلة وفارغة وميسون . اما لقبها وهو الزباء فقريب من اسم « زينب » الذي قيل انه كان اسم اخت لها ، فيعني الجميلة ذات الشعر الطويل . أنظر ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٨ . الذي يلخص ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

بعد خاله ، الذي استولى على تدمر بالحيلة [١] • ولا بأس أن تحمل هذه القصة الاسطورية في ثناياها بعض الأصداء التي عرفها الاخباريون العرب، من أخبار الملكة التدمرية التي استقلت بملك بلادها ، والتي اصطدمت بالرومان ، وبحاسديها من أهل البلاد •

واسم زينوبيا أو الزباء ، كما يظهر في الكتابات الآرامية التدمرية ، هو : « بت زباي » أي بنت زباي [٢] ، فكأن الزباي او الزباء الذي اشتهرت به هو اسم والدها • ولقد اتفقت الروايات الرومانية والروايات العربية في المبالغة في صفاتها ، فهي : سمراء اللون ، سوداء العينين ، قوية البدن ، ذات جمال وهيبة • وهي ذكية تتكلم الآراميةواليونانية واللاتينية، وتتقن اللغة المصرية • وهي حامية للعلوم تهتم برجال الفكر وتظل الفلسفة برعايتها • أما في الحكم وتدبير شئون الدولة فهي تتصف بالحزم والحسم، كما كانت تقود الجيش وتركب الخيل وتجالس القواد والأعوان • ولقد تشبهت الزباء بالأكاسرة فعاشت في القصور واتخذت الحاشية ، وأحاطت نفسها بالحجاب والوصيفات ، كما ضربت باسمها النقود ونقشت عليها صورتها •

والظاهر ان المملكة التجارية الصغيرة كبرت واتسعت على أيام الزباء حتى نشرت سلطانها على كل بادية العرب فيما بين الفرات وقلب بلاد الشام وحتى شمال الحجاز • هذا ما يفهم من الروايات التي تقول انها كانت

(١) انظر الطبري ، ج ١ ، ص ٦١٨ – ٦٢٥ ، وابن خلدون الذي ينقل عن الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، وانظر زيدان ، ص ١٠٤ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٠٣ – ١٠٥ .

(٢) زيدان ، ص ١٠١ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

تقضي الشتاء في قلاعها على الفرات ، والربيع في بطن المجاز بسروج ، والصيف في تدمر • وكذلك ما يقال — رغم الطابع الاسطوري للرواية — من أنها كانت تحاصر القلاع في كل من دومة الجندل حيث الحصن المعروف بمارد ، وتيماء التي كان حصنها باسم الابلق (١) •

وفيما يتعلق بتقدير مثل هذه الشخصية الفذة ، كان من الطبيعي أن تختلف الآراء • فلقد قيل انها تهودت — ربما بسبب الجالية اليهودية الكبيرة التي كانت تعيش في تدمر على أيامها — وقيل أنها كانت مصرية مثل : كليوباترا ، ربما ! والظاهر انها شعرت بقوتها فقررت الاستقلال عن روما • ففي سنة ٢٧١ م• اتخذ ابنها « وهبلات » لقب « أغسطس » ، وهو لقب القياصرة، بينما أمرت هي قواتها بغزو مصر • ولكنه ما أن استتبت الأمور في روما للامبراطور أورليان حتى قامت الحرب بين الرومان والزباء ، وانهزمت القوات التدمرية أمام الرومان في أنطاكية وحمص • وانتهى الأمر بأن وصلت القوات الرومانية الى تدمر ، واضطرت الزباء ، التي انفضت من حولها القبائل العربية بترهيب الرومان لهم أو بالترغيب ، الى الهرب نحو فارس ، ولكنها أخذت على ضفة الفرات ، وعفي عنها فاستسلمت تدمر للرومان سنة ٢٧٣ م (٢) •

وعندما حاولت المدينة الثورة خربها الرومان ، فهدموا أسوارها ، وقتلوا معظم أهلها، وحملوا الزباء نفسها الى روما حيث قضت بقية حياتها•

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٦٩ — ٧٣ ، وانظر ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ١٩٨ — ١٩٩ ، وقارن زيدان ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٠٧ — ١٠٩ •

(٢) زيدان ، ص ١٠١ — ١٠٣ ، جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٩ — ١٢٢ • ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٠١ •

وخلال قرن من الزمان صارت المدينة التجارية الكبرى قرية صغيرة ، وحصنا من حصون الحدود التي أحاطت بها روما حدودها • وظل الأمر هكذا خلال القرنين الخامس والساس الميلاديين حيث كانت تقيم حامية رومانية مخصصة للدفاع عن حدود الامبراطورية ضد غارات قبائل البادية• وكانت تدمر من المواضع التي اتخذها الغساسنة قصرا ريفيا لهم ، وظل حالها كذلك الى أن فتحها المسلمون سنة ١٢ هـ — ٦٣٤ م (١) •

عرب الجزيرة وممالكهم

امارة الحضر :

لم تكن امارة تدمر هي الامارة العربية الوحيدة المزدهرة بفضل التجارة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، فلقد عاصرتها امارة عربية أخرى في الشمال ، فيما وراء الفرات وفي صحراء سنجار من أرض الجزيرة غرب تكريت التي أسسها ، فيما بعد ، سابور بن اردشير ، حيث عقدة المواصلات في الأقاليم الخصبة ما بين العراق والشام • وما زالت الآثار الباقية منها ، على بعد ١٤٠ كم• جنوب غربي الموصول ، تدل على مدينة حسنة البنيان قوية التحصين تجمع ما بين الطابع العربي والطابع اليوناني الروماني ، مثلها في ذاك مثل بطرا وتدمر — وتلك هي مدينة الحضر •

والمسعودي يعرف حصن الحضر ، في رستاق أياجر من بلاد الموصل، الذي كان حسن البناء حتى ذكرته الشعراء ، كما ذكروا صاحبه السيطرون ملك السريانيين لعظم ملكه وكثرة جيوشه (٢) •

---

(١) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٢٧ — ١٢٩ •

(٢) انظر مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٤٧ ، ابن خلدون، ج ٢ ، ص ٢٧٨ •

والحضر معروفة أيضا عند الكتاب العرب ، مثل ابن الكلبي والطبري وابن خلدون [1] ، والاسم معرب عن الاسم الآرامي « حطرا » [2] .

والكتاب العرب يعرفون أهل الحضر باسم « الجرامقة » الذين ينتسبون الى أرم بن سام ،و أشهر ملوك المدينة عندهم و «الساطرون»، من عرب قضاعة ، الذي كان يحمل لقب « الضيزن » . والظاهر ان الضيزن كان اللقب الذي عرف به خلفاء الساطرون عند العرب . أما الفرس فقد عرفوهم بلقب المنيزن Manizan ، واليونان واللاتين بلقب المنيسار Manisar والمنّوس Mannus كما سجل ده برسفال . ويرجع تأسيس المدينة الى القرن الاول قبل الميلاد ، ويدل ما عثر عليه في بقاياها من النقوش والكتابات ان مؤسسي المدينة من العرب الذين كتبوا بالآرامية مثل النبط أهل بطرا وأهل تدمر [3] . ومع أنه وجدت في هذه الكتابات أسماء عربية الى جانب أسماء ايرانية وآرامية ، فان نسبة الاسماء العربية في آثار الحضر تزيد على نسبة الاسماء العربية في كتابات تدمر ، مما يرجح عروبة أهل الحضر . والمعروف ان الرومان عندما اتصلوا بأهل الحضر في أول حملة لهم أطلقوا عليهم اسم « العرب » .

---

(1) الطبري ، ج ۱ ، ص ٥٨١ ، ابن الاثير الذي لم يكتف هنا بتلخيص الطبري بل انه استوفى الموضوع على خير وجه ، حسبما تسمح المصادر العربية ، ج ۱ ، ص ۳۸۷ — ۳۸۸ . وانظر ده برسفال ، ج ۲ ، ص ٤٠ — ٤٢ .

(2) جواد علي ، ج ۲ ، ص ٦١٠ .

(3) في لسان جرامقة الشام وهو نفس لسان نبط العراق ، انظر حمزه الاصفهاني ، سني ملوك الارض ، ص ٣٦ (صرحا ومعدلا = صرح ومعدل = القصر) .

وملوك الحضر يحملون في النقوش بصريح العبارة لقب « ملوك العرب » . فمن أسماء ملوكها سنطرق ملك العرب (ملكادي عرب) ، كما ان سادن معبد الحضر يسمى « سادن العرب » [1] . ومعبد الحضر مكعب الشكل — حسبما شاهدناه — يحيط به رواق تصطف فيه الأصنام والآلهة ، فكأنه بني من أجل الطواف حولها .

ولقد عرفت المدينة أوج ازدهارها بعد ضعف حكومة السلوقيين بالشام ، وعلى أيام الفرثيين من الفرس الذين يعرفهم الكتاب العرب باسم ملوك الطوائف .

ومنذ عهد الامبراطور تراجان بدأت المدينة تظهر في التاريخ الروماني ، وذلك منذ ان حاصرها تراجان سنة ۱۱۷ م. ومع أنها عادت في السنة التالية الى الفرس بعد الصلح مع الرومان ، فقد عادت الى الامبراطورية سنة ١٦٥ ونجد ملكها برسيميوس (برسوم) يقدم في سنة ١٩٤ م كتيبة من النبالة الى امبراطور المشرق لقتال خصمه سيفيروس. وهكذا فمع ان الاسرة الحاكمة في الحضر كانت قوية مع مطلع القرن الـ ٣ م حتى انها نجحت في رد سفيروس عندما حاصرها سنة ٢٠٠ م ، الا انها لم تستطع أن تقف أمام الامبراطورية الفارسية بعد قيام الساسانيين . فعندما انتهز أمير الحضر انشغال سابور بن أردشير في خراسان ، وهاجم بعض أقاليم سواد العراق عاد هذا الاخير وضرب الحصار على المدينة الحصينة التي قاومت الفرس — لمدة سنتين ، كما تذكر القصة العربية ، وبفضل تآمر ابنة أمير الحضر نفسها — التي بهرها جمال الملك الفارسي — قبل ان تسقط ويقضى عليها في سنة ٢٤١ م ، أي قبل انهيار تدمر . وبعد

---

(1) جواد علي ، ج ۲ ، ص ٦٠٩ — ٦١٢ .

تخريب الحضر لا بأس من أن يكون زعمـاء العـرب في المنطقة ظلـوا يحملون لقب الضيزن [١] .

امـارة الرهـا :

والى جانب الحضر كانت مدينة الرها **Edesse** المشهـورة في تاريخ الحروب الصليبية ، والتي تعرف حاليا باسم « أورفة » مركزا تجاريا هاما من مراكز منطقة الجزيرة ، وكان لها أسرتها الملكية من العرب الذين حملوا أسماء : معن (معنو) ، وبكر (بكرو) ، وعبد (عبدو) ، كمـا كانت لها آلهتها ذات الاسماء العربية أيضا : مثـل : عزيـز ، ومنعـم **Monimos, Azizon** . وتتلخص أهمية مدينة الرها بالنسبة لدراسـة تاريخ العرب قبل الاسلام ، في تراثها الذي وصل الينـا في كل من الأدب السرياني (الذي حل محل الآرامي) ، والتاريخ النسطوري [٢] .

امـارة حمـص :

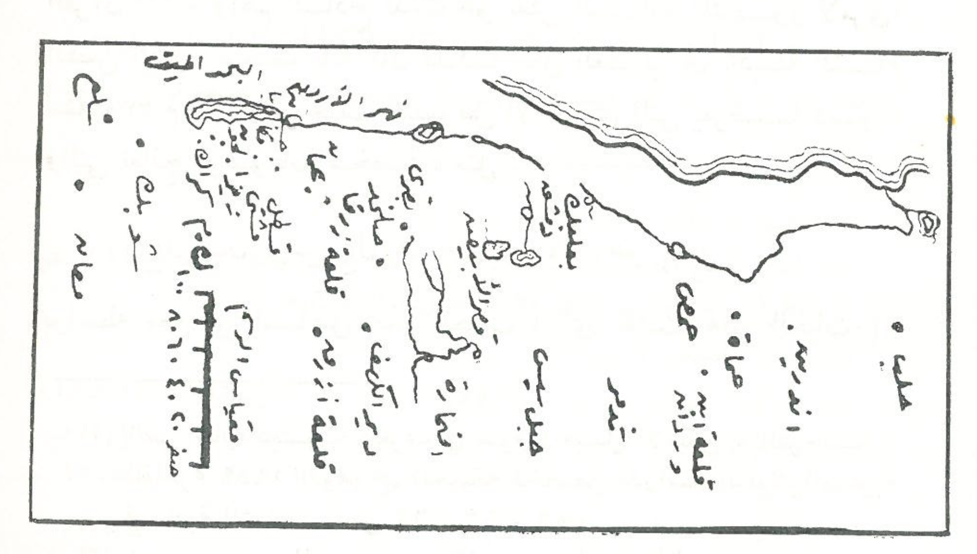
هذا ، وقد كان لمدينة حمص أيضا أسرتها الملكيـة العربية ، التـي يكاد تاريخها يشبه تاريخ تدمر ، ومن أسماء ملوكهـا : شمس جـرم ، وجميل ، وعزيز .

---

(١) المصادر السابقة وخاصة المسعـودي ، مـروج الذهـب ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٩ حيث يورد أشعار العـرب في ملـوك الحضر مـن الساطرون والضيزن وابنته وقصتها مع سابـور . وفي رثاء حصن الحضر وصاحبه ، قال ابو داود جارية بن حجاج الايادي :

وارى الموت قد تدلى من الحضر على رب اهله الساطرون
ولقـد كان آمنـا للدواهي ذا ثراء وجوهر مكنـون

(٢) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٦١٩ – ٦٢١ .



منطقة الصفا جنوب شرق دمشق واشهر حصون سوريا

(٩) من كتاب العرب في سوريا قبل الاسلام لديسو (ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ص ١٩ ، ٣٩)

عرب الصفا :

ويمكن أن يضاف الى هؤلاء جماعات العرب الذين عرفهم المستشرقون باسم الصفويين ، نسبة الى المنطقة التي استقروا فيها في تلال الصفا ، شرق وشمال جبال حوران • وربما كان المقصود بكلمة الصفا هو الارض الصخرية التي تختزن المياه بين طبقاتها ، ولو أن طبيعة هذه المنطقة صخرية بركانية مما يعرف بالحراة (مفردها حرة) وفيها تجري المياه شتاء وتشح في الصيف • ولقد أطلق الباحثون في اللغات السامية القديمة اسم الكتابة الصفوية على النقوش او الخطوط التي وجدوها هناك ، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر ، والتي تؤرخ ابتداء من القرن الاول الميلادي الى القرن الثالث الميلادي • والكتابة الصفوية تتميز عن الكتابات اليمنية الشمالية المعروفة بالمعينية واللحيانية والثمودية (وهي الأقرب اليها) من حيث انها أكثرها تأثرا بالمؤثرات السامية الشمالية أي الآرامية مما جعلها أقرب اللهجات العربية القديمة الى اللغة العربية الفصحى ، أي لغة القرآن [١] • وأهم النماذج لذلك هو نقش النمارة المشهور لامرىء القيس الذي يوصف بأنه كان ملكا لكل العرب في بادية الشام سنة ٢٣٨ م [٢] ، الى جانب النصوص الاخرى التي يعرضها ديسو ، والتي تعالج موضوعات شخصية ، مثل :

ل م‍ع‍ن ب‍ن ي‍س‍م‍ع‍ل ه‍ ح‍ي‍ت ، وهو يقابل :

بواسطه معن بن اسماعيل هذه الحيات (أي نقشت هذه الحيات)•

---

(١) انظر كتاب ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، الترجمة ، القاهرة ١٩٥٩ (وهو في الحقيقة مخصص لدراسة النقوش الصفوية في بادية الشام) ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٦ •

(٢) ديسو ، نفس المرجع ، ص ٨٦ ، وعن النص انظر ص ٣٣ — ٣٤ •

واسم معن ما زال موجودا في العربية ، كما كان معروفا في النبطية والتدمرية [١] • ومنها ما يشير الى أعمال حربية مع الفرس والروم — بشكل خاص — أو مع النبط ، مثل النص الذي يقول : « لأنعم بن قحش ، لقد استولى على غنائم سنة الحرب مع النبط » • مما يظن معه ان ذلك وقع سنة ١٠٦ أيام تراجان عندما سقطت المملكة النبطية وأقيمت الولاية الرومانية العربية » وبدء عهد بصرى [٢] • وكذلك النص الذي يقول :

« سنت حرب همدي ال روم » ، وتفسيرها :

السنة التي حارب فيها الفرس (الميديون) أهل الروم (أي الرومان) [٣] • ومع اتساع مجهودات الباحثين [٤] اتسعت منطقة الكتابة الصفوية فامتدت ما بين حمص وحماة والفرات وما بين حماة وفلسطين والاردن وشمال الحجاز [٥] •

ومن أسماء القبائل التي تسجلها هذه الكتابات : اشلل ، وجعبر ، وحمد ، وزد (زيد) ، ونمرت (نمرة) ، ونميرة ، وعويذ ، ودوح •

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩ — ١٠٠ •

(٢) انظر نفس المصدر ، ص ١٠٣ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٤٥ ، عن بطرا ودخولها في نطاق الامبراطورية الرومانية •

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٥ •

(٤) واولهم سيرل جراهام سنة ١٨٥٧ ، ي•ج• فتزشتين سنة ١٨٥٨ ، ودنجتون وده فوجه سنة ١٨٦٢ ، ديسو ١٨٩٩ — ١٩٠١ ، ف• مكلر سنة ١٩٠١ ثم أ• ليتمان سنة ١٩٠٠ — ١٩٠٤ — ١٩٠٥ • انظر ديسو ، ص ٥٨ — ٥٩ •

(٥) المرجع السابق ، وقارن جواد علي ، المفصل ، ص ١٤٢ وما بعدها

ويفهم من هذه الكتابات وما حولها من الصور الحيوانية ان جماعات الصفويين هؤلاء ــ مثل غيرهم من أهل المدن السابقة كانوا وسطا بين البداوة والحضارة ، فالنصوص تشير الى حيواناتهم الأليفة ، من : الجمل والحصان والضأن والمعز والحمار والبقر . أما حيوانات الصيد عندهم فكانت : الغزال وبقر الوحش ، كما توجد لهم صور يطاردون فيها الاسد [1] . أما الاسماء التي كانوا يحملونها ، فمنها قصي (قصيو) ، وروح (روحو) ، وأسد ، وكلاب (كلبو) ، ومالك ، ومعن ، وقحش ، وعطية ، وبدد ، وسعدئل ، ووتر ... الخ .

ومن الاسماء المركبة : عطية الله ، وجزاء الله ، سعد اللات .. الخ.

أما عن آلهتهم ، فمنها : عشتر (اله كوكب الزهرة) واللات (أشهر الآلهة وكانت اله شمس) وذو شرى ، وشمس ــ جرام ، ومارنا (زوس عند أهل كريت) ، ورضا (الهة نجم المساء) ، وجد ــ عويذ (حظ عويذ) ، واثاع ، رحام ، شيع القوم (وأتباعه لا يشربون الخمر عكس أتباع مذهب دوزاريس) [2] .

الخلاصة :

من هذا العرض لتاريخ كل من البتراء (بطرا) وتدمر والحضر وغيرها نستطيع أن نستخلص أن بلاد العرب الشمالية ، المتاخمة لحدود كل من الشام والعراق عرفت عصرا من الازدهار السياسي والحضاري والاقتصادي ، بل والفكري خلال الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي .

---

(١) ديسو ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٢) انظر ديسو : العرب في سوريا ، الفصل الرابع وما بعده ، زيدان ، ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ــ ١٥٣ .

وبصرف النظر عن أهمية الموقع بالنسبة لأهل المنطقة التي تعتبر عقدة المواصلات الأرضية والبحرية بين المشرق وبين عالم البحر المتوسط ، فلا شك ، أن ازدهار هذه الامارات العربية يرجع بالدرجة الأولى الى الظروف السياسية المواتية بالنسبة لأهل البلاد ، والتي تمثلت في الصراعات التي قامت في المنطقة ــ بعد أن دخلت في نطاق امبراطورية الاسكندر ــ بين مملكة السلوقيين في الشام وبين دولة البطالمة في مصر ثم في الصراع بين الامبراطورية الرومانية ودولة الفرس .

فخضوع المنطقة للدول الكبرى التي أقرت الامور وهيأت استتباب الأمن كان من أسباب الازدهار الاقتصادي الذي تمثل في النشاط التجاري الذي اهتمت به هذه الدول . وكان من الطبيعي أن يستفيد العرب من أهل المنطقة على كل المستويات : السياسية والحضارية والاقتصادية . فلقد تأثر العرب باليونان والرومان وحاكوهم في حياتهم السياسية ، وفي طريقة معاشهم اليومية ، كما عملوا في التجارة وكونوا الثروات ، وانتهى الامر بأن كوّنوا أسرات عربية حاكمة في هذه المدن .

وبطبيعة الحال لا يعني قيام حكومة محلية في كل مدينة من هذه المدن أنها كانت مستقلة عن الاخرى ، فطبيعة التجارة التي لا تزدهر الا في نطاق الأمن على الطرقات ، واستقرار السلام بين الممالك والدول ، كان يتطلب وجود علاقات ودية بين هذه المدن . وذلك أن كل واحدة منها لم تكن أكثر من محطة على طريق القوافل التجارية ، تفيد هذه القوافل بما تقدمه لها من خدمات على الطريق ، في نظير الاتاوة المفروضة على تجارة العبور ، كما تتم الفائدة عن طريق تبادل السلع المحلية أو المستودعة ، وفي ذلك كسب لجميع الاطراف .

وهكذا يصل تاريخ هذه المدن ، وهي تتعاصر وتزدهر ثم تضمحل

ليقوم غيرها بنفس الدور في تسلسل لا ينقطع ، بين ماضي العرب البعيد في شمال الجزيرة قبل الاسلام وبين ماضيهم في العصور الاسلامية المبكرة •

واذا كان تراثنا العربي الاسلامي لم يحفظ لنا من أخبار هذه الشعوب العربية شيئا كثيرا ، فان الفضل يرجع الى ما تركه هؤلاء العرب من آثار سجلوا عليها ما قاموا به من أعمال • والحقيقة ان هؤلاء العرب ملأوا تاريخ هذه الفترة العريقة بنشاطاتهم في ميادين السياسة والحضارة ، ولم يتركوا — رغم امكاناتهم المحدودة — بلادهم نهبا لأطماع أصحاب الدول الكبرى في تلك العصور ، أو فراغا يمكن أن يملأه الأجانب من ذوي الحول والطول •

وفي هذه الظروف حارب هؤلاء العرب دفاعا عن بلادهم في كل الاحيان ، وخضعوا وحاربوا الى جانب الغزاة في بعض الاحيان ، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يطمحوا في الاستقلال وأن يحققوه في كثير من الاحيان • وهم في كل ذلك يمتلكون ناصية التجارة ويحققون لأنفسهم ولبلادهم عن طريقها القوة والرخاء •

وهكذا تنتهي عصور هذه الجماعات من العرب القدماء ممن عرف نسابة العرب أسماءهم ولكنهم لم يعرفوا ماذا آلت اليه مصائرهم ، فسموهم بالعرب البائدة ، مثل : عاد وثمود وغيرها أو ممن لم يعرفوا عنهم شيئا لبعد بلادهم أو لانقطاع أخبارهم عنهم ، مثل : عرب البطرا وتدمر والحضر وغيرهم ، ممن كشفت الابحاث الحديثة عن كثير من أعمالهم وأمجادهم • وننتقل بعد ذلك الى معالجة تاريخ الجماعة الاخرى من العرب الذين يمكن تتبعهم من الاصول الى الفروع أو من الفروع الى الاصول ، وهم العرب الباقية ، الذين حملوا رسالة العرب أي الاسلام والذين نشروا العروبة في كل مكان •

الفصل الرابع

العرب الباقية

بناء على الخطة التي أردنا أن نضعها لهذه الدراسة ، والتي وددنا لها أن تنسجم مع تراثنا العربي الاسلامي في تاريخ العرب القديم ، نرى ان الفصول السابقة — الخاصة بالعرب البائدة ممن عرفهم الكتاب ، فقالوا انهم هلكوا ، وممن كشفت عنهم الكتابات اليونانية الرومانية القديمة والتنقيبات الأثرية الحديثة ولا نعرف كيف انتهى بهم المآل — يمكن أن تعتبر كمقدمة لتاريخ العرب الحقيقي أي تاريخ العرب المعروف في العصر الجاهلي وفي صدر الاسلام ، والذي يحوي الى جانب تاريخ عرب بلاد الحجاز بصفتها مهد الاسلام ، تواريخ الممالك العربية التي عرفتها جزيرة العرب في اليمن وفي العراق وفي بلاد الشام • فعرب هذه البلاد جميعا شاركوا في الحركة الاسلامية ، وانتشروا مع عرب الحجاز في سائر الأمصار ، في المشرق وفي المغرب ، وهم بذلك يكونون الأصول الأصيلة لشعوب العالم العربي المعاصر •

ولقد فضلنا استخدام صفة « الباقية » لأننا سنقبل بتقسيم العرب

الى عاربة ومستعربة ، لكي تتفادى ما قد يقوم من اللبس بين كل من كلمتي « عاربة » و « بائدة » اللتين استخدمهما الكتاب القدامى بنفس المعنى في بعض الأحيان ، مما جعل ابن خلدون يتحير أمام هذا الأمر فيجعل العرب الباقية جميعا من المستعربة ، وبضمنهم عرب القحطانية من اليمنية رغم ان المتفق عليه أنهم من العاربة ، كما لم يخف على مؤرخنا الكبير .

عرب اليمن وممالكهم

القحطانية الأوائل :

يجعل النسابة عرب اليمن كمبتكري العروبة ومرسخي أصولها على رغم أن يعرب بن قحطان (أو والده قحطان) كان أول من هاجر من بابل الى اليمن ، قبل اخوته وبني عمومته الذين ساروا في أثره ، وأنه كان أول من تكلم منهم باللسان العربي . وهكذا فاذا كانت عاد وثمود وبنوهم من العرب البائدة يعتبرون من العاربة ، فمن باب أولى أن يعتبر يعرب بن قحطان وبنوه من العرب العاربة .

وبصرف النظر عن الاضطراب والخلط الذي يقطع أوصال الرواية العربية عن القحطانية الأوائل في اليمن ، فالذي تصر عليه هذه الرواية هو أن يعرب بن قحطان كان أول من حياه قومه بتحية الملك في اليمن (١) ، فهو الذي قاتل بني حام ونفاهم من اليمن الى غربي الارض (٢) ، وهو الذي هزم العاديين عندما زاحموه هناك ، وذلك في موضع يقال له بارق ،

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٧٣ ، ١٢١ .
(٢) وهب بن منبه : التيجان ، ص ٣١ .

بين « الأحقاف » و « العالية » ، وقتلهم مقتلة عظيمة . وفي ذلك ينسب الى يعرب أنه قال شعرا :

لعمري لقد شادت على الدهر خطبة
سيوف بني قحطان في يوم بارق
لقد حضرت عاد الى الموت ضحوة
وللمرهفات الغر فوق العواتق
دلفنا الى عاد بجمع كأنه
على الارض يعدو كالسيول الدوافق
أرادوا دفاع الله والله غالب
فكنا عليهم منه احدى الصواعق (١)

فكأن صاحب هذا الشعر كان يعرف مقدما ما سوف يحل بعاد من العذاب .

ورغم ما تقوله رواية وهب بن منبه من أن يعربا هو الذي فرق اخوته حكاما من قبله على البلاد ، فعهد الى جرهم بأمر مكة ، وولى عادا أرض بابل ، وولى حضرموت أرض الحشة ، وعهدالى ناعم بعمان ، وأنه بعد وفاته ملك ابنه يشجب ، وبعد هذا ولى ابنه عبد شمس بن يشجب المعروف بسبأ (٢) ، يؤكد عبيد بن شرية ان أول من ملك من ولد قحطان هو سبأ المعروف بعبد شمس ، ويفسر اسم سبأ بأنه : أول من سبأ السبايا (٣) ،

---

(١) التيجان لوهب بن منبه ، ص ٣٤ .
(٢) التيجان ، ص ٤٧ .
(٣) اخبار اليمن ، ص ٣٩٩ . وانظر حمزه الاصفهائي ، سني ملوك الارض والانبياء ، ط. برلين ، ص ٨٢ . يرفض طريقة النسابة في اشتقاق اسم سبأ من السبي والكلمة الاولى مهموزة والثانية غير مهموزة ، وهو لا يدري كيف يتصرف النسابة ، كما زعموا ان « طيا » سمي طيا لانه أول من طوى المناهل ، وهو بريء من عهدة الكلمتين .

فكأنه يريد أن يحدد بداية تاريخ اليمن القديم بمملكة سبأ ، وهو الأمر المقبول تاريخيا •

١ ـ سبأ :

والحقيقة ان سبأ (عبد شمس) يظهر في شخصية حكيم من حكماء العرب في رواية وهب • فهو يحض القحطانية على الغزو ، ويحذرهم من انهم اذا لم يقاتلوا الناس قاتلوهم ••• ، ويقول :

- « واعلموا أن الصبر فوز والعمل مجد والأمل منهل ، فمن صبر أدرك ومن فعل فاز ••• » •
- « التجارب علم والعزم عون ••• » •
- « الدنيا صاحبة الغالب وعدوة المغلوب ، والصبر باب العز والجزع باب الذل ••• » •
- « لا تصحبوا التواني فانه شر صاحب ولا ترضوا بالمنى فانه مراتع العاجزين ، ولا تقروا على ضيم فانه مصارع الأذلاء ، فقوموا قبل أن تمنعوا القيام » (١) •

أما عن فتوحاته فتشمل العراق (بابل) وأرمينية والشام والمغرب وأنه الذي بنى مصر على النيل بين البحرين لتكون « صلة بين المشرق والمغرب » ووصل الى قمونية في المغرب • ولكثرة من سبى في غزواته هذه من الذراري والعيالات سمي « سبأ » (٢) •

وأهم أعماله العمرانية هو بناء « السد » الذي ذكر الله في كتابه ، وهو سد فيه سبعون نهرا ، ويقبل اليه السيل من مسيرة ثلاثة أشهر •

---

(١) التيجان ، ص ٤٧ ـ ٤٨ •
(٢) التيجان ، ص ٤٨ ـ ٤٩ •

وبعد وفاة سبأ « بعد أن أسس قواعد السد » ، صار الملك الى ابنه حمير (دون ابنه الآخر ، وهو كهلان) (١) •

٢ ـ حمير :

وحمير فاتح عظيم ملك الأرض ومن عليها : فقد أمعن في المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج الى مطلع الشمس ، كما دخل الشام ، ومضى الى الحبشة يتبعهم حتى بلغ بهم الى البحر المحيط من المغرب •

ومن أهم أعمال حمير استخدامه خط المسند ، الذي « قيل له مسند لأنه أسند الى هود عن جبريل » • وتقول رواية وهب انه أتى لحمير « آت في المنام قال له : ان الله اصطفى هذا الخط للفرقان يأتي به محمد »، وهو الذي عرف على أيام خلفاء حمير بالخط الحميري • ومات حمير بعد أن عاش ٤٤٥ سنة ، كما تريد الرواية •

أبناء حمير : ٣ ـ وائل ، ٤ ـ السكسك ، ٥ ـ يعفر :

وبعد حمير يتوالى على ملك اليمن ـ حسبما يعدد وهب بن منبه ـ أكثر من ٣٠ (ثلاثين) ملكا ، أي ضعف الذين عددهم عبيد بن شرية • والثلاثة الأول منهم ، من أبناء حمير ملكوا ابنا عن أب ، وهم : وائل ، والسكسك ، ويعفر الذي « مرج أمر حمير بعد وفاته » •

٦ ـ عامر ذو رياش ، ٧ ـ النعمان بن يعفر :

وبعده انتقل الملك الى فرع حميري جانبي ، بملك «عامر ذو رياش» ثم عاد الى النعمان بن يعفر الذي سمي بالمعافر أيضا والذي مات بعد ملك دام ٣٠٠ (ثلاثمائة) سنة • وبمناسبة عودة الملك الى سلالة حمير ،

---

(١) التيجان ، ص ٥٠ •

يروي وهب عن كعب الأحبار أنه سمع أهل الكتب الأول والأخبار المتقدمة ، يقولون : « ان حمير في الارض كالسراج المضيء في الليلة الظلماء وان الناس ليريدون هكذا وخفض يده ، ويريد الله بهم هكذا ورفع يده » [١] • وابن منبه يشير هنا الى الصراع الذي كان قائما بين اليمنية وبين المضرية في صدر الاسلام ، وهو يتعصب لبني جلدته من اليمنية •

العاديون :

٨ ـ شداد بن عاد ، ٩ ـ لقمان بن عاد :

بعد ذلك ينتقل الملك الى أسرة عادية من أشهر ملوكها اثنان ، هما : شداد بن عاد ، الملك الاسطوري الذي دوخ العالم وبنى المدينة العجيبة « ارم ذات العماد » ، وعمّر ٥٠٠ (خمسمائة) عام • وأخوه لقمان بن عاد صاحب النسور الذي سمي بالرايش لتواضعه • والرواية هنا تخلط بين عاد البائدة وبين حمير القحطانية ، رغم أنها تنسب شداد الى فرع حميري قحطاني ، عرف بـ : عاد الأصغر •

١٠ ـ الحارث الرائش الاصغر (تبع) :

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة الحارث الرائش الأصغر (ابن أخي لقمان الرائش الأكبر) الذي عرّف بتبع ولقب بـ « ذو مراثد » بمعنى « ذو أيادي » في لغة حمير ، وكانت تأتيه هدايا الهند : من : أصناف الطيب والمسك والعنبر والكافور وحب البان والينجوج والزعفران والفلفل والهليلج وغيره ، ويأتي الجوهر والعقيق والدن ، مما أطمعه في غزوها [٢] •

---

(١) التيجان ، ص ٦٤ •
(٢) التيجان ، ص ٧٨ – ٧٩ •

١١ ـ الصعب بن الحارث الرائش (ذو القرنين) :

ومن الأسرة العادية هذه الصعب بن الحارث الرائش الملقب بذي القرنين صاحب الخضر (وهو غير الاسكندر الرومي) ، الذي لم يكن في التبابعة متجبر مثله ، والذي غزا الحبشة وغلب على أرض السودان ، ووصل في فتوحه الى وادي الرمل في المغرب ، والى جزيرة الأندلس ، ووصل الى مغرب الشمس في المحيط ، كما وصل الى مشرقها فيما وراء أرض يأجوج ومأجوج •

أما عن وصية الخضر له ، وهي من حكم العرب أيضا ففيها :

- « مر ينفع خير من حلو يضر » •
- « أيقن وأتقن ، فاتقانك صلاح الدنيا ويقينك صلاح نفسك » •
- « الناس عبيد الدنيا ، فمن نصح نفسه اعتقها ، ومن خلط طال رقه » •
- « خذ ما أتيت بحزم وعزم ، واجعل الصبر دثارا والحق شعارا ، والخوف من الله جنة ••• يزكو لك العمل وتأمن من هول الأجل » [١] •

١٢ ـ أبرهة بن الصعب (ذو المنار) وابناه : ١٣ ـ العبد ، ١٤ ـ عمرو :

وبعد الصعب يأتي ابنه أبرهة « ذو المنار » ، ثم ابناه العبد بن ابرهة وعمرو بن أبرهة • ومع أن أبرهة هذا وبنوه غير أبرهة الحبشي وابنه يكسوم اللذين ملكا اليمن في أواخر دولة حمير ، فان أسرة أبرهة ذي المنار لها علاقات وثيقة بالحبشة • فذو المنار سمي أبرهة بمعنى « وجه أبيض »

---

(١) التيجان ، ص ٩٣ – ٩٤ •

باللغة الحبشية ، فكأن أبرهة كان لقبا لقبه به الأحباش . وهذا أمر مقبول بالنسبة لسياق الرواية التي تقول انه غزا الحبشة . بل وتربط الرواية بين هذا الماضي البعيد والحاضر الاسلامي ، فتقول انه الـذي أمر أن يمضي بأسرى الحبشة الى أرض البحرين وعمان ، يخدمون المراكب ، فيزعمون ان النوتيين الذين كانوا بعمان والبحرين من بقايا سبايا الحبشة الذي سبـى العبد بن أبرهة [1] . والعبد بن أبرهة يلقب بـ « ذو الاشرار » نسبة الـى الحبشة الذين غلب على جميع أرضهم وسباهم وساقهم الى مكة . وهذه اشارة الى جماعة الأحابيش التي كانت تعيش في مكة عند ظهور الاسلام. وينتهي ملك هذه الأسرة بعمرو بن أبرهـة الملقب بـ « ذو الاذعار » لانه ذعر الناس بالجور ، وأمه كانت جنية تعرف بالعيسوف ، وكانت على دين الحنيفية [2] .

المتغلبـون :

١٥ ـ شرحبيل ، ١٦ ـ الهدهاد ، ١٧ بلقيس ، ١٨ ـ رحبعم بن سليمان :

وينتقـل الملك الى أسرة جديـدة بدأهـا شرحبيل (الذي قاتـل ذا الاذعار) ، ثم ابنه الهدهاد والـد بلقيس ملكـة اليمـن المشهورة ، ووالدتها من الجن (الأمر الذي يردّه عامة من العلمـاء) ، ويأتي معهـا سليمان بعد ذلك ، وكانت « تقله الريح وتظله الطير ... وسخرت لـه الأنس والجـن والشياطين » . وهنا يبين وهب بن منبـه معارفـه في الاسرائيليات : فاسرائيل : ولى (اسرا) اللـه (ايل) ، وجبرائيـل : رسول الله ، وعزرائيل : عبد الله ، وميكائيـل : صفي (ميكا) اللـه (ايل) [3] . وبعد بلقيس يملك رحبعم ابنها من سليمان .

---

(١) التيجان ، ص ١٣١ .

(٢) التيجان ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) التيجان ، ص ١٥٤ .

عود الى الاسرة الحميرية : ١٩ ـ مالـك بن عمـرو بن يعفر (ناشر النعم) ، ٢٠ ـ شمر يرعش (تبع الاكبر) ، ٢١ ـ صيفي بن شمر يرعش :

ويعود الملك من جديد الى حمير بمالك بن عمرو بن يعفر الذي لقب ناشر النعم (أي محيي النعم لما أحيى ملك حمير) ، وغزا المغرب والحبشة ووصل في المشرق الى مطلع الشمس .ويليه ابنه شمر يرعش وهو تبـع الأكبر الذي لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه ... كان بنو قحطان وبنو عدنان شاكرين لأيامه ، اذ كان يتجاوز عن مسيئهم ويحسن الـى محسنهم ، ولهذا فهو عندهم تبع الأكبر ، وان كان قبلـه تبابعـة عظمـاء أعظم منه [1] . وشمر يرعش الذي يعتبر من الشخصيات التاريخية لـه شأن في تاريخ اليمن ، فهو : بطل العرب الذي يغضبون لغضبه، ويقومون معه للدفاع عن أرض العـرب ضد تهديـد قبـاذ بن شهريار الفارسي ، ويغزون تحت رايته المشرق حتى سمرقند، وأصلها بالفارسية «سمركنداي» أي « ما خرب شمر » ، فأعربته العرب بلسانها ، فقالـوا سمرقند [2] . واليه ينسب صنع الدروع السوابغ التي منها سواعدها وأكفها ، والتـي تعرف بالأبدان . وبعده يملك ابنه تبع صيفي بن شمر يرعش .

مرحلة جديدة : ٢٢ ـ عمرو بن عامر مزيقيا (ملك متوج) :

بعد ذلك ننتقل الى مرحلة جديدة في تاريخ اليمـن بملك عمرو بن عامر مزيقيا ، وهو ملك متوج . وعلى أيامه ينهار السد ، وتبدأ هجـرة الأزد الى الحجاز حيث كان منهـم الأوس والخزرج ، والى الشام حيث كوّنوا أسرة الغساسنة [3] .

---

(١) التيجان ، ص ٢٢٢ .

(٢) التيجان ، ص ٢٢٧ .

(٣) التيجان ، ص ٢٦٢ وما بعدها .

تبابعة ضعاف : من ٢٣ ـ ٢٨ :

ويلي ذلك ربيعة بن نصر من ضعاف التبابعة ، ثم تبان أسعد أبو كرب وعلى أيامه دخلت اليهودية الى اليمن [١] • ثم حسان بن تبع أسعد أبو كرب ، وبعده أخوه عمرو بن تبان ثم عبد كاليل وهو تبع الأصغر (وآخر التبابعة) ثم يأتي ذو نواس زرعة ابن تبان أسعد صاحب الأخدود المذكور في القرآن ، والذي اضطهد النصارى في نجران مما كان سببا في غزو الحبشة لليمن •

ملوك الحبشة : ٢٩ ـ ابرهة الاشرم ، ٣٠ ـ يكسوم ابن ابرهة :

أما ملوك الحبشة على اليمن فهم أبرهة الأشرم صاحب الفيل الذي أراد فتح مكة وهدم الكعبة ، وابنه يكسوم بن أبرهة (ملك متوج) وعلى أيامه خرج سيف بن ذي يزن الحميري بجند فارس وهزم الحبشة •

التبعية للفرس : ٣١ ـ سيف بن ذي يزن :

وسيف بن يزن حكم اليمن من قبل كسرى ، ولو ان كل ناحية كان يليها رجل من حمير ، وهو الذي وفد عليه عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن أبي الصلت، وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد للتهنئة [٢] •

ورغم الخلط في الرواية العربية القديمة الخاصة بملوك اليمن القدماء والتي بدأها عبيد بن شرية بحوالي ١٥ (خمسة عشر) ملكا ، وزادها وهب بن منبه الى أكثر من ٣٠ (ثلاثين) مع تقديم وتأخير فيعهود

---

(١) التيجان ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢) التيجان ، ص ٣٠٦ .

هؤلاء الملوك الى جانب ما يصحب ذلك من التغيير والتحوير في الاسماء والألقاب ، وهي القائمة التي ظلت ـ مع مرور الوقت ـ موضع التعديل واعادة التنظيم ، حسب اجتهادات الكتاب والمؤرخين ، فانها يمكن أن ترسم لنا الخطوط العريضة في تاريخ اليمن القديم [١] • ففيها ذكر لتاريخ سبأ ، وتاريخ حمير ، وتغلب اليمن على الحبشة ، وهجرات عرب اليمن نحو الحجاز والعراق والشام اثر ضعف المملكة الحميرية وانهيار السدود، ثم تغلب الحبشة على اليمن ، وأخيرا خضوع البلاد لسلطان الفرس •

واذا كان الفضل يرجع الى المكتشفات الأثرية التي قام بها الاوروبيون في القاء الأضواء على كثير من عصور تاريخ بلاد اليمن القديم ، فمما يسترعي الانتباه أن العرب لم تفتهم أهمية آثار اليمن القديمة فحاولوا كشف النقاب عن أسرارها • ولقد خصص الهمداني ـ كما سبقت الاشارة ـ ضمن مؤلفه الكبير في تاريخ اليمن المسمى بالاكليل ، جزءا لقصور اليمن ومحافدها وقبورياتها ، مثل : قصور غمدان ، وظفار ، ومأرب ، وسلحين ، وبينون ، وصرواح وغيرها ، الى جانب حصون حضرموت ومحافدها ••• الخ [٢] •

ولكنه رغم تصور هذه الدراسة الأثرية العربية القديمة ، فياطارفهم العرب لتاريخ الأمم العريقة الذي ينبغي أن يحوي العجائب والغرائب ،

---

(١) قارن المسعودي الذي يلخص رواية عبيد بن شرية في ملوك اليمن القدامى فيذكر اكثر من عشرين ملكا (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٦٠ ـ ٦١) وقارن هذه القائمة بقائمة حمزه الاصفهاني (سني ملوك الارض والانبياء ، الفصل ٨ ، ص ٨١ ـ ٩٨) التي تحتوي على ٣٢ ملكا مع اختلاف في الترتيب والاسماء .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٤١ ـ ٤٣ .

وحسبما كانت تسمح به أدوات البحث في العصور الوسيطـة ، فلا شك انها كانت حافزا للدارسين الاوروبيين المحـدثين الذي تجشموا المصاعب في سبيل الكشف عن حقيقة هذه الآثار وما تحويـه من الخطـوط أو النقوش • ويأتي على رأس هؤلاء جلازر وهاليفي وأوبتي وارنو ومولر الذين نجحوا ـ بفضل جهودهم في التنقيب الى جانب استفادتهم ممـا كتبه اليونان والرومان ـ في اعادة ترتيب تاريخ اليمن القديم ، وتقويـم الرواية العربية بالقاء الأضواء على ما فيها من قصص اسطورية وحكايات شعبية ، وما حوته هذه الحكايات في ثناياها من روايـات لها سنـد من التاريخ الصحيح •

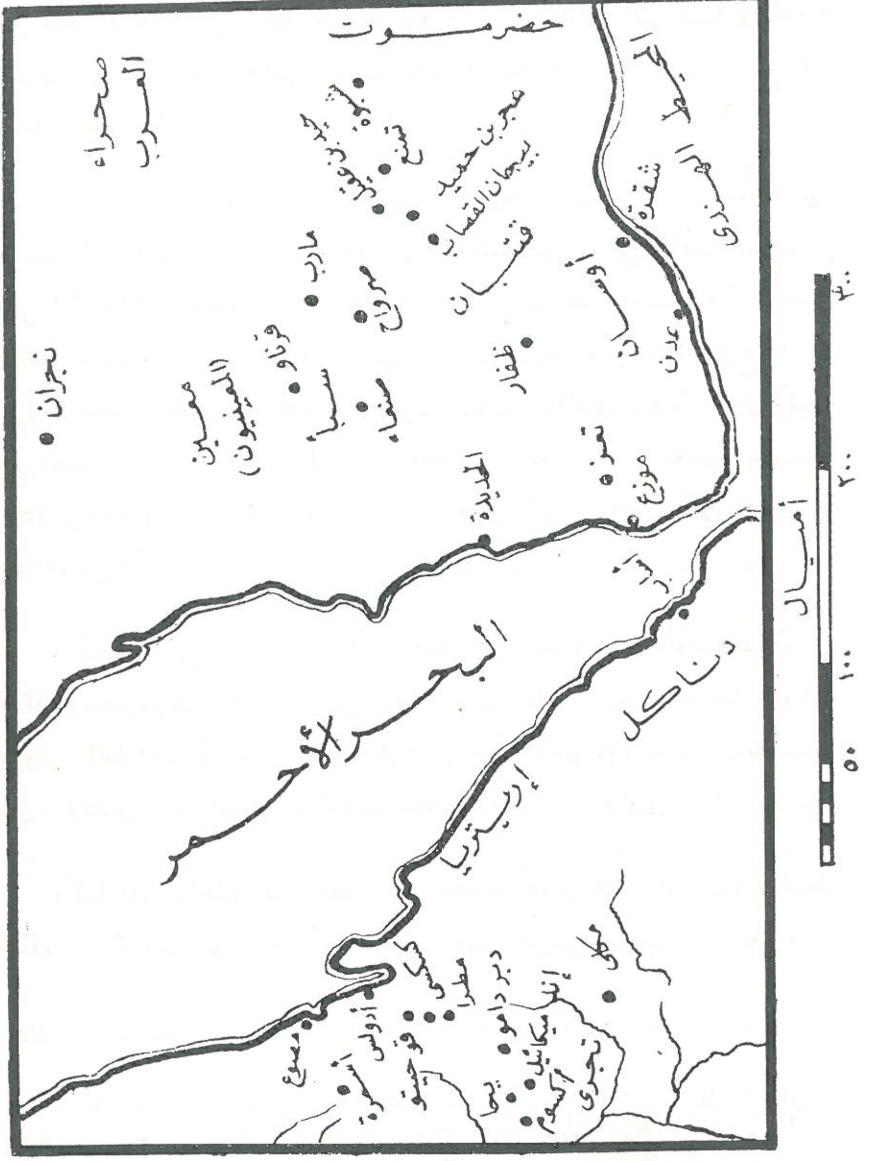
دولـة معـين (١) :

والحقيقة ان كتاب اليونان أشاروا الى دول أو أمارات عرفوهـا في اليمن مع مطلع التاريخ الميلادي ولم يرد لها ذكر عند الكتـاب العرب ، مثل : « معين » وعاصمتها القرن ، و « قتبان » وعاصمتها مأرب ، الـى جانب حضرموت وسبأ •

وفي ضوء ما سجله الهمداني من وجود محفدين من محافد اليمن ، بأسفل جوف أرحب في أصل جبل هيلان ، يعرفان باسم براقش ومعين ، وبصرف النظر عن سبب تسمية الحصن ببراقش [٢] ، فقد دلت المكتشفات الحديثة (وخاصة ما وجده هاليفي ثم جلازر من النقوش) على أنه كانت توجد مدينة قديمة في اليمن ، في منطقة الجوف ، شرقي صنعـاء اسمهـا

---

(١) انظر الفصل ٢ لهومل (من كتاب تاريخ العرب القـديم لنيلسن) ، ص ٦٣ حيث يرى هومل ان الاسم هو معان ، حسب النطق القديم.
(٢) الاكليل ، ص ١٢٤ ، وانظر خريطة (١٠) ص ١٨١ .



(١٠) خريطـة اليمن والحبشة
من كتـاب الحضارات السامية القديمة لموسكاتي
الترجمـة (ص ١٩٠)

معين وهي قرناو التي كانت عاصمة لدولة معين القديمة التي سبقت الدولة السبائية ثم عاصرتها ، والتي كانت متحدة مع مدينة يطيل التي هي خرابة براقش [1] •

والحقيقة انه رغم كثرة النقوش التي وجدت عن هذه الدولة فان معظمها لا يحوي أكثر من أسماء ملوك وأشخاص ، الى جانب تسجيل بعض الأحداث الشخصية أو الخاصة ، مما ترتب عليه اختلاف الباحثين في تحديد بداية هذه الدولة ونهايتها • والتواريخ المقترحة تتراوح ما بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن الاول الميلادي ، ولا ندري كيف وقع اختيار الاستاذ جواد علي على تحديد تاريخ الدولة المعينية بين سنة ١٣٠٠ ق•م• وسنة ٦٣٠ ق•م• [2] ، وهو التاريخ الذي اقترحه فرتز هومل [3] •

والمنطقة التي سادت فيها دولة معين هي المعروفة بالجوف ، بين نجران وحضرموت ، وهي أرض خصبة ذات مياه كثيرة ، وصفها اليونان فقالوا : انها ذات أشجار كثيرة وغروس • أما أهم مواضعها ، فمنها : معين ، ونشق ، وبراقش ، وكمناثم بيحان ، وسراقة ، ولوق — في الجوف•

وكما أن الباحثين لم يتفقوا على تحديد عصر هذه الدولة ، فانهم اختلفوا في ترتيب عهود ملوكها الذين جعلهم هومل في طبقات أربعة بينما

---

(١) انظر هومل ، فصل ٢ من كتاب نيلسن ، ص ٧٣ . وانظر زيدان ، ص ١٣٠ — ١٣١ ، جواد علي ، ج ٢ ص ٧٣ .

(٢) انظر المفصل ، ج ٢ ص ٧٣ وما بعدها وخاصة ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) انظر الفصل ٢ من كتاب تاريخ العرب القديم (السابق) ، ص ٦٥ للبداية ، ص ٧٤ للنهاية .

جعلهم فيلبي خمس أسرات [1] • ويشترك عدد من الملوك في نفس الاسماء ، مثل : « ابي يدع » ، « أليضع » ، و « حفن » و « قه أيل »• ومن أسماء ملوكهم : معدي كرب ، وتبعي كرب ، وخلكرب • وكثير منهم لهم ألقاب ، مثل : يثع بمعنى المنقذ أو المخلص ، وصدوق بمعنى الصديق أو الصادق أو العادل ، ويغس بمعنى الفخور ، وريام بمعنى السامي [2] •

ونظام الحكم في هذه الدولة كان وراثيا من الأب الى الابن ، وقد يشترك الاثنان معا في الحكم • وعرفت المدن في هذه الدولة ما يمكن أن يسمى بنظام الحكم المحلي اذ كان رؤساء القبائل لهم رأي في تسيير أمور المدينة ، وكانت لهم دار يجتمعون فيها تسمى بالمزود أو المزواد • وان وجود لفظ اكرب في أسماء بعض الملوك ، وهو اللفظ الديني الذي يعني المقرب الى الآلهة ، يمكن أن يفهم منه أن هؤلاء الملوك كانوا كهانا أو رؤساء دينيين في نفس الوقت [3] •

وقد كان لكل مدينة معبدها الخاص الذي يحوي الها أو أكثر ، ومن الجائز أن تتعدد المعابد • ومعبد العاصمة ، وهي القرن ، كان يعرف برصاف • وأشهر الآلهة التي عرفها شعب معين ، هي : ود (ويرمز الى

---

(١) هومل (تاريخ العرب القديم لنيلسن) ، فصل ٢ ص ٦٥ — ٧٢ ، وعن فيلبي ، انظر ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

(٢) زيدان ، ص ١٣١ ، جواد علي ، ج ٢ ص ٨٨ — ٩٨ ، وانظر هومل المرجع السابق .

(٣) انظر رودوكاناكيس (تاريخ العرب القديم لنيلسن) ، فصل ٣ ، ص ١٢٣ — ١٢٥ ، جواد علي ، ج ٢ ص ١٠٩ .

القمر) ، وعثتر (الذي يرمز الى الزهرة) ، ونكرح (الذي يرمز الى الشمس) ، والالات معن (أي آلهة معين) • وفكرة عبادة الشمس والقمر عند أهل اليمن ترد فيها اشارات كثيرة عند الكتاب والمؤرخين العرب [١] •

ولقد مدت الدولة المعينية ابان عظمتها سلطانها على جزيرة العرب من شواطىء البحر الأحمر الى الخليج العربي • وكانت التجارة مصدر ثرائها الرئيسي ، فكان لها نشاطها التجاري مع الشام مما يمكن أن يفسر وجود المعينيين في شمال الحجاز ، الأمر الذي تثبته النقوش المعينية فيما بين وادي القرى وحوران • والنقوش اللحيانية التي وجدت في جنوب أرض النبط وخاصة الحجر وفي دران (خرائب العلا الحالية) ، والتي تشير الى أسماء ملوك ، منهم : هوس بن شهر ، وذا سفعن تخمي بن لذن• ولا يعرف ان كان الحميريون هم الذين قضوا على مملكة اللحيانيين في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد أم أن النبط في بطرا هم الذين قضوا عليها في القرن الاول قبل الميلاد [٢] •

أما عن نهاية دولة المعينيين فالمفروض أنها تمت على أيدي السبائيين الذين بدأوا بامارة صغيرة أخذت تتسع شيئا فشيئا حتى نشرت سلطانها على كل اليمن • ومع أنه لا يعرف على وجه الدقة التاريخ الذي انتهت فيه الدولة المعينية بسبب وجود ذكر لها الى جانب الدولة السبائية ، فالظاهر أن المعينيين ظلوا يتمتعون – في ظل السبأيين – بحكم بلادهم المحلي ، كما كانوا يقومون بنشاطهم التجاري •

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ١١٣ – ١١٦ .

(٢) انظر جواد علي ، ج ٢ ، ص ٢٤١ – ٢٥٥ .

مملكة قتبان :

وفي مثل هذه الظروف يمكن أن تكون قد انتهت مملكة قتبان التي عاصرت معين ، في الركن الغربي من اليمن حول مدخل البحر الأحمر وعدن • وأهم مدن قتبان ، هي : تمنع العاصمة (كحلان الحديثة) وبها بقايا أبنية قديمة ، وتمثال لأسد من البرنز يرجع الى القرن الأول الميلادي، ثم مدينة حرب (وهي حريب) [١] • ولقد وجدت نقوش تحبي ذكرى هذه الدولة ، وبها أسماء لعدد من الملوك الذين يصنفهم هومل في أربع طبقات ، مثل : سمه علي وتر (سموهو عليا وتر) ، وابنه هوف عم يهنعم الذي يمكن أن يرجع الى القرن السادس قبل الميلاد ، وشهر هلال يهنعم ، ثم شهر عيتلان الذي انتصرت قتبان أيامه على حضرموت • ويتضح من هذه النقوش أن ملوك قتبان كانوا يحملون لقب مكرب (أي مقرب) ، مثلهم في ذلك مثل حكام سبأ [٢] •

أما عن موضوعات هذه النقوش ، فهي تتعلق ، على الجملة ، بأغراض شخصية من بناء حصن يرم (محفدن يرم) تقربا لآلهة قتبان مثلا الى ضريبة خاصة تجبى للمعابد لينفق منها الكهان على المعبد ، أو اصلاح أرض ، أو تعمير دار •

وهناك اشارات الى انتصار قتبان على معين أو الى تحالف قام بينهما وانتهى بأن سيطرت قتبان على معين حوالي القرن الاول ق•م• ،

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٢) هومل (كتاب نيلسن) ، فصل ٢ ، ص ١٠٠ – ١٠٤ ، والتعليقات ص ٢٧٩ ، جواد علي ، ج ٢ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

وذلك قبيل الوقت الذي استولى السبئيون فيه على معين [١] .

مملكة حضرموت :

ولقد عاصرت كلا من معين وقتبان مملكة حضرموت ، اذ وجدت في مدينة مذاب ، في موضع الحريضة اليوم ، آثار معبد للاله سين (الذي يرمز للقمر) من القرن الرابع قبل الميلاد تقريبا [٢] . كما وجدت كتابات حضرمية تحمل أسماء عدد من الملوك ، أولهم : شهرم علان بن صدقي ايل ويمكن أن يكون معاصرا للملك المعيني أبي يدبع [٣] ، منها : المكرب يرعسن بن ابيشع ، وشكم سلحان الذي بنى سدا في الوادي ، وصدق آل (أي صديق ايل) ، ومعديكري ، رب شمس (الذي يرجع الى مطلع القرن الثاني قبل الميلاد) .

ويفهم من هذه الأسماء أن هؤلاء الملوك كانت لهم صفة دينية مميزة ، يؤيد ذلك أنهم كانوا يقدمون الذبائح للآلهة عند تنصيبهم في حصن أنود . ومن أسماء القبائل التي عثر عليها : يهبار ، وأسد ، ويام .

وكانت عاصمة حضرموت مدينة شبوه (التي عرفت بسبّاتة في التوراة) والتي عرف مؤلف الرحلة البحرية الى أريتريا (قرن ١ م) صاحبها بأنه ملك البخور والطيب ، والذي كان سلطانه يمتد الى جزيرة سقطرة وميناء قنا . أما مدينة قنا Cana فكانت الميناء الذي يصدر

---

(١) نفس المرجع .

(٢) جواد علي ، ج ٢ ، ص ١٣٠ — ١٣٢ ، هومل (المرجع السابق) ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٣) هومل (المرجع السابق) ، ص ١٠٥ .

منه اللبان والبخور والعطور [١] . أما طريق تجارة البخور فكان يمتد من قنا ويمر بظفار في قهزة ، وشبوه (او شبه) في حضرموت ، وتمنع في قتبان ، ومأرب في سبأ ثم الى الجوف في معين [٢] .

مملكة أوسان وغيرها من الامارات الصغيرة :

في خلال ما تمدنا به النقوش من الاخبار عن ممالك قتبان وسبأ وحضرموت هناك اشارات الى مملكة صغيرة يمكن ان تكون قد ظهرت في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وعاشت حتى قبيل القرن الثاني ق.م. وذلك في منطقة قبائل أوسان الذين أعطوا اسمهم للاقليم الواقع جنوب غرب حضرموت . ولا بأس من يكون الاوسانيون الذين أدركوا الاسلام ممن يشير الى بعضهم نسابة اليمن من خلفائهم . وأشهر ملوك هذه الاسرة هو : « يصدق الى مزعم شرح عت » [٣] .

هذا ، كما توجد اشارات أخرى الى امارات قديمة أخرى يشير اليها جواد علي ، مثل ، ممالك : الجباتيين ونجران ويهأمز .

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٦٠ ، تعليقات فؤاد حسنين (في كتاب نيلسن) ، ص ٢٧٤ — ٢٧٦ .

(٢) انظر رودوكاناكيس (في كتاب نيلسن) ، ص ١١٥، وانظر خريطة (١٠) ص ١٨١ .

(٣) انظر تاريخ العرب القديم لنيلسن ، ص ٢٩٨ ، جواد علي ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ وما بعدها ، محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ط. بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٩ — ٣٢ . وانظر الهمدائي ، الاكليل ، ج ٢ ، ط. القاهرة ، ص ٥١ (عن الاوسائي) .

على عكس ما فهمه الاخباريون العرب من أن دولة سبأ كانت دولة فاتحة غازية ، عرفها اليونان والرومان على أنها دولة تجارية تعمل في تصدير منتجات جزيرة العرب الجنوبية من الطيب واللبان والعود والمعادن النفيسة ، من : الذهب ، والاحجار الكريمة التي اشتهرت بها البلاد • هذا ، الى جانب عملها في تجارة الهند ، من : الفلفل والبهار والعاج والاقمشة الحريرية • وهذه حقيقة تاريخية تؤيدها الروايات العربية أيضا • ففي ذلك يروي المسعودي عن أصحاب التاريخ القديم : أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن ••• مع بنيان حسن وشجر مصفوف ••• وكانت بلادهم في الارض مثلا ، وكانوا على طريقة حسنة من أتباع شريف الاخلاق ، وطلاب الافضال على المقاصد والسفر ••• لا يعاندهم ملك الا قصموه ••• صاروا تاج الارض [1] •

وأقدم ذكر لاسم سبأ وجد في النقوش الآشورية من أيام الملك سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق•م•)، وفيها أن من بين من كانوا يدفعون الجزية للملك الآشوري « يثعمر السبأي » [2] • وهكذا يمكن القول أن مملكة سبأ كانت موجودة قبل القرن الثامن قبل الميلاد، بصرف النظر عن كون المسألة تتعلق بسبأ اليمن او بسبأ شمال الحجاز • ولكنه بسبب ما هو مشهور من علاقة سليمان (الذي عاش في القرن العاشر ق•م•) وملكة سبأ (بلقيس) ، وبصرف النظر عما اذا كان الامر يتعلق بملكة مملكة عربية شمالية ، مثل : ملكات بطرا أو ملكة حبشية ، وجد أنه

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) انظر زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٣٧ ، وهومل (كتاب نيلسن) ، ص ٧٦ ، وفي نفس الكتاب، ص ٢٨٩ ، وقارن جواد علي، المفصل ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

يجب أن تبدأ المملكة السبئية مع بداية الالف الاولى قبل الميلاد ، او قبل ذلك بقليل ، كالقرن الثاني عشر قبل الميلاد ، مثلا •

وبفضل ما عثر عليه الباحثون المحدثون من النقوش السبئية ، وما قاموا به من الدراسة المقارنة بينها وبين الروايات العربية والاسرائيلية والحبشية ، اتفقوا على تقسيم الدولة السبئية الى أربعة مراحل • المرحلتان الاوليان منهما تكونان تاريخ سبأ الحقيقي ، وتنتهيان في أوائل القرن الثاني ق•م• تقريبا ، والاخريان تمثلان تاريخ دولة حمير ، ما بين فوتها وضعفها ، وتنتهيان مع مطلع القرن السادس الميلادي •

والباحثون يستندون في تحديد هذه الاطوار التي مرت بها الدولة الى الالقاب التي حملها الملوك • ففي المرحلة الاولى حمل حكام سبأ لقب : « مكرب سبأ » ، وفي الثانية لقب « ملك سبأ » ، وفي الثالثة (حوالي سنة ١١٥ ق•م•) التي تعتبر بداية للتأريخ الحميري حملوا لقب « ملك سبأ وذو ريدان » • وفي المرحلة الرابعة والاخيرة زاد اللقب فصار : « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها ، في الجبال وفي التهائم » •

والمفروض أنه ـ بناء على تطور هذه الألقاب ـ أن يكون السبئيون قد بدأوا أمراء صغارا ممن يسميهم الكتاب العرب بالأذواء ، وهم يقصدون بذلك جمع « ذو » أي صاحب التي يضاف اليها اسم المكان ، من حصن أو محفد ، مثل غمدان وصاحبه « ذو غمدان » ، وريدان وصاحبه « ذو ريدان » ، ثم تحولوا الى أمراء لعدد من الحصون أو المحافد ممن يسميهم الكتاب العرب الأقيال (ومفردها قيل) ، وهم في الطريق الى أن يصيروا ملوكا او أباطرة على كل البلاد •

١ ـ المكربون :

والفترة الاولى يسميها الباحثون عصر « المكربون » • ولما كانت

لفظة المكرب تعني المقرب من الآلهة ، كان لهؤلاء الملوك صفة كهنوتية ، فهم ملوك كهان .

وحسبما وجد من الكتابات السبئية في صرواح (عاصمتهم القديمة) عدّد الباحثون حوالي ١٧ (سبعة عشر) مكربا ، حددوا عصرهم بما بين سنة ٨٥٠ ق.م. وسنة ٦٥٠ ق.م. (اي فترة قرنين من الزمان) من أقدمهم المكرب « سمه علي » (شومو هو عليا) الذي أقام معبدا لاله سبأ المعروف بـ « المقه » في مدينة صرواح . ومنهم المكرب « يدع آل ذرح » (يدعى ايلو ضريح) والمكرب « يدع آل بين » (او يدعى ايلو بين) [١] .

ولقد فهم من النقوش أن هؤلاء الملوك الكهان اهتموا بتنظيم الري فعمروا السدود واستفادوا من مياه الامطار والسيول ، وأصلحوا الاراضي الزراعية ووزعوها على الفلاحين . ولقد أثبتت الدراسة ان بداية العمل في السدود هذه تمت في القرن السابع قبل الميلاد ، وان العمل استمر فيها من ملك الى آخر حتى كملت فيما عرف بسد مأرب الشهير ، وذلك على أيام الملك « شهر يهرعش » ، المعروف عند الكتاب العرب باسم (شمر يرعش) ، في نهاية القرن الثالث الميلادي [٢] .

وبفضل هذه السدود زاد ازدهار مدينة مأرب حتى غلبت على العاصمة صرواح ، وصارت مقرا للمملكة . وتشير النقوش السبئية الى ما كان يصيب السد من التلف، كما حدث في سنوات ٤٥٠ م ، و ٥٤٢ م، و ٥٧٠ م ، وهي تشير الى الترميمات التي تمت فيها ، مثل : ترميم ابرهة الحبشي سنة ٥٤٢ م [٣] .

---

(١) هومل (كتاب نيلسن) ، ص ٧٧ ، والتعليق ، ص ٢٩٠ ، جواد علي ، ج ٢ ، ص ٣١٦ وما بعدها .

(٢) هومل (كتاب نيلسن) ، ص ٨٠ ، جواد علي ، ج ٢ ، ص ٢٨١ ، وعن وصف السد ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٣) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

والى جانب الاعمال العمرانية التي تنسب الى المكربين في مدينة مأرب ، وفي قصر سلحين ، وفي قصر أبين ، والى جانب عنايتهم بالمعابد ، مثل : معبد « نسور » ، ومعبد « المقه » في صرواح ، تشير الكتابات الى توسع قامت به دولة سبأ على حساب معين وقتبان ، أيام المكرب « يثع أمرسين » ، وانتصارات على أيام المكرب « ايل وتر » الذي قدم القرابين شكرا للآلهة ، ومنها : « عثتر » ، و « هوبس » [١] .

٢ ـ الملوك (٦٥٠ ـ ١١٥ ق.م. تقريبا) :

ويبدأ عصر الملوك من حيث ينتهي عصر المكربين حوالي منتصف القرن السابع ق.م. ، وينتهي مع نهاية القرن الثاني ق.م. وأول ملوكهم هو « كرب ايل وتر » [٢] ، ومنهم « نشأ كرب يهأمن » ، و « ناصر يهأمن » .

وتسجل النقوش على أيامهم صراعات مع الأعراب (عربن) ، وحروب مع الريدانيين . ومن القبائل التي كان لها ذكر على أيامهم « سمعي » ، و « مأذن » ، وحمدان ، ومرثد (مرثدم) ، وهي من قبائل بكيل (بكلم) [٣] .

ومن أهم التطورات الدينية التي حدثت على أيامهم ، ظهور آلهة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، مثل : « تألب ربام » اله همدان والاله ذو سماوي (ذسموي) أي رب السماء ، مما يمكن أن يفهم منه ظهور اتجاه نحو التوحيد [٤] .

---

(١) هومل (كتاب نيلسن) ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ، جواد علي ، ص ٢٨٧ .

(٢) انظر هومل ، نفس المصدر ، ص ٨٧ ـ ٨٨ حيث يشير الى ان لقب مكرب هنا يعني ملكا وليس له طابع ديني ، كما كان الحال عند المعينيين والقتبانيين .

(٣) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٤) هومل ، ص ٨٩ .

أما عاصمتهم فكانت مـأرب غير بعيـد من مـأرب الحـاضرة ، وقصرها هو « سلحين » • ومعبدهـم كان معبد الاله المقـة الشهير في صرواح ، غير بعيد من مأرب [1] •

وأهم قبائل اليمن في عهد ملوك سبأ ، كانت :

همدان ومن بطونها قبائل حاشد وبكيـل المعروفـة ، وكان لهـا أمراؤها المستقلون ، حوالي منتصف القرن الثاني للميلاد ، ممن دخلـوا في أحلاف مع ملوك حضرموت ضد ملوك حمير ، كما كانت لهم حروبهم أيضا مع الحبشة • وأغلب الظن أن الحرب ضد الاحباش كانت في أرض اليمن نفسها ، فذلك ما يفهم من النصوص الحبشية التـي تقـول انهم كانوا في سواحل بلاد العرب الجنوبية حتى نجران وسواحـل الحجـاز خلال القرنين الاول والثاني للميلاد • ومن ذلك الاشارة الى المفاوضات من أجل الصلح التي تمت أيام الملك « علهان نهفان » مـع ملك أكسوم والحبشة سنة ١٨٠ م • هذا ، كما تشير النصوص الحبشية أيضا الـى وجودهم في ظفار عاصمة حمير فيما بين سنة ١٩٠ م وسنة ٢٠٠ م [2] •

ومن أشهر أمراء همدان « سعر أوتر » الذي حمل لقب « ملك سبأ وذو ريدان » •

ومثل هذا يمكن أن يقال عن قبيلة فيشان ، فمنها رجال حملوا لقب « المكرب » ، ولقب « الملك » ، وكذلك الحال بالنسبة لقبيلة مرثد ، مما يمكن ان يستخلص منه أن كثيرا ممن كانوا يحملـون لقب المقـرب أو الملك لم يكونوا أصحاب السيادة في البلاد بل كان منهم أمراء مشيخات صغيرة أو زعماء قبائل محليين [3] •

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ – ٣٤٦ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ – ٣٨٤ .
(٣) جواد علي ، ص ٣٩٠ وما بعدها . وانظر هومل ، عن : ريـدان القلعة القديمة التي كانت تابعة لملك قتبان (كتاب نيلسن، ص ٩٠).

ملوك سبا وذو ريدان : الحميريون :

والمرحلة الثالثة من تاريخ سبأ هي التي تبدأ بها مملكـة حمـير • والمفروض أنها تبدأ حوالي سنة ١١٥ ق•م• (بداية التأريخ عندهم) ، وتنتهي حوالي سنة ٣٠٠ ميلادية •

ويفهم من اللقب تحقيق وحدة مملكة سبأ واقليم ريدان (ظفـار) الذي كان تابعا لامراء حمير (الذين ستسمى بهم الدولة) • والظاهر أن الريدانيين هم الذين حققوا الوحدة بعد انتصارهم على السبئيين ، والقرينة على ذلك انتقال مركز الحكم الى مدينتهم ظفار ، عاصمة الدولة المتحدة•

ومع أن أمير همدان « سعر أوتر » (شعرم أوتر) حمل لقب « ملك سبأ وذو ريدان » ، فان أول من حمل اللقب من السبئيين هو « الشرح يحصب » الذي توجد لاسمه أصداء قوية في الروايات العربية بصفتـه باني قصر غمدان ، أشهر قصور اليمن ومحافدها •

والظاهر من الحروب الكثيرة التي تشير اليها كتابات هذا العصر أن عهد « الشرح يحصب » كان مرحلة تحول هامة في تاريخ اليمن • فقـد ساد الاضطراب ، وقامت الثورات في كل مكان ، وبدأ ظهـور أطمـاع الاجانب في البلاد من الاحباش والرومان • ولا بأس مـن أن يكـون الرومان قد انتهزوا هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بهـا البـلاد ، وحاولوا غزوها في الحملة المعروفـة التي قـام بها ايلوس غالوس سنـة ٢٤ ق•م• من مصر والتي ساعد فيها النبط ، كما سبقت الاشارة • وهي نفس الحملة التي شارك فيها الكاتب الشهير استرابون وانتهت بالفشل

التام ، وان كان من نتائجها الهامة بالنسبة لنا هو وصف استرابون لبلاد العرب [1] .

فلقد قاتل « الشرح يحصب » حمير وقبائل حضرموت ونجران ، كما حارب الاحباش وانتصر عليهم وعلى حلفائهم ، سواء كانوا من اخوته أو من قبائل سهرة أو حمير وملكهم « شمر ذي ريدان » . وعلى رغم ما تنسبه النقوش من انتصارات « الشرح يحصب » ثم ابنه « نشأ كرب » الذي نجح السبئيون على أيامه في الاستيلاء على كل ما كان عند الحضارمة من خيل وجمال وحمير ومن كل حيوان جارح ، فان الدولة السبئية انتهت فعلا على أيام « نشأ كرب » هذا بأيدي الحميريين [2] .

ولقد بدأ نجم الحميريين في الصعود منذ عهد ملكهم « شمر ذو ريدان » الذي حارب « الشرح يحصب » . فمنذ القرن الاول الميلادي حقق الحميريون انتصارات عدة على السبئيين على عهد الملك الحميري « يسرم يهصدق » الذي يلقب بملك « سبأ وذو ريدان » . وبعد « شمر يهرعش » الاول الذي حكم حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي ، وعلى عهد « شمر يهرعش » الثاني احتل الحميريون مأرب . وما ان انتهى القرن الثاني الميلادي حتى كانوا قد استولوا نهائيا على كل بلاد « سبأ » التي صارت تابعة لهم [3] .

---

(1) انظر جواد علي ، ج ٢ ، ص ٤١٨ وما بعدها ، وقارن هومل ، ص ٩٢ ــ ٩٧ ، وعن حملة جالوس واهميتها بالنسبة للتعريف ببلاد اليمن ، انظر نفس الكتاب ، ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ ، وراجع ما سبق ، ص ١٤٠ .

(2) جواد علي ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ .

(3) جواد علي ، المفصل ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ .

وحوالي منتصف القرن الرابع الميلادي بدأ خراب سد مأرب للمرة الثانية ، وفي هذا الوقت دخل ملك حمير في النصرانية بتبشير الراهب « ثيوفيلوس » ، وبنيت الكنائس في عدن وفي ظفار . وهو نفس الوقت الذي دخلت فيه الحبشة في النصرانية تقريبا ، بدخول الملك الحبشي « عيزانا » ، من ملوك اكسوم ، في المسيحية ، على يدي أحد رجال الدين الوافدين من القسطنطينية ، وهو « فرو منتوس » . وربما كان من المعقول أن يكون دخول المسيحية الى اليمن عن طريق الحبشة . فالمعروف أن الحبشة كانوا قد نزلوا اليمن مع مطلع القرن الرابع الميلادي على أيام ملكهم « عذبة » . هذا ، كما أن اللقب الذي حمله نجاشي الحبشة عيزانا وهو « ملك ــ أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن » يدل على صلات وثيقة بين الحبشة واليمن ، قد تصل الى حد خضوع اليمن لملك أكسوم الذي اعتنق النصرانية ، وعمل على فرضها على شعبه في بلاده وفيما وراء البحر في اليمن . هذا ، كما يمكن أن نعتبر تهود ملوك اليمن فيما بعد واضطهادهم للنصارى كرد فعل طبيعي لما اعتبروه عقيدة أجنبية فرضت عليهم من جانب الاجانب ، أي الاحباش [1] .

وحوالي سنة ٤٠٠ (أربعمائة) للميلاد ، وفي عهد «أبا كرب أسعد» وابنه « حسان يهأمن » اتخذ الحميريون آخر الالقاب وأكبرها ، وهو : « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في الجبال والتهائم » (... يمنت واعربهمو طودم وتهمتم) . وبذلك تبدأ المرحلة الرابعة والاخيرة لدولة حمير [2] .

---

(1) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٤٥١ ــ ٤٥٧ .

(2) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ ، وقارن هومل (كتاب نيلسن) ، ص ١٠٧ ــ ١١٢ ، وانظر موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، ص ١٩٣ ، وعن الحبشة ، انظر الفصل ٩ ، ص ٢١٢ ــ ٢٢٣ .

العصور الاخيرة للدولة الحميرية :

من اللقب المركب الذي اتخذه ملوك هذا العهد يمكن القول ان الدولة الحميرية انتقلت الى طور التوسع والانتشار في كل بلاد العرب ، فكأنها أصبحت امبراطورية تحوي كل أقاليم بلاد العرب الجنوبية • فالى جانب سبأ وريدان وحضرموت حكم ملوكها اليمن الذي يظهر اسمه في النقوش لاول مرة ، الى جانب أعرابها في المرتفعات وفي السهول •

وتشير بعض الكتابات الحميرية الى أن أول من حمل لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن هو الملك « شمر يهرعش » ، والمقصود انه شمر يهرعش الثالث (الذي يقع حكمه في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع للميلاد) • والظاهر أن ما تنسبه اليه الروايات العربية من الفتوح في المشرق وفي المغرب انما هي تعبير عن أصداء فتوحه في اليمن في سبيل توحيدها تحت سلطانه • فالنقوش تشير الى حملات قام بها ضد قبائل عسير وتهامة ونجران وحضرموت •

وهناك اشارات الى ان البلاد تعرضت لامطار غزيرة على أيامه مما جعله يقوي سور مأرب ، ويقوم بانشاء عدد من الجسور والردم لتقوية السد • وعلى أيام الملك « تأرن يهنعم » أصيب السد بتصدع جديد فأصلحه الملك •

وفي أواخر القرن الرابع أضاف الملك « أب كرب أسعد » أي أبي كرب أسعد (الذي ربما كان أسعد كامل تبع عند الكتاب العرب الذين قالوا انه كان أول من تهود من ملوك اليمن) الى لقبه « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن ، وأعرابها في الجبال والسواحل » •

وفي النصف الاول من القرن الخامس الميلادي ولى «حسان يهأمن»

الذي عرفه الكتاب العرب باسم حسان بن تبع أسعد أبي كرب • ويشير الاخباريون العرب الى تصدع السد وتجديده على عهد ابنه «شرحبيل يعفر ابن أبي كرب أسعد » ، الذي حفر مسايل جديدة (حوالي سنة ٤٥٠ م)، وان السد خرب بعد ذلك بقليل وأعيد اصلاحه (حوالي سنة ٤٥٦ م)[1] •

وأمام هذه الكوارث التي تلاحقت على السد ، اضطر الناس الى الرحيل من مأرب الى مواضع أخرى • وفيما يتعلق بذي نواس ، آخر ملوك حمير ، وما قيل حوله من تعذيب نصارى نجران فلا تذكر كتابات المسند شيئا ولكن كتابات اليونان والرومان بما تلقيه من الاضواء على الروايات العربية يمكن أن يعرف منها أن الاحباش دخلوا الى اليمن في أوائل القرن السادس الميلادي (حوالي سنة ٥٢٥ م) على عهد الملك الحميري « ذو نواس » ، وبموافقة قيصر الروم في القسطنطينية • وكان السبب في ذلك ما هو معروف من تهود ملوك حمير ، ومحاولتهم فرض اليهودية على أبناء شعبهم مما أدى الى اضطهاد النصارى ، وخاصة في نجران (وهذا ما تشير اليه الآيات القرآنية في قصة الأخدود) •

وكانت الحملة الحبشية على اليمن تحوي حوالي ٧٠ ألف مقاتل على رأسهم القائد « أرياط » ، ويعاونه في القيادة « أبرهة الاشرم » المعروف الذي ستؤول اليه القيادة ويعتبر من ملوك اليمن المتوجين ، حسبما تقول الروايات العربية • وانتهى القتال بهزيمة الملك الحميري ذي نواس الذي لم يعرف مصيره اذ تقول رواية انه دخل بفرسه في البحر حتى غاب ، مما يعني ان المعركة بين الاحباش والحميريين كانت

(١) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ٢ ، ص ٥٣٠ – ٥٩٤ ، وقارن هومل، المصدر السابق •

بالقرب من الشاطىء ، ربما في موضع نزول الحملة الحبشية من مراكبها، وأغلب الظن أنه قتل دون أن يعرف أمره وسط اضطراب المعركة ، وهذا ما تؤيده رواية أخرى . وينتهي حكم ذي نواس سنة ٥٢٥ م باحتلال الحبشة لليمن [1] .

وبعد الانتصار على الحميريين آلت قيادة الاحباش وحكم اليمن بالتالي الى القائد أرياط ، وأغلب الظن انه لم يحكم البلاد حكما مباشرا بل عن طريق أحد يمنية الاحباش الذي يعرف باسم « السميضع بن أشوع » الى أن انتزع أبرهة منهما الحكم بعد خمس سنوات (حوالي سنة ٥٣٠ م) ووضع ملك الحبشة ــ الذي وافق على ذلك ــ أمام الامر الواقع [2] .

واستمر أبرهة يحكم البلاد حوالي نصف قرن الى سنة ٥٧٥ م . ومن أهم ما قام به من الاعمال : ترميمه لسد مأرب فيما بين سنتي ٥٤٢ م، و ٥٤٣ م ، وذلك مدون في أحد النقوش التي تصفه بنائب ملك الجعزيين، وتلقبه بـ « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في النجاد وفي التهائم » . والظاهر أن أمور اليمن استقرت على عهد أبرهة بفضل العناية بأعمال الري والزراعة . ومما يلفت النظر ما يشير اليه نقش اصلاح السد من وصول وفود الملوك الى مأرب لتحية ملك اليمن الحبشي . فهناك ذكر لوفود نجاشي بالحبشة وقيصر الروم ، وكسرى الفرس ، وملك الحيرة (المنذر) وملك الغساسنة (الحارث بن جبلة) .

ومن نقوش أبرهة نقش يذكر حملة قام بها ضد العرب من المعدية

(1) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ ٥٧٢ ، وانظر جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٧٣ ــ ٧٤ .
(2) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ــ ٤٨٢ .

(العدنانية) سنة ٥٤٧ م ، مما يجعله بعض الباحثين نفس الحملة على مكة التي عرفت عند الكتاب العرب « بعام الفيل » ، والتي ينسب سببها الى بناء أبرهة (سنة ٥٤٢ م) لكنيسته المعروفة « بالقليس » في صنعاء ، ورغبته في تحويل العرب من مكة اليها . هذا ولو أن آخرين من الباحثين يرجحون ان تكون حملة أبرهة على مكة سنة ٥٦٣ م (أي أنها حملة تالية) ، وأن تكون وفاة أبرهة في الوباء حوالي سنة ٥٧٠ م (قريب مولد الرسول) .

وبعد أبرهة ملك ابنه يكسوم الذي حكم اليمن الى أن غزاها عليه الفرس حوالي سنة ٥٧٥ م . وكان مجيء الفرس تلبية لنداء الامير الحميري سيف بن ذي يزن الذي طلب المعونة من كسرى ، عن طريق ملك الحيرة ، فأمده بجيش نجح في هزيمة الاحباش وقتل يكسوم . وحكم سيف البلاد تحت اشراف قائد القوات الفارسية ومن كان معه من كبار الموظفين الفرس، وعلى رأسهم من نقبه العرب بـ «الاصبهبذ»[1] .

وهكذا انتهت دولة اليمن العريقة التي وصف كتاب العرب ملوكها بأنهم جبابرة فاتحون ، دوخوا العالم وملكوا الارض جميعا : من مطلع الشمس الى مغربها . كما وصفوهم بأنهم بناؤون عظام ، أقاموا السدود الهائلة والقصور الفاخرة ، وشيدوا المدن الاسطورية والمقابر العجيبة ، وأنهم كدسوا الثروات بفضل ما في بلادهم من خيرات وما جمعوه من الاموال عن طريق احتكار تجارة العالم القديم .

(1) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٤٨٢ ــ ٥٢٨ ، قارن زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ١٤٦ ــ ١٥١ ، وقارن رواية وهب بن منبه ، فيما سبق ص ١٧٨ ، تاريخ العرب القديم لنيلسن ، ملحق المترجم ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

انتهت هذه الدولة على المستوى السياسي بالضعف الذي جعلها فريسة لاطماع الرومان والاحباش ثم الفرس ، كما انتهت على المستوى الحضاري والاقتصادي بانهيار السدود التي ترتب عليها خراب البلاد ، وهجرة أهلها نحو الحجاز وفارس والروم حيث جددوا تاريخ بلادهم الى مطلع الاسلام •

الفصل الخامس

الهجرة الكبرى من اليمن

عرب الغساسنة في الشام وعرب اللخميين في العراق

في الوقت الذي كان عرب الجنوب يكافحون ضغط الاحباش عليهم من الغرب عبر مضايق البحر الاحمر ، وضغط الفرس من الشرق عبر سهول الرافدين والخليج ، كان أخوة لهم في الشمال ، على حدود الشام وعلى حدود العراق ، يكافحون من أجل الحياة ، ضد كل من الدولتين الرومانية (البيزنطية) والساسانية ، واثبات الوجود • وهم في سبيل ذلك لم يتورعوا عن التحالف مع الدولة الكبرى التي سكنوا على حدودها ، والدخول في خدمتها ضد خصومها اذا رأوا مصلحتهم في ذلك ، كما لم يترددوا عن مجابهتها والدخول في صراعات عنيفة معها اذا ما حاولت الاضرار بهم او الانتقاص من حريتهم• كل ذلك وهم يستفيدون من موقع مواطنهم الممتاز كعقدة الوصل بين المشرق وعالم البحر المتوسط • فاشتغلوا بالتجارة وجمعوا الثروات وظهروا بمظهر الملوك ، مثلهم في ذلك مثل أسلافهم ملوك بطرا وتدمر والحضر وغيرهم •

والدولة التي كونها العرب على حدود الشام اشتهرت بدولة الغساسنة ، كما عرف ملوكها ببني جفنة أيضا • والدولة العربية التي قامت على حدود العراق في الحيرة عرفت بدولة اللخميين ، كما عرف ملوكها

أيضا بالمناذرة وبيني نصر • والغساسنة من بني جفنة واللخميون من بني المنذر أصلهم من عرب اليمن الذين هاجروا من بلادهم كما كان يفعل أهل اليمن على طول الزمان ، أما لاسباب سياسية اجتماعية ، من : الغزو الخارجي أو الصراعات الداخلية من أجل الارض الخصبة وموارد الرزق ، وأما لظروف طبيعية غير عادية ، من : حلول القحط والجدب وانتشار الاوبئة ، وتغيرات الجو او انهيارات السدود •

والروايات العربية ترجع سبب الكارثة التي أدت الى هجرة قبائل الأزد ، التي ينتسب اليها الغساسنة واللخميون وكذلك الاوس والخزرج، الى انهيار سد مأرب وذلك على عهد تبع « عمرو بن عامر مزيقيا » • ولقد فسر الكتاب العرب لقب مزيقيا بأن عمرو بن عامر كان يأمر بتمزيق حلله الثمينة حتى لا يلبسها غيره ، ويأخذ نولدكه في بحثه القيم عن الغساسنة بمقالة حمزه الاصفهاني الذي يرى أن الاقرب الى المنطق أن يكون اللقب قد أعطي له نتيجة لتفرق شعبه من قبائل الأزد وتمزق شملهم ــ تماما كما يقول المثل : « ذهب بنو فلان أيادي سبأ » [1] ، وهو الامر المقبول •

فعلى طول الطريق من اليمن تفرقت قبائل الأزد في البلاد ، مع أبناء عمرو الذي مات أثناء الرحلة ، وكان اختيار كل جماعة لموطنها الجديد حسب حاجاتها وامكانياتها :

ــ ففي أرض مر الظهران بمكة الفقيرة نزل رهط حارثة بن عمرو،

---

(١) تيودور نولدكه ، امراء غسان من آل جفنة ، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٣ ، وانظر : حمزة الاصفهاني ، سني ملوك الارض ، ص ٧٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ •

وهم من خزاعة أهل الحاجة الذين غلبوا على جرهم • وسميت خزاعة لانخزاعها في ذلك الموضع عمن كان معها •

ــ أما قوم ثعلبة العنقاء بن عمرو ، وهم أهل الرمح والسيف، فقد تفرقوا في أكثر من موضع :

- فجماعة منهم أقاموا في أرض عك من بلاد همدان ، ومنهم عنس ويولان •
- وجماعة ثانية منهم استقرت في يثرب حيث النخل ، ومنهم الاوس والخزرج الذين غلبوا على يهود يثرب •
- وجماعة ثالثة خرجت من نجران الى عمان والبحرين ، ومنهم بنو نصر بن الأزد •

ــ أما الجماعة التي كانت أكثر طموحا ، تريد الخمر والخمير والديباج والحرير والملك الكبير ، فقد سارت الى بصرى ودمشق في الشام ، هؤلاء هم جفنة بن عمرو بن عامر وبنوه الذين أسسوا مملكة الغساسنة [1] •

١ ــ الغساسنة بنو جفنة في الشام :

والغساسنة من قبيلة مازن ، وهي احدى قبائل الأزد الكبيرة • ولفظة الغساسنة لم توجد فيما كشف عنه من كتابات المسند [2] • والرواية العربية تقول انهم اتخذوا اسم غسان عندما توقفوا في أرض همدان على ماء لبني زبيد يعرف بغسان ، فغلب عليهم اسمه ، وفي ذلك قال حسان بن ثابت :

---

(١) التيجان ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٨ ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٧٠ ــ ١٧٣ ، ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ •

(٢) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ •

أما سألت فانا معشر نجب   الأزد نسبتنا والماء غسان [1]

وبعد أن مر الغساسنة بقيادة ثعلبة بمكة والحجاز وأقاموا بها بعض الوقت ، تركوها « لما ذاقوا شدة العيش » – واتجهوا نحو الشام . والرواية العربية تجعل الفضل في نجاح بني جفنة في مسيرتهم هذه ثم استقرارهم في الشام الى أحد أبطالهم ، ، وهو جذع بن سنان ، الذي يظهر بمظهر الصعلوك الجريء المحتال ، فهو ثعلب مراوغ وقت الهدوء والتروي ، وهو نمر مفترس عند الغضب وفي وقت الشدة .

فالغساسنة عندما وصلوا الى حدود الشام نزلوا على قوم من العرب بني سليح من قبائل قضاعة ، ممن يعرف رؤساؤهم باسم الضجاعمة ، الذين استأذنوا لهم حاكم الشام من قبل الروم والذي تسميه الروايات العربية بـ « قيصر » ليسمح لهم بالاقامة الى جوارهم . ووافق الحاكم الرومي على أن يدفع الغساسنة الجباية السنوية التي قدرت بدينار على كل رجل ، ويقوم بجمعها عماله من سليح [2] .

وكان من الطبيعي أن تؤدي جباية هذه الضريبة من غسان ، الذين « كانوا لا يعرفون الجباية » ، الى صدام بينهم وبين عرب بني سليح ، ثم بينهم وبين قوات الروم . وتم اللقاء الاول بين الغساسنة – الذين قتلوا الجابي السليحي – وبين عساكر الروم الذين يظن أنهم كانوا من سليح ، في موضع عرفه العرب بوادي الكسوة ، نظرا لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة . وهكذا عرف الروم قوة بني غسان فصالحوهم « على أن تعطي غسان الذمة ، والدخول والخروج في البلد،

(١) التيجان ، ص ٢٧٠ (في الاصل الاسد بدل الازد) ، المسعودي ، ج ٢ ص ٨٣ ، ١٧٣ .

(٢) التيجان ، ص ٢٨٨ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

والمرعى والنصرة ضد العدو ، والمواصاة والعدل » [1] . وهكذا ثبت الغساسنة أقدامهم في أرض الشام الى جانب السليحيين ، وكان من الطبيعي أن ينتهي الامر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليح ، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح « الذين كانت أجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان » ، منها : يوم بالعة الذي انهزمت فيه الروم حتى قال شاعر غسان :

كأن الجماجم بيض النعام   بقارعة الشعب من بالعة

أقمنا الظبي في رؤوس العدى   نقد بها في الوغى قاطعة

ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء وهو يوم حليمة الذي وقفت فيه قبائل العرب ، من : سليح وكنانة وجذام الى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح نظير دفع الجزية . وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ « باب الجابية » ، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام ، مما أدى الى الحرب من جديد . ووقفت سليح الى جانب الروم بينما أتت المعونة الى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب . وانتهى الامر بانتصار غسان حتى اضطر قيصر الى صلحهم على أن لغسان ملك الشام ، وان ملكهم طعمة على الروم ، وان ينصروه في الحرب [2] .

(١) التيجان ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٢) التيجان ، ص ٢٨٧ – ٢٨٨ ، ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٩–٢٨٠ ، انظر نولدكه ، الذي يرى أن قصة انتصار بني جفنة على الضجاعمة (زوكوموس عند الروم) واستيلائهم على الحكم في سوريا ليست بعيدة عن الصحة (ص ٦) ، اما ده برسفال ، فيؤرخ لذلك بسنة ٢٩٢ م ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

ملوك غسان :

وهكذا تقول رواية وهب بن منبه ان أول من ملك من الغساسنة هو عمرو بن جفنة الذي حقق هذه الانتصارات على الروم ، وربما حدث ذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي ، أو قبل ذلك بقليل . أما عن ترتيب ملوك الغساسنة الذين يتوالون في عدد يصل الى حوالي ثلاثين أميرا عند بعض الكتاب العرب فهو أمر مضطرب لا يوثق به .
وحسب الدراسة التي قام بها « نولدكه » والتي استند فيها الى روايات المؤرخين من اليونان والسريان الذين حددوا تواريخ الاحداث ، مع مقارنتها بالروايات العربية ، يمكن القول ان أول تاريخ يوثق به لامير من بني جفنة هو ما ينسب الى الامير جبلة(Jabalae)من غزو جنوبي الشام حوالي سنة ٥٠٠ م [1] .

أما أشهر الغساسنة بعده ، فهم :

- الحارث بن جبلة المعروف بأبي شمر وبالحارث الاكبر (وبأبي مارية ذات القرطين) توفي حوالي سنة ٥٦٩ م — ٥٧٠ م .
- والمنذر بر الحارث توفي حوالي سنة ٥٨٢ م .
- والنعمان بن المنذر توفي حوالي سنة ٥٨٣ م .

ويتوالى بعد ذلك عدد من الامراء الصغار ، منهم :

- الحارث الاصغر (الوهاب) .
- والحارث الاعرج .

(١) نولدكه ، ص ٨ . ولما كان حمزة الاصفهاني يقرر (ص ٧٧) ان نسطورس ملك الروم هو الذي ملكهم فان نولدكه (ص ٧) يرى بشيء من التأكيد ان ذلك يشير الى تعيين اول امير جفني من قبل القيصر انسطاسيوس (٤٩١–٥١٨ م). ويمكن ان يستنتجمن ذلكان والد الحارث المعروف بأبي شمر كان أولى من ولاه للروم منهم .

- والنعمان بن الحارث الاصغر
- وعمرو بن الحارث الاصغر
- وحجر بن عمرو ما بين سنة ٥٨٣ م وسنة ٦١٤ م

وآخرهم جبلة بن الأيهم توفي سنة ٦٣٦ م [1] .

والمعروف عن الحارث بن جبلة الاكبر أنه حارب أمير الحيرة المنذر وانتصر عليه في ربيع سنة ٥٢٨ م ، وأنه قمع ثورة السامريين في فلسطين في السنة التالية (٥٢٩ م) . وكمكافأة للحارث قربه الامبراطور جستنيان واعترف له بالزعامة على عدد من القبائل العربية وخلع عليه لقب « باسيليوس » أي الملك ، كما يقول الكتاب البيزنطيون . ولكنه لما كان لقب الباسيليوس خاص بقيصر الروم ، فالمفروض أن الحارث حمل لقب « فيلاركوس » بمعنى شيخ القبيلة أو رئيسها ، أو أنه حمل لقب « بطريق » بمعنى الزعيم أو القائد ، ولا بأس من أن يكون قد جمع اللقبين جميعا .

ومع أن لقب فيلارك أو بطريق يعني أن حامله هو صاحب السلطة في ولاية بلاد العرب الشامية ، وأنه يخضع له عدد من العمال الصغار في البوادي ، مثل جامعي الضرائب من بني سليح الضجاعمة ، كما رأينا ،

(١) انظر نولدكه ، امراء غسان . وقارن ده برسفال الذي أخذ بقائمة حمزه الاصفهاني (سني ملوك الارض والانبياء ، الباب السابع : في سياقة تواريخ غسان التي تحوي ٣٢ ملكا) ، وكذلك قائمة ابي الفدا القريبة منها ، وحدد لكل منهم تاريخا . فبدأ القائمة بجفنة (٢٠٥ — ٢٤٨ م) ثم عمرو بن جفنة (٢٢٨ — ٢٦٣) وانتهى بالحارث ٧ (توفي ٦٣٠ م) وبجبلة ٦ آخرهم (توفي ٦٣٣ م) (من ص ٢١١ الى ص ٢٥٥) .

فان سلطة الامير العربي كانت مقيدة بسلطة الحكام المدنيين والحربيين المعينين من قبل الحكومة المركزية [1] .

الحارث :

وفي ربيع سنة ٥٣١ م شارك الحارث بن جبلة في الحرب ضد الفرس، الى جانب الروم بقيادة القائد البيزنطي المشهور بليزاريوس . وانتهى القتال بهزيمة الروم وأسر واحد من قادة العرب اسمه عمرو في موقعة قنسرين . ثم ان الحرب اشتعلت بعد ذلك بقليل بين الحارث وبين المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة ، بسبب التنافس على سيادة القبائل العربية في منطقة تدمر . والظاهر أن ذلك كان من أسباب تأجج الحرب من جديد بين الفرس والبيزنطيين [2] .

ففي سنة ٤٤١ م كان الحارث بن جبلة يحارب في العراق الى جانب الروم بقيادة بليزاريوس . وفي سنة ٥٤٤ م عادت الحرب بين جبلة والمنذر ملك الحيرة الذي أسر أحد أبناء الحارث ، وذبحه قربانا للعزى (أفروديت) . وهكذا فرغم تقرير الهدنة بين الدولتين الكبيرتين ظلت الحرب مشتعلة بين الحارث ومنافسه ملك الحيرة (المنذر) الى أن حقق الغساني انتصارا حاسما قرب قنسرين في موقعة فقد فيها جبلة أحد أبنائه، بينما قتل المنذر نفسه ، وذلك في سنة ٥٥٤ م . ويرجح نولدكه ان تكون هذه الوقعة هي « يوم حليمة » المشهور (نسبة الى اسم المكان الذي وقع فيه القتال ، وليس الى ابنة جبلة التي كانت تخلق الرجال ، كما تقول الرواية) والذي افتخر به الغساسنة [3] .

---

(١) نولدكه ، ص ١٠ – ١٦ .

(٢) نولدكه ، ص ١٧ – ١٨ ، وقارن نولدكه الذي يلقبه بالحارث الخامس الاعرج والوهاب (٥٢٩ – ٥٧٢ م) ، بينما يسميه بروكوب الحارث بن جبلة .

(٣) نولدكه ، ص ١٨ – ١٩ ، ده برسفال ، ج ٢ ص ٤٣٥ – ٤٣٧ .

وفي سنة ٥٦٣ م استقبل القيصر (جوستينيوس) في القسطنطينية الحارث بن جبلة ، وكان الهدف من الزيارة مفاوضة القيصر فيمن يخلفه من أبنائه في امارة الشام ، والاجراءات التي يجب اتخاذها لمقاومة عمرو ملك الحيرة . ولقد تأثر الحارث بمظاهر الحضارة التي شاهدها في القسطنطينية ، وكان له تأثيره القوي على أهل العاصمة الذين هابوه .

والظاهر أن الحارث لم يكن محبوبا في بلاط الروم بسبب انتصاره للمذهب اليعقوبي (مذهب الطبيعة الواحدة المونوفيزيتي الذي كانت قد اعتنقته الامبراطورة تيودورا) منذ أن نجح في سنة ٥٤٢ – ٥٤٣ م في تعيين يعقوب البراذعي ورفيقه ثيودورس أسقفين في الولاية العربية الشامية ، وبفضلهما توطدت أركان هذا المذهب في بلاد الشام .

وقصة الخلاف بين الحارث بن ابي شمر والسموأل (صموئيل) ، أحد زعماء تيماء ، التي وقعت حوالي سنة ٥٥٠ م ، بسبب دروع الشاعر امرىء القيس تنطبق – اذا صحت – على الحارث بن جبلة . والظاهر انه بسبب أعماله الكثيرة خلال عهده الذي طال الى حوالي نصف قرن هي التي جعلت له مكانا مرموقا في مخيلة الكتاب العرب ، فميزوه ونسبوا اليه معظم أعمال الغساسنة ، بل وأطلقوا اسمه على كثير منهم .

وتوفي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩ م او السنة تليها ٥٧٠ م ، بعد أن ظل أميرا على عرب الشام لحوالي ٤٠ سنة ، قام فيها بالكثير من الاعمال الكبيرة ، وربما كان ذلك هو السبب في ان نسب الكتاب العرب الكثير من أعمال الغساسنة الى الحارث بن جبلة المشهور بابن أبي شمر ، دون مراعاة الترتيب التاريخي [1] .

---

(١) انظر نولدكه (الترجمة) ، ص ٢٠ – ٢٤ ، وانظر جواد علي ، ج ٣، ص ٤٠٣ – ٤١٢ ، وقارن ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ – ٢٤١ .

المنذر وأبناؤه :

وخلف الحارث ابنه المنذر Almanudaros الذي ما ان تسلم الامارة حتى قام بصد الغارة التي قام بها عرب الحيرة على الشام ، وهزم ملكهم قابوس مرتين في سنة ٥٧٠ م • ووقعت المعركة الاولى غير بعيد من عاصمة اللخميين نفسها (على ٣ مراحل من الحيرة) ، ويحدد نولدكه هذه الموقعة بـ « يوم أباغ » الذي تغنى به الشعراء •

والظاهر ان العلاقات ساءت بين المنذر وبين القيصر جوستينيوس ، مما جعل الامير الغساني يشق عصا الطاعة على الامبراطورية لمدة ثلاث سنوات من سنة ٥٧٤ م الى سنة ٥٧٧ م • وكانت فرصة انتهزها عرب الحيرة لكي يغيروا على حدود الشام ، مما أرغم الروم على استرضاء المنذر ، وعقد الصلح معه (في الرصافة عند قبر القديس سرجيوس) •

ومع عودة العلاقات الطيبة قام المنذر في شتاء سنة ٥٨٠ م بزيارة القسطنطينية مع اثنين من أبنائه ، حيث أستقبل بكل احترام وتقدير ، وأنعم عليه القيصر طيبريوس بالتاج • وكان من انجازات المنذر في عاصمة الدولة أن سعى في نيل العفو عن المضطهدين هناك من أنصاره أصحاب المذهب اليعقوبي (مذهب الطبيعة الواحدة) (١) •

ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين المنذر وبين الروم اثناء حرب الفرس سنة ٥٨٠ م ، اذ ظن قائد الروم في تواطؤ المنذر مع الفرس

---

(١) لما كان يعقوب البراذعي (صاحب المذهب) قد توفي سنة ٥٧٨ م ، ولما كانت قد وردت اشارة في بعض النقوش التي عثر عليها في نواحي تدمر تشير الى وجوده في عهد الملك ابي كرب راى نولدكه ان لا بأس ان يكون « ابو كرب » هو لقب المنذر .

عندما وجد المعبر (الجسر) على الفرات مهدوما • ولم ينجح المنذر في استعادة حسن الظن به عندما أغار على أراضي الحيرة وعاد بالغنائم • اذ صدرت أوامر القيصر طيبريوس بالقبض عليه ، وتم ذلك بالحيلة في بلدة حوارين بين تدمر ودمشق • وسيق المنذر مخفورا مع احدى نسائه وبعض أولاده الى القسطنطينية ، بعد أن حكم مدة ١٣ سنة ، حيث حددت اقامته قبل أن ينفى الى صقلية عقب وفاة طيبريوس سنة ٥٨٢ م •

ولما كان الروم قد قطعوا المعونة المالية السنوية عن الغساسنة ، فقد قام أبناء المنذر الاربعة بقيادة أكبرهم وهو النعمان بالخروج على الامبراطورية ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضيها • وبلغ الامر الى حد الهجوم على حامية بصرى واسترجاع ذخائر أبيهم واسلحته التي كانت محفوظة بالمدينة ، ولو أن حاكم الشام البيزنطي تمكن من القبض على النعمان بالحيلة ، وارساله الى العاصمة ،بعد سنة واحدة من وفاة المنذر، حيث انتهى نهاية غامضة (١) •

الغساسنة المتأخرون :

وهكذا أخذت دولة الغساسنة في الضعف ، فانقسم عرب الشام الى ١٥ (خمس عشرة) فرقة ، لكل واحدة منها رئيس أو شيخ ، وانتهى أمر هؤلاء اما بالانحياز الى الفرس أو الدخول في طاعة بيزنطة أو ترك حياة الجندية والتوطن في المدن والقرى ، في كل من العراق والجزيرة والشام •

---

(١) نولدكه ، امراء غسان (الترجمة) ، ص ٢٤ ـ ٣٣ ، وانظر جواد علي ج ٣ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٨ ، وقارن ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٤١ وما بعدها حيث يسير مع قائمة حمزه الاصفهاني فيجعل خليفة الحارث هو جبلة الرابع والحارث السادس الاصغر (٥٧٢-٥٨٧ م) •

الحارث الاصغر وابنه النعمان :

وبعد هذه المحنة لم يعد كتاب بيزنطة أو السريان يذكرون أخبار آل جفنة ، وأصبح الشعراء العرب هم مصدر هذه الاخبار مثل علقمة والنابغة الذبياني • والاول له قصيدة في مدح الحارث الاصغر ، والثاني له عدة قصائد في مدح النعمان بن الحارث الاصغر •

ويفهم من هذه القصائد ان العلاقات لم تكن ودية بين النعمان وبين قبيلة النابغة (فزارة) القاطنة في شمالي المدينة (يثرب) ، وأن الامير الغساني كان يهدد بغزوها ، كما سبق له أن غزا قبيلة أسد المجاورة لها ، وقبيلة بني عذرة في وادي القري أيضا • ويذكر النابغة ان النعمان كانت له غزوات أخرى في قبائل بكر وتميم ، وربما كان ذلك حوالي سنة ٦٠٠م ، عندما توغل في أراضي اللخميين بالعراق • والظاهر أنه غزا قبيلة ذبيان عقب ذلك ، مما يجعل ولايته على الشام في العقد الاول من القرن السابع الميلادي •

وفي النعمان المكنى بأبي حجر وفي حجر هذا أو في الامير عمرو أخي النعمان ، قال حسان بن ثابت (٥٩٠ — ٦٦٠ م) :

ملكا من جبل الثلج الى   جانبي أيلة من عبد وحر
أتيا فارس في دارهم   فتناهوا بعد اعصام بقر
ثم صاحا بين غسان اصبروا   انه يوم مصاليت صبر

وهكذا امتدت البلاد التي كانت تحت سلطان الغساسنة المتأخرين ، من : جبل الشيخ (الثلج) الى خليج العقبة (أيلة) • أما عن أهم مراكزهم فكان في الجولان ، كما أنهم أقاموا بالقرب من دمشق في موضع على

نهر بردى يعرف بـ « جلّق » ومن المفهوم ان بلاد تدمر كانت خاضعة للغساسنة • وهذا لا يعني ان سلطة بني جفنة كانت تقف عند حدود بعينها ، فهي — بشكل عام — كانت مفروضة على كل القبائل الضاربة في بلاد الشام ، من شمالها الى جنوبها ، والتي كانت ترحل الى أعماق الصحراء [1] •

ورغم ما يقوله الكتاب من أن الغساسنة بنوا المدن والقصور والأديرة والجسور ، فلا توجد أية اشارة الى ان الغساسنة ملكوا أيا من الاماكن المحصنة أو المدن ، مثل : دمشق وبصرى أو تدمر ، مما يعني أنهم — رغم تأثرهم بالروم — ظلوا محتفظين ببدواتهم • وربما كانت اقامتهم في الجولان هي السبب في أن عمر بن الخطاب كان ينظر الى الجابية على أنها عاصمة بلاد الشام • وان غزوات الغساسنة المتأخرين في البلاد الخاضعة لسلطان الفرس ليدل على أنهم لم يكونوا من الامراء المغمورين •

ومع ذلك فان حسان بن ثابت الذي كان قد اتصل بهم حوالي سنة ٦١٠ م ، وزارهم في الجولان وقرب دمشق ، والذي كان يفاخر بقرابته لهم ، يذكر في قصيدة له غسان وكأن سلطتهم قد تهدمت ، وأجلهم قد انتهى • فهو يقول :

---

(١) نولدكه ، ص ٣٣ — ٤٤ ، ص ٥١ — ٥٥ ، وانظر جواد علي ج ٣ ، ص ٤١٨ — ٤٤١ ، وقارن ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٥٣ • وعن مواضع أخرى وقرى من غوطة دمشق واعمالها بين الجولان واليرموك ، انظر المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٥) الذي يورد اشعارا اخرى لحسان يذكر فيها : معان ، واليرموك ، والصمّان ، وقصور النساك ، والقصور الريفية (مغاني) لآل جفنة.

ديار ملوك قد آراهم بغبطة   زمان عمود الملك لم يتهدم

وذلك عندما اضطر الغساسنة الى الفرار أمام زحف الفرس على بلاد الشام ، وفتحهم لدمشق سنة ٦١٣ م وللقدس سنة ٦١٤ م • ولا يعرف ان كان قيصر الروم قد أسند اليهم عمالة الشام مرة أخرى بعد أن استرد البلاد من الفرس سنة ٦٢٩ م ، وان كان الواقدي يذكر ان « ملك بصرى » الذي قتل مبعوث النبي في أواخر سنة ٦٢٩ م كان يسمى « شرحبيل بن عمرو الغساني » • واذا كان عرب الشام الذين ظاهروا المسلمين في فتح فلسطين كانوا من لخم ومن جذام فالمعروف أيضا أن جبلة بن الأيهم الذي قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل ثم ساند الروم في اليرموك كان من حفدة الغساسنة • وهكذا كانت احوال الغساسنة والعرب في بلاد الشام عند ظهور الاسلام [١] •

٢ ـ اللخميون بنو نصر في الحيرة :

حسب رواية وهب بن منبه عن الهجرة الكبرى من اليمن ، خرجت جماعة من قوم عمرو بن عامر مزيقيا الى نجران ، ومنها الى عمان والبحرين ومنهم بنو نصر بن الازد • فالمفروض آذن ان من كان من العرب بالبحرين طمعوا في ريف العراق بعد ضعف الدولة الفارسية في العهد المعروف بملوك الطوائف ، وانهم انتشروا في السواد ، وسكنت جماعات منهم ما بين الانبار والحيرة • وبناء على ذلك فأغلب الظن ان وهب بن منبه يقصد بني نصر اولئك الذين استقروا بالحيرة ، وكونوا مملكتها المعاصرة لمملكة الغسانيين • فملوك الحيرة عرفوا باللخميين ، وبالمناذرة ، وبآل نصر •

واذا كان الغسانيون قد ظهروا بمظهر شيوخ القبائل الذين ليس لهم مستقر

(١) نولدكه (الترجمة) ، ص ٤٥ ـ ٥٠ .

ثابت او « حيرتا » دائمة رغم اتصالهم بالروم فان امراء الحيرة يظهرون الى جانبهم بمظهر الملوك • ويرجع الفضل في ذلك الى المنطقة الخصبة التي استقروا بها في أرض الطف التي عرفت بالنجف ، على الضفة الغربية للفرات ، غير بعيد من مدينة الكوفة الحالية • فالمنطقة ذات مياه ونخيل كما عرفت بطيب مناخها حتى قيل : « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة » [١] •

أما عن أصل التسمية (الحيرة) فتقول الروايات العربية ان عابر والد قحطان (وهو هود) هو الذي حير الحيرة بمعنى انه الذي مدنها أو مصرها ، كما قيل أن تبع لما سار من اليمن يريد الانبار تحير في موضع الحيرة فسماه الحيرة • والرأي الاول لا بأس به اذ أنه يتفق مع رأي اللغويين الذين يرون ان الكلمة سوريانية الاصل ، من لفظة حرتا بمعنى المعسكر أو الحصن ، ولهذا نسبت الى ملوك آل نصر فقيل «حيرةالنعمان» و « حيرة المنذر » ، كما كان للغساسنة حرثاهم في البادية يلجأون اليها عندما يتهددهم خطر من الاخطار [٢] •

اما عن سكان الحيرة فيقسمون الى ثلاث طبقات ، هي : ١ ـ تنوخ من سكان المظال وبيوت الشعر والوبر في غربي الفرات من الحيرة الى الانبار •

٢ ـ العباد ممن سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها •

٣ ـ الاحلاف الذين لحظوا بأهل الحيرة [٣] •

(١) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

(٢) حرثا بمعنى الحظيرة او المعسكر ،انظر نولدكه (الترجمة)، ص ٥٢ جواد علي ، ج٣ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ (حرتا : في الارمنية ، حيرتو : في السريانية ، حواطرة : في العبرية) ، وانظر جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ص ١٠ .

(٣) حمزه الاصفهاني ، ص ٦٦ .

وأخبار اللخميين كثيرة عند الكتاب العرب الذين كانوا يعرفون أخبار الفرس أكثر من معرفتهم بأخبار الروم . ونظرا للصلات الوثيقة بين ملوك الحيرة وبين الدولة الفارسية جعل بعضهم تاريخ اللخميين وكأنه جزء من تاريخ فارس ، وذلك كما فعل الطبري وابن الاثير وغيرهما .

ويمدنا الكتاب العرب بقوائم لملوك لخم يعددون فيها أكثر من عشرين ملكا تولوا الحكم لفترة قاربت الاربعمائة سنة . ولكنه رغم محاولتهم ترتيبهم وتحديد تواريخ ملكهم بالنسبة لملوك فارس ، فالذي يلاحظ هو أن كثيرا من هؤلاء الملوك يشتركون في نفس الاسماء . فالمنذر يتكرر خمس مرات ، والنعمان ثلاث مرات ، وعمرو ثلاث مرات، وامرىء القيس ثلاث مرات ، مما يحتمل معه أن تكون الاحداث قد تكررت مع تكرار الاسماء أكثر من مرة . ومثل هذا حدث بالنسبة للغساسنة الذين امتد ملكهم عند الكتاب العرب القدماء الى حوالي ٦٠٠ سنة ، بينما أثبت نولدكه ان الامر لا يتعدى مائتي سنة على أكثر تقدير. وفي هذا النطاق نلاحظ أن من المناذرة من ينسب اليه، في رواياتنا العربية، انه حكم أكثر من مائة سنة ، فكأننا ما زلنا بصدد تاريخ اليمن الاسطوري القديم .

وبناء على ذلك فليس من الغريب أن نجد بداية اسطورية لمملكة الحيرة . فأول ملوكها هو عمرو بن عدي بن نصر ، وهو ابن أخت جذيمة الأبرش التنوخي القضاعي الأزدي ، على أساس ان تنوخا كانت مزيجا من قضاعة ومن الأزد (١) .

---

(١) انظر زيدان ، ص ١٩٤ ، وده برسفال (بالفرنسية) ، ج ٢ ، ص ٥ — ٨ (حيث التقت قضاعة واياد والازد وغيرهم ، في هجر ، واتخذوا اسم تنوخ بمعنى المحطة او المنزل فكأنها كلمة مناخ . والطبري (ج ١ ، ص ٦١٠) يرى انها بمعنى المؤازرة او الحلف) .

والأبرش عرف أيضا بالأبرص أو الوضاح ، وهو ابن مالك بن فهم الأزدي الذي كوّن أول دولة عربية في العراق . وتقول الرواية انجذيمة كان معاصرا للزباء ملكة تدمر التي احتالت عليه وقتلته ، وانه لما لم يكن له ولد فانه عهد بالملك الى عمرو بن عدي وهو ابن اخته « رقاش » من عدي الذي كان في أول أمره ساقيا عند جذيمة وافتتنت به أخت الامير . وعمرو هو الذي ثأر لمقتل خاله من الزباء ، وهو أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب (١) .

وبناء على ذلك فسنحاول الاسترشاد بدراسة نولدكه مرة أخرى في تحديد تواريخ سني هؤلاء الملوك ، وخاصة ان أحداث كل من دولتي العرب في العراق والشام كانت متصلة في كثير من الاحيان بفضل ما قام بينهما من الحروب والصراعات . وبناء على ذلك فلن نبتعد كثيرا عن أواخر القرن الخامس الميلادي في تتبعنا للاشخاص التاريخيين من هؤلاء الملوك . هذا وأنه يمكن الاشارة الى امرىء القيس ، صاحب نقش النمارة المشهور الذي يرجع الى حوالي سنة ٣٢٨ م ، والموجود حاليا في متحف اللوفر بباريس .

والنقش مكتوب باللغة العربيةالمشوبة بالآرامية ، وخطه يبين مرحلة انتقال الخط العربي من شكله النبطي الى شكله العربي المألوف في صدر الاسلام . أما النص فهو كالآتي :

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذي تكلل التاج .

---

(١) الطبري ج ١ ص ٦١٣ وما بعدها ، ابن الاثير ج ١ ، ص ١٤٢ وما بعدها ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٦٦ وما بعدها .

— وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم وقـاد •

— الظفر الى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيـه •

— على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغـه •

— الى اليوم •توفي سنة ٢٢٣ م في اليوم السابع مـن ايلـول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة [١] •

ويرى بعض الباحثين أن امرأ القيس هـذا هـو أول ملك مـن اللخميين يعثر على اسمه منقوشا على قبره، ويظن أنه أمرؤ القيس بن عمرو بن عدي المعروف بالبدء (الاول) • هذا ، كما يمكن الاشارة الى الامـير النعمان المعروف بالاكبر وبالاعور وبابن الشقيقة ، الذي ولى بعـده في أوائل القرن الخامس الميلادي ، والذي ينسب اليه بناء القصرين الشهيرين، وهما : الخورنق والسدير • ويقال ان الخورنق بناه المهنـدس سنمـار لكي يكون سكنا لبهرام جور بن يزدجرد الذي رأى والـده أن يربيـه تربية عربية قوية في كنف النعمان • واشتهر النعمان ايضا بكتيبتي الخيالة الشهيرتين عند العرب ، وهما : الدوسر ورجالها من الفرس ، والشهبـاء ورجالها من تنوخ وغزا بهما عرب الشام عدة مرات • وعلى ايامه ازدهرت مدينة الحيرة ، كما لم تكن من قبل • وفي عهـده دخلت النصرانيـة الى

(١) انظر زيدان ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، وانظر ديسو ، العرب في سوريا (الترجمة) ، ص ٣٣ — ٣٤ ، جويدي ، ص ١٢ — ١٤ ، ثابيا أبوت، الخط العربي الشمالي، ص٤ . وعن النمارة انظر خريطة (٩) ص١٦٣

العراق بعد أن تنصر هو نفسه ، وذلك وقت تسامح يزدجر الثاني (٤١٦ — ٤١٧ م) مع النصارى قبـل أن يغضب عليهـم ويهـدم كنائسهم •

وفي نهاية الامر زهد وساح في الارض ، ولا بأس من ان يكون قد ترهب في أحد الاديرة • وفيه يقول عدي بن زيد :

تدبر رب الخورنـق اذ أشرف يوما وللهدى تفكـير
سره حاله وكثرة مـا يملـك والبحر معرضـا والسديـر
فارعـوى قلبـه وقـال وما غبطة حي الى الممات يصير

وهكذا نكتفي من قوائم ملوك الحيرة الذين يزيدون عنـد بعض الكتاب العرب على ٢٠ ملكا بمن يمكن الوثوق بتواريخ ملكهم ، وهم :

— أمرؤ القيس بن عمرو (المعروف بالبدء)	ت ٣٢٨ م
و — النعمان الاول بن امرىء القيس الثاني	ت ٤١٨ م
و — المنذر بن امرىء القيس (ابن ماء السماء)	٥١٤—٥٥٤ م
و — عمرو بن المنذر (ابن هند)	٥٥٤—٥٦٩ م
و — قابوس بن المنـذر	٥٦٩—٥٧٩ م
و — المنذر بن المنذر (بن ماء السماء)	٥٧٩—٥٨٣ م
و — النعمـان بن المنـذر	٥٨٣—٦٠٥ م
وأخيرا — اياس بن قبيصة الطائي	٦٠٥—٦١٤ م

المنذر بن ماء السماء :

ويتضح من القائمة هذه ان الامير اللخمـي الذي كان معـاصرا للحارث بن جبلة ، والذي انتصر عليه الامـير الغساني في سنة ٥٢٨ م ، هو المنذر الذي ينبغي أن يكون : المنذر بن امرىء القيس الملقب بابن ماء السماء وكذلك بذي القرنين • والمفروض أنه ثالث من حمل اسم المنذر ،

حسب قائمة حمزة الاصفهاني • والمنذر هو أشهر ملوك لخم فعلا ، فلقد عاصر من ملوك فارس قباذ وابنه كسرى أنو شروان ، كما عاصر قيصر الروم الشهير جستنيان •وكانت للمنذر وقائعه مع عرب غسان وخاصة مع الحارث بن جبلة من أجل السيطرة على قبائل العرب فيما بين العراق والشام • ففي سنة ٥١٩ م قام بتحريض قباذ بمهاجمة حدود الروم • واضطر القيصر الى أن يرسل اليه سفارة في ٥٢٤ م مكونة من مبعوثين : هما القس سيمون ورجل اسمه ابراهيم يحملان الهدايا ويطلبان اطلاق سراح القائدين الرومانيين : جان وتموستران • ولما لم يجد المبعوثان المنذر في الحيرة سارا في الصحراء جنوبا لمدة عشرة أيام الى أن التقوا به فيموضع يعرف بالرملة ، وهناك التقوا بمبعوث لملك اليمن ذي نواس •

حروبه في الشام :

وفي ما يتعلق بغاراته على ولاية الروم العربية في الشام يصفه المؤرخ بروكوب ، بأنه : رزين يعرف المكان الذي سيغير عليه ، ويهرب بالغنيمة قبل مجيء قوات الرومان [1] • ففي سنتي ٥٢٨ ، ٥٢٩ م تذكر له غارات على الشام حقق فيها نجاحا بوصوله الى انطاكيه واحراقه ضواحي قنسرين ، ولو أنها انتهت بفراره بعد أن ترك أمواله وذريته • وبعد أن هزم القائد الروماني بليزاريوس قوات الفرس في أرمينية سنة ٥٣٠ م ، رد المنذر على ذلك في السنة التالية (٥٣١ م) فقاد قوات الفرس والعرب وتوغل حتى قنسرين حيث غنم وسبى • وعندما تبعه بليزاريوس كان في صحبته الحارث بن جبلة بعرب غسان • وتم اللقاء عند مدينة الرقة قرب الفرات ، ونجح المنذر في الايقاع بالقوات الرومانية ثم انه انسحب عندما حل الليل • وهكذا تم الصلح بين فارس والروم على أن

---

(١) ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

يدفع الرومان الاتاوة للمنذر وذلك في سنة ٥٣٣ م • ودام الصلح طوال ثمان سنوات بين الدولتين ، ولو ان ذلك لم يمنع الصراع بين أمير الحيرة والامير الغساني من أجل السيادة على القبائل العربية في بادية الشام • ففي سنتي ٥٣٨ ، ٥٣٩ م اضطر الرومان الى شراء رجوع المنذر من أراضيهم بالشام •

وعندما قامت الحرب بين فارس والرومان ابتداء من سنة ٥٤٠ م كان للمنذر دوره فيها • فلقد عاث في الشام سنة ٥٤٥ م ، وتقول الروايات انه أسر أحد أبناء الحارث بن جبلة وضحى به للزهراء « الهة العرب الكبرى » مما يسكن تفسيره باللات أو بالعزى [1] • وانتهى الصراع بالانتصار الكبير الذي حققه الحارث بن جبلة على المنذر عندما هاجم بلاد الشام سنة ٥٥٤ م ، اذ انتهت الوقعة بمقتل المنذر وأسر ابنه امرىء القيس في يوم حليمة الذي افتخر به الغساسنة حتى قيل في أمثالهم : « ما يوم حليمة بسر » [2] •

النصرانية :

وتقول الروايات الى ان المنذر بنماء السماء كان قد تنصر وانه بنى الكنائس الكثيرة في الحيرة • ولكن ما ينسب الى المنذر من أنه كان يقدم الضحايا للزهراء أو انه تقرب للعزى بذبح الراهبات في الشام ، أو

---

(١) ده برسفال ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٢) انظر ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٩٦ – ١٠١ ، ١١٣ – ١١٥ (ولو انه يضع يوم حليمة في سنة ٥٦٢ م) ، جويدي ، العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٢٢ – ٢٣ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ – ٢٣٥ . وللمزيد من التفصيلات انظر المراجع العربية السابقة والمعلومات فيها ما زالت في حاجة الى التحقيق ، حمزه الاصفهاني ، ص ٧٠ .

ان رسول ذي نواس ملك اليمن كان يراسله ليقتدي به في قتل النصارى بنجران • كل ذلك يشكك في أن يكون المنذر قد اعتنق المسيحية ، والا فان تنصره يكون شكليا وان كان على المذهب النسطوري المعارض للمذهب الرسمي للامبراطورية الرومانية •

المزدكية :

هذا ولو أنه من الثابت ان علاقة المنذر بن ماء السماء كانت قد ساءت مع ملك الفرس قباذ بسبب تشجيع قباذ لمذهب مزدك الذي كان يدعو الى نوع من الاشتراكية البدائية في الاموال والنساء ، مما أدى الى هرب المنذر من الحيرة التي آلت الى بني حجر آكل المرار الى ان ملك كسرى أنوشروان وناهض المزدكية ، فعاد المنذر الى مملكته •

وأصل مزدك من مدينة نيسابور بولاية فارس الشرقية المعروفة بخراسان ، وكان ظهوره حوالي سنة ٤٩٨ م (السنة العاشرة لملك قباذ)• وينبني المذهب المزدكي على مبدأ عدم التفرقة بين الاعمال الطيبة والاعمال الخبيثة ، فهو كالمذهب المانوي ثنوي وان كان أكثر تطرفا اذ يقرر تكافؤ الخير والشر •فلقد دعا الى نوع من شيوعية النساء ، ومنع أكل اللحم وقتل الحيوان • ورغم ثورة رجال الدولة التي أدت الى خلع قباذ سنة ٤٩٩ م فانه ظل متمسكا بالزندقة المزدكية عندما عاد الى الملك سنة ٥٠٢ م • وحوالي سنة ٥٢٥ م تم طرد المنذر من امارة الحيرة التي عهد بها قباذ الى الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الذي اعترف بالمزدكية • وظل المنذر بعيدا عن الحيرة الى سنة ٥٢٨ م حينما أرجعه اليها كسرى أنوشروان الذي قتل مزدك وصلبه ، كما قتل كبار أصحابه غدرا ثم تتبع الزنادقة من المزدكية في كل أرجاء الامبراطورية الفارسية

حتى قيل انه قتل منهم في يوم واحد مائة الف • ويقال ان كسرى (خسرو) اتخذ من هذا اليوم لقب « انوشروان » أي الروح الطيبة [1] •

وعند عودة المنذر الى الحيرة هرب الحارث بن حجر بماله ونسائه• وظل المنذر يتتبع بني حجر آكل المرار وينتقم منهم حتى قيل انه أسر ١٢ (اثني عشر) أميرا من بني حجر بن عمرو وقتلهم في موضع يعرف بدير بني مرينا ، وان الشاعر امرأ القيس كان في جملة الاسرى ولو انه نجا من القتل ، كما نشير الى ذلك فيما بعد •

هذا ، كما ينسب الى المنذر انه نجح في انهاء الحرب بين البكريين والتغلبيين، فأخذ من كل من الجماعتين ٨٠ (ثمانين) رهينة ، ولو ان بعض الروايات تنسب ذلك الى عمرو بن المنذر •

عمرو بن هند :

وخلف المنذر ابنه عمرو بن المنذر المعروف عند الكتاب العرب بعمرو بن هند (نسبة الى والدته بنت عمة الشاعر امرىء القيس الكندي) وبمضرط الحجارة (لشدته وصرامته) ، ويقع حكمه ما بين سنة ٥٥٤ م و ٥٦٩ م •

والمعروف أنه أغار على بلاد الشام سنة ٥٦٣ م أثناء امارة الحارث بن جبلة ثم انه أمر أخاه « قابوس » بتجديد الغارة عليها بعد ذلك مرتين ، في سنة ٥٦٦ م وفي السنة التالية ٥٦٧ م ، حتى يخضع الغساسنة لدفع الجزية •

---

(١) ده برسفال (مع اختلاف التواريخ) ، ج ٢ ، ص ٧٩ — ٨٥ ، وانظر حمزة الاصفهاني ، ص ٧١ •

وتقول الروايات العربية انه انتقم من قبائل تغلب عندما امتنعت عن تقديم العون له في حربه ضد الغساسنة ، كما أنه غزا قبائل طيء وتميم الذين قتلوا ابنا له أو أخا وألقى بقتلاهم في النار ، ولهذا سمي « بالمحرق » •

وعلى أيام عمرو صارت الحيرة ملجأ الشعراء ، مثل طرفة بن العبد، والمتلمس بن علس ، والمنخل اليشكري ، كما ان امرأ القيس الشاعر كان من معاصريه •

أما عن نهاية عمرو بن هند . فكانت على يدي الفارس والشاعر المشهور عمرو بن كلثوم التغلبي بعد أن تحرش به ابن هند وأراد أن تخدم أم التغلبي هندا أمه • وفي ذلك قيل : « أفتك من عمرو بن كلثوم » (1) •

قابوس بن المنذر :

وولى بعد عمرو أخوه قابوس بن المنذر الذي وصف بالضعف واللين حتى هجاه طرفة بن العبد ، فقال :

يأت الذي لا تخاف سبته   عمرو وقابوس قيننا عرس

ولقد قام قابوس بغارة على بلاد الشام في أول ولاية المنذر بن الحارث بن جبلة ، ولكن الامير الغساني تمكن من رد الاعتداء والانتصار

---

(1) حمزه الاصفهاني ، ص ٧٢ – ٧٣ (يقول ان مولد النبي – حوالي سنة ٥٧٠ م – كان في السنة التاسعة من ملك عمرو ؟) ، جويدي ، العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٢٥ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ – ٢٥٦ ، زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٣٤ ، وانظر ناديا أبوت ، ص ٦ •

عليه مرتين : أولاهما في أيار (مايو) سنة ٥٧٠ م ، وهي الموقعة التي يرجح نولدكه أن تكون «يوم أباغ » ، على بعد ٣ (ثلاث) مراحل من الحيرة •

وعندما ساءت العلاقات بين المنذر الغساني والروم سنة ٥٧٤ م ، انتهز قابوس الفرصة وأغار على أراضي الروم متوغلا حتى أنطاكية طوال ثلاث سنوات ، مما اضطر قيصر الروم جستينوس الى مصالحة المنذر ، الذي قام بدوره ، بالغارة على اللخميين ووصل حتى مدينتهم الحيرة سنة ٥٧٨ م ، حيث أطلق أسرى الروم (1) •

النعمان بن المنذر :

وبعد قابوس ملك أخوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء (٥٧٩ – ٥٨٣ م) • وبعده ولى ابنه النعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس ، والذي لقب بالصعب لسرعة غضبه وأخذه بالوشايات • وكان كسرى بن هرمز قد فضله على اخوته وملكه دونهم ، وألبسه تاجا فيه اللؤلؤ والذهب • وفي هذا التاج وفي النعمان ، قال مالك بن نويرة :

لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به
من الزبرجد والياقوت والذهب

وتشير الروايات العربية الى أن العلاقة ساءت بين كسرى وبين النعمان عندما رفض الامير العربي المصاهرة بينهما ، مما أغضب كسرى

---

(1) حمزه الاصفهاني ، ص ٧٣ (قيل لم يملك بل سموه ملكا ، وان رجلا من بني يشكر قتله وسلبه) ، جويدي ، ص ٢٥ ، جواد علي ، ج ٣ ص ٢٥٧ – ٢٦٠ ، زيدان ، ص ٢٣٥ •

الذي أمر بالقبض عليه وسجنه ثم قتله مدهوسا تحت أقدام الفيلة • وفي ذلك يقول الاعشى (عن كسرى) :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه ... نحور الفيول بعد بيت مسردق

والظاهر أن دولة الحيرة كانت قد بدأت تضعف على أيام النعمان لانصرافه الى الشراب واللعب • فعلى أيامه هزم بنو يربوع جيش النعمان لما أراد أن ينقل منهم الردافة (الحجابة) [1] • كذلك انهزمت جموعه أمام بني عامر بن صعصعة بعد أن تعرضوا لاحدى قوافله (اللطيمة) التي كان قد أرسلها الى سوق عكاظ • هذا ، كما كانت حروب الفجار المشهورة بين كنانة وقيس بسبب تعرض بعض القيسية لاحدى قوافله التي كانت في حراسة بعض الكنانيين • وفي موضوع الحرب يشيد الكتاب بما كان للنعمان من الكتائب المشهورة في القتال ، ومنها : الرهائن ، والصنائع ، والوضائع ، والاشاهب ثم الدوسر التي عرفت بشدتها حتى ضرب بها المثل فقيل « ابطش من دوسر » •

وكان النعمان محبا للشعراء مقربا لهم ، وكان حسان بن ثابت ، الذي مدح الغساسنة ، وافتخر بقرابته بهم ، قد زاره ومدحه • والنابغة كان وثيق الصلة بالنعمان كما كان على صلة بالغساسنة • وفي النعمان ، قال النابغة :

---

(١) الردافة كانت أشبه بالوزارة ، ويظن ده برسفال ، ج٢ ، ص ١٠١ ، ان الذي نظمها في الحيرة في أسرة يربوع هو المنذر بن ماء السماء وكان صاحبها وهو الردف يجلس على يمين الملك ، وفي الشراب يشرب بعد الملك من نفس الكأس مباشرة ، وفي الركوب يكون خلف الملك على نفس المطية (ونظن ان كلمة الردف اشتقت من ذلك) ، وفي اثناء حروب الملك كان الردف يبقى في الحيرة ليصرف أمور المملكة ، كما كان له ربع الغنيمة التي تأتي بها كتيبة المنذر .

كأنك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وممن اتصل به من الشعراء : المنخل اليشكري الذي سعى ضد النابغة عنده ، والذي انتهى أمره بالقتل في سجن النعمان ، والأسود بن يعفر وحاتم الطائي •

والمعروف ان النعمان كان أول من تنصر حقيقة من ملوك الحيرة ، وكان قبل ذلك يعبد الأوثان وعلى وجه الخصوص العزى التي كان يتقرب اليها بالذبائح • وكان تنصره على يدي بعض أساقفة الحيرة الذي عالجه من مرض ألم به ، وقيل أنه تنصر على يدي كاتبه عدي بن زيد • ولقد تنصر مع النعمان أولاده ، ومنهم : الحسن والمنذر ، وكان تنصرهم على مذهب النساطرة حوالي سنة ٥٩٣ م• وينسب اليه بناء بعض الأديرة، منها : دير اللج أو دير اللجة •

وعلى أيام النعمان غدا بلاط الحيرة يضاهي بلاط كبار الملوك • ولا ندري ماذا كانت عليه حالة كل من قصري الخورنق والسدير اللذين ينسب بناؤهما الى النعمان بن امرىء القيس في مطلع القرن الخامس الميلادي ، ولا بأس في أن يكونا عامرين على عهد النعمان • فلقد بلغت حجابة القصر في أيامه شأنا رفيعا بفضل حاجبه الشهير عصام الذي مدحه الشعراء ، والذي كان يعهد اليه بقيادة ألف فارس• والذي قال فيه النابغة :

نفس عصام سوّدت عصاما ... فخير ما وراءك يا عصام

ومن وزراء النعمان عمرو بن بقيلة ، والد عبد المسيح الذي اشترك في مفاوضات الصلح مع خالد بن الوليد ، وكان له دير عرف باسمه فهو دير عبد المسيح • وكان للنعمان دار في الحيرة عرفت بالزوراء ، يقال انها بقيت الى أيام المنصور العباسي •

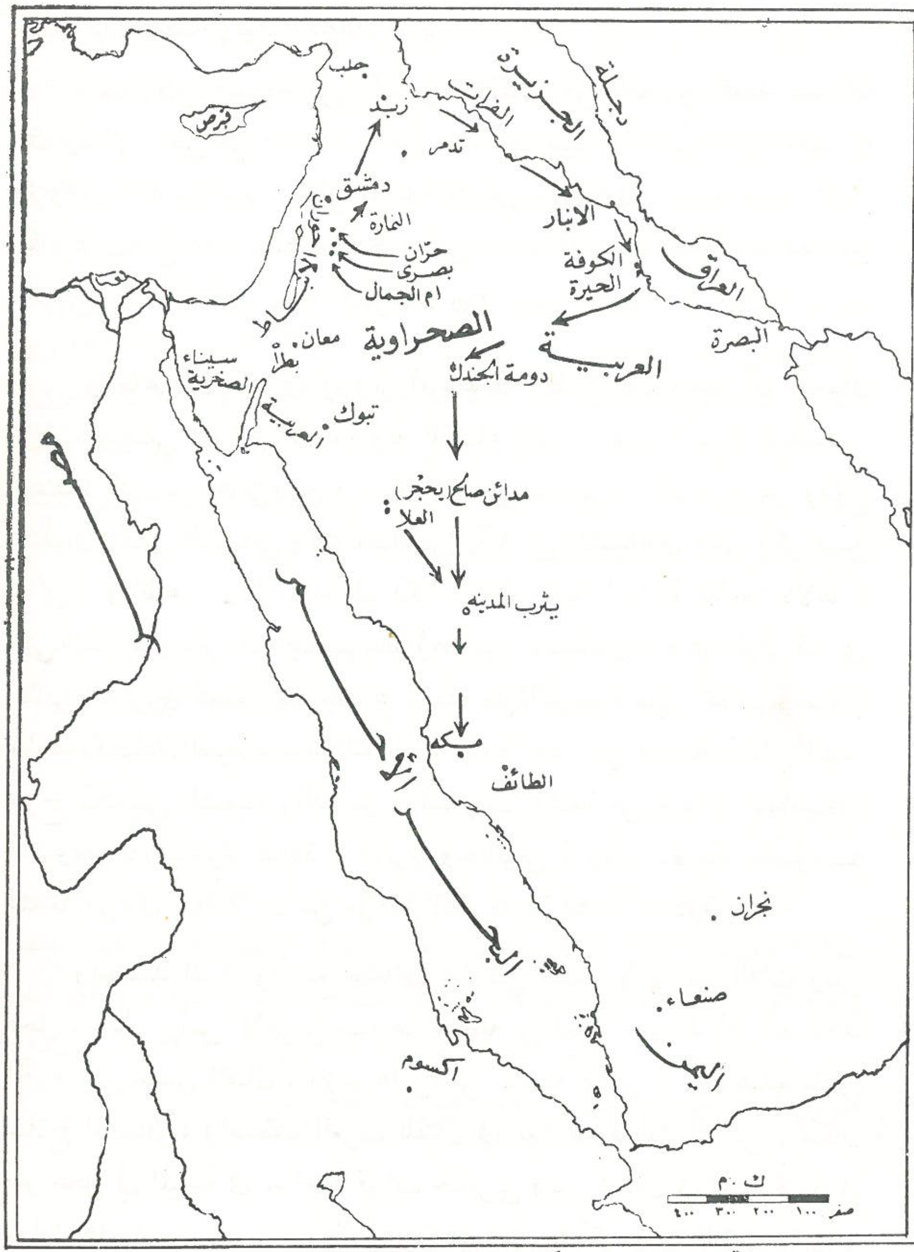
وبلغ من رقة الملك الحيري أن نسبت اليه شقائق النعمان ، لأنه عندما وجد نبتها الاحمر والاخضر والاصفر طلب حمايتها وعدم الاضرار بها •

الكتابـة :

ومن مفاخر الحيرة على أيـام المناذرة أنها صارت مهـد الكتابـة العربية • ففيها ظهر حماد بن زيـد بن أيوب ، ككاتب بـارع ، واختير للكتابة في بلاط الحيرة • وزيد بن حماد عينه كسرى على البريد لما تبين له من ذكائه ومقدرته في كل من اللغتين العربية والفارسية • وعدي بـن زيد حذق العربية والفارسية ، وتقرب من آل لخم الذين أوصلوه الـى كسرى فاستخدمه كاتبا ، كما عهد اليه بمهمات سياسية لدى قيصر الروم حوالي سنة ٥٨١ م • وعندما عاد الى الحيرة استقبله النعمان استقبـالا حافلا وزوجه من ابنته هند ، ولو أنه عاد وغضب عليه ، وألقاه في السجن حيث دبر مقتله • وكان مقتـل عدي سببا في أن دبر ابنه زيد بن عـدي المكيدة للنعمان فأثار عليه حنق كسرى في قصة طلب النساء العربيات من بيت النعمان ليتزوج بهم كسرى ورجال أسرته • وكان رفض النعمـان المصاهرة من أسباب نكبته التي انتهت بخروجه من الحيرة والتجائه الى الطائيين ثم الى بني شيبان حيث نصحه زعيمهم هانىء بن قبيصة بالذهاب الى كسرى وشراء رضـائه • فكانت رحلته الى الموت مدهوسا تحت أقدام الفيلـة [١] •

---

(١) انظر المسعودي ،مرو ج الـذهب ، ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٨ ، حمـزة الاصفهاني ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ، ده برسفال ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ـ ١٦٧ ، جويدي ، ص ٢٦ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٢٦١ ـ ٢٩١ ، وعن قصة الكتابة انظر ناديا أبوت ، الكتابة العربية الشمالية (بالانكليزية) ، ص ٥ وما بعدها . وفي هذا البحث تعرض المؤلفة نظريتهـا في نشأة الكتابة العربية الشمالية (كتابة القرآن) والتي تتلخص في أن أصولها يمنية حملها المهاجرون من الثمودين وغيرهم الى بادية الشام عـن طريق الحجاز ثم انها عادت متطورة، متأثرة بالمؤرثات الشمالية نحو العراق والحيرة ، عبر الجزيرة وعن طريـق الفرات ، ومـن الحيرة انطلقت الى مكة ويثرب . انظر خريطة (١١) ص ٢٢٩ •



(١١) الطرق المحتملة لانتشار الكتابة العربية الشمالية لنابيا ابوت ص ٣

اياس بن قبيصة ويوم « ذوقار » :

بعد مقتل النعمان قرر كسرى التخلص من اللخميين فعهد بملك الحيرة الى رجل من الطائيين ، هو اياس بن قبيصة الطائي الذي تظهره الروايات العربية متوددا الى الملك الفارسي متفانيا في خدمته عندما انهزم أمام عرب بني دارم سنة ٥٩٠ م • على أن يحكم تحت اشراف موظف من الفرس يلقبه الكتاب بـ « الهمرجان » •

والظاهر أن كسرى أبرويز أمر عامله الطائي بأن يتتبع آل النعمان وان يستصفي أموالهم في محاولة للقضاء تماما على الاسرة اللخمية • وعندما طلب من هانىء بن قبيصة الشيباني تسليم ما كان لديه من ودائع النعمان رفض الشيباني ذلك مستظهرا بآله من الشيبانيين ومن بكر بن وائل • والظاهر ان البكريين لم يكتفوا بالمعارضة الصامتة فقاموا بالاغارة على السواد وعاثوا فيه ومعهم حلفاؤهم من الشيبانيين • وهنا قرر كسرى عقاب البكريين فجمع لهم جموع أتباعه من العرب ، من : تغلب ونمير واياد وقضاعة الجزيرة ، وذلك تحت قيادة إياس بن قبيصة الطائي الذي خرج بكتيبتي الشهباء والدوسر ، كما بعث حشدا من جنوده النظاميين المعروفين بالاساورة بقيادة : هامرز وخنابرين ، وقرر مفاجأة خصومه عندما ينزلون بماء قريب من موضع الكوفة يعرف بـ « ذوقار » •

واحتشد البكريون مع حلفائهم من بني يشكر وبني تيم اللات وبني عجل ، وعلى رأس الاخرين سيدهم حنظلة بن ثعلبة • وبعد أن تعاهد القوم على حسن القتال ، وزع هانىء بن قبيصة عليهم ما كان عنده من سلاح النعمان ، واصطف العرب للقتال في مواجهة قوات الفرس ، فكان بنو عجل في الميمنة في مواجهة قوات خنابرين وبنو شيبان في الميسرة مقابل قوات هامرز ، بينما وقف البكريون من بني يشكر وتيم اللات وغيرهم في القلب ، وخلفهم وقف نساء بكر لاثارة الحماس فيهم •

وبدأ القتال بالمبارزات الفردية بين فرسان الاساورة ، ممن يضعون الاساور في أيديهم وأقراط اللؤلؤ الكبير في آذانهم وبين شجعان بني يشكر الذين تميزوا على خصومهم في الضرب بالرمح • وعندما بدأ القتال فزع بعض بني قيس بن ثعلبة من البكريين من هول نظام الجيش الفارسي وسلاحه • ويرجع الفضل الى حنظلة بن ثعلبة الذي نجح في تقويم الموقف فحرض البكريين على الثبات وحسن القتال ، فلم ينتصف النهار حتى انهزم الجيش الفارسي وفر ومن معه من العرب تاركا خنابرين وهامرز مجندلين في أرض المعركة ، كما قتل زيد بن عدي ، كاتب كسرى • وتبع البكريون خصومهم المنهزمين الى السواد وهم يقتلونهم قتلا ذريعا وعادوا بالمغانم والاسلاب الكثيرة • تلك هي الموقعة المعروفة بذي قار التي يمكن التأريخ لها بصيف ٦١٠ م • أو ٦١١ م •

ولما كانت هذه الموقعة أول نصر كبير يحققه العرب على الفرس ، فقد رفعت من معنوياتهم وأكدت بينهم الشعور بالقومية حتى قيل ان النبي عندما سمع بها ، قال : « اليوم انتصفت العرب من العجم ونصروا » (١) •

وبعد انتصار العرب قررت حكومة فارس أن تحكم الحيرة حكما مباشرا فعهد بها الى موظفين من الفرس دون الاستعانة بالعرب ، منهم زاديه أو زادويه الذي حكم لمدة ١٧ (سبع عشرة) سنة • وكان ذلك يعني استقلال عرب وسط الجزيرة عن امارة الحيرة ، وانكشاف حدود فارس أمام العرب المسلمين بعد ذلك بقليل •

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٨ ، ده برسفال ، ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها ، ص ١٨٠ •

ويتصل بتاريخ كل من امراء غسان وملوك الحيرة تاريخ قبائل كندة التي هاجرت هي الاخرى من اليمن ، وكونت لها ملكا في نجد ، وشمالا في أرض معد • ويختلف الكتاب العرب في أصل كندة وهل هي من القبائل القحطانية أم العدنانية ، ولكن الذي يفهم من كتاباتهم أن القبيلة عريقة في يمنيتها ، وانه كان لها أرضها التي عرفت بها في شرق اليمن بين حضرموت ونجران واليمامة • ولا بأس من أن يكون اختلاف الكتاب في نسبتها الى عرب الجنوب أو عرب الشمال قد حدث بعد أن استقرت القبيلة في نجد ووثقت علاقاتها بالعدنانيين ، بعد أن بسطت سلطانها على بادية الحجاز حتى عرفت عند الكتاب العرب باسم « كندة الملوك » [1] •

وأرض كندة في اليمن كانت مما يلي حضرموت ، بينها وبين أرض مذحج • أما عن سبب هجرتها الى أرض معد فهو الصراع الذي قام بينها وبين قبائل حضرموت الذين تفوقوا على الكنديين وأجلوهم عن البلاد وهذا أمر مقبول بالنسبة لتاريخ قبائل اليمن على مر العصور • وهناك تعليل آخر تقدمه الروايات العربية ، وهو يربط بين تاريخ كندة في الحجاز وتاريخ دولة حمير ، اذ تقول ان حجر بن عمرو الكندي ، الامير المشهور بآكل المرار [2] ، كان أخا لحسان بن تبع لأمه ، وأنه بعد أن خرج حسان لغزو بلاد العرب وهم بالعودة من الحجاز الى اليمن ولى أخاه حجرا على قبائل معد بن عدنان ، فنجح في ولايته وأحسن السيرة في رعيته حتى لم ضوا به وبآله بديلا •

(١) انظر الهمداني ، الاكليل ط. الاكوع ، ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٤ •
(٢) تشبيها له بالجمل الذي يزبد فمه بعد أكل نبات المزار (ده برسفال ، ج ٢ ، ص ٢٦٧) •

والحقيقة انه يمكن التوفيق بين الروايتين • فالاولى تمثل البداية الاولى في تاريخ كندة وكيفية هجرتها من اليمن الى نجد ، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين في أرضهم الجديدة وكيف كونوا لهم امارة في نجد ، وهي التي تمثل التاريخ الحقيقي لكندة • يفهم هذا من القوائم التي تعدد ملوك كندة ، فتقول انه ولى كندة قبل حجر بن عمرو آكل المرار ستة من الملوك الذين توارثوا الملك والذين لا يعرف الكتاب عنهم أكثر من أسمائهم : وهم : مرتع بن معاوية بن ثور (أولهم) ، وثور بن مرتع ، ومعاوية بن ثور ، والحارث بن معاوية ، ووهب ابن الحارث (آخرهم) [1] •

حجر بن عمرو : (٤٨٠ ــ ٥٢٨) ؟

ثم يأتي دور حجر بن عمرو آكل المرار الذي يرى البعض أنه أول ملوك كندة ، وربما كان ذلك بناء على ما رأوه تقليدا شرعيا بالولاية من قبل ملك العرب الاكبر ، حسان بن تبع الحميري • هذا ، الى جانب ان حجرا يمكن ان يعتبر أول شخصية تاريخية في قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان اليها • فقد كانت ولايته حوالي سنة ٤٨٠ م • وكانت له حروبه مع اللخميين التي انتهت بأن استخلص ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل • كما كانت له وقائع مع الغسانيين ، فيقال ان الحارث الغساني أغار عليه واستولى على أمواله ، ولكنه نجح في استنفاذها منه• وتوفي حجر حوالي سنة ٥٢٨ م [2] •

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، حمزه الاصفهاني ، ص ٩٢ ، وانظر الهمداني ، الاكليل ، ج ٢ (ط. القاهرة) ، ص ١٤ (ثور هو كندة) ، زيدان ، ص ٢٤٣ •
(٢) انظر جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢٥ ، وقارن زيدان ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ وهوامش مؤنس •

ولي بعد حجر ابنه عمرو الذي لا نجد له ذكرا كثيرا عند الكتاب • وهو يعرف بلقب المقصور (أي المبتور) بعد أن خرجت عليه قبائل معد • وهناك روايات يفهم منها انه كان له أخ يسمى معاوية ، ويعرف بالجون لسمرته ، ساد على بلاد اليمامة • وربما كان ذلك بمعونة من ملك حمير الذي ظل بنو آكل المرار يدينون له بالولاء • أما هو فتذكر له غزوة في أرض الشام الى جانب حلفاء له من قبائل ربيعة ، وفيها لقي مصرعه على يدي الحارث بن جبلة الغساني [١] •

وعلى عهد الحارث بن عمرو بن حجر وصلت مملكة كندة الى ذروة مجدها ، وذلك أن ملك كندة اتسع الى جانب اليمامة وأرض بكر بن وائل التي كانت خاضعة للخميين ، فشمل مملكة الحيرة نفسها ، وذلك عندما ظهرت المزدكية وافتتن بها ملك الفرس قباذ فكان ذلك سببا في سوء علاقته بالمنذر بن ماء السماء • فلقد ظاهر الحارث كسرى قباذ الذي عهد اليه بالحيرة بقية أيامه، الى أن ولى أنوشروان فعاد المنذر الى مملكته[٢] • وتقول الروايات أن المنذر بن مـاء السماء تزوج هندا بنت الحارث بن عمرو التي غلب اسمها على ابنها عمرو بن المنذر ملك الحيرة فأصبح مشهورا عند العرب بـ « عمرو بن هند » ، وهي شقيقة « الملك قابوس» وعمة الشاعر الكندي المشهور امرىء القيس • والظاهر أن هذه الفترة

---

(١) حمزه الاصفهاني ، ص ٩٢ ، جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ ، وانظر ده برسفال ، ج٢ ، ص ٢٦٩ (وهو يقدم تواريخ الكنديين حوالي ٣٠ سنة) .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٢٢ ، وابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

التي سادت فيها كندة على مملكة الحيرة لم تطل الى أكثر من ثلاث سنوات (من ٥٢٥ م • الى ٥٢٨ م) [١] •

وتقول الروايات ان الحارث انتهز هذه الفرصة وقوى من شأن أسرته ففرق أبناءه ملوكا على القبائل (كما فعل يعرب قديما بالنسبة لاخوته) ، ليحسموا ما كان فيها من الفتن ، على الوجه الآتي — بصرف النظر عن الاختلاف في الروايات بالنسبة لترتيب الولاة أو القبائل :

- حجر بن الحارث ، على : قبائل أسد وغطفان فيما بين المدينة والفرات — جنوب جبلي طيء (جبل شمر حاليا) •
- شرحبيل ، على : بكر بن وائل وحلفائهم من زيد مناة وتميم والرباب وبني سعد •
- معدي كرب ، على : قيس عيلان وحلفائهم من كنانة •
- سلمة ، على : تغلب والنمر بن قاسط والنمر بن زيد مناة •
- عبد الله ، على : عبد القيس •
- قيس ، على : أي قوم نزل بهم فهو ملكهم (فهو سيارة) [٢] •

والظاهر أن ملك هؤلاء لم يستتب طويلا بعد عودة المنذر الى مملكته اذ تقول الروايات ان ملك الحيرة نجح في التخلص منهم جميعا • فقد أوقع بينهم وقتلهم في عنف وغلظة في مواقع تعتبر من أيام العرب المشهورة ، مثل مقتلة بني آكل المرار في ديار بني مرينا التي قال فيها امرؤ القيس [٣] •

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، زيدان ، ص ٢٤٤ وما بعدها مع هوامش مؤنس .

(٣) انظر زيدان ، ص ٢٤٥ ، جويدي ، ص ٢٩ (الترجمة الفرنسية ، هامش ٢ : النص العربي) .

ألا يا عـين بكـي لي شنينـا — وبكي لـي الملـوك الذاهبينا
ملوك من بني حجـر بن عمرو — يساقـون العشية يقتلـونـا
فلو في يوم معركـة أصيبـوا — ولكـن في ديار بني مرينـا
ولم تغسل جماجمهم بغسـل — ولكـن في الدمـاء مـرملينـا
تظـل الطير عاكفـة عليهـم — وتنـزع الحـواجب والعيونا

والظاهر أن هذه المقتلة هـي التي عرفت بيوم خزاز ، وهي التـي يقول فيها الاخباريون انها أول يوم استنصفت فيه نزار من اليمن ، وانها لم تزل منذ هـذا اليوم قاهرة لليمـن في كل يـوم يلتقونه حتى جـاء الاسلام [1] .

ومثل وقعة جبل أواره التي قتل فيها يزيد بن شرحبيل وقبائل مـن بكر بن وائل في مذبحة مروعة سالت فيهـا دماؤهم من قمة الجبل الـى الحضيض . وتسمى هذه المذبحة بيوم اوارة الاول [2] .

ولقد ذاعت أخبار حجر بن الحـارث بفضل ابنـه الشاعر المشهور امرىء القيس وكذلك الحال بالنسبة لاخبار كندة على العموم .

فقد هام امرؤ القيس في أحياء العرب لاعبا لاهيا ، وكان في حضرموت عندما أتاه خبر مقتل والـده بأيدي بني أسد الذين ثاروا عليه ــ ممـا يمكن أن يعني أن الكنديين كانوا قد عادوا الى ديارهم الاصلية في اليمن بعد أفول نجمهم في نجد والحجاز . وفي مقتـل والده قال امرؤ القيس مقالته التي ذهبت مثلا : « اليوم خمر وغدا أمر » .

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ .
(٢) زيدان ، ص ٢٤٥ .

وتقول الروايات انه ذهب في تجوالـه ــ وهو يستصرخ القبـائل ويطلب المعونة للثأر لأبيه أو وهو يفر من طلب المنذر ملك الحيرة ــ حتى القسطنطينية حيث هلك بأرض الروم فيما بين سنة ٥٣٠ م وسنة ٥٤٠ م، ودفن بأنقـره [1] .

وخلال سياحته هذه اتصل بالسموأل (صمويل) صاحب حصـن الابلق في تيماء الذي سعى له لدى الحارث بن جبلة الذي أوصله الـى قيصر . والسموأل هو الذي أودع لديه امرؤ القيس أمواله وأدراعه ، وهو الذي ضرب به المثل في الوفاء بعد أن فضل قتل ابنه على التفريط في دروع الشاعر الكندي عندما طلبها الحارث بن جبلة الغساني [2] .

وهكذا انفرط عقد ملوك كندة من بني آكل المرار الذين سادوا فيما بين الفرات والشام والحجاز ، فعادوا الى موطنهم الاصلي في اليمن حيث ساد منهم قيس بن معديكرب ثم ابنه الاشعث بن قيس الذي حضر الى النبي في ٦٠ (ستين) أو ٧٠ (سبعين) من أشراف كندة ، فأسلموا على يديه في المدينة [3] .

الخـلاصـة :

وهكذا نكون قد استعرضنا تاريخ العرب القديم في الاقاليم الواقعة على أطراف جزيرة العرب ، ومنه نستطيـع أن نستخلص أن الممالـك العربية التي عرفتها البلاد كانت في معظمها من أعمال العرب الجنوبيين أو عرب اليمن ، سواء كانت في جنوب الجزيرة أو في شمالها .

---

(١) انظر ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، جواد علي ، ج ٣ ص ٣٦٠ .
(٢) نولدكه ، أمراء غسان (الترجمة) ، ص ٢٢ .
(٣) حمزه الاصفهاني ، ص ٩٣ ، ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ (يشير الى ارتداده وهزيمته ايام ابي بكر) .

ومن هذا العرض نستخلص أن العرب على عكس ما يمكن ان يظن من أنهم كانوا يحيون حياة منعزلة في بواديهم وصحراواتهم ، عرفوا حياة الحضارة المتفتحة على العالم الخارجي بفضل العلاقات التجارية الواسعة المدى ، وبفضل العلاقات السياسية والحربية مع الدول العظمى التي أحاطت ببلادهم في فارس والشام وما وراءها في مصر وروما والقسطنطينية .

وبذلك لا يبقى أمامنا الا تاريخ العرب في مهد الاسلام ، أي في بلاد الحجاز . واذا كان العرب هناك لم يعرفوا الممالك والدول مثل اخوانهم في اليمن والعراق والشام فان محافظتهم على عروبتهم الاصيلة ، وما تمثله من الصفات والسجايا، من: الحفاظ على النقاء العرقي والشجاعة والفروسية والحمية والجود بكل شيء حتى النفس ، هي التي ميزتهم على اخوانهم الذين أصابتهم حضارة الفرس والرومان . وهكذا كان عرب الحجاز ونجد مهيئين أكثر من عرب فارس والشام ــ الذين رفض الاصطخري اعتبار بلاد بعضهم من أرض العرب ، لانهم خضعوا للاجانب ودخلوا في النصرانية ــ لحمل رسالة الاسلام وتكوين الدولة العربية الكبرى .

ومع ذلك فالفضل لعرب الاطراف في فتح نوافذ العالم أمام عرب الحجاز عندما خرجوا يحملون رسالتهم الى العالم . واذا صح ذلك كان من الطبيعي أن يكون تاريخهم ــ بدوره ــ مقدمة لتاريخ عرب الحجاز قبل الاسلام ، وهو ما سنحاول معالجته الآن ، كما اعتبرنا تاريخ جميع العرب القديم مقدمة عامة لتاريخ الاسلام .

الفصل السادس

العرب المستعربة

العرب الشماليون : العدنانية او النزارية

بعد أن استعرضنا تاريخ عرب اليمن العاربة وما أقاموه من الدول في جنوب جزيرة العرب وفي شمالها ، نحاول التعريف بعرب الشمال من العدنانية أو النزارية المعروفين بالمستعربة أوالاسماعيلية . وهم يسمون عند الكتاب المحدثين بعرب الشمال نسبة الى موقع بلادهم الاصلي شمال اليمن أي في نجد وفي الحجاز ، فليس المقصود الشمال على اطلاقه اذ ان عرب اليمن الجنوبيين سكنوا الاقاليم الشمالية من الجزيرة ، منذ العصور القديمة ــ كما رأينا .

شجرة النسب العربية :

وحسب شجرة الانساب العربية يرجع عرب الشمال جميعا الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل بعد أن نزل الحجاز وتربى بين العرب العاربة من جرهم هناك ، وتكلم بلسانهم ثم تزوج منهم وأنجب كل أولاده من زوجته أو زوجاته الجرهميات . وعن هذا الطريق أصبح عرب الشمال في الحجاز ونجد مستعربة ، كما أصبحوا اسماعيلية . وعن هذا الطريق أيضا صار عرب الجنوب من اليمنية اسماعيلية أيضا عن طريق زوجة اسماعيل

الجرهمية ، وأصبح ابراهيم أبا العرب جميعا • فهذا ما يفهم من رواية عبيد بن شرية الجرهمي الذي يقول لمعاوية : ان جميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، ويقول عن ابراهيم : هو أبونا وأبوكم فنحن ولدناكم وأنتم منا ونحن منكم ، مما أثار معاوية الذي رد على عبيد قائلا : كأنك تحدث عن حديث الجاهلية ! وكان رد عبيد : يا أمير المؤمنين لك في الاسلام ما يغنيك عن ذلك فقد محق الاسلام ما كان قبله [١] •

العلاقة بين القحطانية والمعدّية :

واذا كان الباحثون المحدثون من المستشرقين يميلون الى القول بأن تقسيم العرب الى مجموعتين كبيرتين احداهما عرب الجنوب من القحطانية والاخرى عرب الشمال من العدنانية هو من عمل الاخباريين والنسابة المسلمين ، كنتيجة طبيعية للصراع بين اليمنية والقيسية في صدر الاسلام ، وهو الامر الذي له نصيبه المحدود من الصحة — على كل حال — فان رواية عبيد تبين أن هذا التقسيم للعرب كانت له جذوره القديمة • وفي ذلك يروي النسابة ان النبي كان يسأل عمن كان في مجلسه من معد ، وانه كان يعرف أن عقبة بن عامر الجهني من قضاعة من حمير ، بينما كان الجهني يظن نفسه من معد [٢] • وهكذا يمكن أن تعتبر رواية عبيد أول مرحلة من الربط بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، الى أن تظهر الرواية العربية — المتأثرة بالاسرائيليات — والتي جعلت كلا من القحطانية والمعدية (أو العدنانية) ينحدرون من ولدي اسماعيل ، وهما

(١) اخبار عبيد ، ذيل التيجان ، ص ٣١٥ •

(٢) الهمداني ، الاكليل ، ، ج ١ (ط• ليدن) ، ص ٦٧–٦٨ •

نقطن الذي يظن أنه قحطان ، والآخر قيدار (أو قيذار) أو نابت الذي يظن أنه جد العدنانية [١] •

شجرتا النسب :

وهكذا يصبح لدينا — بصرف النظر عن الاختلافات التفصيلية — شجرتان للنسب احداهما تعالج كلا من القحطانية والعدنانية على حدة ، والاخرى تعالجهما على انهما فرعان لأصل واحد هو اسماعيل ، وهذا لا يغير من الاتجاه العام شيئا • ففكرة أن اسماعيل هو أبو المستعربة من العدنانية ، وأنه أبو العرب جميعا مقبولة من حيث أن العدنانية هم العرب الذين احتفظوا بعروبتهم خالصة لأنهم لم يخالطوا الشعوب الاخرى ، كما حدث في أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية ، ولم يخضعوا لها ، مما جعل الاصطخري لا يدخل أرض عرب الجزيرة ، فيما وراء الفرات ، ضمن أرض العرب لان أهلها خضعوا للروم وللفرس ، كما سبقت الاشارة •

والمهم — على كل حال — هو أن النسابين العرب اتفقوا على انتساب

(١) انظر المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ، ص ٤٤ وما بعدها) حيث يعرض الاختلاف في أنساب قحطان والذي يمكن تلخيصه في ثلاثة آراء :

١ — القول ان قحطان من ولد اسماعيل وهي نظرية التوفيق الاسلامية •

٢ — رفض اليمنية ان يكون قحطان من ولد اسماعيل الذي كان سرياني اللسان •

٣ — رفض النزارية ان يكون اسماعيل قد نشأ على لغة جرهم لاختلاف كل من اللسانين ، وما ينبغي ان يكون للغة القرآن من شأن كبير ، وانظر الهمداني ، الاكليل ، ج ١ ، ص ٤٤ •

العدنانية الى اسماعيل ، ولو أنهم اختلفوا في عدد الآباء بين عدنان واسماعيل ، فجعلوه ما بين ٢٠ (عشرين) و ٤٠ (أربعين) أبا [١] • أما الابن المباشر لعدنان فهو معد ، وهو البطن العظيم ، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم ، ولهذا عرف العدنانية بالمعدية • وتقول الروايات القديمة التي تنسب الى ابن الكلبي ووهب بن منبه أن معدا كان له ولدان : أحدهما قنص والآخر نزار اللذان تنازعا فخرج نزار الى الحيرة ، وقيل ان النعمان بن المنذر من نسل نزار هذا [٢] ، ومن نزار خرجت البطون الكبرى من أولاده الاربعة ، وهم اياد ومضر وربيعة وانمار [٣] • ولهذا عرف العدنانية باسم النزارية أيضا •

ويتميز العدنانية عن القحطانية بأنهم بادية رحالة ، باستثناء قريش ، كما يقول ابن خلدون [٤] • وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير ، بمناسبة ما ذكره ابن اسحق من أن هاشم بن عبد المطلب هو أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف ان هذا غير صحيح : « لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لمراعي ابلهم ومصالحها ، لان معاشهم فيها ، وهذا معنى العرب وحقيقتهم انه الجيل الذي معاشهم في كسب الابل والقيام عليها في ارتياع المرعى وانتجاع المياه والنتاج والتوليد ، وغير ذلك من مصالحها ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٩٨

(٢) التيجان ، ص ٢١٢ •

(٣) التيجان ، ص ١٨١ ، ٢١٢ ، وقارن ابن خلدون الذي اخذ بالرواية التي تقول ان نزارا هو قنص وان أولاد قنص ربيعة ومضر ، ج ٢ ، ص ١٩٩ • وفي نسبة اياد وانمار الى اليمنية أنظر الهمداني ، الاكليل ، ج ١ (ط. ليدن) ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٧ (التنازع في نسب انمار واياد وربيعة ومضر) •

(٤) العبر ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ •

والفرار بها من أذى البرد عند التوليد الى القفار ودفئها ، وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء ••• وهو معنى العروبية وشعارها »[١]• والذي يقوله ابن خلدون هنا ينطبق ، بطبيعة الحال ، على النزارية دون غيرهم ، وذلك راجع الى طبيعة مواطنهم في نجد التي تمتد مسيرة شهر من اول جبل السروات (السراة) ، فكأنه يعتبر الحجاز بمعنى جبال السروات الحاجزة من نجد • فهو يقول : اذا دخلت في أرض الحجاز فقد انجدت • ونجد التي تشغلها مواطنهم تبدأ من جهة تهامة الحجاز حيث جبل حضن المتصل بالطائف والمعروف بأنه أعلى قمة في نجد حتى أن النسور تبيض فيه • ويدخل في مواطنهم أرض تهامة من الحجاز مما يلي بحر القلزم (الاحمر) في سمت مكة والمدينة نحو الشمال حتى تيماء وأيلة (العقبة)• وفيما وراء امتداد جبال السروات تمتد برية نجد شرقا نحو سهول العراق ، وهي تتصل جنوبا باليمامة وعمان ، كما تتصل بالبحرين ثم بأرض البصرة في اتجاه الشمال • وفي هذه البرية مشاتي العرب التي تشتو بها والتي اختص بها بنو عدنان [٣] ، وذلك أن أسفل نجد غور في الشتاء بارد [٣] •

ورغم ما يقوله ابن خلدون من أن رعي الابل وتناجها وتوليدها هو

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ ، وقارن نظرية المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٤ — ١٠٠) في سكنى البدو من العرب وغيرها من الامم المتوحشة كالترك والكرد والبجة والبربر ، ومن تقطن بالبراري وقطن الجبال ، والعلةالموجبة لذلك من فعلهم ، وهي التي الهمت ابن خلدون ، كما نظن ، نظرياته في العمران البدوي ، وفي العصبية التي تقوم عليها الدولة •

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ •

(٣) التيجان ، ص ٢٧٩ •

معنى العرب والعروبية ، فقد فرق الكتاب القدامى بين القبائل والشعوب العدنانية حسب نشاطاتها الاجتماعية والحرفية . ففي ذلك يقول محمد بن السائب الكلبي ومن ينقل عنه من الكتاب ، أن نزارا أوصى – قبل وفاته – لابنائه الاربعة بتركته فجعل لاياد أكبرهم العصا والحلة ، أو الخف والظلف ، ولمضر القبة الحمراء من الأدم ، ولربيعة الفرس والقنا ؛ بينما جعل لانمار الارض أو أمة سوداء والحمار [1] . وهذه القصة – التي تروى بشكل آخر ، فتقول : ان الاخوة تنازعوا في ميراث أبيهم وان الذي حكم في الخلاف ووزع الميراث بهذا الشكل هو حكيم نجران الافعى بن الحصين الجرهمي – تقرر أن قبائل اياد اشتهرت بالابل والماشية وان مضرا كان لها السيادة على العدنانية بفضل ابلها من المهارى [2] السريعة العدو والتي حققت لهم التفوق على غيرهم من القبائل ، واشتهرت ربيعة بانهم فرسان محاربون بفضل نتاجها من الخيل الكريمة ، بينما تخصصت قبائل أنمار في الزراعة وتربية الغنم ، وعرفت غنمها بأنها أكرم الغنم . ولهذا سميت مضر الحمراء ، وربيعة الفرس [3] . والحقيقة ان الكتاب متفقون على أن مضرا وربيعة هما البطنان العظيمان لنزار . ولذلك فهما « الصريحان » من ولد اسماعيل عند النسابة [4] . أما اياد الذين ساروا الى العراق وانمار فمشكوك في أنها من النزارية [5]، وكذلك

---

(١) التيجان ،ص ١٨١ ، ٢١٢ ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٩ – ٩٠ .
(٢) التيجان، ص ٢١٣ ، وانظر البلاذري، انساب الاشراف، ص ٢٩ .
(٣) التيجان ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ، وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ ، وابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .
(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٢٤ .
(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ ، وانظر الهمداني ، الاكليل ، ج ٢ ، (ط . ليدن) ،ص ٧١ (حيث يضع انمار بين قبائل قضاعة التي يؤكد نسبها الحميري) .

الحال بالنسبة لقبائل عك التي استقرت في زبيد من اليمن والتي قيل انها من الازد [1] .

قبائل ربيعة ومضر وفروعها :

هكذا ، وفي اطار المسميات الاصطلاحية التي يستخدمها علماء النسب ، والتي تجعل تفرعات القبائل تتوالى في حوالي عشر درجات أو طبقات تبدأ بالأصل الذي يرجع الى عدنان أو قحطان ويعرف بالجذم تليه الطبقة التي تعرف بالجماهير ثم القبيلة والعمائر والبطون والافخاذ والحبال والعشائر والفصائل وآخرها الرهط ، وهم رهط الرجل وأسرته [2] ، انقسم عرب الشمال من العدنانية الى مجموعتين كبيرتين ، هما : ربيعة ومضر . وهؤلاء كانوا قد هاجروا قبل الاسلام الى أقصى الشمال حيث استقروا في حوض الفرات وأعطوا اسمهم الى مواطنهم الجديدة في ديار ربيعة وديار مضر ، ومنهم تفرعت قبائل عديدة .

ربيعة :

واذا أخذنا برواية ابن خلدون الذي جمع معظم ما كتبه سابقوه في هذا الشأن ورتبه حسب طريقته المنهجية التي تشهد له بالبراعة والموهبة . فان ربيعة تنقسم الى : ضبيعة وأسد ، ومن أسد تتفرع عنزة وجديلة ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، وانظر القلقشندي ، قلائد الجمان، ص ١٠٢ .
(٢) أنظر الهمداني ، الاكليل (ط. ليدن) ، ج ١ ، ص ٦ ، وانظر سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، لابي الفوز محمد امين البغدادي السويدي الذي نخص فيه كتاب القلقشندي المصري المعروف بـ « نهاية الارب في معرفة انساب العرب » ط. القاهرة ، ١٩٥٩ ، تحقيق الابياري ، ص ١٣–١٤ ، وشجره في جداول طريقة تسهل على الباحث تتبع الانساب . طبعة المكتبة التجارية بمصر ، الباب الثالث ، ص ٧ . وانظر القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص ١٥ – ١٦ .

ومن جديلة عبد القيس وهنب ابنا أفصى ، ومن هنب : النمر ووائل • ووائل بطن عظيم أشهرهم بنو تغلب وبنو بكر بن وائل [1] •

ومن بني تغلب الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم (وأمه هند بنت مهلهل) الذي قتل عمرو بن هند اللخمي ، كما سبق ، وهو الذي قتل شرحبيل بن آكل المرار يوم الكلاب • ومنهم كليب بن ربيعة الذي قتله جساس أخو زوجته فكان سببا في حرب البسوس بين تغلب وبكر وهي التي استمرت أربعين عاما • ومن تغلب في الاسلام الوليد بن طريف بن عامر الخارجي الذي رثته اخته ليلى بقولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

وأما بكر بن وائل وهم من قبائل العدنانية المشهورة بعددها وأعمالها ، فمنهم : يشكر بن بكر ، وبنو عكابة بن صعب ، وبنو حنيفة ، وبنو عجل بن لجيم •

ومن بطون حنيفة بنو الدول • ومن حنيفة عمرو بن عمرو قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ • ومنهم تمامة بن أثال من بني الدول

---

(1) انظر ابن خلدون ، ج ٢ ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣ . ورغم انه من المعروف عن النسابة ان ربيعة من أشهر قبائل النزارية فان الهمداني في الاكليل (ج ١ ط. ليدن ، ص ٨٣) يشير الى عدد من قبائل اليمنية ، من : خولان ، وهمدان ، التي كانت تحمل اسم ربيعة ، مثل : ربيعة بن سعد التي عرفت بالربيعة (ليفرقوا بينها وبين ربيعة بن نزار) ، وربيعة بلحرث ، وربيعة وادعة .

الذي كان يملك اليمامة عند ظهور الاسلام والذي ثبت على اسلامه عند الردة • ومنهم محلم بن سبيع الذي ناصر مسيلمة الكذاب ، كما كان منهم نافع بن الازرق أمام الخوارج المشهور •

أما بنو عجل فهم الذين هزموا الفرس يوم ذي قار •

وينقسم عكابة الى ثلاثة بطون عظيمة ، هي : تيم الله وقيس ابنا ثعلبة ثم شيبان ابن ذهل بن ثعلبة • وبنو شيبان هؤلاء كانت لهم كثرة في صدر الاسلام • وكان سيد شيبان في الجاهلية هو مرة بن ذهل الذي أنجب عشرة أولاد نسلوا عشر قبائل ، ومنهم همام وجساس قاتل كليب • ومن ولد جساس ، بنو الشيخ ومنهم : هانىء بن مسعود الذي رفض ان يسلم وديعة النعمان ملك الحيرة الى كسرى ابرويز ، فكان ذلك سببا في يوم ذي قار ، والمثني بن حارثة صاحب الفتوح في سواد العراق • هذا كما ظهر كثير من الخوارج منهم ، مثل : الضحاك بن قيس الخارجي الذي بويع له أيام مروان بن محمد آخر الامويين ، وعمران بن حطان الذي كان من أعلام الخوارج •

مضر (1) :

تمثل قبائل مضر الكثرة الغالبة من العدنانية بالحجاز ، وكانو ينقسمون الى فخذين كبيرين ، هما : خندف وقيس • وخندف هم أبناء الياس الثلاثة ، وهم : مدركة ، وطابخة ، وقمعة سموا باسم أمهم خندف• وقيس تفرعت بدورها الى ثلاث بطون : كعب وعمرو وسعد • والظاهر

---

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ ، وانظر البلاذري ، انساب الاشراف، ص ٣٠ .

أنهم كانوا قد بلغوا من القوة والعدد في صدر الاسلام حتى أصبحوا يمثلون العدنانية في مقابل الكلبية الذين مثلوا اليمنية ، وخصوصا في الشام •

القيسية (١) :

فمن عمرو بن قيس تفرع بنو فهم وبنو عدوان • ومن عدوان كان عامر بن الظرب حاكم (حكم) العرب في الجاهلية ، كما كان منهم أبو سيارة الذي ظل يدفع بالناس في موسم الحج طوال أربعين سنة •

ومن سعد بن قيس ، قبائل : غني وباهلة وغطفان ومرة •

وبنو غطفان بطن عظيم كثير الشعوب والبطون ، منهم : أشجع وعبس وذبيان • وأشجع هم عرب المدينة يثرب وكان سيدهم معقل بن سنان الصحابي • ومنهم نعيم بن مسعود واليه ينسب الفضل في تشتيت الاحزاب عن المدينة يوم الخندق •

أما بنو عبس (٢) فكان الشرف فيهم لبيت عدة بن قطيعة الذين كان منهم الربيع بن زياد وزير النعمان ، ومنهم زهير بن جذيمة الذي ساد على قبيلة غطفان • ومن أشهر أبنائه قبس الذي خلفه في رئاسة قبيلة عبس ، وابنه زهير هو صاحب الرهان على الفرسين داحس والغبراء مع حذيفة بن بدر رئيس فزارة والتي أدت الى الحرب بين عبس وفزارة • ومن

---

(١) نفس المصدر . وانظر ، القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٤٠٣ (حيث يوجد بطن من لخم القحطانية يسمى ببني قيس) .

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

عبس الصحابي المشهور حذيفة بن اليماني ، ومنهم عنترة بن معاوية بن شداد الفارس المشهور ، وأحد الشعراء الستة في الجاهلية • وعلى أيام ابن خلدون لم يكن يوجد من عبس بنجد أحد ولو أنه كانت هناك أحياء من زغبة من بني هلال الذين ينتسبون الى عبس •

ذبيان (١) : ولذبيان ثلاثة بطون ، هي : مرة وثعلبة وفزارة •

وفزارة تتفرع الى خمسة شعوب : عدى وسعد وشمخ ومازن وظالم • وكانت الرياسة في الجاهلية في بيت بدر بن عدي فهم اذن كانوا يرأسون كل قبائل غطفان ، ومن ثعلبة كان حذيفة بن بدر صاحب الرهان على جري داحس والغبراء • ومن ولده كان عيينة بن حصن الذي قاد الاحزاب الى المدينة في حرب الخندق سنة ٥ هـ • وهو الذي اغار على المدينة عقب بيعة أبي بكر بالخلافة ، وكان الرسول يسميه « الاحمق المطاع » •

ومن ذبيان بنو مرة بن عوف وكان سيدهم في الجاهلية هو هرم بن سنان الذي مدحه زهير بن أبي سلمى ، ومنهم الحارث بن ظالم الذي اشتهر بالفاتك لانه فتك بخالد بن جعفر بن كلاب ، والذي انتقم منه النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقتل ابنه • ومن بني مرة مسلم بن عقبة بن رباح قائد يزيد بن معاوية الذي استباح المدينة يوم الحرة •

أما خصفة بن قيس فتتفرع منها بطنان عظيمان ، هما :

بنو سليم بن منصور وهوازن بن منصور وتتفرع منهم شعوب وبطون كثيرة •

---

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ، وقارن القلقشندي ص ٢٥٥ (حيث ابناء ذبيان : سعد وفزارة ومازن) .

ومن بني سليم [1] تفرع بنو ثعلبة وكان منهم عمرو بن عتبة بن منقذ الذي كان صديقا لرسول الله في الجاهلية والذي أسلم مع أبي بكر وبلال فكان يقول : كنت يومئذ ربع الاسلام • ومن بيوت سليم الشهيرة في الجاهلية بيت الشريد بن رباح من بني عصية ، وكانت منهم الخنساء وأخواها صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الشريد • وكان عمرو بن الشريد يمسك بيده ابنيه صخرا ومعاوية في موسم الحج ويقول : انا ابو خيري مضر ، ومن أنكر فليعتبر ، فلا ينكر احد • اما الخنساء فقصة حضورها حروب القادسية بأولادها مشهورة •

أما هوازن [2] (ومفردها هوزن ، وهو نوع من الطيور [3]) فلها بطون كثيرة ولكنها تتفرع من أجذام ثلاث ، ترجع الى بكر بن هوازن ، وهم : بنو سعد بن بكر وبنو معاوية بن بكر وبنو منبه بن بكر •

ومن بني سعد كانت مرضعة النبي حليمة بنت أبي ذويب بن عبدالله، ومن بناتها الشيماء التي أخذت في سبي هوازن يوم حنين فأكرمها الرسول وردها الى قومها •

ومن بني منبه قبيلة ثقيف [4] وهم بطن متسع ، منهم : عثمان بن

---

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨ ، القلقشندي ، نهاية الارب، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
(2) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٠٩ .
(3) انظر محمد جمعة ، النظم الاجتماعية ، ص ١١٠ .
(4) انظر انساب الاشراف للبلاذري (ص ٢٦) الذي يسجل عن حماد الرواية ما قيل من ان ثقيفا أصلها من بقايا ثمود ، وانهم من ولد ابي رغال ، الذي كان ملكا ظلوما غشوما للطائف او انه كان الدليل الذي قاد الفيل عند غزو الحبشة لمكة. ولذلك كانت العرب ترجم قبره، كما قيل ان النبي هو الذي أمر بذلك . وفي ذلك قال جرير :
آذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر ابي رغال . وقارن ابن هشام السيرة ، ج ١ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

عبدالله بن ربيعة صاحب لواء هوازن يوم حنين والذي قتل في المعركة • ومنهم معتب بن عوف جد عروة بن مسعود الذي بعثه الرسول الى قومه يدعوهم الى الاسلام فقتلوه • ومن سلالته أيضا الحجاج بن يوسف بن الحكم • ومن بني معتب : غيلان بن مسلمة الذي كانت له وفادة على كسرى ، والحارث بن كلدة طبيب العرب ، وابو عبيد بن مسعود بن عمرو قائد القوات العربية في موقعة يوم الجسر في حروب العراق ، وهو والد المختار بن أبي عبيد الثقفي المشهور في فتنة ابن الزبير بالعراق • ولقد اختلفت الآراء في ثقيف فقال البعض انهم من بقايا ثمود ، كما قال آخرون انهم من قبائل أياد •

ومعاوية بن بكر [1] بطون كثيرة ، منهم :

بنو نصر بن معاوية ، ومنهم : مالك بن سعد بن عوف قائد هوازن يوم حنين الذي أسلم بعدئذ وحسن اسلامه • ومنهم بنو سلول الذين عرفوا باسم أمهم سلول • ومن القبائل الكبيرة منهم : بنو عامر بن صعصعة التي تفرع منها أربعة بطون ، هم : نمير وربيعة وهلال وسوأة •

وتعتبر نمير احدى « جمرات » العرب • والجمرة (آي الصخرة) هي القبيلة التي انضمت فصارت يدا واحدة لا تنضم الى أحد ولا تحالف غيرها ، وتصبر في قتال من يقاتلها [2] • وكانوا معروفين بكثرتهم وعزتهم على ايام الجاهلية وفي الاسلام • ويسجل آبن خلدون انهم هلكوا على

---

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .
(2) جواد علي ، المفصل ، ج ٤ ، ص ٥١١ ، توفيق فهد ، التنبؤ العربي، ص ١٩٠ وهـ ١ (عن تاج العروس الذي يضرب المثل في ذلك بعبس عندما صبرت لقبائل قيس ، كما سيأتي في يوم داحس والغبراء) .

عهد الخليفة المعتز العباسي بعد أن كانوا قد دخلوا بلاد الجزيرة الفراتية .

وقبائل هلال بن عامر (1) اشتهرت بمشاركتها في حروب القرامطة ثم نقلتها الى مصر ثم الى المغرب حيث سجلت ملحمتها المشهورة في غزو بلاد القيروان بتحريض الوزير الفاطمي اليازوري . ولقد تفرعت قبائل هلال الى خمسة فروع ، هي :

شعبة ، وناشرة ، ونهيك ، وعبد مناف ، وعبدالله .

فمن بني عبد مناف كانت زينب ام المؤمنين بنت خذيمة بن الحارث، ومن بني عبدالله كانت ميمونة ام المؤمنين بنت الحارث بن جزن .

ومن أشهر بطون ربيعة بن عامر ثلاث ترجع الى ابنائه ، وهم : عامر ، وكلاب ، وكعب .

ومن عامر بن ربيعة خداش بن زهير بن عمرو ، وهو من فرسان الجاهلية وشعرائها . ومن بني كلاب (2) : ربيعة المجنون ، ولبيد بن ربيعة الشاعر المشهور ، كما يقال ان منهم شهر بن ذي الجوشن قاتل الحسين في كربلاء . ومن كعب بن ربيعة : الحريش بن كعب الصحابي المشهور . منهم : ليلى التي شبب بها قيس بن عبد الله بن عمرو الشاعر، مادح النبي. ومنهم قشير بن كعب ، ومرة بن هبيرة الذي وفد على النبي فولاه صدقات قومه ، وكلثوم بن عياض القشيري والي افريقية لهشام بن عبد الملك . ومن أعيان القشيريين بخراسان ابو القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة . ومن بني عقيل بن كعب : قبائل خفاجة بن عمرو الذين سكنوا العراق والجزيرة وأقاموا دولة في بادية العراق . ومن بني عامر بن عقيل:

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٠ — ٣١١ .

(2) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣١١ — ٣١٣ .

بنو عامر بن عوف الذين سكنوا البصرة وملكوا البحرين ثم اليمامة في القرن السابع الهجري .

وبذلك ينتهي عرض قبائل القيسية من مصر ، ويبقى القسم الاخر المعروف بخندف بن الياس بن مضر الذين انتسبوا الى أمهم خندف وهي من قبائل قضاعة التي يختلف الكتاب في وضعها بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية .

خندف (1) :

وبطون خندف ثلاث ، هم : مدركة وطابخة وقمعة .

ومن قمعة : أسلم وخزاعة

ومن خزاعة بطون كثيرة ، منهم : بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لحى ، والى جدهم عمرو بن لحى ينسب الكتاب عبادة الاوثان فيقولون : انه كان اول من غير دين اسماعيل ونشر عبادة الاصنام بين العرب ، وكانت منهم جماعة العباد بالحيرة . ومنهم عمران بن الحصين الصحابي ، وجويرية بنت الحارث ام المؤمنين ، وكثير الشاعر صاحب عزة وهو عبد الرحمن الاسود ، ودعبل وبنو الشيص الشاعران . ومن خزاعة سليمان بن صرد امير التوابين المطالبين بثأر الحسين ، كما كان منهم محمد بن الاشعث القائد العباسي المشهور .

والمعروف ان خزاعة كانت من القبائل الحليفة لقريش ، ولكنها دخلت

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، وقارن القلقشندي ، قلائد الجمان . ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٧٥ .

في عهد الرسول عام الحديبية . وكان نكث القرشيين لهذا العهد في السنة الثامنة للهجرة هو السبب في غزو النبي لقريش وفتح مكة .

وطابخة لها بطون كثيرة ، منها :

حنية ، والرباب ، ومزينة ، وتميم وفروع تميم الصغيرة مثل صوفة ومحارب . وتميم [1] (بن مر بن أد بن طابخة) من القبائل العظيمة ذات الفروع الكثيرة ، منهم :

بنو أسيد بن عمير ، ومنهم الصحابي ابو هالة هند بن زرارة ، وكاتب الرسول : حنظلة بن الربيع ، والحليم المشهور أكثم بن صيفي بن رياح .

وبنو مالك بن عمرو ، منهم : سلم بن أخوز صاحب شرطة نصر بن سيار وقاتل يحيى بن زيد بن علي زين العابدين ، وقطري بن الفجاءة الخارجي الازرقي . ومنهم مالك بن الريب صاحب القصيدة المشهورة التي نعى بها نفسه ، وبعث بها الى قومه أثناء وجوده في فتح خراسان على ايام عثمان بن عفان ، ومطلعها :

دعاني الهوى من أهل ودي ورفقتي   بذي الشيطين فالتفت ورائيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني   وأين مكان البعد الا مكانيا

وبنو امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم ، وكان منهم زيد بن عدي بن زيد صاحب (وزير) النعمان بن المنذر ملك الحيرة الاخير .

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣١٥ – ٣١٦ .

وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم [1] ، ومنهم :

بنو عطارد بن عوف الذي كان يجيز بأهل الموسم في الجاهلية ، بنو قريع بن عوف الملقب بأنف الناقة وهو الاسم الذي كان يغضب منه ابناؤه الى أن مدحهم الحطيئة ، بقوله :

قوم هم الانف والاذناب غيرهم   ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

ومن بني منقر بن عبيد كان قيس بن عاصم بن سنان الذي ولاه الرسول صدقات قومه ، وعمرو بن الاهتم الصحابي . ومن بني مجاشع بن دارم الاقرع كان الحتات بن يزيد بن علقمة الذي آخى الرسول بينه وبين معاوية بن أبي سفيان .

ومن بني الحارث الاعرج بن كعب كان زهرة بن جؤبة الذي ظهر في موقعة القادسية وقتل قائد الفرس الذي يعرف « بالجالينوس »، والذي قتله الخوارج من اصحاب شبيب الخارجي بعد ذلك .

ومن الخوارج الذين ظهروا في تميم ، عروة بن جرير بن عامر ، وهو من بني ربيعة بن مالك ، وكان اول خارجي قال مقالة الخوارج : « لا حكم الا لله » يوم صفين . ومن المعروف ان أباه كان نسبه الى امه . ومن بني الحارث بن يربوع ظهر الزبير بن الساحور امير الخوارج من الازارقة ، هو وأخواه عثمان وعلي . ومن بني صريم بن مقاعس ظهر كل من عبدالله بن اباض رئيس الخوارج الاباضية واليه ينسب مذهبهم ، وعبدالله بن الصفار رئيس الصفرية واليه ينسب مذهب الصفرية . ومن بني رياح

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٧ – ٣١٨ .

كان شبث بن ربعي بن حصين الذي أسلم ثم انه سار مع الخوارج ثم رجع عنهم تائبا كذلك كانت سجاح المتنبئة بنت أويس من بني العنبر بن يربوع التميميين ، كما كان منهم جرير الشاعر بن عطية بن الخطفي الذي قال في عصيانه على بني امية :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي   وخلفي تميم والفلاة أماميا

أما بنو مزينة (١) ، وهم بنو مر أد بن طابخة ، فهم في الاصل اخوان، هما :

عثمان وأوس وأمهما مزينة التي سمي بها جميع ولديهما • ومنهم :

زهير بن ابي سلمى وهو الشاعر الجاهلي المعدود من الشعراء الستة، وابناه بجير وكعب الذي مدح الرسول • ومنهم معقل بن يسار الصحابي المشهور ، وسويد بن مقرن بن عامر الذي استشهد يوم نهاوند •

والرباب : هم بنو عبد مناة بن أد بن طابخة ، ومن بنيه :

تميم ، وعدي ، وعوف ، وثور • ولقد سموا بالرباب لانهم غمسوا ايديهم في الرب عندما تحالفوا على بني حنبة •

واشتهرت قبيلة تميم بن عبد مناة بظهور الكثير من الخوارج بين ابنائها ، منهم : المستورد بن علقمة الخارجي الذي ظهر في الكوفة ايام كان على ولايتها المغيرة بن شعبة ، وقاتله معقل بن قيس الرياحي الشيعي ، وقتل

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٨ – ٣١٩ •

كل منهما الآخر • وابن باخمة ورد بن مجالد بن علقمة الذي حضر مع عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي وقتل • وقطام بنت شحمة بن عدي وهي التي تزوجها عبد الرحمن بن ملجم ومهرها قتل علي حسبما ينسب اليه :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة   وضرب علي بالحسام المصمم

وكانت قطام قد أضمرت حقدا عظيما لعلي بن ابي طالب الذي قتل أباها وعمها الاخضر يوم النهروان •

ومن بني عدي بن عبد مناة ، كان ذو الرمة الشاعر وهو غيلان بن عقبة بن بهس •

أما بنو ثور فكان منهم الفقيه الشهير سفيان الثوري •

وبنو ضبة بن أد كان منهم :

ضرار بن عمرو بن ملك وهو سيد بني ضبة في الجاهلية وهي الرئاسة التي ظلت في بنيه وكانوا ١٨ (ثمانية عشر) ولدا ذكرا شهدوا معه يوم القريتين • وابنه حصين بن ضرار كان مع السيدة عائشة في موقعة الجمل• ومن حفدته كان القاضي ابو شبرمة عبدالله بن شبرمة المعدود في قواد العباسيين والذي ولي مصر ايام المتوكل •

أما صوفه وهم بنو يغوث بن مر بن أد ، فكانوا يجيزون بالحاج في الموسم لا يجوز أحد حتى يجوزوا ثم أنهم انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية ، كما يسجل ابن خلدون ، فكأنهم من العرب البائدة • ورث اجازة الحاج منهم آل صفوان بن شحمة من بني سعد بن زيد مناة بن تميم •

وبذلك ينتهي عرض بني طابخة بن الياس ويأتي ذكر اخوتهم مدركة

ومدركة بن الياس (١) بطون كثيرة اكبرها :

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٩ • وانظر انساب الاشراف للبلاذري ، ص ٣١ •

هذيل ، والقارة ، وأسد ، وكنانة ، وقريش •

وعرف من هذيل بطنان : سعد بن هذيل ، ولحيان بن هذيل •

ومن سعد ، كان ابو بكر الشاعر والحطيئة ، والصحابي المشهور عبدالله بن مسعود والمؤرخ المعروف المسعودي صاحب مروج الذهب (علي بن الحسين بن علي) ، وعتبة بن عبيد الله بن عتبة فقيه المدينة •

ومع ظهور الاسلام انتشر بنو مدركة في الاقطار الاسلامية المختلفة ولم يبق لهم حي بنجد • ويشير ابن خلدون الى بعض بطونهم بأفريقية •

بنو أسد (١) ، ومنهم بنو أسد بن خزيمة بن مدركة وهو بطن كبير له فروع • ومنهم :

بنو كاهل قاتل حجر بن عمرو الملك الكندي والد امرىء القيس الشاعر المعروف ، وبنو غنيم بن دودان بن أسد ، ومنهم عبيدالله بن جحش الذي أسلم ثم تنصر ، وأخته زينب أم المؤمنين • والصحابي المشهور عكاشة بن محصن بن حدثان •

ومن بني ثعلبة بن دودان بن أسد ، الشاعر الكميت وهو ابن زيد ابن الاخنس ، وضرار ابن الأزور الصحابي قاتل مالك بن نويرة ، والحضرمي بن عامر وافدهم على النبي •

وبنو عمرو بن قعيد وكان منهم الطماح بن قيس بن طريف الذي سعى عند قيصر في هلاك امرىء القيس • ومنهم طليحة بن خويلد بن نوفل الذي كان كاهنا وادعى النبوة ثم عاد فأسلم وجاهد في حروب الشام •

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ ، وانظر القلقشندي ، نهاية الارب في انساب العرب ، ص ٣٨ (حيث يسجل الى جانب بني أسد الربعية النزارية آخرين من الازد القحطانية وكذلك بني أسد من بطون قضاعة) •

القارة وعكل (عجل) (١) :

وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة اخوة بني أسد ، وحلفاء بني زهرة من قريش ، ومن بطونهم :

كنانة (ابن خزيمة بن مدركة بن الياس) :

وفيهم بطون كثيرة أشرفها قريش ، ومنهم :

بنو عبد مناة بن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة •

ومن بطون عبد مناة : بنو بكر ، وبنو مرة ، وبنو الحارث ، وبنو عامر •

ومنهم البراض بن قيس بن رافع الفاتك ، قاتل عروة الرحال بن عتبة ، الامر الذي اشعل حرب الفجار • ومن بني فراس بن مالك كان فارس العرب ربيعة بن المكدم • وكان بنو عامر بن ثعلبة بن الحارث نسأة الشهور في الجاهلية • وعندما ظهر الاسلام بينهم كان على رأسهم جنادة بن أمية بن عوف وكان يحمل لقب « القلمس » الذي كان لرؤسائهم • ويقال ان أول من نسأ الشهور فيهم ، هو : سمير بن ثعلبة بن الحارث •

ومن بني الحارث كان الحليس بن علقمة الذي عقد حلف الاحابيش مع قريش ، وأخوه تيم هو الذي عقد حلف القارة معهم •

ومن بني مدلج بن مرة كان سراقة بن مالك الذي اتبع الرسول وهو في طريق الهجرة • وكان عامرة بن مخشي بن خويلد الذي وادع الرسول على قومه من بني ضمرة بن بكر •

---

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ •

وبنو عامر بن عبد مناه كان منهم بنو مساحق بن الافرم بن جذيمة الذين قتلهم خالد بن الوليد ووداهم النبي وأنكر فعل خالد بهم • ومن بني ضمرة كان ابو ذر الغفاري الصحابي (وهو جندب بن جنادة) ، وكثير الشاعر الذي تشبب بعزة بنت جميل ، وكلثوم بن الحصين الذي استخلفه النبي على المدينة عندما قام بفتح مكة سنة ٨ هـ • وكان الاسود بن رزق بن يعمر ، من بني الديل بن بكر منهم ، هو السبب في فتح مكة •

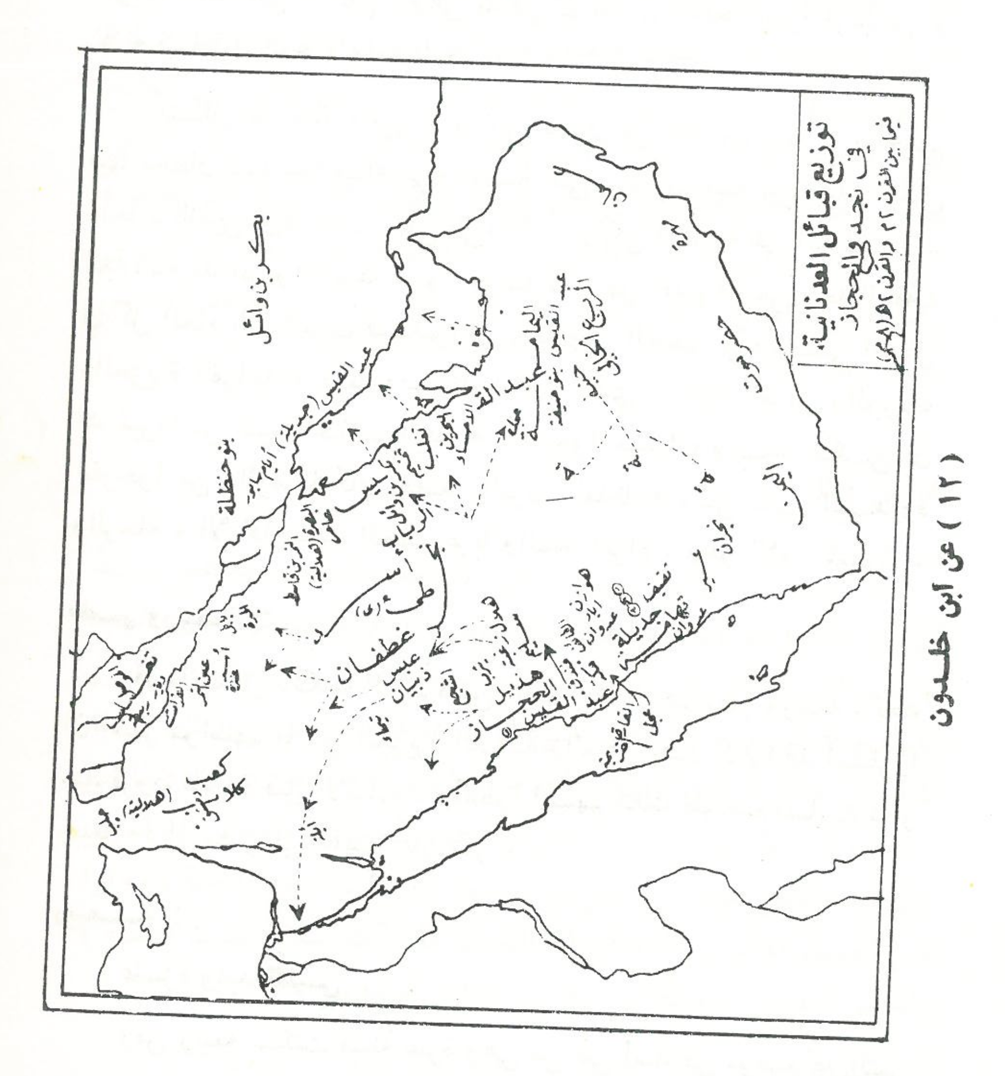
أما الشاعر عروة بن اذينة فكان من بني بكر بينما كان ابو الطفيل عامر بن واثلة (وهو من بني سعد بن ليث بن بكر) آخر من بقي ممن رأى النبي صلعم ، وذلك أنه مات في سنة ١٠٧ هـ •

اما عن قريش وهي من كنانة أيضا فسنفرد لها بابا خاصا ، فيما بعد •

توزيع القبائل العدنانية في نجد والحجاز (١) :

بعد التعريف بجماعات العرب من العدنانية نحاول توزيع هذه القبائل على بلاد العرب أو على مواطنها الاولى في نجد والحجاز معتمدين في ذلك على ابن خلدون ايضا • والحقيقة ، أن خريطة توزيع هذه القبائل لا بد وان تكون نسبية تقريبية بسبب ظروف هذه القبائل الرحالة بطبيعتها ، فضلا عن الظروف الاخرى التي تدعو الى هجرة الوطن ، من : الصراعات بين القبائل أو تقلبات الطبيعة • وهذا ما حدث بالنسبة لمعظم هذه القبائل التي بدأت بهجرة اوطانها مع ظهور الاسلام وانتقلت الى الامصار في المشرق والمغرب حتى لم يبق من احيائها اية بقية في بلادها

(١) ابن خلدون ، نفس المجلدات والصفحات السابقة الخاصة بكل قبيلة بالاضافة الى ما يشار اليه فيما يأتي• وانظر خريطة ١٢ ص ٢٦١ •



(١٢) عن ابن خلدون

الاصلية ، وهذا ما يشير اليه ابن خلدون كثيرا • وبناء على ذلك فليس من الممكن تحديد وقت معين لهذا التوزيع على خريطة بلاد العرب ، فالمسألة تقريبية عامة على ما نظن ، وهي يمكن ان تكون صالحة لفترة قرنين او ثلاثة فيما قبل الهجرة وبعدها •

وبشكل عام فالمفروض ان مواطن عدنان في نجد وباديتها لم تزاحمهم فيها قحطان فيما عدا قبيلة طيء اليمنية التي استقرت فيما بين جبلي سلمى وأجأ ، اللذين عرفا باسم جبلي طيء (1) • ولكن الحقيقة هي اننا نجد العدنانية قد تفرقوا ، منذ عصور قديمة لا يسهل تقديرها على وجه الدقة ، في كل انحاء بلاد العرب فسكنوا في تهامة وفي الحجاز بل وفي العراق والجزيرة الفراتية • والمفروض ان أولئك الذي سكنوا العراق والجزيرة قد غيروا من طبيعة حياتهم البدوية فأصبحوا حضرا ، وبذا يمكن ان يخرجوا من دائرة ما كان يقصد بالعرب العدنانية من معنى البداوة والرحلة • الا اذا سمينا الحضر عربا والبدو اعرابا ، وهو الامر المعقول •

مضر وربيعة :

ففيما يتعلق بالكتلة الكبيرة من العدنانية ، وهم مضر وربيعة ، نجد ان اشهر مواطنهم ما بين الجزيرة الفراتية والعراق حيث كانوا قد استقروا منذ قرون عديدة قبل الاسلام ، وأعطوا اسمهم لتلك المواضع فصارت ديار ربيعة وديار مضر الى جانب ديار بكر •

ربيعة :

عنزة وعبد القيس :

ومن ربيعة سكنت قبيلة عنزة وهي من بني أسد في موضع عين التمر

(1) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ •

من برية العراق • أما عبد القيس وهم من جديلة (من بني أسد أيضا) فموطنهم الاصلي كان تهامة ثم انهم خرجوا الى البحرين (وهي بلاد هجر) فأصبحوا على بحر فارس (الخليج العربي) متصلين باليمامة من الشرق والبصرة من الشمال وبعمان من الجنوب • وكان موطنهم هذا يمكنهم من غزو سواحل ايران المقابلة لهم على الشاطىء الآخر من الخليج وهذا ما فعلوه فعلا • ولكن الروايات تقول انه عندما بلغ ساربور الثاني المعروف بذي الأكتاف (أي القوي) مبلغ الرجال فتك بهم فتكا ذريعا وانه تتبعهم فغزا سواحلهم ودمر بلادهم ، ثم انه أسكن بني تغلب في البحرين وكذلك عبد القيس وبعض تميم ، كما أقر بكر بن وائل بكرمان وبني حنظلة ببلاد الاهواز (1) •

بكر بن وائل :

والحقيقة ان قبائل بكر بن وائل كانت قد سكنت منطقة هجر منذ أن كانت تابعة للأكاسرة ، وكان من الطبيعي ان يزاحمهم الوافدون الجدد من عبد القيس وان يقاسموهم مواطنهم • وكان هذا هو الحال عند ظهور الاسلام اذ أتى وفد بكر على النبي في السنة التاسعة للهجرة وكان يرأسه المنذر بن عائذ البكري ، وكان وفد عبد القيس فيه المنذر بن ساوي (من تميم) وكان نصرانيا فأسلم ، وصارت له صحبة ومكانة • وعند ردة العرب كان عبد القيس هؤلاء من بين من ارتدوا عن الاسلام في المنطقة ، وولوا على انفسهم المنذر بن النعمان (والنعمان كان آخر سلالة ملوك الحيرة) ولكنهم أخضعوا بمعرفة ابي بكر بن العلاء الحضرمي •

(1) وانظر جواد علي ، المفصل ، ج ٤ ، ص ٤٨٥ •

النمر بن قاسط :

أما بنو النمر بن قاسط فكانت بلادهم رأس العين من اقليم الابلة الذي كان والد الصحابي ابي صهيب بن سنان (وهو منهم) قد وليه بأمر كسرى •

تغلب :

وكانت بلاد قبائل تغلب بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين، وتعرف بديار ربيعة ، وكانت النصرانية غالبة عليهم لمجاورتهم للروم • ورغم عدم وجود تغلبيين في نجد والحجاز ، فقد كان بنو شعبة بالطائف على عهد ابن خلدون ينتسبون الى نسل شعبة بن المهلهل التغلبي • اما الحمدانيون بالموصل والجزيرة فكانوا من بني تغلب •

حنيفة :

ولقد سكن بنو حنيفة (وهم من بكر بن وائل) بلاد اليمامة التي تعتبر من اوطان الحجاز ، مثلها في ذلك مثل نجران من اليمن • ومن اليمامة كانوا يتصلون شرقا بالبحرين حيث بني تميم ، وغربا بأطراف اليمن والحجاز ، وجنوبا بنجران وشمالا بأرض نجد • والمفروض ان بني حنيفة غلبوا قبائل همدان اليمنية عليها وكانوا قد سكنوها بعد طسم وجديس• ولما كانت البلاد كلها بلاد نخل وزرع على طول ٢٠ (عشرين) مرحلة لم يكن من الغريب ان تكون بلاد حضارة منذ القدم ، وهذا ما يتضح فعلا من بقايا آثار اليمامة القديمة • وهكذا كون بنو حنيفة مملكة في اليمامة كانت لها علاقاتها بالفرس وبامارة الحيرة اللخمية • وكان اول من لبس التاج من ملوكها هو : هوذة بن علي بن ثمامة بن الدول بن حنيفة ، الذي توجه كسرى ، هو وابن عمه عمرو بن عمرو بن عبدالله الذي قتل المنذر ابن ماء السماء يوم أباغ ــ كما تقول الرواية •

عجل :

وكانت منازل بني عجل (من بكر بن وائل) في المنطقة ما بين اليمامة الى البصرة ، وكانوا قد بلغوا في تنظيمهم مبلغ الدولة او الامارة على حدود العراق حتى انهم ناجزوا الفرس ، فهم الذين أحرزوا ، على جيش كسرى ، الانتصار المدوي في يوم ذي قار ، كما سبق • ويسجل ابن خلدون انهم اندثروا ، وكان يخلفهم على ايامه في تلك البلاد بنو عامر المنتفق بن عقيل بن عامر •

عدوان :

وأما بنو عدوان بن عمرو ، وهم من القيسية ، فكانت منازلهم بالطائف (من أرض نجد) ، وكانوا قد غلبوا عليها قبيلة اياد ، فلما غلبتهم عليها ثقيف خرجوا الى تهامة •

غطفان وعبس :

وكانت منازل بني غطفان بنجد مما يلي وادي القرى وجبلي طيء ، وبها من المعالم ابني (ابنا) ، والحاجر ، والهباءة ، وبرق الحنان ثم انهم تركوها ودخلوا الامصار في الفتوحات الاسلامية ، فاستولت عليها قبائل طيء • وأشجع من بطون غطفان وكانوا عرب المدينة يثرب ، ولكنه لم يكن منهم بنجد على ايام ابن خلدون الا بقايا حوالى المدينة ــ وكان يوجد منهم بالمغرب الاقصى حي عظيم في منطقة سجلماسة ، وهي تفللت الحالية• ومثل هذا يقال عن قبيلة عبس ولم يكن منهم احد بنجد ايام ابن خلدون في القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وهو يذكر ان بعض بني زغبة من الهلالية في المغرب ينتسبون الى العبسية ، ولو انه ليس متأكدا من شخصية عبس الذي ينتسبون اليه • وكذلك الامر بالنسبة لذبيان الذين لم يبق بنجد منهم أحد ، وكانت مواطنهم في أبرق الحنان وأبنا من وادي القرى ، فلما

هاجروا مع قبائل سليم الى برقة وافريقية تركوها لجيرانهـم من طيء فتوسعوا فيها ٠

زغبة :

وكان بنو زغبة (من سليم ، من غطفان) يسكنون بين مكة والمدينة قبل ان ينتقلوا الى مصر والمغرب ٠ ومثل هذا يقال عن اصحابهم في الرحلة من بني هلال وكانت بطونهم كثيرة في نجد ٠

رواحة وفزارة :

وكانت بلاد رواحة وفزارة من غطفان في اعالي (عالية) نجد بالغرب وخيبر ، ولقد أعطوا أسماءهم هناك لبعض المواضع مثل حرة بني سليم وحرة النار بين وادي القرى وتيماء ، ولكن لم تعد لهم بقية فقد ساروا الى المغرب مع بقية سليم ٠

ثقيف :

وثقيف (وهم من هوازن) كانت مساكنهم بالطائف وما حولها ، غير بعيد من مكة ٠ والطائف تعتبر من ارض نجد نظرا لارتفاعها ، حتى قيل ان النسور تبيض في جبلها ٠ وتعتبر سوق عكاظ من اعمال الطائف ، فكأنها كانت في منطقة نفوذ الثقفيين ٠ ولما كانت ثمود من العمالقة ـ كما يرى الكتاب العرب ـ قد سكنوا الطائف اثناء هجرتهم نحو الشمال ، كما سبق ، قيل ان الثقفيين من بقاياهم ٠ ولا ندري ان كان ذلك قد اصطنعه الكتاب تعبيرا عما قام به الثقفيون من سياسة العنف في صدر الاسلام ، مثل : المغيرة بن شعبة ، وزياد بن ابيه ، والحجاج بن يوسف ٠

الهلالية :

كلاب :

وأما بنو ربيعة من الهلالية ، ومنهم عامر وكلاب وكعب ، فكانت

بلادهم بأرض نجد الموالية لتهامة بالمدينة وأرض الشام ، ولم يبق بها منهم احد بعد ان دخلوا الشام وتفرقوا في البلاد الاسلامية ٠ وكان بنو كلاب منهم يسكنون حمى ضرية والربذة من جهات المدينة ، وكذلك فدك والعوالي ٠ وحمى ضرية هي حمى كليب بن وائل ٠ ونباته النضر تسمن عليه الخيل والابل ٠ اما حمى الربذة فهو الذي اخرج عثمان بن عفان عليه الصحابي المشهور ابا ذر الغفاري ٠

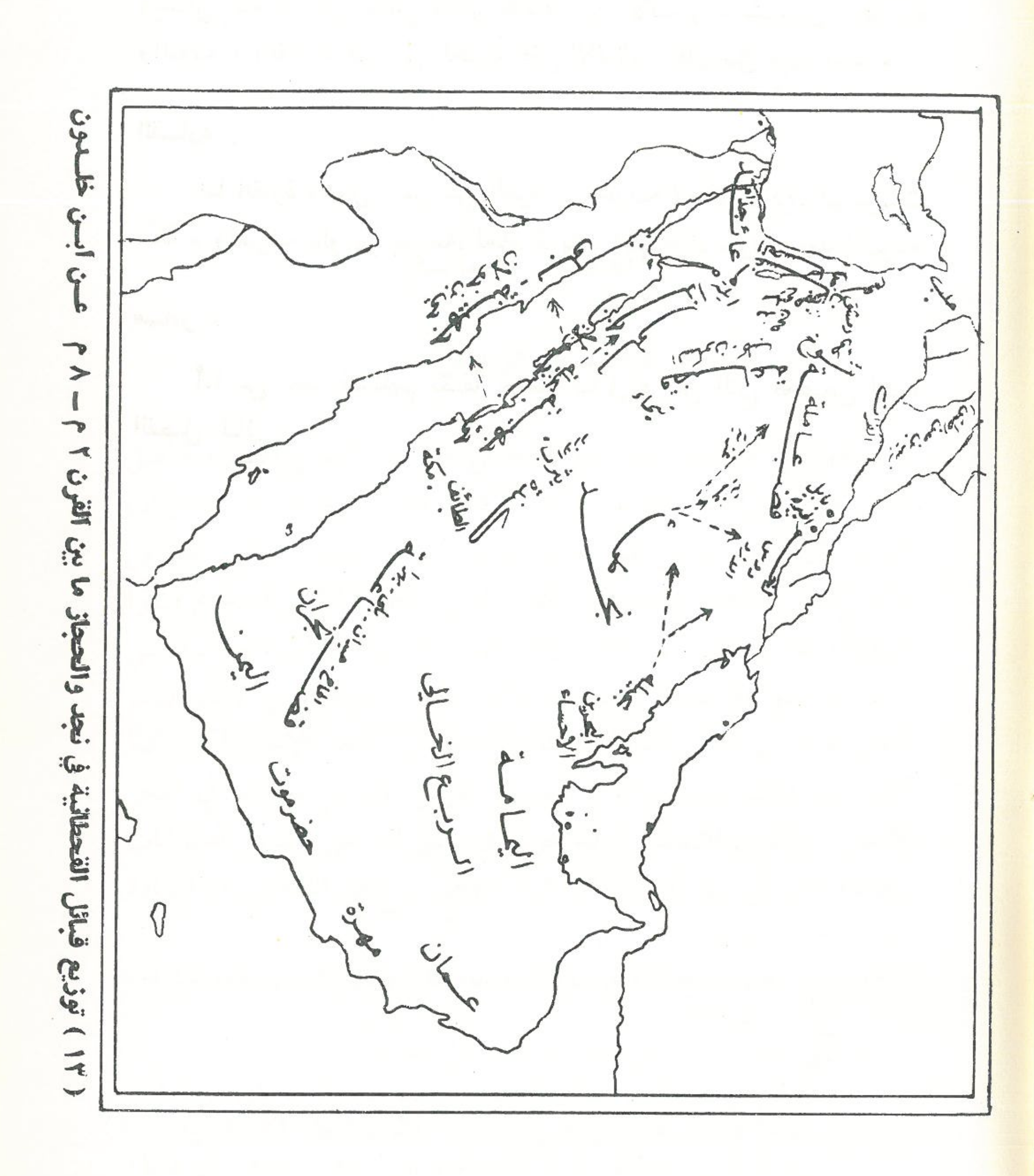
وانتقل بنو كلاب الى الشام ، فكان لهم شأن في الجزيرة الفراتية ، فملكوا حلب وكثيرا من مدن الشام بقيادة بني صالح بن مرداس ٠ ومثل هذا يقال عن اخوتهم من بني كعب الذين كان لهم شأن ايضا في الجزيرة الفراتية وحلب ، في منتصف القرن الخامس الهجري ١١ م ، بقيادة قريش ابن بدران بن مقلد ٠

عقيل :

أما عقيل بن كعب ، ومنهم خفاجة بن عمرو بن عقيل ، فقد ساروا الى العراق والحجاز وكونوا لهم ببادية العراق دولة ، بينما سكن آخوانهم من بني عامر بن عقيل بجهات البصرة وملكوا البحرين ، كما ملكوا اليمامة في منتصف القرن السابع الهجري / ١٣ م ٠

خندف :

وكانت مواطن خندف ، ومنهم خزاعة ، بأطراف (أنحاء) مكة في مر الظهران وما يليه ، وكانوا حلفاء لقريش ثم عاهدهم الرسول عام الحديبية ، وكان عهدهم هذا من شروط الصلح مع قريش ، فلما نقضه القرشيون قام الرسول بفتح مكة ٠



(١٢) توزيع قبائل القحطانية في نجد والحجاز ما بين القرن ٢ م – ٨ م عن ابن خلدون

تميم :

وشغلت منازل قبائل تميم الاقاليم الشرقية من نجد فكانت دائـرة من هناك على البصرة واليمامة وانتشرت الى العذيب من ارض الكوفة • ولكنهم في القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م كانوا قد تفرقوا في البلاد ، فلم يبـق منهم احد في منازلهم الاولى التي ورثتها قبيلة غزية من طيء وكذلك قبائل خفاجة من بني عقيل بن كعب •

الربـاب :

وكانت بلاد قبائل الرباب (من بني مناة) جوار بني تميم بالدهناء ، ويمكن التعرف على بعض معالمها من اشعارهم ، مثل : حزوى وعالج ، ولم يكن بها احد منهم ايضا عندما كان يكتب ابن خلدون •

هذيـل :

أما هذيل (ابن مدركة) فكانت ديارهم بجبل السروات ، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، ولهم اماكن ومياه في اسفلها مـن جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة ، ومنها الرجيع وبئر معونة • وقـد تفرقوا في الامصار ، وكانت منهم قبيلة في اطراف باجة في القرن الثامـن الهجري •

أسـد :

وكانت بلاد بني أسد (بن خزيمة) مما يلي الكرخ من ارض نجـد في جوار قبائل طيء أي مما يلي وادي القرى • ويقال ان المنطقة كانت في اول الامر لبني أسد ، فلما خرجت طيء من اليمن غلبوهم على جبلي أجا وسلمى ثم انهم اصطلحوا وتجاوروا لبني أسد والتغلبية وواقصةوغاضرة•

ويمكن التعرف على بعض معالم بلادهم من الاشعار ، مثـــل : غاضرة والنعف . ولقد تفرقوا من الحجاز على الاقطار ، فلم يبق منهم أحد .

القـارة :

اما القارة وعجل (من بني الهون بن خزيمة) فكانت ديارهم بجهات مكة . وأشرف بطونهم بطبيعة الحال قريش ، قبيلة الرسول ومهد النبوة .

مـضر :

أما عن مضر فتمثلهم بصفة خاصة قبائل قريش التي نخصص لهـا الفصل التالي:

الفصل السابع

قبائـــل قريش [١]

وقريش هم ولد النضر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النضر . وأصل التسمية (قريش) غير واضح وان كان الكتاب يميلون الى واحد من تفسيرات ثلاث : أن يكون قريش هو تصغير قرش ، وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر ، وهذا يتطلب أن يكون الذين اتخذوا الاسم قـد عرفـوا البحر او عاشوا على سواحله ، وهذا مقبول بالنسبة للقبائل العدنانية التي عاشت في سواحل تهامة ، وبالنسبة لأهل مكة والمدينة الذين كانت لهـم فرض او موانىء على السواحل القريبة منهم من البحر الاحمر [٢] ، كما كانت لهم هناك بيوت عبادة . وسمك القرش المفترس معروف في البحر الاحمر ، وتكون التسمية به قد جرت في نطاق التسمي بأسماء الحيوانات وخاصة المفترس منها او ما يخاف شره ، وهو نوع من التقديس او العبادة

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ وما بعدها ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) وفي ذلك ينسب الى احد ملوك اليمن انه قال :

وقريش هي التي تسكن البحر ... بما سميت قريش قريشا

هكذا في البـلاد حي قـريش ... يأكلون البلاد أكلا كشيشا

ويرى لامانس (الطائف قبيل الهجرة ، ص ٢١٠ ـ ٢١١) ان هـذا الكلام يعتبر من سخريات الاعراب .

التي عرفتها الجماعات البدائية او البدوية والذي يعرف « بالطوطمية » .

والرأي الثاني ان يكون اسم قريش مشتق من التقرش ، وهو التجارة . وهذا الامر وان كان مقبولا نظرا لاشتهار قريش بالتجارة عندما ظهر الاسلام ، الا انه يفترض ، في هذه الحالة ، أن يكون ظهور الاسم في فترة متأخرة نسبيا ، بعد ان ارتفع شأن القبيلة في ميدان التجارة . وهذا لا يمنع ان يكون هذا التفسير قد اصطنع ليناسب الحال .

ومثل هذا يمكن ان يقال عن الرأي الثالث الذي يرى ان التقرش يعني التجمع ، والمقصود هو تجمع القبائل القرشية داخل مكة واستقرارها في نوع من الحياة المدنية بعد ان كانت تحيا حياة بدوية في اطرافها او ظواهرها . واصحاب هذا الرأي يرون ان الذي قصد باسم قريش هو « قصي » الذي يعرف عند الكتاب باسم « مجمع » لانه جمع القبائل من فهر . بينما يرى اصحاب الرأيين الاولين ان الذي تسمى بقريش هو « فهر » الذي تنتسب اليه كل البطون القرشية او « النضر » وهو جد القبيلة الاكبر ، والاولى باللقب (1) .

قبائل فهر (2) :

وفهر الذي تنسب اليه القبائل القرشية له ثلاثة اولاد ، هم :

(1) قارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ٩٣ ، وانظر جواد علي، المفصل، ج ٤ ، ص ١٨ — ٢٤ .

(2) قارن ابن هشام (السيرة ، ج ١ ، ص ٩٥) حيث يجعل أبناء فهر أربعة فيضيف أسدا ، وقارن البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٣٩ (حيث يجعل أبناء فهر سبعة ، هم : غالب وأسد وعوف وجون وذئب والحارث ومحارب ، وكلهم من قريش الظواهر الذين يقيمون حول مكة .

غالب ، والحارث ، ومحارب .

وبنو محارب من قريش الظواهر . ومنهم الخطاب ابن مرداس سيد الظواهر (الضواحي) في الجاهلية ، والذي كان يأخذ المرباع (الضريبة) منهم ، وحضر حروب الفجار . وابنه ضرار بن الخطاب كان من فرسان الصحابة المشهورين ، كما كان ابنه محمد من فرسان الاسلام وشعرائهم.

وكذلك كان بنو الحارث من فهر الظواهر ، ومنهم :

ابو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح من العشرة (الموعودين بالجنة) وأمير المسلمين بالشام ، وعقبة بن نافع بن عبد القيس فاتح افريقية وباني القيروان .

وكان بنو غالب بن فهر ايضا بادية من أهل الظواهر ، ومنهم : بنو تيم الادرم . وكان منهم هلال بن عبدالله بن عبد مناة الذي قتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة .

لؤي بن غالب (1) :

ومن ولده كعب وعامر ، وبطون اخرى يختلف في نسبها الى لؤى ، مثل : خزيمة وسامة وسعد وجسم وعوف . وهم من قريش الظواهر .

ومن بني عامر بن لؤى بنو شقير بن عامر ، وبنو معيص بن عامر . فمن معيص مكرز بن حفص بن الاحنف وكان من سادات قريش ، وهو الذي أجار أبا جندل بن سهيل فرده الرسول . ومنهم بسر بن أرطأة من قواد معاوية المشاهير .

(1) وقارن البلاذري ، انساب الاشراف ص ٤١ ، والسيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ٩٦ .

ومن بني شقير (وهو حسل) كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاتح افريقية ايام عثمان ، والذي كتب للرسول ثم رجع الى مكة ثم جاء تائبا وحسنت حاله • وعبد عمرو بن عبد شمس صاحب الحديبية ، وابنه العاص ابو جندل سهيل الذي جاء في قيوده يوم صلح الحديبية ، الى الرسول فرده الى قومه • وزمعة بن قيس بن عبد شمس وبنته أم المؤمنين سودة بنت زمعة • وكانت زوجة السكران عم ابي جندل وابن عمها •

كعب بن لؤي (١) :

وله من الولد : مرة وهصيص وعدي ، وهم من قريش البطاح أي بطائح مكة •

ومن هصيص بن كعب : عبدالله بن خدافة ، وهو من مهاجرة الحبشة ، وهو الذي بعثه النبي سفيرا بكتابه الى كسرى • والعاص بن وائل بن هشام وابناه عمرو وهشام ابنا العاص • وعبدالله بن الزبعري الذي كان يؤذن المسلمين بشعره ثم أسلم وحسن اسلامه • ومنهم حذاقة بن قيس أبو خنيس الذي كان متزوجا بحفصة أم المؤمنين قبل الرسول •

عدي بن كعب (٢) :

ومن عدي كان زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزي الذي كان يرفض الاوثان في الجاهلية ويلتزم الحنفية ملة ابراهيم الى ان قتلته لخم أو جذام بقرية من قرى البلقاء • وابنه سعيد بن زيد احد العشرة المشهود لهم

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، وقارن البلاذري، انساب الاشراف، ص ٤١ (ويقول : كان كعب عظيم القدر في العرب ، فأرخوا بموته اعظاما له ، الى أن كان عام الفيل فأرخوا به ، ثم ارخو بموت عبد المطلب) •

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، وقارن السيرة لابن هشام، ج ١ ، ص ١٠٣ •

بالجنة • ومنهم عمر بن الخطاب وأبناؤه ، وخارجة بن حذافة الذي قتله الحروري (الخارجي) بمصر يظنه عمرو بن العاص والذي قال : « أردت عمرا وأراد الله خارجة » ، فصارت مثلا •

مرة بن كعب :

وله من الولد : كلاب ، وتيم ، ويقظة •

ومن تيم بن مرة كان عبدالله بن جدعان سيد قريش في الجاهلية ، واليه تنسب الدار المشهورة يومئذ بمكة • ومنهم ابو بكر الصديق ، وطلحة بن عبدالله صاحب الزبير يوم الجمل وابنه محمد السجاد •

ومن بني يقظة كان بنو مخزوم ، ومنهم الارقم بن الارقم الصحابي البدري الذي كان يجتمع النبي والمسلمون بداره قبل ان يعلن الاسلام بمكة ، وابو جهل (عمرو) بن هشام بن المغيرة وابنه عكرمة الصحابي ، والحارث بن هشام بن المغيرة الذي اسلم وحسن اسلامه ، وأبو امية بن حذيفة بن المغيرة الذي قتل في صفوف المكيين يوم بدر ، وابنته أم سلمة أم المؤمنين ، ومنهم أبو سلمة عبدالله بن الاسد الذي كان زوج ام سلمة قبل الرسول ، وهو من قدماء المهاجرين • ومنهم هشام بن ابي حذيفة من مهاجرة الحبشة ، والوليد بن المغيرة الذي لم يدخل في الاسلام ، وابنه خالد بن الوليد ـ سيف الله المسلول •

ومن كلاب بن مرة كان بنو قصي وهو زيد بن كلاب وبنو زهرة بن

كلاب ، وهما : « صريحا قريش » عند النسابة (١) ، كما قيل عن مضر وربيعة انهما « الصريحان » من بني اسماعيل •

فمن بني زهرة آمنة بنت وهب ام النبي ، وسعد بن آبي وقاص ، والمسور بن مخرمة بن نوفل بن وهب ، وهو صحابي وأبوه من المؤلفة قلوبهم •

قصي بن كلاب (٢) :

وقصي الذي ينتسب اليه النبي ، هو الذي جمع امر قريش ورفع من شأنهم كان له من الولد ثلاثة : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزي (٣) •

فمن بني عبد الدار (٤) الذي يسميه البلاذري عبدالله : النضر بن الحارث الذي أسر يوم بدر وقتل وكان من الناهضين للمسلمين ومصعب بن عمرو الصحابي البدري الذي استشهد يوم احد وكان صاحب اللواء • وعثمان بن طلحة بن عبد العزي الذي دفع مفتاح الكعبة الى النبي يوم الفتح • ولو انه يقال انه دفعه الى أخيه شيبة ومنذ هذا الوقت صارت حجابة البيت الى بني شيبة بن طلحة •

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٤٨ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ •

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ، وانظر البلاذري ؛ ص ٤٩ (يقول انه سمي قصيا — وكان اسمه زيدا — لبعده من دار قومه وانه اقصى عنهم عندما سار مع زوج أمه ليعيش بين قومه وهو صبي صغير) •

(٣) ويضيف ابن خلدون بعد ذلك (ج ٢ ، ص ٣٣٤) ولدا رابعا هو عبد قصي • وهذا ما يذكره البلاذري ، ص ٥٣ ، وكذلك ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ •

(٤) انظر البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٥٢ •

أما بنو عبد العزي فمنهم :

أبو البحتري العاص بن هاشم الذي كان يريد التملك على قريش من قبل قيصر فمنعوه ، فرجع الى الشام حيث سعى في سجن من كان بها من قريش وكان في جملتهم سعيد بن العاص (أبو أحيحة) فدست قريش الى عمرو بن جفنة الغساني الذي تخلص منه غدرا بالسم • وهبار بن الاسود بن المطلب الذي كان يهجو الرسول ، وابنه عوف الذي أسلم ومدح النبي وحسن اسلامه • ومنهم خديجة أم المؤمنين بنت خويلد بن آسد ، والزبير بن العوام بن خويلد وهو أحد العشرة • وكذلك حكيم بن خويلد الذي آلت اليه دار الندوة بمكة ، واشتراها منه معاوية بمائة الف درهم ليدخلها في الحرم المكي •

عبد مناف بن قصي (١) :

وهو صاحب الشوكة في قريش وسنام الشرف ، كما يقول ابن خلدون ، وهو في عمود النسب الشريف • وكان لعبد مناف اربعة من الابناء هم :

عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل •

وكانت الرياسة في بني عبد مناف لبني هاشم وبني عبد شمس اذ كانت بقية القبائل احلافا لهم • فبنو المطلب احلاف بني هاشم ، وبنو نوفل احلاف لبني عبد شمس •

وبنو عبد شمس منهم بنو امية الاصغر (العبلات) وبنته الثريا

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ، وانظر البلاذري الذي يقول انه كان يدعى القمر لجماله ، وان امه جعلته خادما لمناف وهو أعظم أصنامهم (انساب الاشراف ، ص ٥٢) •

كانت سيدة القريض المغنى • ومن بني ربيعة بن عبد شمس كان عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، ومن عتبة ابنه الوليد الذي قتل في صفوف المكيين يوم بدر ، وهو أخو هند بنت ربيعة وهي أم معاوية • ومن بني عبد العزي بن عبد شمس كان ابو العاصي بن الربيع صهر النبي ، وكان بين الاسرى في بدر •

بنو امية الاكبر بن عبد شمس (١) :

ومنهم : سعيد بن العاصي بن سعيد ، وعثمان بن عفان امير المؤمنين• ومروان بن الحكم ، ومعاوية بن ابي سفيان واخته أم حبيبة أم المؤمنين • وعتاب بن سيد بن ابي العاص الذي ولاه الرسول مكة بعد فتحها فلم يزل عليها الى ان مات •

ومنهم بنو نوفل بن عبد مناف • ومن مشاهيرهم :

جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل الصحابي المشهور ، وطعيمة بن عدي الذي قتل في صفوف المكيين ، ومولاه وحش هو الذي قتل حمزة عم الرسول يوم احد •

ومن بني المطلب بن عبد مناف كان قيس بن مخرمة الصحابي وابنه عبدالله بن قيس كان مولى يسار جد محمد بن اسحق صاحب السيرة والمغازي • ومسطح وهو عوف بن أثاثة بن عباد الذي كان بين من تكلموا بالافك ، وهو ابن خالة ابي بكر الصديق • وركانة بن عبد يزيد بن هاشم الذي كان من اشد الرجال ، والذي صارعه الرسول فصرعه • أما السائب

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ •

بن عبد يزيد منهم فكان يشبه الرسول ومن عقبه الامام محمد بن ادريس الشافعي •

بنو هاشم بن عبد مناف :

ولم يذكر من عقب هاشم الا عقب ابنه عبد المطلب [١] الذي كان له عشرة من البنين هم :

حمزة ، والعباس ، وأبو طالب ، والزبير ، والمقوم ، وضرار ، وحجل (والحارث وعبد العزي وهو ابو لهب) ، واخيرا أصغر ابنائه وهو عبدالله ابو النبي عليه السلام • ولذلك يطلق على الهاشميين اسم « آل البيت » اختصارا لآل بيت رسول الله • وأشهرهم بطبيعة الحال ، هم العباسيون والعلويون او الطالبيون [٢] •

وبهذا ينتهي عرض اهم القبائل العدنانية في نجد والحجاز وبالوصول الى قبيلة قريش والهاشميين نكون قد وصلنا الى عتبات البعثة المحمدية والدعوة الاسلامية في مهدها في مكة وهو المدخل الاخير لظهور الاسلام•

القرشيون في مكة (٣)

كانت مكة قبيل ظهور الاسلام أشبه ما تكون بعاصمة الحجاز رغم وقوعها في واد قاحل ، « غير ذي زرع » ، وتحيط بها الجبال • وتقطع

---

(١) قارن السيرة لابن هشام حيث يجعل له اربعة أبناء هم . عبد المطلب، واسد ، وابو صيفي ، ونضلة (ج ١ ، ص ١٠٧ — ١٠٨) .

(٢) قارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١١٠ وما بعدها .

هذه الجبال أودية مستعرضة فتكون منها قمما غريبة الشكل « اذا أراد الناظر النظر الى قلة احدها فتل عنقه حتى يراها بشدة » ، كما يقول ياقوت • وهي في الصيف حارة قاتلة ، وفي الشتاء تنزل بها السيول التي تغمر الاجزاء السفلى منها (المسفلة) ، وكثيرا ما كانت هذه السيول تفاجىء الناس فتجرفهم في طريقها • وتذكر الروايات ان احد هذه السيول جرف قبيلة جرهم ، التي كانت تسكن مكة قديما ، فكأنه سيل العرم ، كما تحفظ ذكريات ذلك السيل الذي خرب منطقة الجحفة ، أو ذلك الذي أغرق الكعبة في القديم • وما زالت الكعبة المكرمة تتعرض للسيول المفاجئة حتى ايامنا هذه •

والمهم هو أن مياه هذه السيول هي سبب الحياة في مكة اذ تميز الآبار بالمياه العذبة التي تجعلها أكثر صلاحية للشرب • وبناء على ذلك يمكن القول ان السبب في شهرة مكة قديما هو بئر زمزم ، الذي تقول الروايات ــ ولها الحق في ذلك ــ انه نبع بطريقة اعجازية ببركة اسماعيل ابن ابراهيم الخليل ابي العدنانية •

مكة قبل القرشيين :

ملك جرهم أو العمالقة :

يرى الكتاب العرب ان مكة في القديم كانت موطنا للعرب العاربة من العمالقة ، مثلها في ذلك مثل بقية الحجاز وبلاد العرب ، وان الذين استقروا فيها كانوا من قبائل جرهم التي خرجت من اليمن اثر ما حل بها من القحط • والذي يفهم من الروايات ان المنطقة كانت عامرة فكان بها عمالقة أو جرهميون اقدم من الجرهميين الوافدين يعرفون بقطورا ورئيسهم هو السميدع بن هوثر بن لاوي بن قطورا • ولما كان ذلك من المفروض ان يكون قبل الالف الثانية من تاريخ قبل الميلاد ، أي قبل اسماعيل وابراهيم ، رأى البعض ان اسم « مكة » او « مكا » بابلي يعني

لاوذ
السميدع عمليق
كركر قطورا ملوك مكة
هومر ايلة السميدع اذينة حسان ظرب عمرو ملوك الحضر
عولج عبيد الاثل سنان
عمرد فاران
جاسم الأرقم
لف مطر هزل الازرق راحل بديل عفار
سعد
عوص مهلايل عبيل يثرب ملوك المدينة
الهلوان ابو هون مصعب الوليد
ملواس نمير معاوية مصعب قابوس
اراشه توران الوليد الريان دارم معدانوس كاشم
ومغ نقراوش
ملوك مصر

(١٤) شجرة انساب العمالقة وملوكهم في الحجاز ومصر والشام
انظر ابن خلدون ج ٢ ص ٢٩

« البيت » نسبة الى البيت الحرام ، وان عرب العراق القدماء من العمالقة هم اصحاب هذه التسمية (١) • اما اليونان فانهم ذكـروا ـ في بدايـة التاريخ المسيحي ـ بيتا يقدسه العرب سموه « مكورابا »(**Macoraba**) يرى ان المقصود به مكة (٣) ـ ولا بأس في ذلك ، وان كانت العلاقة بين الاسم اليوناني وبين الاسماء اليمنية القديمة ، من المقرب أو المقربة يمكن أن تشكك في ان يكون المقصود بذلك مكة • هذا كمـا ورد اسمهـا في القرآن في شكل « بكة » وهو اسم واديها او اسم موضع البيت (٣) •

والمهم ان قبائل جرهم اخذت تفد على مكة من اليمن وسكنتها الى جانب الجرهميين القدامى او العمالقة من آل السميدع زعمـاء قطورا ، وأصبح الحيان الرئيسيان من المدينة وهما المعلاة (ويقصد بها الاماكـن المرتفعة عند سفح جبل قعيقعان) لجرهم والمسفلة أو الابطح (ويقصـد بها المواضع المنخفضة من المدينة) للعمالقة • وكان الوافدون الجدد وعلى رأسهم المضاض بن عمرو في المعلاة يفرضون الاتاوة (يعشرون) على من دخل مكة من حيهم ، وآل السميدع يجمعون الضريبة ممن يمر بحيهـم بالمسفلة •

---

(١) انظر : زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٧٥ .

(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٤ ، ص ٩ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١١٤ . وقـارن ياقـوت ، معجم البلدان (ط. ليبزج) ج ٤ ، ص ٦١٦ وما بعدهـا . حيث يقول انه يمكن ان تحل الميم محل الباء في بكة ومكة. ويمكن ان يكون أصل التسمية من الفعل أمتك بمعنى ازدحم (لازدحام الناس بها). كما يمكن ان يكون من الملك بمعنى الصفير لانهـم « كانوا يصفـرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها . وقيل سميت مكة لانها بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة بمنزلة المكوك ... الى غير ذلك .

والذي يفهم من الروايات ان هذا التعايش السلمي لم يدم طويـلا اد قامت الحرب بين الجماعتين ، وانتهت بانتصار آل المضـاض بن عمرو ومقتل السميدع ، بمعنى هلاك جرهم الاولى وان مكة صارت مملكـة لجرهم الثانية • والى هذه الحروب بين قبائل جرهم تنسب تسمية اشهر جبلين في مكة ، وهما : قعيقعان وأجياد ، الاول نسبة الى قعقعة السـلاح والثاني نسبة الى الجود بالدم في هذه الحرب (١) •

وتقول الرواية ان جرهما كانت قد عثرت على اسماعيل مع امه هاجر عند بئر زمزم ، وانه نشأ بينهم وتكلم بلغتهم ثم انه تزوج منهم ثلاث نساء كانت ثالثتهم بنت الحارث بن مضاض سيد جرهم ، التي انجبت له اثني عشر ولدا ، فيما نقل أهل التوراة • ويختلف الكتـاب العرب في كتابـة اسماء هؤلاء الابناء ـ ولهم الحق في ذلك ـ فهي أسماء غير عربية ، كما تختلف في معناها • فـ « تيما » منهم تتراوح كتابته ما بيـن « طيمـا » و « ضميا » ، ومعنى « قيذار » ، وهو اكبرهم ، يتراوح ما بين « صاحب الابل » وهو الامر المقبول ، وما بين « الملك » (٢) •

ورغم ما تقوله كثير من الروايات العربية من ان البيت الحرام كان مقدسا منذ ان بناه آدم ، فكان الانبياء يحجون اليه ، من : نوح وهود ، وكذلك قدامى الملوك من : قحطان ويعرب وسبأ ، فهي توافق علـى ان الذي بنى الكعبة هو ابراهيم الخليل عندما جاء لزيارة اسماعيل ، وانـه صيرها خلوة لعبادته وجعلها حجا للناس ، ثم عاد الى الشام حيث مات •

والمفروض ان المستعربة من آل اسماعيل استقروا جنبا الى جنب مع

---

(١) أنظر فيما سبق، ص ٢٠٣ ، ابن هشام، السيرة ، ص ١١١–١١٣ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

أخوالهم العاربة من جرهم فبعد ان كانت ولاية البيت لابناء اسماعيل ، الذي بعث نبيا الى العماليق وجرهم وأهل اليمن ، صارت قسمة بينهم وبين أخوالهم الجرهميين • ثم ان الجرهميين دب بينهم الفساد في الوقت الذي كانت تزحف فيه اليمنية من الازد نحو الشمال ، بعد خراب بلادهم اثر انهيار السدود ، وذلك في الهجرة الكبرى التي قادها عمرو بن عامر مزيقيا وابناؤه ثعلبة والتي وصلت بهم الى الشام ، حيث كونوا دولة بني جفنة الغساسنة • وتوقفت خزاعة من المهاجرين في مكة وقامت الحرب بينهم وبين جرهم ، وانتهت بالقضاء على هؤلاء الاخيرين وتشريدهم وغلبة خزاعة على البيت ، وكان رئيسهم حينئذ هو عمرو بن لحى ، ولحى هو حفيد عمرو مزيقيا [1] •

وخرج عمرو بن مضاض بمن تبقى من جرهم نحو اليمن ، بعد ان دفنوا اموال الكعبة في بئر زمزم ، وأسفوا على مفارقتهم لموطنهم ، فقال شاعرهم :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف فما تحظى لدينا المكاثر [2]

أما عمرو بن لحى رئيس خزاعة فتنسب الروايات اليه تبديل ديانة اسماعيل ونشر عبادة الاوثان ، التي أحضرها من الشام بعد رحلة كان قد قام بها للاستشفاء هناك •

---

(١) انظر فيما سبق، ص ٢٥٣ ، ابن‌هشام، السيرة، ص ١١٣–١١٦ •
(٢) قارن السيرة لابن هشام ، ص ١١٥ •

وفي ذلك يروي في الحديث : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة في النار » يعني أحشاءه ، لانه الذي بحر البحيرة ، وسيب السائبة ، وحمي الحامي ، وغير دين اسماعيل ، ودعا الى عبادة الاوثان [1] • مما يعني ان عمرو بن لحى هو الذي نظم امور العبادة في الكعبة التي صارت بيتا للاصنام ، كما سنشير الى ذلك •

المضريون في مكة :

والظاهر ان مضرا كانت قد بدأت تقترب من مكة اذ تقول بعض الروايات ان كنانة ساعدت خزاعة في التغلب على جرهم [2] ، وان بني بكر ابن عبد مناه شاركوا خزاعة في ولاية البيت فكانت لهم من ذلك ثلاثة اشياء :

١ — الاجازة بالناس يوم عرفة (لبني الغوث بن مرة) •

٢ — الافاضة بالناس غداة النحر من جمع الى منى (لبني زيد بن عدي) ، وانتهى ذلك الى أبي سيار منهم ، الذي ظل يدفع بالناس طوال ٤٠ (اربعين) سنة ، على حمار •

٣ — نسيء الشهور الحرام ، وكان لبني مالك بن كنانة ، وانتهى الى رئيسهم الذي كان يلقب بالقلمس • وكان عند صدور الناس من مكة ، يقول : « اللهم اني أحللت احد الصفرين ، ونسأت الاخر للعام المقبل » •

وفي ذلك قال عمرو بن قيس ، وهو من بني فراس :

---

(١) قارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٧٦ وما بعدها •
(٢) قارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ١١٣ — ١١٤ (حيث يقول : وقريش اذ ذاك حلول وصرم — اي جماعات متقطعة — وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة) •

ونحن الناسئون على معد   شهور الحل نجعلها حراما [١]

والظاهر ان الخزاعيين من بني حبشية عادوا واستقلوا بولاية البيت دون بني بكر بن عبد مناه . وتجمع الروايات فعلا على ان آخر من كانت له ولاية البيت هو عمرو بن الحارث المعروف بأبي غبشان الخزاعي ، وانه الذي باعها لقصي بن كلاب .

في هذا الوقت كان القرشيون وأقاربهم من الكنانيين والمضريين يقيمون حول مكة وهم بدو أو أشبه بالبدو ويكرون جمالهم لمن يريد من أصحاب المتاجر . وصارت قريش مع مرور الوقت تنقسم الى جماعتين : احداهما قريش البطاح ، وهم ولد قصى بن كلاب ومن معهم من بني كعب بن لؤي ، والاخرى قريش الظواهر وتشمل من سواهم من القبائل . وقريش البطاح هم الذين سكنوا أودية مكة وشعابها ، أما قريش الظواهر فهم الذين كانوا خارج مكة على أقل من مرحلة ، أما من كانوا على أكثر من ذلك فسموا قريش الضواحي . وكان أهل الظواهر والضواحي بادية لأهل البطاح أي منتجعا لابلهم ، اذ كان أهل الضواحي أحياء بادية وظعونا ناجعة من بطون قيس وخندف التي سبق ذكرها ، كما صارت كنانة أيضا بادية لقريش .

وهكذا تقدمت قريش على كنانة ثم على مضر كلها ، وكان التقدم فيها لبني لؤي بن غالب بن فهر ، وكان سيدهم هو زيد بن كلاب المشهور بقصى بن كلاب [٢] .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ ، وقارن البلاذري ، ص ٤٨ .

قصى بن كلاب وتحضير قريش وتمدين مكة [١] :

كان قصى رضيعا عندما توفي والده وتربى في بلاد بني عذرة في كنف زوج أمه ربيعة بن حرام بن عذرة . ولما شب قصى وعرف نسبه عاد الى مكة ، حيث كان يلي أمر البيت حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي الذي توسم النبوغ فيه ، فأصهر اليه وزوجه من ابنته حبى . وأنجب قصى أربعة أبناء ، هم :

عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزي ، وعبد قصى .

ولما كثر ولده وزاد ماله رأى أنه أولى بولاية البيت وبالهيمنة على كل مكة دون خزاعة وبني بكر ، وذلك لشرفه ولصلة النسب مع ابن حبشية . وكان من الطبيعي ألا ترضى خزاعة عن ذلك ، وأن يكون الفصل في الامر الى السيف . وهناك رأى قصى أن يستنفر رجال قريش فأجابوه ، كما طلب المعونة من أخيه لأمه رزاح وأخواله العذريين فجاؤه مع حلفائهم من قضاعة وهم مجمعون على نصرته .

وهاجت الحرب بين قصي وخصومه من الخزاعيين ، ولما فشى القتل بينهم دون الوصول الى نتيجة حاسمة رأوا حقن الدماء واللجوء الى تحكيم بعض أشراف العرب ـ كما كانت العادة ـ ليقضي بينهم . وكان الحكم الذي وافقوا عليه هو يعمر بن عوف بن كعب الكناني الذي قضى لقصي ضد منافسيه . وهكذا آلت ولاية البيت الى قصى بن كلاب الذي استقر في مكة وجمع شتات قريش من منازلهم في الظواهر والضواحي من بين كنانة وأنزلهم في مكة وفي شعابها التي قسمها رباعا بينهم . وأذن للناس في قطع الشجر للتوسعة على الناس والاستعانة بأخشابها في بناء المنازل .

---

(١) قارن ابن هشام ، ج ١ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ، ١٢٣ وما بعدها .

وكان قطع الاشجار ، وهو الامر الذي ينسب الى الفساد ، موضوعا لجدل بين العلماء حتى قال بعضهم أن قصيا « أباه ، فبنوا والشجر في منازلهم »• ثم اضطروا الى قطعه فيما بعد ، وهو الامر الذي يراه البلاذري « أشبه بالحق » • وبذلك استقرت بطون قريش في منازلهم التي صبحهم بها الاسلام • ولهذا السبب سمي قصي « مجمعا » وهذا ما دعا بعض الكتاب الى القول ان التقريش يعني التجميع وان أول من سمي بقريش هو قصي • وفي قصي قال الشاعر :

قصي لعمري كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر [1]

دار الندوة :

وأصبحت دار قصي أشبه ما تكون بدار الامارة يتشاور فيها الناس فيأمورهم فيمحضر قصى أو بعض أولاده، وخاصة فيما يتعلقبأمور الزواج التي كانت لا تتم الا في دار قصي وكذلك مسألة تقرير الحرب والسلام مع القبائل الاخرى •

والظاهر انه عندما استقرت أمور القرشيين وتأكدت هيمنة قصي على كل القبائل ، ضاقت داره عن القيام بدورها في ترتيب أمور الحكم والادارة فقرر أن يبني دارا لاجتماع رؤساء القبائل يتشاورون فيها في مصالح

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ ، وقارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ١٢٤ — ١٢٨ ، وقارن البلاذري (ص ٥٠) الذي يغير الشطرة الاولى من هذا البيت ويتبعه ببيت ثان يشير فيه الى اسم قصى الحقيقي وهو زيد :
ابوكم قصى كان يدعا مجمعا   . . . .
وانتم بنو زيد وزيد ابوكم   به زيدت البطحاء فخرا على فخر
(و ص ٥٨ عن قطع الشجر) .

المدينة المختلفة ، هي التي عرفت باسم « دار الندوة » • وكان بناؤها بجوار الكعبة وجعل بابها في مقابل المسجد الحرام • وهكذا تميزت قريش بدار الندوة التي صارت « مجتمع الملأ من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم » أو مجلسا للشيوخ بلغة العصر • « وفيها كانوا ينتدون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم ويعقدون الالوية ، ويزوجون من أراد التزويج » [1] •

وفيما يتعلق بأمور الدين وحجابة البيت تصدى قصى لاطعام الحاج وسقايته لانهم ضيوف الله وزوار بيته• ولما كانت كل هذه الامور تتطلب الاموال للنفقة عليها ، قرر قصى اتخاذ اجراءات مالية ما كانت العرب ترضى بها من قبل ، ففرض على قريش خراجا (ضريبة مالية) يؤدونه اليه، فقبلوا ذلك عن طيب خاطر [2] •

وبذلك تأكد سلطان قصى في مكة التي اتسعت وزادت رباعها وأحياؤها ، والتي أخذت شكل الامارة المنظمة ، وصارت اليه ولاية البيت من : الحجابة والسقاية والرفادة ، الى جانب رئاسة اجتماعات دار الندوة ، وفوق ذلك كانت له قيادة الجيوش وهو « لواء الحرب » • وهكذا أصبح قصي هو الباني الحقيقي لمكة والمؤسس لنظمها ، وذلك في مطلع القرن الخامس الميلادي على وجه التقريب ، وحق للكتاب ان يقولوا انه كان أول من أصاب ملكا أطاع له به قومه من بني لؤي بن غالب ، كما حق لهم ان يقولوا : « وكان أمره في قومه كالدين المتبع » [3] • فلم يكن

(١) قارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، والبلاذري (ص ٥٢) الذي يضيف ان دار الندوة صارت دار الامارة بمكة ايام معاويه
(٢) قارن ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٣٠ •
(٣) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ ، وقارن البلاذري ، أنساب الاشراف (ص ٥٢) ، حيث يقول : « كان امر قصى عند قريش دينا يعملون به ولا يخالفونه » .

من الغريب أن يرث أبناؤه شرف الرئاسة على قريش في مكة • وبدأ ذلك على أيام قصى نفسه بعد أن طعن في السن فعهد بما كان له من الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء لابنه الاكبر عبد الدار الذي كان مضعوفا ، كما يقول البلاذري [1] •

خلفاء قصى : الصراع بين بني عبد الدار وبين عبد مناف :

ولكنه ما ان توفي قصى حتى بدأ الصراع بين القرشيين الذين انقسموا – مع مرور الوقت – على أنفسهم تبعا لما قام من المنافسة بين بني عبد الدار أصحاب السلطة وبين بني عبد مناف الذين كانوا قد شرفوا وعلا شأنهم ، عن طريق التجارة والثراء ، على ما يظن ، وبدأوا يطالبون بنصيبهم في ادارة شئون المدينة التجارية المقدسة •

وانقسمت قريش التي كانت قد تفرعت الى ١٢ (اثني عشر) بطنا [2] على الوجه التالي :

١ – بنو عبد مناف وعلى رأسهم عبد شمس (الابن الاكبر لعبد مناف وأسن ولد قصي) ، ومعهم : بنو أسد (بن عبد العزي) ، وبنو زهرة (أخو قصي الاكبر – ابن كلاب) ، وبنو تيم (بن مرة) ، ثم بنو الحارث (بن فهر) •

٢ – بنو عبد الدار أصحاب السلطة المستضعفون ، ومعهم : بنو عدي (بن كعب) ، وبنو سهم (بن عمرو بن هصيص) ، بنو جمح (بن عمرو بن هصيص) ، ثم بنو مخزوم (بن يقظة بن مرة) •

---

(١) أنساب الاشراف ، ص ٥٣ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(٢) قارن المسعودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٦٩) الذي يقول : ان قريشا كانت ٢٥ بطنا ، وفي اختلاف قريش بعد قصى قارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

٣ – أما بنو عامر (بن لؤي) ، وبنو المحارب (بن فهر) فانهم اعتزلوا الفريقين •

وأخذ الحلفاء من كل من الجانبين يؤكدون حلفهم حسب العادات المتعارف عليها بين العرب وقتئذ • فأحضر بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا جعلوا حلفاءهم يغمسون أيديهمفيها ويحلفون عند الكعبة تأكيدا للتحالف، فسمي لذلك « حلف المطيبين » •

وبذلك بدأ الاستعداد للقتال وسويت القبائل بعضها ازاء بعض : « فعبّت بنو عبد الدار لبني أسد ، وبنو جمح لبني زهرة ، وبنو مخزوم لبني تيم ، وبنو عدي لبني الحارث » • ولكنه قبل أن تبدأ الحرب بين الاشقاء نجحت مساعي الساعين في الصلح الى تسوية رضي عنها الفريقان • وقضى الاتفاق بأن يسلم بنو عبد الدار بعض ما كان يخصهم من أعمال الشرف والسيادة ، من : السقاية والرفادة الى عبد مناف ، وأن يختصوا هم بالحجابة واللواء [1]

هاشم بن عبد مناف :

وأخذ بني عبد مناف سقاية الحاج واطعامه يدل على أنهم كانوا

(١ قارن ابن‌هشام ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، وقارن البلاذري (ص ٥٣–٥٧) الذي يقول عن الحجابة انها انتقلت في بني عبد الدار ابنا عن أب ، الى : عثمان وعبد العزي وطلحة وطلحة بن طلحة . عندما فتح النبي مكة دفع مفتاح الكعبة الى عثمان بن طلحة الذي أسلم سنة ٨ وشارك في غزو مكة ثم قام بالحجابة ابن عم عثمان وهو شيبة وبقيت في عقبة ايام البلاذري . وكذلك كان لواء الحرب في بني عبد الدار في غزوة بدر وفي غزوة أحد، وانه لما أسلم بنو عبد الدار، طلبوا من النبي ان يكون اللواء اليهم ، ولكنه قال : الاسلام اوسع من ذلك ، فبطل اللواء .

أغنياء مياسير بفضل عملهم في التجارة ما بين اليمن والشام . وفي ذلك يقول الطبري ان الذي قام بأمر بني عبدمناف هو هاشم ـ واسمه عمرو ـ الاخ الثاني لعبد شمس (وجد الرسول) ليساره وقراره بمكة وتقلب أخيه عبد شمس في التجارة الى الشام ، فأحسن هاشم ما شاء في اطعام الحاج واكرام وفدهم . وفي ذلك يقال انه أول من أطعم الثريد ، ولذلك لقب بهاشم لانه كان يهشم الخبز للثريد . وكانت وفاة هاشم في غزة أثناء بعض رحلاته الى الشام يعني أنه كان هو الآخر يتقلب في التجارة والا لما أمكنه جمع المال اللازم للانفاق على الطعام وسقي الماء للحاج [1] وكان الماء في بعض الاحيان يحلى بالسكر والعسل او بالتمر والزبيب .

ورغم ما تقوله الرواية من أن هاشما توفي بغزة حيث كان متجره بها وبناحيتها وله من العمر ما بين عشرين وخمس وعشرين سنة [2] ، فان الكتاب يصورون الجد الثاني للنبي وهو الشاب الصغير وكأنه الذي أرسى قواعد التجارة في مكة وبين قريش . فهاشم ـ كما يقولون ـ هو صاحب ايلاف قريش الرحلتين ، وأول من سنها ، مما جعل ابن خلدون يحتج على هذا الرأي في نظريته التي تقول ان رحلتي الشتاء والصيف من عوائد العرب من قديم الزمان ، وأنها الاصل في معنى البداوة او العروبية [3] . هذا ، ولو ان الحقيقة ان الكتاب عندما تحدثوا عن رحلتي قريش لم يقصدوا النقلة العادية لعرب البوادي عن موطنهم الشتوي الى مستقرهم الصيفي حيث يتوفر الماء ، بل انهم نصوا على الرحلتين التجاريتين لتجار

---

(١) انظر ابن هشام ، ج ١ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، والسدوسي ، حذف من نسب قريش ، ط. القاهرة ١٩٦٠. بمعرفة صلاح المنجد ، ص ٣ .
(٢) البلاذري ، ص ٦٣ .
(٣) انظر فيما سبق ، ص ٢٤٢ .

قريش ، وكانت الشتوية منهما تسير الى اليمن والحبشة والعراق بينما كان مقصد الصيفية بلاد الشام [1] .

ومن المجهودات التي قام بها هاشم في سبيل انعاش تجارة قريش ، ما يقال من أنه « أخذ لهم عصما من ملوك الشام ، فتجروا آمنين » . وبعد هاشم سار خلفاؤه في سياسة عقد المعاهدات مع الدول المجاورة من أجل تأمين متاجرهم ، كما فعل أخواه عبد شمس مع ملك الحبشة ، ونوفل مع ملوك العراق ثم ابنه المطلب مع ملوك اليمن [2] . وبذلك تأمنت تجارة قريش في كل أطراف بلاد العرب ، وكثرت أموالهم وزاد عزهم بين قبائل العرب [3] .

وتنافس القرشيون في قرى الضيف ورفادة الحاج وبلغت المنافسة الذروة عندما تنافر أمية بن عبد شمس وهاشم على خمسين ناقة تنحر بمكة والجلاء عشر سنين عن المدينة المقدسة ، وانتهى تحكيم الكاهن الخزاعي بفوز هاشم وخروج أمية الى الشام . وينص البلاذري على أن ذلك كان أول عداوة وقعت بين الهاشميين والامويين [4] .

---

(١) انظر البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٩ .
(٢) البلاذري ، ص ٥٩ .
(٣) وفي هذه المعاني قال مطرود بن كعب الخزاعي (البلاذري، ص ٦٠ :

يا أيها الرجل المحوّل رحله ... هلاّ نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ... ضمنوك من جوع ومن أقراف
الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الايلاف
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ... حتى تغيب الشمس في الرجاف
والمفضلون اذا المحول ترادفت ... والقائلون هلم للاضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي

(٢) انساب الاشراف ، ص ٦١ .

رئاسة عبد المطلب (١) :

وكان هاشم اثناء رحلاته التجارية الى الشام يمر بالمدينة ، وكانت له بأهلها علاقات قوية انتهت بالمصاهرة ، فقد تزوج من بعض نساء يثرب من بني عدي ، أنجبت له ابنه عبد المطلب الذي كان اسمه في أول الامر شيبة أو شيبة الحمد . وتربى شيبة في كنف أخيه الاكبر المطلب — الذي اشتهر بلقب الفيض — حتى نسب اليه فأصبح عبد المطلب . وعندما مات المطلب في بعض رحلاته التجارية في اليمن آلت سيادة بني هاشم الى عبد المطلب، فكانت له الرفادة والسقاية للحاج الى جانب نشاطه التجاري ، الذي أصبح صناعة القريشيين .

وتصف الروايات عبد المطلب ، الذي « كانت له وفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة » ، بأنه كان جميلا ، حسن الوجه ، تام الخلقة ، له غديرتان ، أهدب الاشفار ، دقيق العرنين أشمه ، رقيق البشرة ، سهل الخدين . وأنه كان يصبغ شعر رأسه ولحيته بالخضاب ، وأنه أول من استخدم في ذلك الوسمة التي كان يأتي بها من اليمن . وفي أخلاقه ، قيل : انه كان أعظم الناس حلما ، وأبعدهم من كل موبقة ومذنبة تفسد الرجال، وأنه — لكل ذلك — صار من حكام قريش (٢) .

والظاهر ان سيادة عبد المطلب لمكة والقريشيين ومن كان هناك من خزاعة وغيرهم لم تتحقق له بسهولة . فهذا ما يفهم من أنه بعد وفاة المطلب وثب نوفل بن عبد مناف على ما كان لعبد المطلب من الاركاح ،

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، وقارن البلاذري ، ص ٥٨—٨٧ ، السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٣٧ وما بعدها .
(٢) قارن البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٦٥ ، ٦٧—٦٨ ، ٧٢ .

وهي الساحات والافنية ، حتى اضطر عبد المطلب الى طلب المعونة من أخواله بني النجار الخزرجيين في يثرب (١) . والظاهر انه بسبب منافسة بني نوفل وبني عبد شمس له رحب عبد المطلب بعقد ذلك الحلف الذي تم عقده مع بني خزاعة والذي علق كتابه في الكعبة ، وكان ينص على التضافر والتعاون والنصرة بين الطرفين المتعاقدين « على جميع العرب ، في شرق او غرب ، او حزن او سهب . وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى به جميلا » (٢) .

والى جانب عبد المطلب كانت مكة تعترف بالسيادة والشرف لرجلين من زعمائها ، هما : حرب بن أمية بن عبد شمس ، الذي كانت علاقته بعبد المطلب تتراوح ما بين الصداقة والمنافسة ثم عبد الله بن جدعان ، غني مكة المشهور بالضيافة والكرم ، الذي اتخذه عبد المطلب — بعد حرب — نديما (٣) ، والذي عقد في داره حلف الفضول المشهور الذي تعاهدت فيه قبائل قريش على : ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته » (٤) .

حفر بئر زمزم :

ومن الاعمال الهامة التي قام بها عبد المطلب هو حفره لبئر زمزم ،

---

(١) البلاذري ، ص ٦٩ — ٧٠ .
(٢) البلاذري ، ص ٧١ — ٧٢ .
(٣) البلاذري ، ص ٧٣ — ٧٤ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ . وفي حلف الفضول هذا روي عن النبي انه قال : شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ،ولو ادعى به في الاسلام لاجبت .

والمفهوم أنه طهرها بعد أن كانت قد انطمرت • ولا نـدري لماذا وقفت قريش أمام مثل هذا العمل المفيد ، كما تقول الرواية [1] ، وهو من المرافق العامة ، وربما أنهم خافوا أن يغيض ماؤهـا ، كما كان يحدث في بعض السنوات • او انهم كانوا يحرصون على عدم المساس بها ، لما كان لها من المكانة العظيمة في نفوسهم • هذا ولو ان ابن هشام يشير الى أنهم كانوا يريدون مشاركة عبد المطلب فيها ، وان الخصومة في ذلك تطلبت الاحتكام الى كاهنة بني سعد هذيم على مشارف الشام [2] •

وبعد أن حفرت زمزم جعـل لها عبد المطلب حوضا لتسهيل سقاية الحاج • هذا ، كما اتبع حفر البئر بتذهيب حلية الكعبـة ، واتخاذ بـاب حديد لها ، للمحافظة على هذه الذخائر ، وهو ما يقتضيه الحال •

وبمناسبة حفر زمزم تقول الرواية ان عبد المطلب ، الذي عز عليـه معارضة من عارضه من القريشيين ، « نذر لئن ولد له عشرة من الولد ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم قربانا لله عند الكعبة » [3] •

---

(١) انظر ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، وقارن البلاذري (ص ٧٨–٧٩) السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١١١ وما بعدها وص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٤٤ •

(٣) هذا ولو ان الرواية تقول ان جرهما كانت قد دفنتها عند اخـراج خزاعة اياها من مكة (البلاذري ، ص ٧٨) . وهو الامر الـذي لا يسهل الاخذ به في منطقة يعز فيها الماء ولهذا رجحنا أنها كانت قـد انطمرت جزئيا وأن الامر كان يتطلب تطهيرها وتعميقها . امـا عمـا وجد فيها من الحلى والتماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمرصعة بالجوهر ، فنظن أن ذلك ربما كان من متعلقات الكعبة ودفائنهـا ، مما كان يقدم الى الآلهة من النذور والهدايا ، كما سيأتي ، خاصـة وان ابن هشام يقول ان عبد المطلب حفر في الموضع بين وثنى اساف ونائلة حيث كانت تنحر الذبائح المقدمة للكعبة (السيرة ج ١ ص١٤٦) وقارن البلاذري الذي يقول ان النذر تم بمناسبة الانتهاء من حفـر بئر زمزم رغم معارضة بني نوفل •

وبصرف النظر عن القدر الذي تحتمله هذه الروايـة من الصحـة ، فالمهم أنها تعرفنا ببعض العادات والتقاليد التي كانت متداولة بين العرب مما يتعلق بالمعتقدات الدينية والتنظيمات الاجتماعية •

فعندما كبر أبناء عبد المطلب العشرة قرر الوفاء بالنذر ، فأتى بهم الى الكعبة وضرب عليهم القداح أمام هبل الصنم الاعظم الذي كان في جـوف الكعبة على البئر التي كانوا ينحرون فيها هدايا الكعبة • وكانت النتيجـة خروج القداح على عبد الله والد النبي • ولما كان عبدالله هو أصغر أبناء عبد المطلب فلا بأس من أن تكون عادة التضحية بالابن الاصغر ، وأغلب الظن أن يكون ذلك وهو طفل رضيع — اذا كان صحيحا • ورفضت قريش أن ينفذ عبد المطلب نذره الخطير ، وانتهت المشاورات في الامر بسؤال العرافة التي كانت بالمدينة يثرب • وسار الوفد المكلف بذلك الى يثـرب ووجد العرافة في مهمة في خيبر — مما يحتمل معه أن تكون هذه العرافـة من اليهود — فذهبوا اليها هناك • وكان الحل الذي رأته العرافـة هـو الفدية بأن يقرب « الذبيح » وعشر من الابل من الالـه وتضرب عليهـم القداح ، وتستمر زيادة عشرا في كل مرة الى أن تخرج القـداح عليهـا فتنحر ، وقد رضي الاله • وبلغت الفدية في عملية الرهان المثيرة الى مائة من الابـل [1] •

هذا والى جانب ممارسة الطقوس الدينية التي كان متعارفـا عليهـا عند العرب ، مما كان يقوم به عبد المطلب في شبابه — على ما نظن — يروي الكتاب عنه ، في أواخر أيامه أنه كان « أول من تحنث بحراء » • والتحنث عندهم هو التأله والتبرر • فكان عبد المطلب اذا أهل هلال شهر رمضان،

---

(١) قارن ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٥١ — ١٥٥ •

دخل غـار حراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر [1] . ومثل هذا كان يفعل النبي قبيل البعثة .

أما أهم أعمال عبد المطلب السياسية فهو نجاحه في حماية مكة من الهجوم الذي قامت به القوات الحبشية في اليمن بأمر ابرهـة ، وذلك في وقعة يوم الفيل المشهورة ، قبيل مولد النبي . ولقد انتهت الحملة بتشتت جيش ابرهة في وباء الحصبة أو الجدري الذي ألم به ، والـذي ربمـا صاحبته ما نزل عليهم من السماء من سيول الماء ومن حجارة المكيين الذين كانوا قد خرجوا الى الجبال للتحرز فيها بأمر عبـد المطلب [2] ، وهذا ما يمكن ان يكون تأويلا مقبولا للآيات التي نزلت في هذا الامر [3] .

---

(1) البلاذري ، ص ٨٤ ، وانظـر المسعودي (مروج الذهـب ، ج ٢ ، ١٠٣) الذي يقول في عبد المطلب انه كان مقرا بالتوحيـد ، مثبتـا للوعيد ، تاركا للتقليد .

(2) انظر ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٦١ ــ ٦٢ ، وقارن وهب بن منبـه ، التيجان ، ص ٣٠٣ (عن الحصبة والجدري) ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ٥٠ (عن التحرز في شعب الجبـال) ، ص ٥٤ (عن ظهور مرض الحصبة والجدري بأرض العرب لاول مرة في ذلك العام) . وقارن البـلاذري ، ص ٦٧ ــ ٦٨ ، وقـارن المسعـودي (مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٠٤) حيث يقول ان عبد المطلب أمـر قريشا ان تلحق ببطون الاودية ورؤوس الجبال من معرة الحبشة .

(3) القرآن الكريم ، سورة الفيل (رقم ١٠٥) : « الم تر كيف فعل ذلك بأصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » ، وانظر ابـن هشـام ، السـيرة ، ج ١ ، ص ٥٤ ــ ٥٥ (في تفسير الابابيل = الجماعات ، سجيـل = كلمتـان فارسيتـان ، همـا : سنج = حجر ، جل = الطين أي حجارة من طين)

وعندما كبر عبد الله أصغر أبنائه زوجه عبد المطلب بآمنة بنت وهب ابن عبد مناف ، فحملت بالرسول الذي شاهد جده عبد المطلب وهـو في سنواته الاخيرة ، كما حظي برعايته وحنانه وهو غلام جفر يتيم الابوين ، فكان يؤثره بأطيب طعامه ، ويقبل رأسه ويمسح ظهره ، وكان رقيقا عليـه بآدابه [1] . وهكذا أقام عبد المطلب (الذي عاش أكثر من مائة عام) في رياسة قريش بمكة ، كما يقول الطبري، والكون يصغي لملك العرب والعالم يتمخض بفصـال النبـوة الى أن وضح نـور اللـه من أفقهم وسرى خبر السماء الى بيوتهم ... وصارت العزة لمضر ولسائر العرب بهم .

---

(1) البلاذري ، ص ٨١ وابن هشام ، ج ١ ، ص ١٦٨

الفصل الثامن

أحوال العدنانية قبل ظهور الاسلام

حياة البادية

على عكس الحياة الحضرية السهلة التي عاشها عرب اليمن حيث عاش الأزد الذين هاجروا الى الشمال واستقرت جماعات منهم في الحجاز وهم في طريقهم الى الشام ، وحيث كانت لهم بفضل السد من الجنات ما لا يحاط به ، كما يقول وهب بن منبه ، حتى « كانت المرأة تمشي من بيتها وعلى رأسها مكتل فلا تصل الى بيت جارتها الا وهي تملؤه من كل فاكهة، من غير أن تمس منها شيئا » [1] . كانت حياة عرب الشمال في بواديهم صعبة قاسية .

فهم بدو رحل يعيشون على تربية قطعان الاغنام والماعز والجمال . ورعاة الابل وخاصة ما يعرف منها بالمهاري ، مثل مضر ، كانوا أشد وأقوى من رعاة الغنم مثل أنمار — كما سبقت الاشارة — . وفي رعاة الابل يقول ابن خلدون : « وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا ، لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر ، وورود مياهه الملحة ... فاضطروا الى ابعا دالنجعة » . وهو يفسر وغولهم في القفار على أنه

---

(١) التيجان ، ص ٢٦٤ .

« نفرة عن الضعة منهم » ، ويبين أثر ذلك عليهم ، فيقول : « فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان العجم ، وهؤلاء هم العرب » [١] .

أما عن الحصان فهو حيوان كمالي رقيق لا يمكنه المعيشة في الصحراء القاحلة لحاجته الى الماء والعلف الذي لا يتوفر الا في الواحات ، ومع ذلك فقد أحبه العرب واقتنوه ، وأشتهرت منهم ربيعة بخيلها ، حتى سميت ربيعة الفرس ، وربيعة الخيل . وفي الخيل يقول هشام بن محمد بن السائب الكلبي : « كانت العرب ترتبط الخيل في الجاهلية والاسلام معرفة بفضلها ، وما جعل الله تعالى فيها من العز ، وتشرفا بها ، وتصبر على المخمصة واللأواء وتخصها وتكرمها وتؤثرها على الاهلين والاولاد ، وتفتخر بذلك في أشعارها ، وتعتده لها » [٢] .

وهكذا ، كانت ظروف المعيشة صعبة في الصحراء « اذ تقتصر على الضروري من الاقوات والملابس والمساكن ، وتقصر عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي » ، كما يقول ابن خلدون . فهم « يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة ، انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه . وأما أقواتهم فيناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج ألبتة الا ما مسته النار » [٣] .
فطبيعة البلاد قاسية ـ باستثناء الواحات المرتفعة على تخوم نجد

---

(١) المقدمة ، فصل في ان جيل العرب الخلقة طبيعي (تحقيق علي عبد الواحد ، ج ٢ ، ص ٤٠٨) .
(٢) انساب الخيل ، ص ٦ .
(٣) المقدمة ، ج ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٢ .

أو اليمن مثل الطائف ـ من حيث الحرارة المرهقة والارض البخيلة . والى جانب الحرارة الزائدة في الصيف ، هناك البرد القارس في الشتاء وخاصة في الهضاب المكشوفة والاغوار العميقة من ارض تهامة . والحر والبرد لهما أدبهما الخاص في لغتهم ، فطبقات النار أو جهنم ، هي : الهاوية ، والجحيم ، ولظا ، وجهنم ، والسعير ، وأوديتها ، هي : موبق والزمهرير[١] . وفي ذلك يقال ان فارس الجاهلية المشهور عنترة بن شداد مات من البرد ، كما يقال انه مات من الحر . والبرد القارس يأتي مع رياح الشمال ، وفي ذلك يقال : « يوم شمال وقرّ » . وتسمى ريح الشمال الباردة « جماد » ، ومنه سمي شهر جمادي أي شهر البرد ، وهو شهر المطر . وآخر الصيف هو وقت القلق انتظارا لهطول المطر الذي يكون في أول أمره « ندي » ثم يكون « غيثا » أي غوثا او منقذا . وبعد سقوط المطر تبدأ رحلة الشتاء ، فيعود العرب الذين كانوا قد خرجوا الى شمال جزيرتهم الى قلب الصحراء وبوادي نجد للمشتى [٢] .

هذه الحياة القاسية كانت تعمل على القضاء على العناصر الضعيفة فلا تبقى الا على أصحاب المقاومة الشديدة ، القادرين على الحرمان . ومع ذلك فقد كان لها سحرها ، والاعراب ، كما هو معروف ، يحنون دائما الى الصحراء وحياة البادية عندما يغادرونها . وهذا ما يظهر بشكل رائع في قصائد شعرائهم ، وهذا ما فعله الامويون بعد أن سكنوا قصور دمشق فكانوا يخرجون منها الى قصورهم الصحراوية في بادية الشام حيث التحرر والانطلاق . فالعربي محب للحرية ، معتاد على حياة التنقل لا يرضى

---

(١) التيجان ، ص ٣٧ .
(٢) انظر لامنس ، مهد الاسلام (بالفرنسية) ، ص ١٨ وما بعدها .

بالخضوع للضيم او للنظام . وهذا ما يعبر عنه الفرزدق ، وهو يخاطب الامويين . قائلا :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي
وخلفي تميم والفلاة أماميا (١)

وفي ذلك يقول المستشرق الهولندي دوزي ، في مقدمة كتابه لتاريخ المسلمين في الاندلس ، عند حديثه عن العرب قبل الاسلام : ان النظام البدوي حقق لسكان جزيرة العرب ما حققته الثورة الفرنسية حديثا ، من : الحرية والاخاء والمساواة (٢) .

القبيلة :

والتنظيم الاجتماعي عندهم بدائي يتلاءم مع طبيعة البيئة ، وهو النظام القبلي . والقبيلة تكبر أو تصغر حسب تفرعات القبائل الذي يتوالى في عشر درجات تبدأ بالاصل الذي يعرف بالجذم وتليه طبقات : الجمهور والشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والعشيرة والفصيلة وأخيرا الرهط ، وهم رهط الرجل وأسرته (٣) . ويرى البعض أن هذا التقسيم الذي يشتمل على البطن والفخذ والفصيل مأخوذ من وصف الناقة التي هي معاش العرب . ويرى آخرون أنه مأخوذ من وصف المرأة أو الأم التي

---

(١) لامنس ، مهد الاسلام (بالفرنسية) .
(٢) انظر الترجمة العربية لحسن حبشي (ط. القاهرة ١٩٦٣) ، ج ١ ، ص ٧١ .
(٣) انظر فيما سبق ص ٢٤٥ ، وانظر محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ .

هي أصل القبيلة ، وهم يدللون على ذلك بأن النظام الاموي ـ الذي يعترف بالسيادة في الأسرة للزوجة أو للمرأة ـ كان فاشيا عند العرب . ومما يؤيد ذلك اتخاذ كثير من القبائل أسماء جداتها كأسماء لها ، مثل : خندف وطابخة وجديلة ومدركة ومرة وغيرها ، مما سبق .

وأفراد القبيلة تربطهم ـ نظريا على الاقل ـ رابطة الدم . وذلك أنه رغم غيرة العرب على أنسابهم ، واجتهاد القبيلة في الاحتفاظ بنقائها العرقي ، فان هذا لم يمنع اختلاط الانساب ، على المستويين الفردي والقبلي ، الذي يقع عن طريق القرابة أو الحلف أو الولاء أو اجارة من يفر من قومه بجناية أصابها . واللاجىء الغريب عن قبيلة يسمى في أول الامر لزيق او دخيل او حليف أو مولي ولكنه كثيرا ما ينسى ذلك ، مع مرور الوقت ، ويصبح من صلب القبيلة (١) .

ومن القبائل التي اختلف النسابة في أصلها قبيلة أنمار التي يرى البعض انها من العدنانية ويرى آخرون انها من اليمنية ، ومثل هذا يقال عن قبيلة قضاعة الكبيرة وعن قبيلة عك . أما عن أسماء هذه القبائل ، فمنها : كلب ، وكلاب ، وكليب ، ونمر ، وأسد ، وثور ، وعجل ، وجحش ، وعنزة ، وقريش . ولا ندري ان كان لذلك علاقة بما يعرف عند علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بـ « الطوطمية » ، وهو ان تتخذ القبيلة حيوانا أو نباتا تعتقد أنها تنتسب اليه أو أنه جدها (٢) ، كما اتخذ الترك الذئب

---

(١) انظر القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢١ .
(٢) عن الساميين ، الطوطمية واعتقاد العرب في ان لبعض الحيوانات قوة خفية ، مثل : الظباء والغزلان ، انظر محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ... ، ص ٩٩ وما بعدها .

الأغبر جدا لهم [1] • وأغلب الظن أن العرب تسموا بهذه الاسماء التي وجدوها في بيئتهم على سبيل التيمن والتفاؤل أو بمحض الصدفة والعفوية• هذا ، كما يجوز أن تكون مثل هذه الاسماء قد أعطيت لاصحابها كأسماء شهرة ، فالقوي يمكن أن يعرف بالثور ، والشجاع يمكن أن يعرف بالاسد ، والماكر يمكن أن يعرف بالثعلب ، وهكذا • ومثل هذه العادة ما زالت موجودة في مجتمعنا الآن •

ولقد لاحظ الكتاب العرب معاني هذه الاسماء العربية القديمة وصنفوها • فمنها ما هو للتفاؤل على الاعداء ، مثل : غالب وظالم وفاتك ومقاتل وثابت وطارق •

ومنها ما هو تفاؤل للابناء ، مثل : نائل ووائل وسالم وناج ومالك وسعد وسعيد •

ومنها ما فيه ترهيب للاعداء ، مثل : أسد وليث وضرغام ونمر وفهد

ومنها ما فيه تفاؤل بأسماء الشجر ، مثل : طلحة وسمرة وسلمة وقتادة

ومنها ما سمي بالغليظ من الارض ، مثل : صخر وحجر وجندل وقهر وحزن •

وفي مثل هذه الاسماء قيل ان بعض العرب سئل : « لم تسمون

---

(١) انظر مقالتنا في الترك عند الكتاب العرب وغيرهم ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، المجلد ١٠ ، ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٨١ • وفيما يتعلق بالاسماء عند الترك يلاحظ أنهم سموا ابناءهم بأسماء الحيوانات والجوارح الممتازة التي عرفوها وهابوها ، مثل سنجار = صقر ، طغرل = باز ، ارسلان = أسد ، كما سموهم بأسماء المعادن القوية ايضا ، مثل تيمور = حديد ، أتيلا = فولاذ ، التون : ذهب • نفسه (ص ٧٦) •

أبناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ! » • فقال : « انما نسمي أبناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا » [1]•

والى جانب ذلك تسمت القبائل والاشخاص بأسماء الآلهة التي عرفوها مع الاشارة الى العبودية لها ، مثل : عبد مناة ، وعبد اللات وعبد العزي وعبد القيس وعبد الدار وعبد مناف وعبد شمس وغيرها •

وأفراد القبيلة ينصبون على رأسهم سيدا أو شيخا ، يمكن أن يسمى برأس القبيلة أو ربها • وهذا الزعيم ليس مستبدا ، أي أنه ليس صاحب الامر المطلق ، اذا عليه أن يستشير غيره من الزعماء وأهل الرأي • ومع أن العادة كانت قد جرت على أن يخلف الابناء آباءهم في رئاسة القبيلة ، فالمعروف أن شيخ القبيلة كان ينتخب عادة من بين من يتصفون بالشرف وكبر السن والحلم والبلاغة والكرم والشجاعة • وفي هذه المعاني قيل عن زهير بن جناب الكلبي : « وكان سيدا مطاعا شريفا في قومه ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، والطب في ذلك الزما نشرف ، وحازي قومه ، والحزاة : الكهان ، وكان فارس قومه وله البيت والعدد منهم [2] • والتفاني في خدمة القبيلة والدفاع عنها يأتي فوق كل ذلك•

---

(١) انظر القلشقندي ، نهاية الارب ، في معرفة أنساب العرب ، ص ٢٢ ومما يلفت النظر اسماء ابناء وبرة بن تغلب ، وهي : كلب والنمر والاسد والذئب والثعلب والفهد والضبع والدب والسيد والسرحان والبرك والخشناء وعبس وضبة (الهمداني ، الاكليل ، ج ١ ، ط. ليدن ، ص ٧١) مما يرجح ان المسألة لا تتعلق بالطوطمية، كما يراها علماء الأنتروبولوجيا . انما هو تأمل في الطبيعة بما تحويه من جماد ونبات وحيوان . وفي الاسماء ودور الامومة انظر جواد علي ، المفصل ، ج ١ ، ص ٥١٨ ــ ٥٢٦ •

(٢) انظر توفيق فهد ، التنبوء العربي (بالفرنسية) ، ص ١٠٢ ، هـ ٥ (حيث النص) •

وفي هذا المعنى قال عامر بن الطفيل ، وقد صار سيد قبيلته بعد وفاة والده ، يفتخرو يعدد سجاياه الى جانب شرفه :

واني وان كنت بن سيد عامر ... وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر من وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكب [1]

والقبيلة يمكنها بفضل عددها وكثرتها أن ترغم غيرها من القبائل على الخضوع لسلطان شيخها ، كما يمكن أن ينضم اليها أفراد من القبائل الاخرى عن طريق ما ذكرناه في كيفية اختلاط الأنساب ، وتشابه الاسماء بين القحطانية والعدنانية حتى أصبح من الصعب التفرقة بين القبائل حتى عند علماء الأنساب [2] .

النساء :

ورغم ما هو معروف من ان النساء في مجتمع العرب الجاهلي كن في مرتبة أقل من الرجال ، اذ كان مجتمع العرب من النوع الذي يعرفه المشتغلون بعلم الاجتماع بمجتمع النظام الابوي أي الذي يسود الاسرة فيه الاب أي الرجل ، فمن المعروف أيضا أن النساء في كثير من القبائل كان لهن مركز ممتاز ، حتى اتنسبت كثير من القبائل ، كما سبقت الاشارة

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ وهامش ١ .
(٢) وانظر ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٢٤ (عند الحديث في ايام العرب حيث يذكر كيف أن قبائل بني جشم وبني شيبان كانوا اخلاطا في دار واحدة) ، وانظر فصل في اختلاط الانساب كيف يقع في مقدمة ابن خلدون (تحقيق عبد الواحد ، ج ٢ ، ص ٤٢٧) .

الى جداتها ، مما يرجح انتشار نظام الامومة أيضا [1] . ودون التعمق في البحث عن الامثلة التي تؤيد ذلك نكتفي بالاشارة الى كاهنات العرب ممن ظهرن قبل الاسلام بوقت بعيد مثل طريفة ، كاهنة الأزد ومستشارة عمرو مزيقياء ـ اذا جاز التعبير ـ وممن عاصرن ظهور الاسلام ، مثل سجاح متنبئة بني حنيفة .

ومما يدل على ارتفاع شأن المرأة حينئذ اصطحاب النساء في القتال ووقوفهن حول القبة التي يوضع بداخلها الآلهة والصنم ويرفرف فوقها لواء الحرب المقدس من أجل تحميس المقاتلة ، كما حدث في ذي قار [2]، وفي أحد حيث كانت نساء قريش تنشدن الرجال قائلات : « أن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق » [3] ، وحيث لاكت هند (والدة معاوية) كبد حمزة عم النبي . هذا ، ولو أن وجود النساء في المعارك كان يعرضهن للسبي اذا انهزم رجالهن ، كما حدث في يوم حنين حينما فقدت هوازن ذراريها ونساءها .

ويقول المختصون بدراسة علم الاجتماع ان الخوف من ذل وقوع النساء في الاسر والسبي في الغارات او الحروب كان من أسباب التجاء العرب الى وأد البنات ، وذلك الى جانب خشية الاملاق والفقر [4] .

(١) محمود جمعة ، ص ٧٥ .
(٢) انظر لامانس ، العربية الغربية قبل الهجرة ، ص ١١٣ .
(٣) نفسه ، ص ١١٢ .
(٤) وكانت قريش تفخر بأنهم « يغزون الناس ولا يغزون ، ويسبون ولا يسبون ، ولم تسبى قرشية قط فتوطأ قهرا الا تحال عليها السهام » ، معجم البلدان لياقوت (مكة) ، ط. ليبزج ، ج ٤ ، ص ٦١٩ .

ويقول علماء الاجتماع أيضا أن وأد البنات ربما كان مطلوبا أيضا من أجل تأكيد ما يسمونه زواج المشاركة ، وفيه تكون المرأة مشاعا لافراد العشيرة ، وهو الامر الذي نسبه سترابون الى عرب اليمن ، والذي ربما عرفته بعض عشائر العرب في الشمال (١) • والى جانب زواج المشاركة عرف العرب نكاح الاستبضاع الذي يهدف الى انجاب الولد من غير الزوج وبموافقته • واضمحل مركز المرأة عند جماعات من العرب بفضل الزواج بالميراث حيث كان الابن أو الاخ يرث نساء أبيه أو أخيه ، وهو ما عرف بزواج المقت ، والذي نزلت فيه الآية : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » (٢) • هذا كما تشير الروايات الى أن القرشيين تباعدوا في المناكح من البنت وبنت البنت والاخت غيرة وبعدا عن المجوسية ، مما يفهم منه ان هذه العادة كانت عند غيرهم من العرب (٣) •

وبطبيعة الحال لم تكن مظاهر انحطاط المرأة هذه شائعة عند كل العرب ، بل ان السبايا من النساء كان لهن قدرا لا بأس به في أنظار أزواجهن • وفي ذلك يقول حاتم الطائي مفاخرا :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكنا خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا (٤)

---

(١) انظر محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ، ص ١٩ •
(٢) محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ... ، ص ٢٣ – ٢٥ •
(٣) ياقوت ، المعجم (ط. ليبزج) ؛ ج ٤ ، ص ٦٢٠ •
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٩ •

ومع ذلك فالنساء في البادية كن يتمتعن بحرية أكثر من النساء في الحضر ، فقد كن لهذا السبب عاملات مجدات يقمن بكل الاعمال المنزلية ويساعدن الرجال في كل ما يقومون به من أعمال حتى في أوقات الحروب •

أما الرجال فكانوا يعملون بالرعي ويقودون القوافل الى جانب ما كانوا يشنونه على جيرانهم من الغارات • وكثيرا ما كان ذلك من أجل الاخذ بالثأر الذي صار عقيدة عندهم أو من أجل المغانم والسبي ، وكان في معظم الاحيان من أجل الفدية • حتى صارت الغارات صناعة قومية لبعض القبائل ، كما تخصص فيها كثير من الصعاليك والفتاك • وفي فتيات السبي الجميلات يقول عبيد بن الابرش :

وأوانس مثل الدمى ... حور العيون قد استبينا

ايام العرب :

هذه الغارات هي التي تعرف – على وجه العموم – بأيام العرب • والحقيقة ان هذه القبائل لم تكن على وئام فيما بينها ، وكانت أسباب النزاع كثيرة فيما بينها ، منها : تجاهل العرف المعمول به بين القبائل أو خرقه والأخذ بالثأر ، والغارة على القوافل أو الجيران ، وما شابه ذلك • ولقد صارت الغارة على الجيران عادة متأصلة عند بعض القبائل حتى أصبحت صناعة لها أو وسيلة لكسب الرزق • بل ان بعض هذه الغارات كان يمكن أن يقوم بها فرد واحد أو بضع أفراد ممن كانوا يعرفون بالصعاليك او الفتاك (ومفردها فاتك) • وعصر الجاهلية غني بأمثال هذه الاحداث التي تغنى بها الشعراء فيما هو معروف بأيام العرب •

ولقد اعتنى الاخباريون بجمع أخبار هذه الحروب الصغيرة ، وهي في معظمها من القصص الشعبي الطريف الذي تتخله قطع من الشعر •

واذا كان من الصعب ترتيبها زمنيا أو تاريخيا فانها مهمة من حيث التعريف لكثير من عادات العرب وتقاليدهم • فأدب الحرب فيها وثيق الصلة بالتقاليد الدينية والنظم الاجتماعية والحياة الثقافية • ومن أشهر هذه الايام :

خزاز والحنو :

يوم خزاز الذي انتصرت فيه العدنانية، بقيادة كليب بن وائل التغلبي على اليمنية بقيادة عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن شرحبيل القضاعي المشهور بـ مغرق، انتصارا افتخر به عرب الشمال على زعم أنه حررهم من نير اليمنية الذين كانوا يجبون منهم الجزية • وبطل هذا اليوم هو كليب بن وائل الذي عظم شأنه حتى ارتفع الى مصاف الملوك ، وهو الامر الجديد بالنسبة للعدنانية ، اذ ولوه الملك عليهم وأقسموا له بالطاعة وألبسوه التاج • ويمكن تحديد زمن الوقعة التي جرت قرب جبل خزاز بالعالية من حمى ضرّية (١) بأواخر القرن الخامس الميلادي •

ورغم الانتصار الذي حققه العدنانية في هذا اليوم فان اشادة شعراء كل من الجانبين بالطرف الآخر يدل على أن الحرب في خزاز كانت سجالا ، وانها دارت في حدود ما كان متعارفا عليه بين العرب من النبل والسماحة • ففي زعيم اليمنية عمرو بن زيد الذي أسر بغيض بن عنترة الاسلمي فمَنّ عليه بنفسه ، قال الحارث بن همام الشيباني :

غنينا في تهامة قاطنيها   ليالي العد في آل الجعيد
تدين له القبائل من معد   كما دانت قضاعة لابن زيد

(١) في موضع خزازا انظر الهمداني ، الاكليل ، ج ١ (ط. ليدن) ص ٨٦ (حيث يشير الى موضع آخر هو المهجم من أسفل وادي سردد) •

كما قال فيه بغيض بن عنترة :

عمرو بن زيد يقود الخيل يقدمها   له مخالب أظفار وأنياب
يعطي الجزيل ويحمي دون عقوته   وفي الحفائظ منان ووهاب

وفي يوم خزازا قال عمرو بن زيد نفسه :

كانت لنا بخزازا وقعة عجب   لما التقينا وحاد الموت يحديها
ملنا على وائل في وسط بلدتها   وذو الفخار كليب العز يحميها
وسار بعض الى بعض برايته   وقدمت لعوادينا عواديها
ثم اصطلينا ونار الحرب ساطعة   كأسد غاب تداعت من نواحيها
وفاز جمع كليب عند صولته   في حمير السم اذ زالت رواسيها
نلنا ونالوا كذا الايام نعرفها   لها صروف على الايام تخفيها

وكان من نتائج يوم خزازا ان قام عمرو بن زيد باجلاء قوم من بني ربيعة بن نزار عن تهامة ، كما هجّر بني حي بن خولان من هناك الى صعيد مصر ، في المراكب عبر البحر الاحمر • وعندما غرق بعضهم أطلق على عمرو لقب « مغرق » (١) •

ولقد انتقم عمرو بن زيد ليوم خزازا بالثأر من التغلبيين في يوم الحنو حيث قتل عتّاب جد عمرو بن كلثوم وكذلك حاطب بن حلزة

(١) الهمداني ، الاكليل ، ج ١ (ط. ليدن) ص ٨٤ ـ ٨٦ ، خزازا ، ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٢٠ وما بعدها ، وانظر زيدان ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ •

اليشكري سيد بكر بن وائل . وفي ذلك يقول عمرو بن حجر بن سعد الخولاني :

لنا البيت منها واللواء وسبقها وفينا رباط المقربات السلاهب
أليس أبونا قاد للحنو جمعه ففاز بعتّاب وعلّى بحاطب (١)

الصفقة او (المشقر) :

ويوم الصفقة الذي كان بين فارس وتميم ، وكانت تميم قد أغارت على قافلة (لطيمة) لكسرى أبرويز بن هرمز ونهبتها ، فانتقم منهم هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة الذي دعاهم الى طعام في عام شدة ومسغبة في أحد الحصون وقتلهم غدرا ولم يشفع الا في بعضهم ، فكساهم وأطلقهم يوم الفصح ، لانه كان على النصرانية . وفي ذلك قال الاعشى يمدحه :

بهم يقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الاله بما أسدى وما صنعا (٢)

وكان يوم الصفقة ــ نسبة الى اصفاق باب الحصن عليهم ــ في مطلع القرن السابع الميلادي أي قبيل الهجرة وقرب الوقت الذي أوقع فيه البكريون وبنو عجل بجيش فارس في ذي قار الذي يقارن بيوم خزاز من حيث أنه حرر العرب من ربق فارس ، كما حرر يوم خزاز المعديين من نير اليمن (٣) .

البسوس (او ايام بكر وتغلب) (٤) :

وأشهر الوقائع التي دارت بين العدنانية أنفسهم حرب البسوس

(١) الهمداني ، الاكليل ، ج ١ ، ص ٨٥ .
(٢) انظر ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٦٢١ .
(٣) انظر زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٥٦ .
(٤) انظر ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها .

التي جرت بين بكر وبين تغلب أثر مقتل كليب زعيم تغلب الذي بلغ مرتبة الملوك واستبد بالناس حتى جعل معظم الارض من حماه (أي من أرضه الخاصة المحرمة على الآخرين أو المحمية منهم) ، وقتل ناقة رجل نزل ضيفا على البسوس خالة جساس أخي جليلة زوجة كليب نفسه . ورأى جساس الاسبيل الى محو هذا العار الذي لحق به من استباحة حرمة جاره الا بقتل زوج اخته وزعيم بكر كليب بن ربيعة .

واشتعلت نار الحرب التي قادها أخو كليب وهو مهلهل ، الفارس والشاعر (خال امرىء القيس بن حجر الكندي) (١) ، الذي جز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب وجمع قومه للاخذ بثأر كليب . وسارت الحرب سجالا بين الفريقين : ففي أول لقاء لهم في يوم عنيزة كانا على السواء ، وفي يوم النهي كانت الدائرة لبني تغلب ، وفي يوم الذئاب ظفرت تغلب وقتلت بكرا مقتلة عظيمة ، وكذلك في يوم واردات انتصرت تغلب وقتل فيها همام أخو جساس وصديق مهلهل . وطالت الحرب العقيمة بين القبيلتين الشقيقتين لمدة أربعين سنة الى أن قتل جساس فبدأ السعي في الصلح الذي تم بعد الايقاع بتغلب وأسر مهلهل الذي أطلق بعد أن جزت ناصيته . وبالبسوس (خالة جساس) وبسراب (ناقة ضيفها) . ضرب العرب المثل في الشؤم ، فقالوا : أشأم من سراب وأشأم من البسوس .

داحس والغبراء (٢) :

أما يوم داحس والغبراء وهما فرسان ، فكان بسبب اختلاف على

(١) ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٢٥ (لقب مهلهلا لانه اول من هلهل الشعر ، وقصد القصائد) .
(٢) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ١١٩ ، ١٢٣ ، وابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٦٦ ــ ٥٨٣ ، وانظرزيدان ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧١ .

سباق خيل كان قد تراهن عليه حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان ، وقيس بن زهير سيد عبس صاحب الفرسين • وكانت مسافة الرهان قدر مائة وعشرين غلوة (أي رمية سهم) أما جائزة السبق فكانت مائة بعير • وضمرت الخيل من أجل المباراة وأعد الامناء لارسالها ، وعهد بالتحكيم في السبق الى عقال بن مروان بن الحكم • أما سبب الخلاف بين المتراهنين فهو ما دبره حذيفة من اعتراض داحس التي كان مقدرا لها الفوز •

وانتهى الخلاف بالحرب بين القبيلتين في عدد من الايام ، منها : يوم « العذق » الذي أسر فيه حذيفة ثم أطلق بعد أهدر دم ابنه بدر بن حذيفة بدم مالك أخي قيس • ومنها يوم جفر الهباءة أو يوم « البوار » الذي قتل فيه خذيفة مع ٤٠٠ رجل من فزارة واسد وغطفان ، وكان الفوز فيها لعبس التي خسرت عشرين رجلا • وأخيرا توقفت الحرب ، التي شارك فيها عنترة بن شداد بفرسه « الادهم » ، عند مطلع الاسلام بعد أن سعى في ذلك الحارث بن عوف المري وهرم بن سنان • وكانت عبس قد تشردت اثر يوم الهباءة ما بين هجر حيث الكنديين واليمامة حيث بني حنيفة ثم نجد حيث بني عامر ، حتى قلت رجالهم وهلكت ماشيتهم الى أن فضلوا الموت مع اخوانهم من ذبيان على الحياة مع غيرهم ممن كانوا يسيئون اليهم ولا يرون حرمة لهم •

الفجار (١) :

ومن أشهر الحروب التي وقعت بين قيس وبين كنانة تلك التي

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٧ ، ابن الاثير ، ج ١ ص ٥٨٨ (عن الفجار الاول والثاني) ، ص ٦٧٦ (**الفجار الاول** للانصار) ، ص ٦٧٨ (عن الفجار الثائي للانصار) •

عرفت بأيام الفجار نظرا لاستحلال المحاربين فيها المحارم مما اعتبر فجورا • وهي أربعة حروب : الاولى منها كانت لاسباب شخصية تافهة من التفاخر بين الشباب أو التعرض لبعض النساء في سوق عكاظ أو المطالبة بدين • ولم تصل الى درجة الحرب ، بل كانت شجارا امكن السيطرة عليه بسرعة • أما الحرب الثانية فهي الفجار الحقيقية (حوالي سنة ٥٩٠ م) وكانت بسبب الاعتداء على لطيمة النعمان بن المنذر التي كان قد سيرها في حراسة زعيم هوازن وهو عمرو الرحال ، وتعرض لها البراض بن قيس الذي كان فاتكا خليعا في حماية قريش •

ودارت الحرب بين هوازن وبين قريش وكنانة وحلفائهم من الاحابيش[١] ومن بني أسد • وكان من زعماء كنانة حرب بن أمية وعبدالله بن جدعان وهشام بن المغيرة (والدابي جهل) ، أما زعيم هوازن وسليم فكان مسعود ابن معتب الثقفي • ودارت الحرب سجالا : يوم شمطة ويوم العبلاء لهوازن ، ويوم عكاظ لكنانة وقريش الى ان انتهى الامر بالصلح ودفع الديات • وكانت هذه الحروب في أواخر القرن السادس الميلادي وحضر الرسول بعضها وهو شاب يافع مع أعمامه [٢] •

---

(١) الاحابيش ، هم : بنو الحارث بن عبد مناة كنانة ، وعضل، والقارة، والدبش من بني الهون بن خزيمة والمصطلق بن خزاعة ، وذلك لتحالفهم لان التحبش يعني التجمع (ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ــ ٥٩٤) • ولو ان الاقرب الى المنطق أن يكون الاحابيش هم جماعة السودان في مكة من حلفاء قريش ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد •

(٢) ويرفض الزهري ان بكون النبي مع قريش وقت الهزيمة والا لما انهزموا ، ويرد ابن الاثير بأن هذه الملة لا يعتد بها ، اذا كان أصحاب الرسول ينهزمون ويقتلون بعد الرسالة • ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٥٩٢ ــ ٥٩٣ •

وكان من نتائج حروب الفجار هذه ان قامت قريش بعقد حلف الفضول الذي تم في دار عبدالله بن جدعان ، وكان الساعي الى عقده الزبير بن عبد المطلب [1] .

ويضيف ابن الاثير الى فجاري قريش فجارين آخرين للانصار ، وذلك من بين الايام والحروب التي وقعت بين الاوس والخزرج قبل ظهور الاسلام ، والتي يذكر منها أكثر من ١٣ (ثلاثة عشر) حربا .

فجار الانصار الاول :

والفجار الاول للانصار سمي بذلك بسبب غدر الاوس ببعض غلمان الخزرج ممن كانوا رهائن لديهم . وموضع المعركة هو بعض بساتين يثرب اذ يسمى بالحدائق ، وكان على الخزرج زعيمهم عبدالله بن أبي بن ابي سلول بينما كانت قيادة الاوس لابي قيس بن الاسلت . وانتهى القتال الدامي ، الذي كاد يفني فيه بعضهم بعضا ، سجالا دون غالب أو مغلوب [2] .

فجار الانصار الثاني :

وكان فجار الانصار الثاني بسبب قتل الخزرج للرهائن عندهم من غلمان يهود بني قريظة وبني النضير ، مما جعل اليهود يتحالفون مع الاوس في حربهم ضد الخزرج [3] .

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٠ . وانظر فيما سبق ، ص ٢٩٥ .
(٢) ابن الاثير ، ج ١ ص ٦٧٦ .
(٣) ابن الاثير ، ج ١ ص ٦٧٨ .

بعاث :

وآخر ايام الاوس والخزرج قبيل الهجرة هو يوم بعاث الذي يعتبر استمرارا للفجار الثاني ، اذ شاركت فيه بنو قريظة وبنو النضير الى جانب الاوس . ودام الاستعداد لتلك الحرب اربعين يوما ، استنصر كل طرف خلالها بحلفائه من العرب. فكانت أشجع وجهنية الى جانب الخزرج. ووقفت مزينة الى جانب الاوس ومن معهم من اليهود . أما موضع المعركة فكان ببعاث من أرض بني قريظة ، وكان على الاوس حضير الكتائب بن سماك ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي وذلك ان عبدالله بن ابي ابن ابي سلول رفض مشاركة بقية الخزرج في معركتهم .

وبدأ القتال بانتصار مبدأي للخزرج ولكنه انتهى بكارثة مروعة بالنسبة لهم ، اذ لم يكتف الاوس وحلفاؤهم من اليهود بالاسراف في قتلهم بل انهم عمدوا الى ديارهم ونخيلهم فأحرقوها [1] .

وهكذا كانت التعاسة والبؤس يخيمان على يثرب قبيل هجرة الرسول اليها .

الصعلكة :

والى جانب ايام العرب تذكر اعمال الصعاليك من الفرسان اللصوص الذين كانوا يقومون ، بمفردهم بالغارات على القوافل او مضارب العرب من أجل النهب والسلب ، ولا يتورعون في سبيل ذلك عن القتل ، لا يمنعهم في سبيل ذلك وازع ولا ضمير ولهذا سموا أيضا بالفتاك . وكانت هذه الاعمال تتم بموافقة قبائلهم اذا كانت هذه ممن اتخذت النهب والسلب حرفة أو طريقا سهلا للحصول على الرزق ، ومنهم من كانت تتبرأ منهم قبائلهم وهؤلاء كانوا يسمون الخلعاء (مفرد خليع وهي في الاصل بمعنى المخلوع من قبيلته) .

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٦٨١ — ٦٨٤ .

تأبط شرا (١) :

ومن أشهر صعاليك العرب ثابت بن جابر الباهلي الذي عرف بلقب تأبط شرا ، لانه سرق صرة (جرابا) لحاو فيها حيات وهو يظن ان فيها مالا ، فتأبطها وعندما فتحها رفعت الحيات اليه رؤسها فالقاها وقتل الحيات وقال : « ضل عن سيده ولبده من حمل حتفه بيده » فصارت مثلا . وعرف تأبط شرا بسرعة العدو وطول النفس والجسارة ، اذ « كان أحد السرعان وكان يغير راجلا مسيرة سبعة أيام يمشي الليل ويختفي النهار . وكان أجسر أهل زمانه » . وفي سرعته يقال : ان « الخيل كانت تطلبه فلا تناله ويفوتها بسرعة ، وأنه كان يثير الظبى ثم يطلبه فيدركه » .

ولما كان اللصوص من الصعاليك قد اعتادوا على حياة الوحدة والتشرد في الصحراوات والفيافي المنقطعة بعيدا عن منال من يطلبهم ، فقد قيل في تأبط شرا : « كان غذاؤه العلهز وشحوم الحيات وهبيد الحنظل » كما زعمت العرب : « ان لحمه سم » . وفي حياة الوحدة والحرص والتيقظ التي تشبه حياة الوحوش يقال ان تأبط شرا هو القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوّت انسان فكدت أطير

رأى الله انى للبرية مبغض
ويشنوءهم لي مقلة وضمير

وشبيه بهذه المعاني، ما قاله فيه السليك بن السلكة، أحد الغرابيب:

ينام باحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا من خلال المسالك

وكان تأبط شرا يغير على قبيلتي هذيل ولحيان نهارا ، ويغير على

(١) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ٢٤٢ – ٢٤٦ .

القارة ليلا يتقي نبلها : « لانها كانت أرمى العرب بالنبل لا تخطىء ما تريد » وهم من قبائل عمرو بن مدركة . وكانت نهايته على أيدي بني هذيل عندما أغار عليهم فتبعوه بالخيل وقتلوه .

ذوقار الاول :

وغضبت قبيلة « اللص الشجاع » وهي باهلة لمقتله ، وقام ابن اخته « الهجال » يطلب بثأره « فحرم على نفسه الخمر حتى ينتقم لخاله تأبط شرا » . وانتهى الامر بالحرب بين القيسية من باهلة وغطفان وغيرها وبين هذيل ولحيان والقارة الذين كانوا ينزلون بموضع ذي قار . ودارت الحرب على الهذيليين الذين طلبوا النصرة من أقاربهم بني كنانة وبني خزيمة ولكن زعيم خزيمة عمرو بن بكر الاسدي المكنى بأبي الهزبر لم يستجب لنداء بني الشقيقة . وقال مقالته التي صارت مثلا : « من اشترى وجد قريب برضا بعيد اشترى خسرانا » . وهكذا دارت الدائرة في تلك الحرب التي عرفت عند الكتاب بـ « يوم ذي قار الاول » على اولئك الذين دافعوا عن حماهم الذي استباحه صعلوك القيسية تأبط شراه « فمن يوم ذي قار الاول هذا » صارت هذيل والقارة ولحيان أقل حي في مضر » كما يقول وهب بن منبه (١) .

وفي تأبط شرا ، قال ابن اخته الهجال بن امرىء القيس يرثيه :

أطرفك مأموم أم الوجد مانع   أم الاشوس الفتاك من ذاك شاسع
فتى كان شهم النفس للذل دافع   وان سيل عرفا فهو بالجود نافع
حديد؛ كنصل السيف ينهض للوغى   تلاعبه فيه السيوف القواطع
ينام باحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

(١) التيجان ، ص ٢٤٦ .

وما شاب من أعوام دهر تطاولت   عليه ولكن شيبته الوقائع
يغادي أناسا كل يوم بفتكة   وينأى فلا تأويه الا البلاقع

وعرفت الصعلكة أيضا في بعض القبائل ذات الشرف مثل قريش حتى قيل ان عبد الله بن جدعان وهو سيد القبيلة المهاب عاش حياة الصعلكة في شبابه. فقد أغار على مائة ناقة لسيد هوازن المعروف، كلاب بن ربيعة، مما جعل كلابا يرسل الى قريش : « ان سفيهكم أغار علي وطرد لي مائة ناقة فليس لكم ان تشهدوا سوق عكاظ ولي لديكم وبرة » . ولما كان سوق عكاظ يقع في وسط أرض القيسية فقد جزع تجار قريش الذين كانوا لا يستغنون عن دخول بلد من البلاد، وتشاوروا في أمر قتل عبدالله بن جدعان « حتى لا يجنى عليهم الجرائر فيطلبون بسيء » . وفر ابن جدعان الى القفار وحيدا . ويقال انه في خلال رحلة التشرد هذه « دخل سربا فوجد فيه جوهرا وياقوتا ولجين وعقيان » وأن ذلك سبب غناه [1] .

وأخبار هذه الايام سجلها الشعراء في أول الامر ، وكانت أشعارهم هي النواة التي انبنت عليها قصص هذه الحروب وأخبارها .

معتقدات وتصورات شعبية :

والحياة في التيه وفي القفار والبوادي ــ كما كانت الحال بالنسبة الى الصعاليك ــ كانت تثير في النفس الانفعال وتدفع الى تداعي التصور والخيال ، في عالم ما وراء المحسوس من الجن والشياطين والغيلان والعفاريت والاطياف والهوائف والنفوس والارواح. ولقد أفرد المسعودي لذلك بعض فصول طريفة في مروج الذهب [2] .

(١) التيجان ، ص ٢١٠ ، الاكليل للهمداني ، ، ج ٨ ص ١٨٣ .
(٢) وفي هذه الموضوعات ، انظر الدراسة التي قام بها توفيق فهد في كتابه بعنوان التأله والتنبؤ عند العرب :
Toufic Fahd, La Divination Arabe, Leiden, 1966.

النفس :

ففيما يتعلق بالنفس كانت لعرب الجاهلية مذاهب . فمنهم من تصور أن النفس هي الدم لا غير ، ولذلك سموا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم. هذا ، كما يروى ان الشنفري عندما سأل ابن اخته تأبط شرا عن كيفية فتكه برجل كان قد قتله ، رد عليه الصعلوك الذائع الصيت، قائلا : « ألجمته عضبا ، فسالت نفسه سكبا » ، فشبه دم القتيل بنفسه .
وفي هذا المعنى قال ابن براق :

وكم لاقيت ذا نجب شديد   تسيل به النفوس على الصدور [1]

الهــام :

وكانت جماعة أخرى ترى ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان، فاذا مات أو قتل لم يزل مطيفا به في صورة طائر ــ أطلقوا عليه اسم « الهام » ــ يظل يصرخ على قبر الميت مستوحشا . وأغلب الظن أن الهام كان طائر البوم نفسه ، اذ تقول الرواية انه كان يبدأ طيرا صغيرا ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم ، وهي تتوحش وتصدح ، وانه كان يوجد في الديار المعطلة وفي المقابر (النواويس) . وفي ذلك قال حاتم الطائي :

أتيت لصحبك تبغي القرى   لدى حفر صدحت هامها

وكان يعتقد في ان الهام كانت تبقى بالقرب من مساكن ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به . وفي ذلك قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبرني بما تستشعروا   فتجنبوا الشنعاء والمكروها

فكأن الاعتقاد في الهام رغم سذاجته كان بمثابة وازع أو رادع عن فعل المنكر بالنسبة لصاحبه [2] .

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .
(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٣ .

الغـول والسعـلاة :

واعتقدت جماعات أخرى في وجود الغول ، وهـو : « اسم لكـل شيء يعرض للسفار ، ويتمثل في ضروب من الصور ، ذكرا كان أو أنثى ، الا أن كلامهم على انه أنثى » • والمفروض ان الغول تتراءى وتتلـون ، خاصة في الليل في الخلوات والقفار ، وانها توقـد النيـران وتصـدح بالالحان ، فتوهم من يراها انها انسان فيتبعها فتضله عن الطريـق حتى يتوه • وفي تبدلها وتغيرها قال كعب بن زهير الطائي :

فما تدوم على حال تكون بها   كما تلوّن في أثوابهـا الغـول

وفي نيرانها وألحانها ، قال ابو المطرب :

فلله در الغـول ، أي رفيقـة   لصاحب قفر خالف وهو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت   حوالي نيرانا تلـوح وتزهـر

هذا ، كما روى عن عمر بن الخطاب انه شاهد الغول في بعض أسفـاره الى بلاد الشام (١) •

ورغم ما يقوله المسعودي من أنهم فرقوا بين السعلاة والغـول ، فالظاهر انهما اسمان لنفس الصورة التي تظهر في شكل انسان له أرجل عنز وعينان مفتوحتان بالطول على خلاف أعـين الناس • ففـي وصف السعلاة قال بعض الناس :

وحافـر العنز في ساق مدملجة   وجفن عين خلاف الانس بالطول (٢)

---

(١) انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٤ — ١٣٧ •

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٧ •

وفيما يتعلق بالغول ، قيل انها كانت تفر الـى بطون الاوديـة ورؤوس الجبال ، اذا صيح عليها :

يا رجل عنز انهقي نهيقـا   لن تترك السبسب والطريقا (١)

وفي الغول والسعلاة جميعا ، قال عبيد بن أيوب :

وساخرة مني ، ولو آن عينها   رأت ما رأت عيني من الهول جنت

أبيت بسعلاة وغول بقفرة   اذا الليل وارى الجن فيه أرنت (٢)

هذا الى جانب ما تصوره العرب من وجود النسناس الذي يتكلـم ويقول الشعر ، وعنقاء مغرب ، والعربد، مما يشكك المسعودي في وجوده ليس من طريق التعقل اذ ان ذلك غير ممتنع في القدرة •

العنقـاء :

والعنقاء طائر من أحسن الطير ، له وجه انسان وأربعـة أجنحـة وتوجد في بلاد قيس عيلان وهي تأكل كل الوحوش والصبيان • وفيهـا يقال : « جاء فلان بعنقاء مغرب » أي جاء بأمر عجيب (٣) •

الشياطـين:

ومنها الغدار الذي يكون في أنحاء من اليمن وفي التهائم وكذلك في صعيد مصر ، ويمكن أن يصيب الانسان بأنواع من المرض أو يوقع الذعـر في قلب من يراه حتى يقع مغشيا عليه اذا لم يكن قـوي القلب • ويعلـق المسعودي على ذلك بمنطقه العلمي ، فيقول : « ويمكن أن يكون ضربـا من السوانح الفاسدة والخواطر الردية ، أو غير ذلـك مـن الآفـات والادواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم » (٤) •

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٥ •

(٢) نفسه ، ص ١٣٧ •

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢١٠ — ٢١٣ •

(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ •

ويعتذر المسعودي عن عدم ذكره ما قاله المصنفون لكتب البدو ، كوهب بن منبه ، وابن اسحق وغيرهما ، من أن ما ذكره من هذه الكائنات وغيرها تنتج من بيض الجن التي تفلقت عن القطارب (مفردها قطربة) في صورة الهرة ، والابالس في البحور ، والمردة في الجزائر ، والغيلان في الخلوات والفلوات ، والسعالي في الحمامات والمزابل ، والهوام في الهواء وغيرها من الرواسق والحماميص [١] .

الهوائف والجان :

وكثر الاعتقاد في الهوائف والجان في الحجاز في الفترة التي ولد فيها الرسول وفي أولية مبعثه ، أي في أواخر القرن السادس الميلادي : وفي ذلك قيل ان الجن قتلت عددا من رجال مكة المعروفين ، مثل علقمة بن صفوان وهو جد مروان بن الحكم لأمه ، وحرب بن أمية ، ومرداس بن أبي عامر السلمي المغني [٢] . والجن كما توهمهم العرب نوعان : اعلاهم

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٨ حيث يشير بعد ذلك الى ان ما ذكره أهل الشرع مما وصفه ممكن غير ممتنع ولا واجب ، أما أهل النظر والبحث والذين يستعملون قضية العقل والفحص فيمتنعون مما ذكره ويأبون ما وصفه . وهو يعتذر لذلك بأن «المصنف حاطب ليل، فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم » .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٩ – ١٤١ ، وفي قتل علقمة قيل انه نازل واحدا من الجن ليلا في طريق مكة في موضع حائط حرمان ، وان كلا منهما قتل صاحبه . وفي مقتل حرب ابن امية قالت الجن بيتين من الشعر، هما: وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبرحرب قبر والدليل على ان الجن قالتهما هو انه لا يتأتى لاحد من الناس انشادهما ثلاث مرات متواليات دون ان يتتعتع . أما سبب مقتل مرداس المغني فلأن الجن كانت نهته عن ان يغني بأبيات من الشعر حملت عنه فلم ينته .

وأشدهم الجن ، واخفضهم واضعفهم الحن . وفي ذلك أنشد الراجز : مختلف نجرهم جنّ وحنّ [١] . هذا ، والحن ليست كلها شريرة فمنها الطيب الخير الذي يدل الضالين على الطريق [٢] .

القيافة والزجر والعيافة :

اذا كان ما اعتقد فيه العرب من الجان والغول والهوائف وغيرها أمرا طبيعيا تنتج عن توحدهم في القفار وتفردهم في الاودية مما يؤدي الى التفكر الذي يؤدي الى الجبن الذي يؤدي بدوره الى الظنون الكاذبة والاوهام المؤذية ، مما يصور له الاصوات ويمثل له الاشخاص ويوهمه المحال ، كما يعرض لذوي الوسواس [٣] ، فان القيافة والزجر والتفاؤل والتطير أمور يدركها الفطن من الناس والمتدرب الظنن . وينص المسعودي على أن العرب اختصوا بهذه الامور دون غيرهم ، وانها ان وجدت عند بعض الامم كالافرنجة فيمكن ان يكون ذلك موروثا عن العرب ، وأخوذا منها في سالف الدهر أو بعد ظهور الاسلام ، عن طريق الاندلس وفرنسا [٤] .

(١) مروج الذهب ، ج٢ ص ٢٠٨ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٤ ، وانظر الاصنام لابن الكلبي ، ص ٣٤ حيث يقول : وكانت بنو مليح من خزاعة – وهم رهط طلحة الطلحات – يعبدون الجن ، وفيهم نزلت (الآية) : « ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٥ . وقارن توفيق فهد، التنبؤ العربي، ص ١٠٤ ، ١٠٥ والهوامش حيث يضيف (عن الجاحظ) الى الزجر وصياح الطير وملاقاة الوحش نبوغ العرب في معارفهم ، عن : لقاء الحية والافعوان ، والدود والحشرات وصياح الغراب =

القيافة والزجر :

والقيافة من القفو وهي خاصة باثبات صحة النسب عن طريق تشابه بعض أعضاء الجسم . ولقد برع العرب ، الذين اهتموا بعلم النسب حرصا على نقائهم الجنسي ، بالقيافة التي صارت : « ضربا من ضروب البحث ، والحاق النظير في الاغلب بنظيره » ، فهي من هذا الوجه أشبه بقضايا القياس العقلية [1] . وتتبع الاثر بالنسبة للسائرين يعتبر من القيافة ، وذلك كما فعلت قريش عندما خرج النبي مع أبي بكر مهاجرا من مكة الى يثرب « فقد قفت القافة بقريش ... حتى أتت باب الغار على حجر صلد وصخر صم ... فحجبهم الله تعالى عن نبيه صلعم » [2].

ومع ان القيافة مسألة علمية عقلية فان الكتاب العرب ألحقوا بها الزجر ، وهو : التطير عند رؤية حيوان أو طائر أو عرض من العوارض والتعبير عن ذلك بالتفاؤل والتشاؤم . فالظباء السود عندما تعترض الركب في فيفاء قفر تعبر عن الشؤم . « وذلك ان السانح مرجو عند العرب ، والبارح هو المخوف » [3] .

ومع ان أهل الجبال والقفار أكثر الناس معرفة بالقيافة والزجر ،

= وهدير الحمام وعزيف الجان وصوت الحصىوخرير المياه وطموم السيول والنظر الى السحاب والغيوم والهداية والنجوم ، ومعرفة آلانواء والامطار والرعد والبرق وما اشبه ذلك مما ليس لغيرهم من الامم .

(١) مروج الذهب ، ج٢ ص ١٤٦ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٨ . والسائح هو الذي يطير من اليمين الى الشمال ويتفاءل به . انظر توفيق فهد ، التنبؤ العربي ، ص ١٨٧ .

فلقد نبغت بعض القبائل في هذه الامور . فممن نبع في القيافة بنو مدلج ، وأحياء من مضر بن نزار . والنموذج ذلك ما ينسب الى أبناء نزار الاربعة : مضر وربيعة واياد وأنمار الذين نظروا في أثر جمل ضال فعرفوا من خطوه ورعيه وبعره ، أنه : أعرج ، أعور ، أهوج مقطوع الذهب ، مما أثار دهشة حكيم نجران [1] . وأما الزجر فقد اشتهر به بنو أسد .

الكهانة والعرافة :

ويرتبط الزجر بالكهانة والعرافة ، وهي ادعاء علم الغيب ، على أنها هي الاخرى تتطلب الفطنة والفراسة وصفاء النفس ولطافة الحس . واذا كان أهل البر أقوف وأزجر ، كما يقول المسعودي ، فان أهل المياه ، أي سكان الحضر ، أكهن [2] . والكهانة أيضا تكون في العرب أكثر مما في غيرهم من الامم ، لان صفاء النفس ورقة المزاج لا تتأتى الا « بكثرة الوحدة وادمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم » [3] . ومن أشهر كهان العرب طريفة الكاهنة التي عاصرت عمرو مزيقياء وكان لها دورها الهام في هجرة الازد من اليمن الى الشام [4] . وربيعة بن ربيعة بن مسعود بن مازن الغساني المعروف بسطيح الكاهن ، الذي كان يدرج جسده كما يدرج الثوب لا عظم فيه الا جمجمته ،

(١) انظر وهب بن منبه ، التيجان ص ١٨١ ، وعلى ايام المسعودي (مروج الذهب ، ص ١٤٩) كان في ارض الجفار ، وهي بلاد الرمل بين مصر والشام ، أناس من العرب ... لا يكاد تخفى عليهم اقدام اي الناس هم .... وانه كان هناك اناس مرتبون يطوفون في هذا الرمل يعرفون بالقصاص ، يقصون آثار الناس .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٦٧ – ١٦٨ .

وشق بن مصعب بن شكران بن أترك النزاري وهو معاصر لسطيح [١] .

والعرافة دون الكهانة مرتبة ، ومن أشهر العرافين عند العرب : الأبلق الأزدي ، والأجلح الدهري ، وعرو بن زيد الأزدي ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة .

والى جانب التنبؤ وعلم الغيب كان الكهان والعرافون يقومون بتطبيب المرضى ومداواتهم . وفي كل من عرافي اليمامة ونجد، قال عروة :

جعلت لعراف اليمامة حكمة   وعراف نجد ان هما شفياني [٢]

وكان للكهان والعرافين أسلوبهم الخاص في الحديث مما يكون له أثره في نفس السامعين ، فهم يطلقون الكلام في شكل نثر مسجوع أو شعر منثور ، فهم من هذا الوجه أشبه بالشعراء في الجاهلية . فمما ينسب الى طريفة الكاهنة ، قولها : « ان الشجر لتالف وسيعود الماء لما كان في الدهر السالف » ، و « أجل ان لي الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل » [٣] . ومما ينسب الى سطيح الكاهن، قوله : « والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق » و « أمر يسد النقرة ، ذو حبسة في الوجرة ، وحرة بعد حرة ، في ليلة

---

(١) مروج الذهب ، ج٢ ص ١٦٠ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ١٥ — ١٨ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٥٤ .
ومن الكهان الاطباء زهير بن جناب الكلبي الذي يسمى الكاهن لصحة رايه : وكان سيدا مطاعا شريفا في قومه وكان خطيبهم وشاعرهم ... وطبيبهم ، والطب في ذلك الزمان شرف ... انظر توفيق فهد ، التنبؤ العربي ، بالفرنسية ص ١٠٢ وهـ ٥ حيث النص من الاغاني مع مقارنة ابن الاثير ، وانظر ص ١١٦ حيث نص المسعودي .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٦٩ .

قرة » ، و « ما كان من العبر الاقمر ، والظليم الاحمر ، والفرس الاشقر، والجمل الأزور [١] .

وهكذا يمكن القول انه كانت هناك علاقة ما بين الكهانة والعرافة والشعر ، وخاصة أن كثيرا من أخبار كهان الجاهلية وعرافيها ، كما هو الحال بالنسبة لاخبار العرب وأيامها ، وصلتنا عن طريق الشعراء .

اللغة والشعر :

وبفضل هؤلاء الشعراء تكونت مدرسة شعرية قبل الهجرة بحوالي قرن أو قرن ونصف ، كانت لها موضوعاتها التقليدية التي تعالجها ، كما كانت لها أوزانها وأساليبها الشعرية ، ومن أشهر القصائد التي وصلت الينا من هذه الفترة هي المعروفة بالمعلقات التي يتراوح عددها ما بين الستة والعشرة [٢] .

ويرى الاستاذ جويدي أن الادب الجاهلي كان ، أولا وقبل كل شيء أدبا شعريا ، وأن حياة القبائل العربية المضطربة هي التي عملت على تطور هذا الشعر [٣] . ففي أول الامر كان هناك نوعان من الشعر : أولهما لا يكاد يستحق تسميته بالشعر ، وهو ما كان يعرف بـ « الحجي »

---

(١) مروج الذهب ، ج٢ ص ١٧٥ — ١٧٦ . وانظر توفيق فهد ، التنبؤ العربي (بالفرنسية) ، ص ٨١ حيث يورد نص ابن خلدون في السجع عند الكهان ، وفيه : ان ارفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معين السجع أخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات. ويدل خفة المعين على قرب ذلك الاتصال والادراك والتعد فيه عن العجز بعض الشيء .

(٢) انظر المعلقات السبع للزوزني (فيما سبق ، ص ٣٠ — ٣١) .

(٣) انظر جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام ، بالفرنسية ، المقالةالثانية عن التقدم الفكري عند العرب ، ص ٣٢ وما بعدها .

وهو نوع من الادب الشعبي ، والآخر هو القصيد من النوع الادبي المتقن .

ولقد أثبت جولد سيهر أن الشاعر كانت له مكانة مرموقة في القبيلة . فالشاعر عند العرب القدماء كان يعني « الذي يعرف » أي من لديه معرفة أكثر من غيره من أبناء القبيلة . وهذه المعرفة يدين بها للالهام الذي يأتيه عن طريق الجن الذي يحل فيه . وعن هذا الطريق فهو يملك قوة خفية يستطيع بها أن يعجل تدمير الاعداء بما يطلقه ضدهم من اللعنات . وبناء على ذلك فهو شخصية لها صفات الهية ، وهو ساحر مخيف مثله في ذلك مثل الكهان والعرافين ، مما سبقت الاشارة اليه . ويؤيد ذلك أن الفعل نشد يعني تلاوة الشعر ، كما يعني الرجاء باسم الله . واطلاق اللعنات على الاعداء من جانب الشاعر كان له أهمية لا تقل عن شجاعة المقاتلين ، فالمفروض ان اللعنة لا تخيب لانها صادرة من الجن . وكان لاطلاق اللعنة طقوس خاصة كأن يخلع الشاعر أحد نعليه ، ويغطي وجهه بأكمام ردائه ، ويشير عند اطلاق اللعنة بالاصبع السبابة نحو الشخص الذي يراد اصابته باللعنة ، وهذا هو السبب في أن أطلق على الاصبع الذي يشار به اسم « السبابة » ، أي الذي يسب ويجرح [1] .

وفي الاصل كان الحجي ينشأ في نثر منظوم أو في سجع ، ومنه نشأت أقدم أوزان الشعر الشعبي وأسهلها ، وهو الرجز . والمثل لذلك هو الشكل القديم من اللعنات الشائعة ، مثل : « اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تذر على الارض منهم أحدا » . والى جانب هذا

(١) جويدي ، ص ٣٨ — ٤٠

الشعر الشعبي البسيط ، القليل الابيات نما الشعر الادبي الكبير ، وهو شعر القصيدة، الذي بلغ الذروة في قصائد القرن السادس الميلادي. ومن المعروف أن لغة الشعر الجاهلي كانت نفس اللغة في كل أرجاء جزيرة العرب ، فمنها يتكون نسيج قصائد امرىء القيس الكندي وهو اليمني الأصل ، وقصائد النابغة الذبياني وهو المضري ، وكذلك أشعار عمرو بن كلثوم التغلبي ، وهو من ربيعة . وهذا لا يفترض عدم اختلاف لهجات القبائل التي كانت تتكلمها ، وذلك أن الشعر الشعبي كان يختلف بعض الشيء عن لغة الحديث . وبناء على ذلك تصبح لغة القصيد لغة شعرية مصطنعة أو لهجة فنية لها قوالبها المستقرة أو أشكالها الثابتة . ولا شك أن تكوّن هذه اللغة الشعرية تطلب الكثير من الجهد والوقت . ويرى جويدي أنها نشأت وسط الصراعات التي كانت تقوم بين القبائل (أيام العرب) ، ويدلل على ذلك بأن مهلهلا أخا كليب ، الذي يؤكد الكتاب العرب أنه كان أول من أنشأ القصيدة [1] ، كان من أبطال حرب البسوس . كما كانت لامرىء القيس الكندي أعماله الثأرية في بني أسد الذين قتلوا أباه وضيعوا ملكه . هذا كما كان انشاد الشعر في سوق عكاظ ، على مسافة ثلاثة أيام من مكة ، بين الطائف ونخلة ، له آثاره التي لا تنكر على تطور القصيدة العربية ، التي وصلتنا في شكلها النهائي المنتظم والمحبوك .

وعن طريق هذه القصائد الغزلية الرقيقة التي تعرف بالنسيب وصلتنا معلومات عن معالم بعض ديار العرب عندما كان يصف الشاعر . وهو في غمرة أحزانه لفراق محبوبته ، مساكنها التي أصبحت ، بعد

(١) قلون فيما سبق ، ص ٣١٥ وهامش ١ ، ص ٣٢٧ وهامش ٢ .

رحيلها ، خرابا وأطلالا • مثل :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما لربع من أحد

ومع أن الحب أو الغزل كان من الموضوعات الشائعة في هذا الشعر العربي القديم ، حتى أصبح الغزل هو البداية الطبيعية لاي قصيدة ، مما دعا المتنبي الى أن يقول :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكلّ فصيح قال شعرا متيم !

فقد كان هناك نوع من الشعر لا يوجد فيه النسيب ، وهو شعر الرثاء اذ لا تتناسب المقدمة الغرامية المعتادة فيه مع موضوع النشيد الجنائزي وما يقتضيه من مشاعر الحزن [1] •

وهكذا بلغ الشعر العربي في القرن السادس الميلادي درجة كبيرة من الاتقان مما يثبت تقدما ثقافيا جيدا • ولقد كانت قصائد هذا الشعر تنقل في أول الامر شفاها ثم انها دونت بعد ذلك ، والمثل لذلك المعلقات • أما عن الموضوعات التي كان يتناولها الشاعر ، فهي : الحب والغزل والرياضة من الصيد والقنص ، وايام الحرب والقتال ثم الليالي التي كان يقضيها الشاعر في شرب الخمر •

الخمـــر (٢) :

والخمر كانت موضوع أدب غني ، ولذا عرفت بأسماء عدة ، بعضها شاعري وبعضها مجرد صفات [3] • ورغم وجود الكـــروم في جزيـــرة

(١) جويدي ، ص ٤٠ ـ ٤٦ ، والنصوص في الهوامش ، ص ٨٥ •
(٢) جويدي ، ص ٥٣ ـ ٥٧ •
(٣) اسمها الشائع هو الخمر ، لأنها : تخامر العقول فتخالطها ، ومـــن اسمائها : القهوة لانها تقهى عن الطعام والشراب اي تزيل الشهية ، والكميت بمعنى القاتمة ، والصهباء وهي التي تعصر من العنب =

العرب ، فالمعروف أن الخمر كانت تجلب من بـلاد الشام على وجـه الخصوص ، وذلك أن صناعة النبيذ تتطلب جهدا وعمـلا كثيرا ، فهـي تمثل تقدما صناعيا كبيرا لم يكن يعرفه العرب ، وذلك باستثناء مدينـة الطائف حيث كان العنب محصولا رئيسيا ، وحيث عرفت صناعة الخـل والخمر ، حتى ضرب المثـل بمن يحمـل الخمـر الى الطـائف ، كمثـل مـن يحمـل التمر هجر [1] • هــذا ، ولـو أن أغنياء قريش كانوا يفضلون خمر بلاد الشام • ولذلك كان شرب الخمـر يتطلب الغنى من الشارب ، أما اعطاء الاصدقاء منه فيعني الكرم ، بـل والتبذير في أقصى درجاته • وفي صفات الخمر يقول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
واذا سكرت فانني مستهلـك مالي ، وعرضي وافر لم يكلم [2]

وأمرؤ القيس يرد على من لا يعترف بفضائله ، فيقول :

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد اجفال [3]

بينما يفخر الشاعر قطبة بن أوس بكرمه ، فيقول موجها الكـلام الى صاحبته :

فسمي ما يدرك ان رب فتية باكرت لذتهم بأدكن مترع
بكروا على بسحرة فصبحتهم من عاتق كدم الذبيح مشعشع

أما زهير فلا يعرف كيف يمدح حطيلة بن حصن بأحسن من قوله :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائلـه

= الابيض ، والحمراء والصفراء ، وهي المدامة ايضا (أنظر نهايـة الارب للنويري ، ط. دار الكتب المصريـة ، ١٩٣٥ ، ج ٤ ص ١٦ « في أسماء الخمر من حين تعصر الى ان تشرب ») •
(١) انظر لامانس : مدينة الطائف قبيل الهجرة (بالفرنسية) ، بيروت ١٩٢٢ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ •
(٢) النويري ، ج ٤ ص ١٠٥ •
(٣) النويري ، ج ٤ ص ١٠٣ ـ وفي سبائها = شرائها •

وكان السبب في ارتفاع سعر الخمر هو كثرة نفقات النقل ، من : الشام أو من الجزيرة الفراتية • ومن أشهر أنواعه : خمر حمص وبابل وعانة واندرين وكذلك خمر بصرى الذي كان يحمل على الجمال في القرب المختومة •

وهكذا يمكن القول ان الخمر لم تكن معروفة الا في اوساط المتيسرين ممن يستطيعون دفع ثمنها في الحانات • ومن أشهر حانات الحجاز : حانة الطائف التي كانت في الجاهلية ، وكان خمارها يسمى ابن بُجرة ، وكانت تقصده قريش وسائر العرب ، كما يقول ابن فضل الله العمري (١) ، وتمتار منه وتحمل الى أوطانها • ومنها حانة بني قريظة ، وكان خمارها في جوار سلام بن مشكم الذي كان ينزل عليه أبو سفيان في بعض الاحيان ، فيبعث الى جاره الخمار ويبتاع ما في حانوته ليسقي الزعيم المكي • أما حانة هجر فكانت تعرف بحانة ريمان •

هذا كما اعتاد العرب على الشراب في الاديرة أثناء مرورهم بها في الشام والحيرة وأغلب الظن أن الخمر كان يقدم لهم فيها من أهل الدير بدون ثمن (٢) •

ويشير الاخباريون الى جانب ذلك أن العرب عرفوا مضار الخمر وان كثيرا منهم أقلع عن شربها ، وخاصة من سادة القبائل وشيوخها • وفي ذلك تقول بعض الروايات أن أحد الصعاليك وهو عمرو بن عباد

(١) مسالك الابصار ، ج ١ (ط. دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤) ، ص ٣٨٦ — ٣٨٨ .

(٢) عن ديارات الحيرة والشام انظر العمري ، مسالك الابصار ، ج ١ ص ٣١١ وما بعدها ، ومعظمها مما كان في عصر الاسلام ، وفيها اشارات الى ما قبل الاسلام ، كما في دير بصرى حيث كان الراهب بحيرا (ص ٣٤٧) .

عندما دعا جعفر بن قرط الأسدي من سادة بني هزان القدماء في اليمن الى شرب الخمر ، قال جعفر : « يا بني أنا راعي الحي فان أنا سكرت ضاع الحي » • ولو أن القصة تقول انه عندما ألح عليه الصعلوك استجاب له فلما سكر قتله الصعلوك (١) • أما عن هرم بن عمرو فكان أول من حرّم الخمر على نفسه بلا ديانة (٢) •

وتذكر الروايات انه ممن تنزه عن الخمر في الجاهلية وتركها ، ترفعا عنها : عفيف بن معد يكرب الكندي ، والعباس ابن مرداس السلمي الذي قال : « أكره أن أصبح سيد القوم وأمسي سفيههم » ، وعبد الله بن جدعان ، وعبد المطلب بن هاشم ، وورقة بن نوفل ، وقيس بن عاصم المنقري ثم عثمان بن عفان (٣) •

وتكاد تجمع الروايات على أنه عندما كان يحين وقت الجد كان المدمنون على الخمر يقلعون عنها • فعل ذلك امرؤ القيس الشاعر عندما علم بمقتل والده ، وقال مقالته المشهورة : اليوم خمر وغدا أمر (٤) ، كما فعل ذلك الهجال بن امرىء القيس ابن أخت تأبط شرا عندما حرّم على نفسه الخمر الى أن ينتقم لمقتل خاله •

والحقيقة ان الشعراء هم الذين اذاعوا صيت الخمر بين العرب بما

(١) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ١٤٧ .

(٢) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ٢١٧ .

(٣) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٤) وتنسب هذه المقالة الى مهلهل (خال امرىء القيس) عندما علم بمقتل اخيه كليب ، وكان ينادم همام بن مرة اخا جساس قاتل كليب ، فقال له : اشرب ، فاليوم خمر وغدا أمر (ابن الاثير ج ١ ص ٥٢٧) .

أنشدوه من الشعر في الليالي التي كانوا يقضونها في شربها ، في الحانات والديارات أو في مناسبات اللهو والفرح ، كما يرجع الفضل لهم في تسجيل أيام العرب وأحداثها .

وتتفق الروايات على أنه كانت تنظم مسابقات شعرية موسمية في أسواق العرب مثل سوق عكاظ وذي مجاز ومجنة . ولا شك في أن هذه الحركة الادبية التي جاءت نتيجة وحدة اللغة الفنية (رغم اختلاف لهجات القبائل) كانت من أسباب الربط والوحدة بين الجماعات المختلفة من سكان الجزيرة قبيل ظهور الاسلام في أواخر القرن السادس الميلادي ، مما هيأ نمو الشعور القومي بين قبائل العرب .

الدين :

أصل عبادة الاصنام :

أما عن الدين ، فقد كان لكل قبيلة ـ كما هي العادة بين الجماعات البدائية ـ آلهتها وأصنامها ، كما كان للاصنام بيوت تجري فيها طقوس العبادة . والى جانب القرآن الكريم يعتبر كتاب الاصنام لهشام بن محمد ابن السائب من أهم المصادر التي وصلت الينا عن عبادات العرب في الجاهلية أو قبيل ظهو رالاسلام .

فالمفروض أن عرب الحجاز كانوا يدينون منذ بناء الكعبة بديانة اسماعيل بن الخليل ابراهيم الذي بعث نبيا لجرهم والعمالقة وخزاعة وان العدنانية أبناءه نشأوا على ديانته ، قبل أن ينحرفوا الى الشرك و « عبادة الاوثان والحجارة » . وفي أصل الشرك يقول المسعودي : كان من ذكرنا من الامم لا يجحد الصانع جل وعز ... الا ان القوم دخلت عليهم شبه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر ، ومالت نفوسهم الى الدعة...

وكان في نفوسهم هيبة الصانع ، والتقرب اليه بالتماثيل وعبادتها نظنهم أنها مقربة لهم اليه [١] . والاوثان هي الاصنام ، والحجارة هي الانصاب (جمع نُصب) عندما تنصب بعضها فوق بعض ، وكانت طقوس عبادة كل منهما تختلف عن الاخرى . والذي يفهم من كتاب الاصنام هو أن عبادة الانصاب حجازية الاصل ، وأهم طقوسها هو الدوران أو الطواف حول النصب ، بينما كانت لعبادة الاصنام او الاوثان طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين [٢] .

وفي عبادة الانصاب يقول ابن الكلبي : « انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له » . فكأن عبادة الانصاب نابعة من الطواف حول الكعبة أي من شعائر الحج وهو في ارث ابراهيم واسماعيل ، ولكن الناس نسوا ذلك مع مرور الوقت وصاروا يعبدون ما استحبوا .

أما عن عبادة الاوثان فتقول الروايات العربية ان أول من نشرها بين العرب هو عمرو بن ربيعة المشهور بـ لحى بن حارثة الخزاعي ، وانه جلبها من الشام التي زارها أثر مرض ألم به ، ووصفت له حمة بالشام ليستشفي بمائها . فقد وجد أهل الحمة يعبدون الاصنام ، وعندما سألهم عنها ، قالوا : « نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو » . « فسألهم

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) قارن ياقوت معجم البلدان (ود ، ج ٤ ص ٩١٤) حيث التفرقة (عن ابن الكلبي) بين الصنم الذي يعمل من خشب او فضة او ذهب على صورة الانسان ، والوثن الذي كان يعمل من الحجارة .

أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة »[1] .
فكأن رواية ابن الكلبي هذه تسجل ان عرب الحجاز اقتبسوا عبادة الاوثان من أهل الشام . بينما يرى بعض الباحثين المحدثين، على العكس، من ذلك ، أن اليونان ربما اقتبسوا عدداً من آلهتهم مثل « لاتون » و « هرمس » من العربية الجنوبية أي اليمن حيث كانت القرابين تقدم للآلهة باحراق البخور على المذابح ، وذلك الى جانب ما اقتبسوه من حروف الكتابة[2] .

ومن أشهر آلهة العرب المذكورة في القرآن : اللات والعزي ومناة وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . والذي يفهم من النصوص أن عددا من هذه الآلهة كانت ثنائية أي مزدوجة من ذكر وانثى ، مثل : اللات والعزي ، واساف ونائلة . وانها كانت اما ثابتة أي في بيوت عبادة خاصة بها أو متنقلة تصحبها القبيلة في رحلاتها الشتوية والصيفية . وفي ذلك يقول ابن الكلبي : « وكان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه .

---

(1) ابن الكلبي ، الاصنام ، ص ٦ — ٨ ، وقارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ .

(2) انظر ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، الفصل ٣ (عن اللغة والحروف) ، ٦ ، ٧ (عن الديانة والآلهة) ، وانظر التاريخ العربي القديم لنيلسن، الفصل ٥ ، ص ١٧٨ . وانظر محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية (ص ١٢٧) حيث يشير الى رأي نيلسن الذي يقول فيه : ان ديانة العرب القديمة هي أم الديانات السامية الاخرى ، وانها كانت في الاصل ديانة طبيعية قائمة على عبادة الكواكب والاجرام السماوية ، وان اقدم ثالوث كوكبي عبده العرب هو القمر (الاله سن او ود) والشمس (الالاهة شمس) والزهرة (عثتر) . وهر يرى ان هذا الثالوث الكوكبي يمثل : الاب والام والابن . وانظر رشيد الناضوري ، الفكر الديني ، ص ١٤٩ .

فاذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفره ، كان أول ما يصنع اذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا » . ومثل أصنام الدور هذه كان يمكن أن تحملها القبيلة في ترحالها وحلها ، وخاصة وقت الحروب للاستنصار به . وفي يغوث الذي كان على هيئة الاسد[1] والذي تنازعت ملكيته قبائل مذحج من الحارث بن كعب ومراد انعم حتى وقعت الحرب بينهم في السنة الثانية للهجرة وذلك في يوم الرزم الذي انتصر فيه بنو الحارث ، يقول شاعر مذحج :

وسار بنا يغوث الى مراد فناجزناهم قبل الصباح[2]

بيوت الاصنام :

أما عن بيوت الاصنام فمن اشهرها بيت ريام (أو رئام) الذي كان لحمير في اليمن ، وكانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[3] . وكان لقبائل اياد بيت يسمى كعبة اياد « (لانه مربع أو مكعب مثل الكعبة) وذلك فيما بين الكوفة والبصرة في موضع يعرف بسنداد من منطقة الظهر »[4] . هذا ، كما يقال أن بعض زعماء قبيلة جهينة فكر في بناء بيت بموضع يقال له الحوراء من بلادهم ، وكان هدفه مضاهاة الكعبة واستمالة العرب به ، كما فعلت قريش بالكعبة ، ولكن الجهينيين لم

---

(1) انظر محمد جمعة ، ص ١١٨ .

(2) الاصنام ، ص ٩ — ١٠ ، ١٣ ، وقارن ابن هشام ، السيره ، ج ١ ص ٧٨ — ٨٣ ، ومعجم البلدان (يغوث) ج ٤ ص ١٠٢٢—١٠٢٣ .

(3) الاصنام ، ص ١١ — ١٢ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٧ ، التيجان لوهب بن منبه ، ص ٢٩٧ .

(4) الاصنام ، ص ٤٥ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٨ (الاسم : سنداد) .

يستجيبوا لتلك الدعوة ، ومثل ذلك يقال عن كنيسة « القليس » التي يقال ان ابرهة بناها بصنعاء ، وكان هدفه ألا يترك العرب حتى يصرفهم عن الحج الى بيتهم الذي يحجون اليه يعني الكعبة . وتنسب هذه الرواية محاولة أبرهة غزو الكعبة الى ما فعله بعض العرب ممن ساءهم ذلك فخرق حرمة هذه الكنيسة بنشر النجاسة فيها . وهو الامر الذي كان موضوعا لنقد الكتاب المحدثين [1] .

ويذكر أنه كان لقبائل ربيعه بن كعب بيت يعرف برضى كان موجودا عندما ظهر الاسلام فهدمه عمرو بن ربيعة المشهور بالمستوغر [2] . كما كان للعزي بيت في أحد شعاب وادي حراض الذي يقال له : سقام ، كانوا يضاهون به حرم الكعبة .

كعبة نجران :

هذا ، كما يذكر ابن الكلبي كعبة نجران التي كانت لبني الحارث بن كعب ، وكانت معظمة عندهم . ويعتمد ابن الكلبي في ذكره لكعبة نجران على ما ذكره الاعشى عنها في شعره الذي يورده ياقوت في معجم البلدان ، وفيه يقول :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيدا وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها

وحق لابن الكلبي ألا يعرف على وجه الدقة ان كانت كعبة نجران بيت عبادة أو دار ندوة يجتمع فيها القوم ، وان كان يميل الى هذا الرأي

(1) انظر هوامش مؤنس لكتاب زيدان ، ص ٢٧٩ (حيث يشير الى كتاب صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ، ١٩٥٥) .

(2) الاصنام ، ص ٣٠ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ١٨٧ (حيث الاسم : رضاء) .

الاخير . فالذي يقال هو أن بني عبد المدان بن الديان الحارثي بنوها على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة ، وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاءوا الى النبي ودعاهم الى المباهلة . والمعروف ان بني عبد المدان كانوا يدينون بالنصرانية ، واسم عبد المسيح منهم ، في شعر الاعشى ، دليل على ذلك ، والنص على وجود الاساقفة فيها يؤكد صراحة انها كانت للنصارى .

ولكن وصف كعبة نجران بأنها « كانت قبة من أدم من ثلثماية جلد» يدل على أنها لم تبن على غرار الكعبة ، وان كان النص على انه « اذا جاءها الخائف أمن أو طالب حاجة قضيت أو مسترفد أرفد » يمكن ان يكون مشابها لما كان يحدث في الحرم القرشي بمكة . ولما كان بنو الحارث بن كعب ومن لاذ بهم من القبائل يتقاتلون في السنة الثانية من الهجرة من أجل الاستئثار بصنمهم يغوث ، كما سبقت الاشارة ، فالذي نقترحه هو ان دخول النصرانية في نجران لم يمنع من بقاء عبادة الاصنام العربية . ويمكن ان تكون قرينتنا على ذلك ما يقوله الكتاب في جماعة الحنيفية أو المتحنثين من أنهم تركوا عبادة الاصنام أو أنهم دخلوا في اليهودية أو النصرانية ورغم ذلك ظلوا يجلون الكعبة ويعظمونها ويحجون اليها . وهكذا فلا بأس أن تكون كعبة نجران وثنية نصرانية ، وحق لابن الكلبي ان يشك في أنها كعبة عبادة [1] .

الاصنام الشهيرة :

في اطراف الجزيرة العربية :

أما عن مشاهير الاصنام في بلاد العرب فكان « نسر » ، الذي يظن

(1) ابن الكلبي، ، الاصنام ، ص ٤٤ ــ ٤٥ ، ياقوت ، معجم البلدان (نجران) ج ٤ ص ٧٥٦) .

أنه كان على هيئة الطائر فعلا [١] ، من معبودات قبائل حمــير في موضع يقال له بلخع مــن أرض سبأ مــن اليمن ، وذلك قبل دخــول حمير في اليهودية [٢] . ومن معبودات اليمن أيضا « يعوق » الذي كان على هيئة الحصان [٣] والذي عبدته قبائل همداذ في قرية خيوان مــن بلادها على مسيرة ليلتين من صنعاء بالنسبة للقادمين اليها من مكة . ومن أصنام اليمن أيضا كان « يغوث » الذي كانت تعبده مذحج ، بأكمة باليمن عرفت باسم القبيلة ، فهي مذحج أيضا ، كما عبده أهل جرش .

وفي العربية الشمالية عبدت قبائل كلب صنم « الود » ، الذي عرفه المعينيون من أهل اليمن قديما رمزا للاله القمر ، وذلك في منطقة دومــة الجـندل ، في وادي القرى . وحسب وصف ابن الكلبي كان ود" تمثالا على هيئة رجل ضخم . والظاهر ان سدنته من قضاعة قد كسوه من الثياب حلتين واحدة فوق الاخرى ، وقلدوه سيفا وجعلوا قوسا على منكبه ، وحربة بين يديه تحمل لواء وجعبة فيها النبل [٤] ، مما جعله وكأنه يمثل اله الحــرب .

وفي مشارف الشام كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنمها

---

(١) محمد جمعة ، ص ١١٨ . هذا ، ولو انه يمكن أن تكون عبادة نسر متعلقة في الاصل بعبادة الكواكب ، اذ وجد اسمه نسر في النقوش القتبانية التي نشرها رودوكاناكيس ، وفي النقوش السبأية التي ذكرها فلهوزن ، في شكل : « النسر الشرقي والغربي » مما قد يشير الى مجموعة الكواكب القريبة من المجرة (نفس المرجع ، ص ١٢١ ـ ١٢٢) .

(٢) قارن ياقوت ، معجم البلدان (نسر) ، ج ٤ ص ٧٨٠ ـ ٧٨١) .

(٣) محمد جمعه ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٤) الاصنام ، ص ١٠ ، ٥٥ ـ ٥٦ .

(١٥) شمال الحجاز : من كتاب الآثار القديمة في شمال بلاد العرب (وينيت (Winnett) وريد (Reed) ـ ص ٢)

المعروف بـ « الاقيصر » وفيه يقول ربيع بن ضبع الفزاري :

فانني والذي نعم الانام له   حول الاقيصر تسبيح وتهليل

وظل ود" في دومة الجندل الى أن سار النبي الى تبوك في السنة السابعة للهجرة فأرسل خالد بن الوليد لهدمه • وتطلب الامر ايقاع الهزيمة ببني عامر الاجدر وبني عبد ود، سدنته ، الذين دافعوا عن صنمهم ببسالة ولم يفرطوا فيه الا بعد أن قتل الكثير منهم • فكان من القتلى حسان بن مصاد بن عم الاكيدر ، صاحب دومة الجندل • كما كان منهم قطن بن شريح الذي قالت فيه أمه عندما رأته مقتولا :

يا جامعا ، جامع الاحشاء والكبد   يا ليت أمك لم تولد ولم تلد

ثم أكبت عليه فشهقت شهقة ، فماتت ، كما تقول الرواية [1] •

وكانت طيء لها صنم يعرف بـ « الفلس » وذلك في موطنهم بين جبلي أجا وسلمى وكان الفلس تمثالا على شكل الانسان له أنف أحمر • وكانت سدأتته لبني بولان وهم الذين بدأوا بعبادته • وظل الفلس حتى ظهور الاسلام فهدمه علي بن أبي طالب بأمر النبي ، وأخذ سيفين كان يتقلدهما الصنم ، وتقول الرواية انهما من هدايا الحارث بن أبي شمر الغساني [2] •

في الحجاز :

وكان للحجاز أصنامه : ففي موضع رهاط من أرض ينبع التي تعتبر ساحل المدينة يثرب كان يعبد « سواع » من قبل قبيلة هذيل ، وكان سدنته من بني لحيان منهم •

---

(١) نفس المصدر ، وقارن ياقوت ، معجم البلدان (ود) ، ج ٤ ص٩١٥

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ ، ٥٩ – ٦١ ، وقارن ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٨٧ . وانظر محمد محمود جمعة (ص ١٢١) الذي يعلق على رواية الاغاني من ان طيئا كانت تعبد جملا أسود ، فيقول ان صورة الجمل ربما تآكلت بفعل عوامل التعرية فصارت تبدو للرائي كأنها تمثال انسان .

وفي ساحل جدة كان صنم يقال له سعد ، وكان صخرة طويلة ، كما يقول ابن الكلبي ، لرجلين من بني كنانة [1] • والظاهر أنه كانت تذبح الذبائح على هذه الصخرة التي كان يتبرك بها ، مما جعل الابل التي كان يسوقها عنده بعض الرجال تنفر في كل وجه • وفي ذلك قال الرجل :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا   فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد

وهل سعد الا صخرة بتنوفة   من الارض لا يدعي لغي ولا رشد

وفي تبالة جنوبي مكة في طريق اليمن ، على مسيرة سبع ليال ، كان صنم « ذو الخلصة » الذي كانت تعظمه وتهدي له قبائل : خثعم وبجيله وأزد السراة ومن قاربهم من هوازن • وكان ذو الخلصة على هيئة «مروة» (صخرة) بيضاء منقوشة ، وكان سدنته من بني أمامة من قبيلة باهلة [2] •

وبعد فتح مكة أرسل النبي جرير بن عبد الله لهدمه ، فخرج في بجيلة وتطلب الامر قتال قبيلتي خثعم وباهلة اللتين دافعتا عن الصنم بشدة وسقط منهما المئات من القتلى ، قبل هدم بيت الصنم الذي أضرمت فيه النار كما تقول الرواية ، رغم أنه جعل عتبة لباب مسجد تبالة ، مثله في ذلك مثل هبل الذي جعل عتبة للمسجد الحرام •

وعلى ساحل البحر بين المدينة ومكة ، في موضع قديد من ناحية المشلل على ٧ (سبعة) أميال من المدينة كان صنم مناة ، أقدم أصنام العرب جميعا كما يقول ابن الكلبي [3] • وهو ثالث ثلاثة من أصنام الحجاز التي كان لها التفوق على غيرها من الآلهة ، والاثنان الآخران ،

---

(١) الاصنام ، ص ٣٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤ – ٣٦ ، ٤٧ . وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣ – ١٥ ، ٢٧ . وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٥ ، وقارن معجم البلدان (مناة) ، ج ٤ ص ٦٥٢–٦٥٤ .

هما : اللات والعزى • ومع أن مناة كان صنم هذيل وخزاعة فقد اعتبر اله الخزرج والاوس ، أولا وقبل كل شيء ، اذ كانوا أشد الناس اعظاما له ، كما كان يعظمه أهل مكة وسائر عرب المنطقة حول مكة والمدينة ، ويذبحون له ويقدمون الهدايا • وفي اعظام الاوس والخزرج له ، يقول عبد العزي بن وديعة المزني ، على ما يظن :

اني حلفت يميني صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج (1)

وظلت مناة معظمة من قريش وسائر العرب الى سنة ٨ هـ ٦٣٠ م ، وهو عام الفتح ، حينما هدمها علي ابن أبي طالب بأمر الرسول • وتقول الرواية انه أخذ سيفين كان أهداهما لها الحارث الغساني أحدهما هو سيف علي المشهور بـ « ذي الفقار » • ولا ندري ان كانت الروايات قد خلطت بين سيفي « الفلس » صنم طيء وبين سيفي مناة هذين أم لا •

أما اللات التي يمكن أن تكون أشهر آلهة العرب وقتئذ ، فكانت أحدث من مناة ، وهي آلهة الطائف (2) التي تمثل الشمس ، كما يرى المحدثون • ورغم أنه من المعروف أنها كانت آلهة مؤنثة ، وأنها ربما كانت الالهة لاتون عند اليونان الذين أخذوها عن عرب اليمن ، فان بعض الروايات العربية القديمة تجعلها في شكل صخرة مربعة ، والظاهر أنهم قالوا ذلك عندما حاولوا تفسير اسم اللات فقالوا انه من لت السويق أو العجين الذي كان يقوم به بعض اليهود عندها أو عليها • وفي القسم باللات يقول المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر :

أطردتني حذر الهجاء ، ولا   واللات والانصاب لا تئل

(1) وكان الاوس والخزرج يعرفون عند العرب في الجاهلية باسم الخزرج. الاصنام، ص ١٤ ، معجم البلدان (مناة) ، ج ٤ ص٦٥٣ .
(2) الاصنام ، ١٦ – ١٧ ، ٢٧ ، ٤٣ ، وقارن السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٥ ، ومعجم البلدان (اللات) ج ٤ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ .

وفي عبادتها والتمسك بها ، يقول عمرو بن الجعيد .

فاني وتركي وصل كأس لكالذي   تبرأ من لات ، وكان يدينها

وعلى أيام ابن الكلبي كان موضع اللات في المكان الذي بنيت فيه المنارة اليسرى بمسجد الطائف (1) • وكان سدنتها من بني عتاب بن مالك الثقفيين قد بنوا لها بناء من بيت أو كعبة • وظلت اللات معظمة من ثقيف وقريش وسائر قبائل العرب الى سنة ٨ هـ ، سنة فتح مكة ، عندما هدمها المغيرة بن شعبة بأمر الرسول بعد أن دخلت ثقيف في الاسلام وأهل الطائف • وفي نهي ثقيف عن العودة اليها ، قال شداد بن عارض الجشمي :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها   وكيف ينصركم من ليس ينتصر

والعزى ، الذي يمثل الشمس أيضا ، أحدث من اللات ومناة ، كما يرى ابن الكلبي (2) ، وذلك بناء على أنه وجد أن من تسموا بهما من العرب ، مثل : عبد اللات وزيد مناة ، أقدم ممن تسموا بعبد العزى ، وكان « عبد العزي بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم » أقدمهم • وأول من عبد العزي هو ظالم بن سعد الذي بنى لها بسا (بيتا) في موضع حراض من وادي نخلة الشامية على يمين الطريق الصاعد من مكة الى العراق • ورغم ما تقوله النصوص من أن العزي كان أعظم الاصنام عند قريش فالذي يفهم من الابتهالات التي كانت تقولها قريش عنده ، مثل :

واللات والعزى   ومناة الثالثة الاخرى   فانهن الغرانيق العلى
وان شفاعتهن لترتجى

(1) الاصنام ، ص ١٦ .
(2) الاصنام ، ص ١٧ . وعن العزي انظر ص ١٨ – ٢٧ ، ٤٤ ، وعما يراه المحدثون من ان اللات والعزي هما نعتان للالهة شمس ، كما ان ودا هو نعت للاله القمر ، انظر محمد جمعة ، ص ١٢٤ .

أنه كان يأتي بعد اللات وقبل مناة ، وهذا ما تؤيده الآية التي تقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ... » الخ الآية الكريمة . ولكنه لما كانت اللات في الطائف عند بني ثقيف فلا بأس من أن يصبح العزى ــ وهو اله ذكر رغم الاشارة اليه بالمؤنث في رواية ابن الكلبي الذي يذكر انها شيطانة أيضا ــ أعظم آلهة قريش الذين جعلوا شعبه في وادي حراض حرما يضاهون به حرم الكعبة ، فكانت أشجاره مقدسة لا يجوز قطعها أو الاعتداء عليها ، للاعتقاد في أن شيطانة الآلهة تسكن في جذوعها (١) ، وخاصة تلك السمرات الثلاث ببطن الوادي حول بيت العزي .

وكانت قريش تزور بيت العزى حيث تقدم الهدايا وتتقرب عنده بالذبح في المنحر الذي كان يسمى : « الغبغب » ، وكانت لحوم الهدايا تقسم بين الحاضرين . وفي الغبغب يقول قيس بن الحدادية الخزاعي :

تلينا ببيت اللـه أول حلفة   والا فأنصاب يسرن بغبغب (٣)

وكان سدنة العزى من بني شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم . وكان آخر سدنتها منهم ذبية بن حرص السلمي الذي قتله خالد بن الوليد عندما بعثه الرسول عام الفتح الى بطن نخلة لهدم البيت وكسر الصنم وقطع الاشجار التي كان يعتقد أن شيطان العزى يحل فيها .

---

(١) وكانت عبادة النخل معروفة في نجران ، كما يروي ياقوت (معجم البلدان ، نجران ، ج ٤ ص ٧٥٣) الذي يقول : « وكان أهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم عظيمة بين اظهرهم ، لها عيد في كل سنة . فاذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء » ، وذلك قبيل دول المسيحية الى نجران .
وعن الاعتقاد في سكنى الآلهة والارواح في جذوع النخل والاشجار التي عبدها الساميون ، انظر محمد محمود جمعة ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والساميين ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥

(٢) يسرن يعني يرتفعن ، انظر الاصنام ، ص ٢١ وهامش ٥ .

الكعبـــة :

أما عن الكعبة التي صارت أعظم بيوت الاصنام في بـلاد العرب ، والتي يشبهها الباحثون المحدثون بالبانتيون أشهر معابد الآلهة في روما القديمة ، فكان أعظم الآلهة التي في جوفهـا هو « هبل » . وكان صنم هبل على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى (١) . ولا ندري مقدار صحة ما يقال من أنه كان من عقيق أحمر ، وأن قريشا جعلت له يدا من ذهب ، وذلك أن المعروف هـو أنه جعل بعد الفتح عتبة لبـاب المسجد الحرام حتى توطأ بأقدام الداخلين الى المسجد والخارجين منه ، مما يوحي بأنه كان صخرة عظيمة . وأمام هبل كانت القداح التي يضرب بها من أجل الاستخـارة .

وحول الكعبة كانت تقف أصنام أخرى مثل « أساف » و «نائلة» ، وهما على صورة رجـل وامرأة ، قيـل أنهما مسخـا حجرين لفجورهما بالكعبة . وكان أحدهما ملاصق للكعبة والآخر عند بئر زمزم (٢) . والذي يفهم من النصوص أن كثيرا من هـذه الاصنام لم تكن تكسر فقط بـل كانت تحرق ، مما يدعو الى الظن أن بعضها كان من الخشب ، ان لم يكن المقصود بالاحراق ما كان عليها من الملابس والزينة . هذا ، كما يمكـن ان يكون المقصود بالاحراق هو أن مصيرها النار وكذلك من يعبدها .

وتقول الروايات ان الكعبة كانت تحوي عند ظهور الاسلام أيضـا صورا للملائكة والانبياء ، وان النبي عندما أمر بطمس هذه الصور ، رأى صورة ابراهيم وفي يده الازلام يستقسم بها (٣) . ومع أن الكتاب العرب لا يفرقون بين الصورة والتمثال فان كلمة الطمس التي يستخدمها

---

(١) الاصنام ، ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩ .

(٣) انظر ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٤١٣ .

ابن هشام ترجح ان المقصود بالصور هنا هو الرسم الديني الذي يعرف عند الأوروبيين باسم الايقونات •

طقوس عبادتها :

أما عن طقوس العبادة فكانت تتمثل في الدوار حول الانصاب الذي أخذ من الطواف حول الكعبة ، وفي زيارة الاصنام أو الحج اليها ، وتقديم الهدايا لها ، من : الطعام والثياب والحلى والسلاح ، كما كانت تقرب عندها القرابين من الذبائح ، وخاصة عند استخارتها في الامور الشخصية، من : الزواج والنسب والسفر ، وفي الامور العامة عند التضرع للاستسقاء وقت القحط أو لطلب النصرة في الحرب ، وهي الامور التي كانت تتم عن طريق ضرب القداح الذي يعرف أيضا بالاستقسام بالازلام •

الهدايا والنحر :

وكانت الذبائح تنحر عند الصنم على البئر الذي يوجد أمامه من أجل أن يراق فيه الدم ، أو على الصخرة التي تمثل المذبح والتي اعتبرها الكتاب وكأنها الصنم نفسه ، حسبما وصفوا بعض الاصنام بالصخور ، كما تقدم • ورغم أن المستفيدين من الهدايا كانوا سدنة الصنم ، من غير شك ، فالظاهر أن التقرب بالذبائح كان من المناسبات الاجتماعية المحمودة، اذ كانت تفرق لحوم الذبائح على الموجودين عند المعبد ، مثلما كان يحدث عند العزى • ولهذا كان الفقراء من العرب ، وخاصة في أيام الشدة يتجهون الى بيوت الاصنام هذه طلبا للطعام من أولئك الوافدين اليها بالهدايا • فعندما كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون الى الاقيصر ، كانت عادتهم عندما يحلقون رؤوسهم عنده أن يلقوا الدقيق فوق الشعر • وكان الفقراء من هوازن يسرعون الى هناك قبل رمي الدقيق ويطلبونه عطية من الحجاج ، فان فات الرجل منهم ذلك : « أخذ ذلك

الشعر بما فيه القمل والدقيق ، فخبزه وأكله » [١] •

الاستقسام بالازلام والضرب بالقداح :

أما عن الضرب بالاقداح أو الاستقسام بالازلام ، فيقول ابن الكلبي في كلامه عن هبل ، انه كان قدام الصنم سبعة أقداح : منها ما هو خاص بصحة نسب الابناء ، ومكتوب فيه « صريح » ، وبمن لا تصح نسبته ومكتوب فيه «ملصق» ، ومنها ما هو خاص بالموت وما هو خاص بالزواج وغير ذلك • فكان طالب الاستخارة يبدأ بتقديم الهدية ثم تضرب القداح بمعرفة السدنة ، على ما يرجح [٢] • وهذا ما فعله عبد المطلب عندما ضرب

---

(١) هذا ولو أن الامر مختلف فيه بين الكتاب ، آذ هناك روايات اخرى تجعل ذلك في منى من الحرم المكي وليس في الاقيصر على حدود الشام ـ الاصنام ، ٤٨ ، ص ٣٨ ، وهامش ٣ •

(٢) وقارن ما يورده توفيق فهد (التنبؤ العربي ، ص ١٨١ و هـ ١) من قول الازهري في تهذيب اللغة : الازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها : أمر ونهي وافعل ولا تفعل. وقد زلمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت . اذا أراد رجل سفرا او نكاحا اتى السادن وقال : اخرج لي زلما فيخرجه وينظر اليه ، فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليه ، وان خرج قدح النهي قعد عما أراده ، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه فاذا اراد الاستقسام أخرج أحدهما . وانظر هـ ٢ وص ١٨٢ (عن الازهري) حيث : القدح هو السهم قبل ان يراش وينصل ، والجمع اقدح واقداح واقاديح . واستعملوا في القداح : الآمر والناهي والمتربص، وهن غير أقداح الميسر. اما ما يوضع فيه القداح فهو القربة الصغيرة التي عرفت بالقرابة او الصطل من الجلد ويسمى مدارة ، او الجعبة والكنانة التي تستخدم لحمل سهام الرمي . هذا ، كما توجد اشارة في ابن قتيبة الى ان قائد كسرى في حرب الحبشة كان يضرب بالقداح التي كان بعضها يحمل اسم الملك وبعضها اسم القائد نفسه الى جانب آخرين يحملان اسم ابيه واسم زوجته، وكان يتطير من السهم الاخير.

بالقداح ، عند هبل على ابنه عبد الله والد النبي ، كما سبقت الاشارة • ومثل هذا ما ينسب الى امرىء القيس من انه استقسم بالازلام عند ذي الخلصة، وهو يطلب بثأر أبيه، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فحطم القداح وألقاها في وجه الصنم ، وقال :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العدا زورا (١)

والظاهر أن سدنة بيوت الاصنام كانت لهم أساليب خاصة وحيل في اقناع زوارهم بما يريدون أي بما تريده الآلهة • اذ تذكر النصوص ان الناس كانوا يكلمون في هذه البيوت ، مثلما كان يحدث في ريام ، بيت حمير ، كما كانوا يسمعون في أجواف الاوثان همهمة • وقريب من هذا ما يذكر عن المرأة الحبشية العريانة المنفوشة الشعر والتي تصرف بأسنانها ، ونظن أنها المقصودة بشيطانة العزى (٢) •

قداسة بيوت الاصنام وحماها :

وكانت بيوت الاصنام هذه لها حرمتها عند العرب • فصنم طيء المعروف بالفلس كان « لا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد طريدة فيلجأ بها اليه الا تركت له ولم تخفر حويته » ، أي : لم يؤخذ ما احتواه أو ما استولى عليه (٣) • وفكرة الامن لدى بيت العبادة حتى للمطلوبين من قبل العدالة مقبولة ، كما هو الحال بالنسبة لتحريم القتل والقتال في الاشهر الحرم • ولكن استباحة ما للغير هناك أمر قد لا يكون كذلك ، فلقد استغل هذا الامر آخر سدنة الفلس من بني بولان وهو صيفي فكاز يطرد الطرائد • وذات مرة اطرد ناقة حلوبا لامرأة من كلب وساقها الى

(١) الاصنام ، ص ٣٥ ، ٤٧ .
(٢) الاصنام ، ص ٢٥ (هذا ، ولو ان الجملة الواردة : « كانت العزي شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة ») .
(٣) الاصنام ، ص ٥٩ .

فناء بيت الصنم على أنها في الحرم • وعندما خرج في أثره جار المرأة وهو مالك بن كلثوم الجشمي بعد أن استصرخته ، وطلب الناقة الموقوفة عند الفلس ، قال له السادن : انها لربك ، وعندما هدده مالك بالرمح ، قال له : أتخفر الهك • ولما حل مالك عقال الناقة وانصرف بها ، رفع السادن يده وأشار نحوه بيده ، وهو يطلق لعنة الاله عليه ، كما كانت عادة الشعراء • وفزع من كان عند الفلس ومنهم عدي بن حاتم الذي كان ينحر ذبيحة هناك ، وانتظر ما يصيب مالكا من الاذى ، فلما لم يصبه شيء ، « رفض عدي عبادته وعبادة الاصنام ، وتنصر • فلم يزل متنصرا حتى جاء الاسلام ، فأسلم » • ولقد ترتب على ذلك أن كان السادن اذا طرد طريدة بعد ذلك أخذت منه (١) مما يدل على اضمحلال الوثنية قبيل ظهور الاسلام •

وقريب من عادة تحريم ما يدخل في دائرة بيت الآلهة من حيوانات الطرائد ، ما سنه لحي بن حارثة ، أول من نشر عبادة الاوثان بين العرب ، من النذور بالحيوانات التي تترك حرة طليقة لا يجوز مسها • فلقد «سيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية » (٢) • ويفسر ابن اسحاق ، كما أورده ابن هشام ، ذلك بأن السائبة هي الناقة التي تلد عشر اناث ليس بينهن ذكر ، فتسيب ترعى ولا يركب ظهرها أو يحمل عليها ، ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الا ضيف • أما ابن هشام فيرى ان السائبة تترك نذرا للالهة اثر الشفاء من المرض أو بعد تحقيق أمر كان يرجوه صاحبه • أما البحيرة فهي ابنة السائبة ، وتشق أذنها ويخلى سبيلها مع أمها •

(١) الاصنام ، ص ٦٠ – ٦١ .
(٢) الاصنام ، ص ٨ .

والوصيلة عند ابن اسحق هي الشاة اذا ولدت عشر اناث توائم في خمسة بطون ليس بينهن ذكر • اذ يقال قد وصلت ، فيكون ما ولدت بعد ذلك للذكور من بينهم دون الاناث ، الا ما مات منها فلهم جميعا • ويرى ابن هشام ان الانثى التي تولد بعد ذلك توهب للآلهة فهي الوصيلة وربما تصل أخاها الذي يولد معهـا ، فيسيب ولا ينتفع به • أما الحامي فهـو الفحل اذا تنج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكـر ، حمي ظهره فلا يركب ولا يجز وبره وخلى سبيله في الابل يضرب فيها ، فلا ينتفع منـه بغير ذلك (١) • هذا ولو أننا نرى أن الحامية هي الطريدة التي تساق الى بيت الاله فتصبح في حماه ، فهذا ما يمكن أن يفهم مما فعلته قريش فـي حربها مع هوازن في يوم الفجار اذ تقول النصوص : فكادت قريش تنهزم الا أنها على « حاميتها » تبادر دخول الحرم ليأمنوا به (٢) • هذا ، ولقد نهى الاسلام عن هذه العادات ، وذلك في الآيات التي تقول : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون » (٣) •

تدهور عبادة الاوثان وظهور التحنف :

ومع أن تبجيل الاصنام بـين القبائل كان متبادلا في الحجاز بـين قبائل مكة ويثرب والطائف ومـن قاربهم من العرب ، فقد كانت قريش

(١) انظر السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٠ ، وقارن جواد علي ، المفصل ، ج ٦ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٢) ابن الاثير ، ج ١ ص ٥٩٣ .

(٣) السيرة ، ج ١ ص ٩٠ .

تعظم اللات الهة ثقيف في الطائف (١) ، ومناة آلهة هذيل وخزاعة ، فـي ساحل تهامة المقابل لمكة والمدينة ، والتي كانت تعظمها الاوس والخزرج أيضا أكبر اعظام ، فمن الواضح أن القرشيين نجحوا ، بفضل نشاطهم ، في اجتذاب القبائل الاخرى نحو بيتهم في مكة حتى أصبحت الكعبة قبلة العرب جميعا في موسم الحج • ونحن نرى أن بداية ذلك تظهر فيما كانت تقوم به الاوس والخزرج من الربط بين الحج الى الكعبة وبين زيـارتهم لمناة • فقد كان أهل يثرب (المدينـة) يحجون الى الكعبة فيقفون مـع الناس المواقف كلها ، ولكنهم لا يتمون حجهم الا عند مناة حيث يحلقون رؤوسهم بعد النفـر •

ورغم أن شأن الكعبة كان يسمو شيئا فشيئا مع مرور الوقت ، فقد كانت عبادة الاصنام قد تدهورت بشكل مؤسف • فبعد أن كانت الاوثان وسيطة أو شفيعة بين الناس وبين الله ، وذلك ما يظهر من قسم أوس بـن حجر الذي يقول فيه :

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله ، ان الله منهن أكبر (٢)

(١) قارن ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٧ (بمناسبة خضوع الطائف لابرهة يذكر ان « اللات : بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونـه نحـو تعظيم الكعبة . وفي هزيمة ثقيف امام المسلمين بعد يوم هـوازن في وادي حنين ، قال ضرار بن الخطاب الفهري :

وفرت ثقيف الى لاتها   بمنقلب الخائب الخاسر

هذا ولو ان لامنس لا يريد باللات هنا وثن مدينة الطائف الكبير ، بل يرى ان العادة كانت قد جرت بحمل وثن صغير يمثل اللات عند المسير الى الحرب ، وهو الذي كان يوضع تحت القبة ويرفرف فوقه اللواء ، كما سبقت الاشارة (انظر ص ٣٠٩ وهامش ٢) .

(٢) الاصنام ، ص ١٧ .

أصبحت تعبد لذاتها ، كما أن سدنة معابدها انحطوا بحيلهم وألطافهم التي لم تكن تسمح بأن تكلم الاصنام الزائرين فقط ، بل كانت تسمح لبعضهم، مثل : « صيفي » سادن الفلس بالاستيلاء على ابل ضعفاء الناس مدعيا بأنها هدايا الآلهة ، وبأنه لا يجوز استردادها لان الاله لا يخفر . وهكذا لم تعد عبادة الاصنام ترضي عددا ــ كان يزداد مع الوقت ــ من أصحاب العقل والضمير من رجال العرب الذين أخذوا ينظرون في الوجود ويتأملون في مصير الانسان . وانتهى الامر ببعضهم مثل : زيد بن عمرو بن نفيل الى التأله ، أي العودة الى الله ــ في الجاهلية ــ وترك عبادة العزى وعبادة غيرها من الاصنام قبل مبعث الرسول . وفي ذلك يقول :

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنم أزور
ولا هبلا أزور وكان ربا لنا في الدهر اذ حلمي صغير [١]

وكذلك عدي بن حاتم الذي ترك عبادة الفلس وعبادة الاصنام ، وتنصر الى أن جاء الاسلام ، فأسلم [٢] .

وبذلك وجدت طائفة الحنفيين من المتحنثين الذين تركوا عبادة الاصنام ، وتقربوا الى الله ، ودعوا الناس الى الخير ونهوهم عن فعل الشر ، وان بقوا متمسكين بتعظيم البيت « على ارث ابراهيم واسماعيل» . وكان من هؤلاء عدد من حكماء العرب ، مثل : قس بن ساعدة ، وحنظلة بن صفوان ، وعبد الله بن جحش ، وأمية ابن أبي الصلت الشاعر الديني الاخلاقي [٣] ، كما يذكر من بينهم ورقة بن نوفل ، ولو انه يقال انه كان

(١) الاصنام ، ص ٢٢ ، وقارن معجم البلدان لياقوت (اللات) ، ج ٤ ص ٣٣٨ .

(٢) الاصنام ، ص ٦١ .

(٣) عن أمية بن ابي الصلت انظر لامانس ، الطائف قبيل الهجرة (بالفرنسية) ، ص ١٩١ وما بعدها (حيث ينسب أمية الى مذهب يهودي ــ مسيحي) .

على دين اليهودية أو النصرانية [١] ، وعمرو الجعيد المعروف بالأفكل الذي كان يتكهن ثم طلب خلاف أهل الجاهلية فصار على دين المسيح [٢] .

وفكرة أن اليهودية والنصرانية كان لها أثرها في تهيئة العرب لتقبل التوحيد الاسلامي لا بأس بها ، فمن المعروف أن الاسلام ظهر كتكملة لكل من اليهودية والمسيحية .

اليهودية في بلاد العرب :

لما كانت بلاد الشام هي مهد اليهودية لم يكن من الغريب أن تعرف بلاد العرب تلك الديانة منذ أقدم عصورها ، وكان من الطبيعي أن تبدأ بمعرفتها تلك الاقاليم المتحضرة من بلاد العرب ، التي كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية بالعالم الخارجي . فالمفروض أن مصر ــ حيث نشأ موسى ــ هي الارض التي نشأت فيها أفكار التوحيد اليهودية الاولى ، وفي ذلك يشير البعض الى توحيد اخناتون المثل في عبادة اله واحد هو الشمس ، كما يشير البعض الى أن موسى ربما كان أميرا مصريا . اما العراق فقد عرفت اليهودية منذ التوسع البابلي وحروب الآشوريين في الشام وخاصة منذ غزو « نبوخذ نصر » الذي جعل من العراق ــ بفضل الاسر البابلي ــ المهد الثاني لليهودية . كما عرفت اليمن اليهودية منذ القرن الرابع الميلادي وأصبحت ديانة البلاد الرسمية . وتقول الروايات

(١) انظر السدوسي ، حذف من نسب قريش ، ص ٥٤ ، ولامانس ، المصدر السابق حيث يشير (ص ١٩٤) الى ان كتاب السيرة ارادوا أن يجعلوا من الحنيفية مبشرين بظهور النبي مثل يوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح .

(٢) انظر توفيق فهد ، التنبؤ العربي (بالفرنسية) ، ص ١٠٢ والهوامش .

العربية أن اليهودية دخلت الى اليمن عن طريق يثرب حيث كانت هذه الديانة قد استقرت منذ عصور قديمة •

في اليمن :

وتقول الرواية أن ملك اليمن تبان أسعد أبو كرب كان قد خرج لحرب الاوس والخزرج بالمدينة يثرب ، وانه أراد خراب المدينة فمنعه حبران من اليهود من ذلك ، وأقنعاه بما للمدينة من حرمة ، « وانها مدينة النبي [1] » ، مما يمكن أن يعني انهما نجحا في ادخاله في ديانتهما • وعندما عاد الملك الى بلاده اصطحب الحبرين معه ، وأعلن ترك عبادة النار التي كانت تعبدها حمير ، وان اليهودية هي ديانة البلاد • وتضيف الرواية أنه عندما غضب قومه لخروجه على دينهم تم الاحتكام الى النار التي كانت تحكم بينهم ، فلم تؤثر في الحبرين شيئا ، وبذلك تأكدت اليهودية كديانة رسمية [2] • هذا ، ولو ان المفروض أن تكون اليمن قد عرفت اليهودية منذ أيام سليمان ، اذا صحت قصته مع بلقيس [3] •

في الحجاز :

أما عن دخول اليهودية الى الحجاز ويثرب فترجعها بعض الروايات الى عصور أقدم من ذلك ، الى أيام موسى أو داود وغزوهم للعماليق • ويرى البعض أن اليهود أقاموا في الحجاز منذ أيام « نبونيد » أو « بخت نصر » ، بمعنى أن أهل الحجاز عرفوا اليهودية عن طريق العراق ، وكان

(1) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ ، وقارن عبيد بن شرية ، ص ٤٥٠ (حيث يقول ان ملك اليمن قتل اكثر من ٣٠٠ من يهود يثرب) .

(2) وهب بن منبه ، التيجان ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ ، عبيد بن شرية ، ص ٤٨١ •

(3) نفس المصدر ، ص ١٥١ وما بعدها ، عبيد بن شرية ، ٤١٠–٤٢٥ •

اليهود قد انتشروا من العراق في بلاد العرب الشرقية وتاجروا مع أهلها • وتشير الاخبار الى أن عمرو بن مضاض الجرهمي صاحب مكة كان يستقبل التجار الاسرائيليين الذين كانوا يأتون له بالدر والياقوت ، وانه عاقب أحدهم عندما « غيب عنه عتيق ما معه » فأخذ ما كان معه ، ورد الاسرائيلي على ذلك بأن سرق التاج الذي كان معلقا في البيت العتيق وحمله الى بيت المقدس ، فكان ذلك سببا في تلك الحرب التي قامت بين جرهم والعماليق وبين الاسرائيليين وحلفائهم من الروم [1] •

ورغم أن قصة هرب اليهود بعد غزو بخت نصر من فلسطين والتجائهم الى الحجاز حيث استقروا في يثرب خاصة لا بأس بها ، كما يقول جواد علي ، فان الاكيد تاريخيا هو أن فرارهم من فلسطين يرجع الى غزو الرومان ما بين سنة ٧٠ و ١٣٢ م ، ولا بأس من أن تكون جماعات منهم قد اتجهت نحو الحجاز حيث استقرت في بعض نواحيه ، وخاصة في يثرب • ومع مرور الوقت تأثرت جماعات من العرب بدياناتهم ودخلوا فيها، وخاصة من بين الاوس والخزرج • فالى جانب يهود يثرب الاصليين من بني فينقاع وبني النضير وبني قريظة تذكر النصوص يهودا من بني عكرمة وبني ثعلبة وبني زيد [2] •

في يثرب :

والروايات العربية تجعل سكنى اليهود في يثرب أقدم فعلا من سكنى الاوس والخزرج الذين كانوا من بطون الازد التي خرجت في الهجرة الكبرى من اليمن بقيادة عمرو بن عامر الملقب بمزيقياء والتي انتهت بني جفنة الغساسنة الى الاستقرار في الشام • فعمرو مزيقياء اذن هو جد الانصار ، سلالة حفيده حارثة بني ثعلبة الذين رجعوا من الشام الى

(1) التيجان ، ص ١٨٢ – ١٨٦ •

(2) جواد علي ، ج ٦ ص ٥١٩ •

يثرب ، ولكنهم ظلوا على صلة وثيقة بأبناء عمومتهم في الشام ، فكانوا يساعدونهم في حروبهم ضد الروم ، ويطلبون منهم المساعدة ضد يهود يثرب . وكان الازد يسكنون في ظواهر المدينة في أول الامر اذ تقول الرواية العربية ، ان ملك يهود يثرب وهو شريف بن كعب اليهودي طلب منهم عهدا مكتوبا ، ينص على : « ان اليهود لغسان حاضرة وغسان لليهود بادية [1] » ، ووافقت غسان على ذلك . أما عن سيطرة غسان على المدينة يثرب نفسها فترجع الى تدبير مكر جذع بن سنان ، صعلوك الازد وفاتكهم ، الذي انتهز فرصة خلاف قام بين تاجر يهودي ورجل من غسان، فثارت غسان باليهود ، وانتهبت السوق ، وقتلوا من فيه ودخلوا المدينة . وانتهى الامر بالصلح على أن يسكن الازد مع اليهود في يثرب ويجاوروهم، وهكذا « نزلت الاوس والخزرج بيثرب وسكنوا فيها » [2] . وفي استيلاء اليمنية على يثرب ، ينسب الى بعض الشعراء من آل أسعد بن ملكيكرب تبع أنه قال :

وقد نزلت منا خزاعة منزلا كريما لدى البيت العتيق المستر
وفي يثرب منا قبائل ان دعوا أتوا سربا من دارعين وحسر
هم طردوا عنها اليهود فأصبحوا على معزل منها بساحة خيبر [3]

واذا صح هذا فلا يكون خروج يهود يثرب الى خيبر على أيام الرسول أول خروج لهم ، بل تكون يثرب هي المركز اليهودي الذي انتشروا منه في شمال الحجاز .

وبذلك ذل اليهود في المدينة يثرب ، وصاروا يستجيرون بالأوس والخزرج، كما كان بعضهم يقف الى جانب الاوس والبعض الى جانب الخزرج

(1) التيجان ، ص ٢٩٠ .
(2) التيجان ، ص ٢٩٢ .
(3) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ .

في الحروب التي كانت تقع بين الحيين . ففي يوم بعاث وهو آخر الايام بين الاوس والخزرج قبل الهجرة ، كان يهود بني قريظة وبني النضير حلفاء للأوس . ويرى بعض الكتاب ان قريظة والنضير من طبقة اليهود المعروفين بـ « الكاهنين » لانهم من اشراف اليهود الذين ينتسبون الى جدهم الكاهن الذي يقال أنه هارون أخو موسى هذا ولو أن بني النضير كانت لهم مكانة أسمى من بني قريظة عند ظهور الاسلام . فقد كان بنو النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود بينما كان بنو قريظة يؤدون نصف الدية ، كما تقول النصوص . وعلى العكس من ذلك كان الرجل من بني قريظة اذا قتل رجلا من بني النضير قتل به ، واذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة أدى مائة وسق من تمر [1] . ولهذا يرجحون أن يكون بنو قينقاع من أصل عربي متهود ، مثلهم في ذلك مثل من تهود من بطون العرب ، مثل : بني الحرمان من اليمن ، وبني مرتد من بلي ، ويهود بني معاوية من بني سليم .

اما عن منازل اليهود في المدينة عندما دخلها النبي ، فكان بنو النضير يقيمون في وادي بطحان من أودية يثرب التي تكثر فيها المياه ، وكانت لهم فيه حصونهم المعروفة بالآطام ، وسط حدائقهم الغنية . وكان من سادتهم وقتئذ حيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، كما كان منهم الشاعر كعب بن الاشرف الذي ناصب النبي العداء حتى قتله المسلمون عندما يأسوا من استصلاحه [2] . وكان لبني قريظة حصون وآبار ومنهم محمد بن كعب القرظي ، والزبير بن باطان ، وعزال بن شمويل .

(1) جواد علي ، ص ٥٣٤ ، وعن خروج بني الكاهن بن هارون من الشام الى الحجاز انظر ياقوت ، معجم البلدان (مدينة يثرب) ج ٤ ص ٤٦٢ .
(2) جواد علي ، ج ٦ ص ٥٢٣ .

في واحات الشمال :

أما أهم مراكز اليهود بعد يثرب فكانت خيبر التي لجأ اليها المطرودون من المدينة من اليهود • وعلى أيام الهمداني كان بخيبر « قوم من يهود وموال وخليط من العرب » [1] • وقيل ان اسم خيبر عبراني يعني الحصن ، والظاهر ان ذلك كان بسبب ما بها من الحصون أو الآطام التي بلغ عددها سبعة ، وكان منها : القموص وهو أحصنها ، وناعم ، والشق والسلالم • وقيل ان اسم المدينة يعني بالعبرانية الطائفة أو الجماعة بمعنى طائفة اليهود التي استقرت هناك بعد خراب الهيكل ، كما يرى البعض [2] • والمنطقة عرفت بمياهها الكثيرة ونخيلها التي تنتج أنواعا جيدة من التمر ، مثل البردي الذي يضاهي في الجودة تمر المدبس المعروف في اليمن [3] •

ومن مراكز اليهود في شمال الحجاز تيماء التي عرفت بتيماء اليهود ، والتي اشتهرت بكثرة نخيلها وحدائقها المحاطة بالجدران • وفي ذلك يقول امرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أجُما الا مشيدا بجندل [4]

وفيها كان حصن السموأل المشهور المعروف بـ « الابلق الفرد » ، والذي ربما كان من بقايا القصور القديمة ، كما يقترح جواد علي [5] •

وفي هذا الحصن ينسب للسموأل قوله :

وهو الابلق الفرد الذي سار ذكره ... يعز علي من رامه ويطول

---

(1) صفة جزيرة العرب ، ص ١٣٠ •

(2) جواد علي ، ج ٦ ص ٥٢٥ وما بعدها •

(3) الهمداني ، صفة ... ج ٢ ص ٢٠٠ •

(4) الهمداني ، صفة ... ج ٢ ص ٢٢٩ •

(5) المفصل ، ج ٦ ، ص ٥٢٩ ، وانظر فيما سبق ص ٢٣٦ •

وللسموأل الذي كان شاعرا والذي ضرب به المثل في الوفاء :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل [1]

ومن مواضع اليهود في شمال الحجاز : فدك ، وكان صاحبها يوشع بن نون عندما ظهر الاسلام ، ومنها : وادي القرى حيث غزاهم الرسول سنة ٧ هـ ، وفتح قراهم عنوة ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر [2] •

الطائف :

ولقد كان للطائف يهودها الذين ذهبوا اليها من يثرب ومن اليمن وعملوا في التجارة والربا [3] ، كما كان لليمن يهودها رغم انتشار المسيحية فيها ، فكأن الطائف ــ مثل يثرب ــ كانت همزة وصل بين يهود اليمن جنوبا ويهود الشام شمالا ، وذلك طول الطريق التجاري التاريخي•

وهكذا كان اليهود ينتشرون في جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام، وكانت أهم مراكزهم في يثرب المدينة من حيث انتشروا في مدن الحجاز وواحات الشمال • وكانوا يشتغلون بالتجارة والربا والصناعات ، كما اشتغلوا بالزراعة وأحاطوا حدائقهم بالجدران والاسوار وحموها بالحصون المعروفة بالآطام • وبذلك كان دورهم في الحجاز كما لاحظ لامانس [4] ، أهم من دور النصارى •

---

(1) جواد علي ، المفصل ، ج ٦ ص ٥٧١ •

(2) معجم البلدان (وادي القرى) ج ٤ ، ص ٨٧٨ •

(3) لما كانت الطائف قد اشتهرت بالعنب والخمر فقد قيل ان أول أقلام الكرم التي زرعت في الطائف كانت هدية من امرأة يهودية من وادي القرى ، أرسلتها الى ابي رغال امير الطائف وقتئذ (لامانس ، مدينة الطائف قبيل الهجرة ، ص ١٤٥) ، وعن ابي رغال امير الطائف او دليل ابرهة الى مكة الذي كان يرجم قبره ، انظر ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦١ (حيث قال جرير :

اذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر ابي رغال)

ومثل ذلك ما يقال عن اليهودي الذي كان يلت المجين عند صنم اللات ، كما سبق •

(4) انظر مدينة الطائف قبيل الهجرة ، ص ١٩٩ •

النصرانية في بـلاد العـرب :

في الحيرة :

والى جانب اليهودية عرف العرب النصرانية التي كانت منتشرة في الشام وفي الحيرة وفي اليمن وفي نجران • فالمسيحية كانت منتشرة بين جزء كبير من أهل الحيرة ، وخاصة بين الجماعة التي عرفت بالعباد ، كما كان هناك عدد من الكنائس والاديرة التي اشتهرت بين العرب • اما عن ملوك الحيرة فقد ظلوا مدة طويلة على الوثنية اذ كان أول من تنصر منهم هو النعمان أبو قابوس ، وذلك قبل قليل من نهاية القرن السادس الميلادي • ويرى « جويدي » أنه لما كان ملوك الحيرة تابعين للساسانيين فقد كان من مصلحتهم أن يبقوا ملاحدة ، وذلك ان الدخول في المسيحية كان يعني في نظر ملوك الفرس الانحياز الى البيزنطيين (١) • وعلى هذا الاساس يفسر دخول ملوك الحيرة في المسيحية على المذهب النسطوري الذي كان محرما في بيزنطة •

وقبل أن يتنصر ملوك الحيرة كان بعض أفراد عائلتهم قد دخلوا في المسيحية، والمثل لذلك هند زوجة المنذر الثالث التي بنت ديرا وكنيسة، بقي منها النقش التأسيسي الذي يقول ، على وجه التقريب :

« هذه الكنيسة شيدتها هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر • الملكة وابنة الملوك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، خادمة المسيح ، وأم خادمه ، وابنة خدامه ، على عهد ملك الملوك كسرى أنو شروان ، وكان « افرم » أسقفا للمدينة » •

عند الغساسنة :

ومثل هذا يمكن أن يقال عن المسيحية في مملكة غسان ، وكان

(١) بلاد العرب قبل الاسلام ، ص ٣٢ •

الغسانيون قد تنصروا قبل المناذرة بفترة طويلة ، كما انهم تمسكوا بمذهبهم اليعقوبي (الارثوذكسي) عن قناعة وليس لاغراض سياسية •

ولقد كانت الاحتفالات الدينية المسيحية وملابس القسس الزاهية والاحتفالات بالاعياد ، مما كان له أثره في نفوس العرب فسجله شعراؤهم• وفي ذلك يصف النابغة ، بمناسبة ذكر الغسانيين ، أحد السعف، فيقول :

محلتهم ذات الاله ودينهم　　قويم فما يرجون غير العواقب

رقاق النعال طيب حجزاتهم　　يحيون بالريحان يوم السباسب

وكان لصور الايقونات والتماثيل شأن عند العرب الذين سموها بالدمى ، ومفردها دمية ، وهي الكلمة الآرامية الاصل والتي تعني «الشبه أو الصورة » ، كما يسجل ذلك جويدي (١) • وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

أودمية من مرمر مرفوعة　　بنيت بآجر تشاد وقرمد

كما يقول الشاعر عبد الله بن عجلان في ذكريات شابة نبيلة الجمال :

قد طال شوقي وعادني طربي　　من ذكر خود كريمة النسب

غراء مثل الهلال صورتها　　ومثل تمثال بيعة الذهب

وهذا ما يفسر كيف ان عددا من قبائل العرب كان قد دخل في النصرانية منذ وقت طويل قبل الاسلام ، مثل قبائل : تنوخ في منطقة قنسرين (الذين دعاهم أبو عبيدة الى الاسلام، فأجاب بعضهم) ، وبهراء في الشام أيضا ، واياد في الشام والجزيرة وسواد العراق • ومن بين العرب المتنصرة في الشام الى جانب غسان : سليح وعاملة ولخم وجذام • أما في العراق فكان من العرب المتنصرة : تغلب وبنو عجل بن لجيم من بكر بن وائل •

(١) بلاد العرب قبل الاسلام ، ص ٣٧ •

أديـرة الحيرة :

أما عن أديرة الحيرة وبيعها ، فمنها :

ديارات الاساقف بالنجف ظاهر الكوفة ، ودير الاعور الذي بناه رجل من اياد في نفس المنطقة ، ودير بني مرينا بظاهر الحيرة والذي ذكره امرؤ القيس بمناسبة مقاتل الكنديين من آله ، ودير عبد المسيح بظاهر الحيرة والذي ينسب الى عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة ، ودير اللج الذي بناه النعمان بن المنذر ابو قابوس • و « كان (النعمان) يركب في كل أحد اليه ، وفي كل عيد ، ومعه أهل بيته ، خاصة من آل المنذر ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم اعلام فوقها صلبان ، واذا قضوا صلاتهم ، انصرفوا الى مستشرفة على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع ووهب ، وحمل ووصل ، وكان ذلك أحسن منظر وأجمله » (١) • هذا ، كما كان للجزيرة الفراتية أديرتها ، وللشام أديرته •

في الحجـاز :

يثـرب :

واذا كان حال المسيحية كذلك في أطراف بلاد العرب قبل فترة طويلة نسبيا من ظهور الاسلام ، لم يكن من الامر المستغرب أن يكون أهل الحجاز قد عرفوا النصرانية عن طريق تلك البلاد التي كانت لهم بأهلها علاقات تجارية وثيقة • فرغم ان يثرب كانت مدينة اليهودية ، فالظاهر انه كان بها بعض النصارى ، ويمكن أن يكون ما قاله حسان بن

(١) انظر جواد علي ، ج ٦ ص ٥٩٨ (والنص عن البكري في معجم ما استعجم) •

ثابت في رثاء النبي قرينة على ذلك ، ففيه :

خرجت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد

وفي نصارى يثرب يقال انهم كانوا يسكنون في موضع منها يسمى بسوق النبط ، وأن أبا عامر الراهب ، وهو من أهل يثرب ، فر من المدينة الى مكة بعد الهجرة ، وبصحبته عدد من رجال الاوس الذين كان قد نصرهم على ما يظن (١) •

مكـة :

أما عن مكة فقد كانت بها جماعات من النصارى ، منهم جماعة الاحابيش ، وهم من سودان الحبشة الوافدين من اليمن ، وكان منهم العبيد والعمال والتجار والمرتزقة من الجند ، وكانوا يملأون شعاب مكة وأحياءها • ورغم ما يقوله الكتاب من أن بعض القريشيين قد تنصر ، فالظاهر انهم يقصدون بذلك المحنثين أو الحنفاء ، مثل ورقة بن نوفل ، اد الواضح ان نصارى مكة كانوا من غير أبنائها وخاصة من الاحباش ، والاحابيش الذين كانوا يكونون فرقة من المرتزقة (٢) • فقد كان لمكة علاقات تجارية نشطة مع الحبشة ومع نجران التي يصفها «لامانس» بأنها كانت جمهورية مسيحية • فبعد المبعث كان نصاوى نجران يحضرون الى مكة لمناقشة الرسول ، وذلك اثناء مواسم التجارة في أسواق عكاظ وذي مجاز ، في الشهرين السابقين على الحج (٣) •

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٦ ص ٦٠٢ — ٦٠٣ •
(٢) لامانس ، بلاد العرب الغربية قبل الهجرة (بالفرنسية) ، ص ١٠ •
(٣) وهنا يريد لامنس ان تكون كعبة نجران هي الكنيسة الرئيسية هناك (المرجع السابق ، ص ١٧) ، وهذا ما لم تشر اليه المصادر العربية القديمة •

ومن بين من عرفوا بمكة بأنهم نصارى نسطاس أو انسطاس ، مولى صفوان بن أمية القرشي ، وميناً أو مناس الذي لا ينتسب الى قبيلة من القبائل • ومن أشهرهم حنا أو يوحنا عبد صهيب بن سنان الرومي • وصهيب هذا كان من أوائل المسلمين الذين هاجروا من مكة الى المدينة مضحين بأموالهم للقرشيين • وكان من نصارى مكة نسطور الرومي وابنه جعفر الذي دعا له الرسول بطول العمر • والحقيقة ان المبشرين والرهبان كانوا يترددون على أسواق العرب في عكاظ وفي ذي المجاز ، ومن المعروف ان قس بن ساعدة الذي قيل انه من الحنيفية وانه من النصارى كان يدعو في سوق عكاظ • ومن الرهبان من كان يقوم الى جانب الدعوة بأعمال الطب والعلاج •

وكان تجار الشام من الانباط يأتون الى مكة وهم يحملون الحبوب والزيت والنبيذ ، ولما كان هؤلاء من النصارى فمن المقبول ان يعرفوا بعض الناس بدياناتهم •

الطائف :

وكان في الطائف أيضا عدد من العبيد والعمال من النصارى ، من أشهرهم عداس وهو عبد عتبة بن ربيعة الاموي ، وهو الذي أحسن استقبال النبي عندما ذهب يعرض نفسه على أهل الطائف • ويرى لامانس ان المسيحية دخلت الطائف من نجران القريبة منها على الطريق الى اليمن ، وانه كانت توجد بالطائف جماعة نجرانية مسيحية ، كما كانت لامية بن ابي الصلت الذي ينسبه الى مذهب مسيحي ـ يهودي علاقات متينة بأسرة بني الديان سادة نجران [1] •

(١) انظر ، مدينة الطائف قبيل الهجرة ، ص ١٩٩ •

طوائف النصارى :

وفي كتب السيرة ذكر للكهان من النصارى ، مثل الكاهن المسيحي مأمون بن معاوية الذي كان من أعلم الناس بالنجوم ، والاسقف الذي كان يجادل عبد المطلب عند اقدام الكعبة • ومع انه من المعروف ان ورقة بن نوفل ، قريب السيدة خديجة ، كان قد تحنث وتحنف أو تأله أو ترهب ، فهناك روايات تطلق عليه اسم « القس » وتقول انه كان قد تنصر واستحكم في النصرانية •

ومن بين الموالي والعبيد الذين يعملون في مكة في مختلف المهن من ، النجارة والحدادة والتطبيب ، كان البعض يعرف اليهودية والنصرانية ، مثل : جبر أو يسار ، مولي بني مخزوم ، الذي كان يصنع السيوف وكان النبي يمر عليه وهو يقرأ التوراة والانجيل فيقف ويسمع • ولقد ادعى أهل مكة ان النبي كان يستوحي رسالته منه ، فكان الرد عليهم ان لسان الذي يشيرون اليه أعجمي ، كما تقول الآية : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » [1] • وينسب لامانس عدم ملاحظة أصحاب السلطة في مكة من « الملأ » ومن أهل « دار الندوة » وجود الرهبان في الاسواق أو التبشير بالمسيحية بأن الاجانب من النصارى الذين يمثلون طبقة العمال والموالي والعبيد كانوا يعيشون في شعاب مكة خارج المدينة أو بظاهرها بينما كان القرشيون الخلص يعيشون داخل المدينة في البطاح • كما

(١) أنظر لامانس ، بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٥ ، جواد علي ، المفصل ، ج ٦ ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤ •

يرى أن العرب لم يكونوا يعرفون التعصب ، وان فكرة ان الاجانب نجس هي من أفكار التلمود [(1)] .

النصارى والكعبة :

والى جانب ذلك كان نصارى بلاد العرب يبجلون الكعبة ويقومون بزيارة مكة ومنى ومواقف الحج موفقين بذلك بين ديانة العرب ومسيحيتهم ، مدفوعين بمصالحهم التجارية . ولا بأس من أنهم كانوا يشاركون اخوانهم العرب في مناسك الحج ، طالما كانوا يحضرون المواسم ، ولو أن لامانس يشير في نفس الوقت الى أنه لا يوجد دليل على ذلك . وهو يريد أن يفرق بين المواسم والمناسك ، فالمواسم — في رأيه — هي التي تحتوي على العمليات التي تتم في السوق التجاري ، والمناسك هي التي تحتوي على المراسم الدينية .

* * *

موقف اليهود والنصارى من الاسلام أيام النبي :

هكذا عرفت بلاد الحجاز كلا من اليهودية والنصرانية ، وان كانت مكة قد عرفتهما في نطاق محدود بين الاجانب المقيمين في أطرافها بينما لم تعرفهما قريش الا على المستوى الفردي ، وفي نطاق حركة التحنث أو التحنف التي عرفت أيضا باسم التأله والترهب .

والحقيقة ان وجود ديانتي التوحيد في مهد الاسلام يمكن أن يعتبر نذيرا بقيام الدين الجديد ، كما يريد أصحاب السيرة [(2)] ، ولكنه لا يعني

(1) بلاد العرب الغربية قبل الاسلام ، ص ٣٣ ، ٣٩ .

(2) انظر ابن هشام (السيرة ، ج ١ ص ٢٠٤) الذي يخصص فصلا (عن ابن اسحق) في اخبار الاحبار من اليهود ، والرهبان من =

— حقيقة — ان البلاد كانت مهيأة لتقبل الدعوة المحمدية ، دعوة التوحيد بسهولة . وذلك ان الصعوبات الشديدة التي لقيها النبي والمجهودات المضنية التي بذلها في سبيل الدعوة ، تبين ان الامر كان على العكس من ذلك . فالنبي لم يلق المعارضة فقط من تجار قريش الذين كانوا لا يهتمون الا بمكاسبهم المادية ، ولا من رجال الدين ، سدنة الكعبة ، الذين لا يهتمون الا بالمحافظة على مركزهم الممتاز في مكة ، وبما كانوا يحصلون عليه من النذور والهدايا ، بل انه عندما هاجر الى المدينة يثرب وجد ، على عكس ما كان يظن ، عداء مرا من جانب جماعات اليهود هناك .

وفي أول الامر كانت العلاقة طيبة بين النبي واليهود اذ « كتب كتابا بين المهاجرين والانصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم » [(1)] ومع انتشار الاسلام بين الاوس والخزرج بدأ موقف اليهود يسوء حتى ان بعضهم « تعوذوا بالاسلام وهم يبطون الكفر » ، منهم : سعد بن حنيس وزيد بن اللصيت ورافع بن خزيمة ورفاعه بن زيد بن التابوت وكنانة بن خبورا .

وساءت العلاقة عندما بدأ اليهود يجادلون النبي في أخبار الانبياء .

= النصارى ، والكهان من العرب الذين اخبروا عن النبي وتحدثهم بأمره قبل مبعثه . وفي التنبؤ ببعثه الرسول ما يروى عن عمرو بن الجعيد الكاهن المعروف بالافكل الذي تنصر . اذ قيل ان الناس سمعوا في زمانه مناديا ينادي في الليل ، وذلك قبل مبعث النبي : خير اهل الارض رباب الشنى (من ولد الافكل) وبحيرا الراهب ، « وآخر لم يأت بعد » (أنظر توفيق فهد ، التنبوء العربي بالفرنسية) ص ١٠٢ ، وه ٦ . وعن معنى الافكل أي الذي تعتريه رعدة ه ٧ .

(1) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥٠١ — ٥٠٤ .

ثم عندما حاولوا احراجه بطلبهم المعجزات ، وكان على رأسهم كعب بن الاشرف ، الذي كان أبوه من طيء وأمه من يهود بني النضير ، والذي لم يكتف باثارة الفتنة في المدينة ، بل أخذ يؤلب المكيين بعد هزيمتهم في بدر حتى أمر الرسول بقتله وهو في حصنه (١) . فكان مقتله نذيرا بما سيلحق الكفار جميعا ومنهم يهود المدينة جميعا ، من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .

ومن زعماء اليهود الذين قاوموا الاسلام : حيى بن اخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ، والزبير بن باطا بن وهب ، وعزال ابن شمول . **أما الذين دخلوا في الاسلام منهم فكانوا قلة ، منهم :** عبد الله بن سلام وهو من بني قينقاع وكان اسمه الحصين قبل اسلامه ، واليه نسب الاخباريون أقوالا مما يوجد في كتب التفسير والحديث . ويوسف بن عبد الله بن سلام الذي يعد من الصحابة ، ويامين بن عمير بن كعب ، من بني النضير . وكعب بن سليم القرظي ، من بني قريظة ، وهو والد محمد بن كعب القرظي .

ومن أشهر مسلمة اليهود كعب بن مانع الذي عرف بكعب الاحبار تعظيما لشأنه لانه كان عالما بالاسرائيليات التي أدخل منها الكثير في الاسلام ، وكذلك وهب بن منبه الذي يعتبر مرجعا أيضا في القصص الاسرائيلي ، كما رأينا .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٣٢ .

الفصل التاسع

حضارة العرب المادية قبل الاسلام

العمارة :

يتضح من هذا العرض السريع لتاريخ العرب قبل الاسلام أنه على عكس ما هو شائع من أن بلاد العرب هي بلاد العطش والقحط ، ومن أن العرب هم البدو ، دون غيرهم وهو الامر الذي يصر عليه ابن خلدون ، وهو يقصد الأعراب أي العرب في شكلهم النقي الاول . فان بلاد العرب عرفت مواطن الخصب والرخاء ، كما في اليمن وتخوم العراق وبلاد الشام ، وانه كان من العرب منذ العصور القديمة أهل الحضارة ، كما وجد منهم البدو وأهل الصحراء — والامر على ما هو عليه حتى اليوم .

ففي بلاد الحضارة عاش العرب منذ أقدم العصور في المدن عيشة حضرية راقية ، وخاصة في مدن اليمن ، من : صنعاء التي كانت تسمى في الجاهلية « ازال » (١) ، وظفار ، وناعط ، ومأرب ونجران ، وحضرموت ، ومعين ، وبراقش . وبلاد اليمن هي بلاد العمران والبنيان في كل بلاد العرب ، دون منازع ، ساعد أهل اليمن على ذلك جبالها العالية التي تمدهم — الى جانب الماء اللازم للزراعة — باحجار البناء المتينة وبأنواع الصخور الممتازة من : الرخام والمرمر والجزع التي يكاد يصل بعضها الى مستوى الاحجار الكريمة .

---

(١) الاكليل ، ج ٨ ، ص ٥ .

وان بقايا قصور اليمن القديمة التي وصفها الهمـداني ، في كتابـه الاكليل ، منذ أكثر من ألف عام لخير دليل على ذلك . وصنعاء ـ عاصمة اليمن منذ أيام الهمداني وحتى الآن ـ توصف باعتـدال هوائها ، وان كانت تميل الى البرد . والمهم ان بردها وحرها لا يضران : « وان الرجل المسن يلبس اللباس الرقيق في الشتاء الشديد البرد وجمود الماء فلا يضره ذلك » . وعلى العكس من ذلك فان لبس ثياب الصوف صيفا بصنعاء لا يضر ايضا . وفي ذلك يقول الهمداني : « ويدخل الرجـل الى منزلـه بحزيران (يونيه) ، وقد حره بدنه وتعب ، فيفتح باب خلوته ويكشف ستره ويدخل في فراشه فيبرد ... لا ذباب ولا نامس ... » . وفي هذا الجو الحسن « يمكث فيها القـدر من اللحـم بالخل الحـاذق الشهـر وأكثر » (١) .

أما عن المطر فيها ففي الخريف والربيـع ، في أول آذار وفي آخـر نيسان ، ولهذا تتوفر الميـاه بها فأقل منزل في منازلها فيها بئر واثنتـان وبستان . وصنعاء لذلك احدى جنان الارض ، بهـا الابزار والثمـار والفواكه ، وضروب الرياحين والزهور والورد وأجناس الطير (٢) .

ومعادن الجزع في اليمن وجدت في مواضع كثيرة ، ومنه : النقمـي وبعض أصنافه نفيسة ، والجزع السماوي الذي يسمى العشاري ـ نسبة الى وادي عشار بالقرب من صنعاء ، والعقيق اليماني من الهان ، والبقران النفيس الذي يكون ألوانا ، وهو بجبل أنس ، ويبلغ المثلث من فصوصه مالا ـ وهو أن يكون وجهه أحمـر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ،

---

(١) نفسه ، ج ٨ ، ص ١٠ ـ ١١ .

(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ١١ .

والعرواني ، وهو أحمر بعرض أبيض . ومنه الحجـر الجرتـي الاسود والاخضر الذي تعمل منه نصب السكاكين . هذا ، ويوجد البلور في كل هذه المواضع (١) .

غمـدان (٢) :

وأشهر قصور اليمن القديمة هو قصر صنعاء المعروف بـ « غمدان » الذي يعتبر أول قصور اليمن وأعجبها وأبعدها صيتا . وفيه ، وفي صنعاء قال الهمداني :

أرض تخيرهـا سـام وأوطنهـا ... وأس غمدان فيها بعد ما احتضرا

لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته ... ولا الشتـاء يمسيهـا اذا قصرا

وموضع القصر العجيب هو موضع جامع صنعاء ، وبئره هي التي كانت سقاية المسجد أيام الهمداني ، الذي يصف القطعة التي بقيت منه وقتئذ قباله الباب الاول والثاني من ابواب الجامـع الشرقيـة ، بأنهـا « قطعة ذات خراب متلاحك (متداخل) عجيب . أما باقي القصر الخرب فهو تل عظيم كالجبل ، اذ كان البناء يتكون من عشرين طابقـا (سقفا) بعضها فوق بعض ، وارتفاع الطابق عشرة أذرع ، بمعنى ان ارتفاع القصر جميعا ـ حسب رواية الهمداني هذه كان يصل الى ٢٠٠ (مائتي ذراع). أما ياقوت في معجم البلدان، فينص على ان البناء كان يتكون من ٧ (سبع) طبقات ، ولو انه يجعل ما بين السقف والذي يليه ٤٠ (أربعين) ذراعـا فيكون مجمل الارتفاع ٢٨٠ ذراعـا وهو الامـر الذي يصعب تحقيقه فنيـا » .

---

(١) نفسه ، ج ٨ ص ٣٧ .

(٢) اصدر نفسه ، ج ٨ ص ١٥ وما بعدها ، وانظر معجم البلـدان ، غمدان ، ج ٣ ص ٨١٢ .

وفي وصف غمدان الذي كان يصعد في السماء لينطح السحاب والذي كان صخر بنائه متلاحكا كأنه قطعة واحدة ، كما تقول الروايات العربية في أبنية مصر القديمة ، والذي كان يحوي أنواع الحجارة الثمينة من الجزع ، ويحمل في أركان قمته تماثيل النسور المصنوعة من النحاس والاسود ، يقول الهمداني :

يسمو الى كبد السماء مصعدا … عشرين سقفا سمكها لا يقصر
من السحاب معصب بعمامة … ومن الرخام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخره … والجزع بين صروحه والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر … أو رأس ليث من نحاس يزأر

ومما يلفت النظر تلك الساعة المائية التي كانت تحدد أوقات النهار، وموضعها في صدر القصر ، وفيها يقول الهمداني :

متضمنا في صدره قطارة … لحساب أجزاء النهار تقطر

وبصرف النظر عن الارتفاع الشاهق الذي ينسب الى قصر غمدان ، تقول رواية الهمداني ان صاحبه بنى لنفسه غرفة عليا مربعة الشكل في قمته ، ذرع الجانب منها « ١٢ (اثنا عشر) ذراعا ، وانه كساها برخامة واحدة من النوع البلّوري الشفاف ، وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة من تحت الرخامة » • وكان لغرفة راحة صاحب القصر هذه أربعة أبواب تقابل الاتجاهات الاصلية الاربعة حتى يستقبل منها مختلف الرياح ، من : الصبا (الشرقية) والدبور (الغربية) والشمال والجنوب • وكان فيها مقيل من الساج والابنوس يقضي فيه وقت القيلولة أو الظهيرة •

أما منظر القصر الذي بني في القرن الاول للميلاد والذي كان موضع اهتمام ملوك حمير كل منهم يزيد فيه ، كما هو الحال بالنسبة للمباني العظيمة التي تمثل عادة تواريخ أسر بأكملها ، والذي كان قد عاش حتى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان حينما أخرب ، وهو « أكمل ما كان » ، كما يدعي الهمداني (١) ، فكان مربع الشكل من الخارج • وكانت وجوهه الاربعة مبنية بالحجارة الملونة : « وجه مبني بحجارة بيض ، ووجه بحجارة سود ، ووجه بحجارة خضر ، ووجه بحجارة حمر » (٢) •

وينص جورجي زيدان على انه كان يظن ان الهمداني يبالغ في وصفه لقصور اليمن هذه ، كما هي عادة الكتاب العرب الذين انبهروا بالمباني القديمة ، حتى ذهب أرنو وهاليفي وجلازر وشاهدوا آثار سد مأرب وما بقي من أنقاض بعض تلك القصور ، فوجدوا الرجل صادقا في ما ذكره عنها ، فاعتقدوا صدقه في سائر ما قاله (٣) •

أما عن تفنن عرب الجنوب في عمارتهم وحبهم استخدام الصخور الملونة في البناء ، فيشبهه جواد علي ـ بحق ـ بحب عرب الشمال الشعر ، فيقول : « اذا كان العربي الصحراوي قد عبر عن شعوره وعن خواطره بالشعر بنظمه أبياتا او مقاطع او قصائد ••• فقد عبر العربي

(١) الاكليل ، ج ٨ ص ٢٣ •
(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ٢٤ •
(٣) العرب قبل الاسلام ، ص ١٦٥ • والحقيقة ان كتاب الهمداني كان بمثابة المرشد بالنسبة للمنقبين الاوروبيين في اطلال اليمن ، كما سبقت الاشارة •

الجنوبي عن مشاعره وخواطره بنوع آخر من الشعر ، هو الشعر المادي المتمثل في البناء وفي النحت والتصوير ... » [١] .

قصور ظفار [٢] :

واشتهرت ظفار (المعروفة بحقل يحصب) بقصورها المشهورة من أشهرها قصر ريدان ، وفيه يقول علقمة :

ومصنعة بذي ريدان أسّت   بأعلى فرع متلفة حلوق

وقصر شوحطان ، وفيه يقول علقمة أيضا :

« ومثلك شوحطان له قريم »

أي له نقوش ، والقريم منه القرام والمقرمة لنقشها ، كما يقول الهمداني . والظاهر أن القريم يمكن أيضا أن تكون الرقيم ، وهو الاسم الذي أعطاه العرب لبطرا عندما شاهدوا من بقايا اطلالها ذلك البناء الذي يعرف « بخزنة فرعون » ، وهو البناء المنقور في الصخر الوردي والذي وجدت على واجهته نقوش وكتابات نبطية .

ومنها القصر الذي عرفه العرب باسم كوكبان :

« لانه كان مؤزر الخارج بالقصة (الجص) وما فوقها أحجار بيض ، وداخله منطق بالعود والفسيفساء والجزع ، وصنوف الجواهر ». قيل ان الجن ابتنته .

مدينة ظفار ورسوم الملكة :

أما مدينة ظفار نفسها التي كانت تتبعها تلك القصور ، فكانت في سفح جبل بأعلى منطقة قتاب ، وينص الهمداني على انه كان لها تسعة

(١) المفصل ، ج ٨ ، ص ٣٦ .

(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ٢٩ وما بعدها .

أبواب ، منها أبواب : ولاء ، الاسلاف ، خرفه ، ومأنة . وهو يصف رسوم صاحب ظفار (ذي ظفار) في حجابته واستقباله الضيوف ، فيقول: انه كان على هذه الابواب « أوهاز » [١] وهم الحجاب ، وكان للباب معاهر ، وهي الاجراس ، فاذا فتح وأغلق سمعت أصوات تلك المعاهر (الاجراس) من مكان بعيد . أما الباب الذي كان يعطي منه الاذن للدخول على ملك ظفار فكان على بعد ميل من المدينة ، وكان هناك حاجبان (واهزان) دون هذا الباب « يسكتان الناس اعظاما للآذان. وكان من كاتب الآذن الى المدينة سلسلة من ذهب يحركها واهز الآذن اذا قدم عليهما شريف من أشراف الناس يريد الملك ... » . وهنا يقارن الهمداني بين استقبال ملك ظفار لزائريه ، وبين استقبال ملك الحيرة لوفود العرب [٣] .

رسوم ملك الحيرة :

فعندما زاره عمر بن الخطاب ، وهو غلام شاب في فتية من قريش من أهل مكة ، يتعرضون لمعروفه أي يطلبون منه العطاء ، كما كانت عادته مع الشعراء وغيرهم ، أوقفهم عمال ملك الحيرة بعيدا عن المدينة في موضع يعرف بـ « العذيب » ، وكتبوا الى الملك يعرفونه بالوفد وأسماء أفراده وأنسابهم . وبقيت الجماعة القرشية في الموضع حتى وصل اذن الملك باستقبالهم فساروا في معية فرسان النعمان من الحرس حتى وصلوا الى مدينة الحيرة . وعندما خرج النعمان الى فناء قصره لاستقبال الوفود

(١) الوهز يعني الحث والاسراع والدفع ، كما يقول محقق الكتاب الاب انستاس الكرملي (ص ٣٣ والهوامش) .

(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ٣٥ .

سألهم عن حرمهم ومعاشهم ، وعما قدموا ، وأمر بكتابة أسمائهم ثم أخرج اليهم جوائزه والى غيرهم ٠

لغة ظفار (١) :

وفي اختلاف لغة ظفار عن لهجات العرب في أقاليم اليمن الاخرى ينص الهمداني على ان ملك اليمن كان يقول : «من دخل ظفار حمّر » أي لا يقصد ظفار الا من عرف لغة أهلها ٠ ومع ان الهمداني لم يشرح معنى كلمة « حمّر » ، فالواضح آن المقصود بها : تكلم بكلام حمير ٠ وهو يشرح سبب هذه المقالة بأن ملك ظفار قال لرجل من الوافدين عليه ، لقيه في الطريق : « ثب على الفناء » أي أقعد على الارض ، والارض الفناء ٠ فظن الرجل ان الملك يقول له : « ثب في الحيد » ، فوثب فتردى فمات ٠

وفي قصور ظفار ذات النقوش ، قال عمرو بن تبع :

زبرنا في ظفار زبور مجد   فيقرأه قروم القريتين

كما قال أسعد تبع :

وريدان قصدي في ظفار ومنزلي   بها أس جدي دورنا والمناهلا
على الجنة الخضراء من أرض يحصب   ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

قصور مارب ومعابدها (٢) :

أما عن قصور مأرب ، عاصمة اليمن الى جانب صنعاء وظفار ، فمنها قصر سلحين الذي يعرف بقصر بلقيس ، والهجر والقشيب ٠

ولقد قام مولر وجلازر بدراسة بقايا « حرم بلقيس أو محرم بلقيس » القريب من مدينة سبأ وعلى مسافة ميلين من قرية مأرب ، والذي لا يعرف ان كان هو المقصود بقصر بلقيس عند الهمداني ، اذ

(١) الاكليل ، ج ٨ ص ٣٩ ٠
(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ٥٢ ٠

ثبت انه معبد اله سبأ الشهير المعروف ب « المقة » ٠ وتخطيط المعبد بيضاوي الشكل يمتد من الشرق الى الغرب ومحيطه ٣٠٠ (ثلاثمائة) قدم ، محاط بسور له بابان أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب ٠ ووجدت على السور نقوش بحرف المسند ، منها نقش يفهم منه ان المكان كان هيكلا لعبادة الاله المقة وهو القمر ، اله قصر سلحين ومدينة مأرب (١) ٠

وخطة حرم بلقيس البيضاوية الشكل ، التي تشبه تخطيط مدينة مأرب القديمة وهي مدورة ، تجعلنا نفكر في مدينة المنصور المدورة وهي بغداد ، وعما اذا كانت خطتها التي اعتبرت في حينها ابتكارا جديدا من ابتكارات العباسيين ، وهو الامر الذي لا نريد أن ننكره ، يمكن أن تكون مستوحاة من تخطيط المباني اليمنية القديمة مما يدعم أصالة عروبتها العريقة ٠

هذا ، ومن آثار المقة التي كشف عنها حديثا ، وكان يعرف ب «أوم» أو « أوام » ، عند السبئيين ، وجدت بقايا الاعمدة العظيمة التي كانت تحمل سقوف المعبد ٠ ومن دراسة بقايا الحيطان ، وما وجد عليها من النقوش ، يفهم ان المعبد يرجع الى ما قبل القرن السابع ق٠م٠ ، وأنه كان موضع عناية عدد من ملوك المكربين الذين تناولوه بالتجديد والتوسيع والاضافة (٢) ٠

القصر المعبد :

والذي يفهم من وصف الهمداني لبعض قصور اليمن ومعابدها مثل رئام ، ومدر ، واتوه (٣) ٠ ان القصر كان عبارة عن مدينة حكومية

(١) زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٦٤ ، وانظر جواد علي ، المفصل ، ج ٨ ص ٤٤ وما بعدها ٠
(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٨ ص ٤٣ وما بعدها ٠
(٣) الاكليل ، ج ٨ ص ٨٢ (رئام) ، ص ١١٥ (مدر واتوه) ٠

به دار الامير (ملكا كان أم مـن الاذواء) ، وهي دار الحكومـة ، وفي مقابلها المعبد ، وبيت التنسك ، فرئام كان في رأس جبل حصين ، وحوله مواضع كانت تحل فيها الوفود لقضاء مناسك العبادة ، وفي مقابل المعبد كان قصر المملكة ، « وقدام باب القصر حائط فيه بلاطة فيها صور الشمس والهلال ، فاذا خرج الملك لم يقع بصره الا على أول منها ، فاذا رآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه عن وجه يستره ثم يخر بذقنه عليها » ، والذي يفهم من هذا النص ان الملك ربما كان هو الكاهن للمعبد الذي كان مخصصا لعبادة الشمس والقمر ، ويرى الهمداني ان القرآن الكريم يشير الى طقوس هذه العبادة في الآية التي تقول : « ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » (١) ، ومثل هذا يقوله الهمداني عن قصر مدر ، وهي من أكبر بلاد همدان مآثر ومحافد بعد ناعط ، فقبالة قصر الملك منها ، بلاطة مستقبلة للمشرق فيها صورة الشمس والقمر يقابلانه اذا خرج الملك (٢) .

مجموعات الاعمدة والتيجان :

والظاهر ان مسجد مدر أقيم على أنقاض المعبد القديم ، وهذا ما لم يقله الهمداني ، ولكنه يذكر انه توجد في مسجد « مدر » أساطين مما نزع من تلك القصور وليس في المسجد الحرام مثلها ، وهو يصف دقة صنعتها وحسن استدارتها بقوله : « كأنها مفرغة في قالب » (٣) .

ومن أهم ما عثر عليه من آثار اليمن مجموعات الاعمدة ذات

(١) الاكليل ، ص ٨٢ — ٨٣ .
(٢) الاكليل ، ص ١١٦ .
(٣) الاكليل ، ص ١١٥ — ١١٦ .

الاشكال المختلفة والتيجان المتنوعة ، فهناك أنواع من الاعمدة المربعة الشكل ، والمثمنة الاضلاع ، وذات الستة عشر ضلعا ، وقد عثر على نماذج من الاعمدة المثمنة الاضلاع في صرواح وفي شبام كوكبان وفي مارب وغيرها ، ويرجع هذا النوع الى ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي .

ومع مرور الوقت ضاقت أضلعة هذه الاعمدة حتى صارت وكأنها اسطوانية الشكل ، فكان ذلك مرحلة انتقال نحو العمود الاسطواني التام ، وفي وقت متأخر من تاريخ اليمن انتقلت هذه الاعمدة الى الحبشة (١) .

أما عن أشكال التيجان فقد كانت متناسبة مع أشكال الاعمدة ، فمنها المربع البسيط ، ومنها المكون من ست درجات ، الدرجة السفلى منها مضلعة كتضليع العمود الذي ترتكز عليه وفوقها درجة على هيئة نصف اسطوانة ، يليها مستطيل ذو ١٦ ضلعا وتتوالى الدرجات على هذا النسق الى الدرجة السادسة ، ومن أجمل التيجان التي عثر عليها ذلك الذي نقش بزخرفة وحدتها رأس الخروف أو الوعل ذي القرنين ، والذي أبدع في حفره حتى ظهر وكأنه قطيع من الخراف أو الوعول التي يصفها الهمداني بالظباء ، وقفت في شكل مربع استعدادا للدفاع عن نفسها ضد عدو مرتقب ، كما يخيل الينا ، أو لتشرب ، كما يقول الهمداني في شعره الذي يأتي بعد قليل ، ويظن بعض الباحثين ان هذه الخراف رمز للاله القمر (٢) .

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٨ ص ٤٠ ، وانظر جروهمان ، في تاريخ العرب القديم لنيلسن (الترجمة العربية) ، ص ١٥٤ .
(٢) انظر جواد علي ، ج ٨ ص ٣٨ .

والى جانب التيجان ذات الطابع العربي اليمني الصرف ، وجدت مجموعات من تيجان الاعمدة التي تحاكي التيجان الاجنبية من مصرية قديمة ، ويونانية رومانية ، وفارسية او حبشية .

ويقترح جواد علي ان تكون هذه التيجان قد صنعت بمعرفة عمال أجانب استخدمهم عرب اليمن وجلبوهم من تلك البلاد التي كانت لهم بها علاقات تجارية وثيقة ، وخاصة اثناء العصر الحبشي في اليمن (١) .

ومن أهم الاعمدة التي شاهدها الهمداني وأعظمها ما كان في قصور ناعط الشهيرة ، وخاصة قصر المملكة الكبير الذي يسمى يعرق ، وقصر ذي لعوة المكعب ففيهما : « الاسطوانات العظيمات ، طول كل واحدة منها نيف وعشرون ذراعا ، مربعة ، ولا يحضن الواحدة منها الا رجلان ».

وفيها يقول الهمداني (٢) :

فمن يك ذا جهل بأيام حمير   وآثارهم في الارض فليأت ناعطا
يجد عمدا تعلو القنا مرمرية   وكرسي رخام حولها وبلائطا
ملاحكها لا ينفذ الماء بينها   ومبهومة مثل القراح خرائطا

. . . . .

ترى كل تمثال عليها وصورة   سباعا ووحشا في الصفاح خلائطا

. . . . .

وسرب ظباء قد نهلن لمختف   وغضف ضراء قد تعلقن باسطا
وكان اليه الوفد تترى نقيرة   من الارض جمعا ذا ارتعاب وخالطا

---

(١) جواد علي ، ج ٨ ص ٤٢ .

(٢) الاكليل ، ج ٨ ص ٤٣ ، وانظر زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٦٦ .

وتماثيل السباع والوحوش والظباء التي تفنن في صنعها أهل اليمن قديما ، والتي اعتادوا على تزيين قصورهم ومعابدهم بها ، تذكرنا باستخدام عرب الاندلس ، على وجه الخصوص وكان منهم الكثير من اليمنية ، لمثل هذه التماثيل في مبانيهم في قرطبة واشبيلية وغرناطة . والدليل الذي بقي لنا هناك حتى اليوم يوجد في قصر الحمراء في غرناطة في قاعة السباع المشهورة .

سد مارب :

أما الذي رفع من شأن مأرب واذاع صيتها ، فهو سدها المشهور الذي يرجع الى القرن السابع قل الميلاد والذي نسجت حوله الاساطير . والحقيقة ان أهل اليمن نبغوا قديما في بناء السدود لحجز المياه اللازمة للزراعة . وعن طريق هذه السدود التي بنوها بين الجبال في الاودية أمكنهم تنظيم الري على مدار السنة ، وبذلك ازدهرت الزراعة وعم الخصب والنماء في البلاد التي صارت « السعيدة » دون غيرها من بلاد العرب ، كما سماها الرومان ، والميمونة ، كما سماها العرب . وهكذا لم تكن اليمن مدينة بخصبها ونمائها لامطار السيول وحدها بل لجهد أهلها وعملهم في الارض وفي تنظيم الري .

وتقول الروايات العربية ان السدود بلغت المئات عدا ، وانه كان يصب في الوادي العظيم عند مأرب سبعون نهرا مقبلة بالسيل من مسيرة ثلاثة أشهر (١) . وكان لكل سد من هذه السدود اسمه الخاص به ، فمن أشهرها قصعان ، وربوان (سد قتاب) ، وشحران ، وطمحان ، وذو رعين ، والشعبابي ، والمليكي ، وسد النواسي ، وسد المهاد وكان

---

(١) وهب بن منية ، ص ٥٠ .

بصعدة سد الخانق الذي بني على عهد سيف بن ذي يزن في القرن السادس الميلادي، أما سد ريعان فبناه ابن ذي ماذن • وبلغت أسداد يحصب ما بين ثلاثين وثمانين سدا حسبما سمع الهمداني (١) • أما السد العظيم عند مأرب فهو سد « العرم » الذي بعث الخصب ونشر الرخاء بين سبأ • ولسد سبأ في القرآن ذكر اذ تقول الآية : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور » (٢) • ويعلق الهمداني على ذلك فيقول : كانت الجنتان عن يمين السد ويساره ، ويلاحظ انهما كانتا غامرتين على أيامه أي عافيتين ، عفتا لما اندحق السد فارتفعا عن أيدي السيول ••• » •

أما وهب بن منبه فيقول انه كان لعمرو مزيقيا تحت السد من الجنات ما لا يحاط به ، حتى « كانت المرأة تمشي من بينها وعلى رأسها مكتل فلا تصل الى بيت جارتها الا وهي تملؤه من كل فاكهة ، من غير أن تمس منها شيئا » (٣) •

ولقد شاهد الهمداني السد ، ورأى « مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالامس » • ويقول : « ورأيت بناء أحد الصدفين ، وهو الذي يخرج منه الماء ، قائما بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير الا ان شاء الله » • « وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمسة عشر ذراعا » • قال تبارك وتعالى : « فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل »

(١) أنظر زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٦٩ •
(٢) سورة سبأ ، آية ١٤ ، الهمدائي ، الاكليل ، ص ٥٢ •
(٣) التيجان ، ص ٢٦٢ •

ويشرح الهمداني الخمط بأنه الاراك ، والاثل بأنه الطرفاء ، والسدر وهو معروف بأنه العلب • ويلاحظ انه بالمنطقة من شجر الاراك ما ليس ببلد ، وأنه يوجد بهذا الاراك من الحمام المطوق ما يجل عن الوصف •

وكان سد العرم « مستندا الى حائط ما بين عضاد بالمذخر بمعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الاساس بالقطر » • وفيه قال الاعشى :

كفى ذلك للمؤتسي أسوة ... ومأرب قفي عليها العرم
رخام بناه له حمير ... اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم ... على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة ... فجار بهم جارف منهزم (١)

أما عن وصف السد كما رآه الرحالة والباحثون الاوروبيون ، فبتفق مع وصف الهمداني ، كما ينص على ذلك زيدان الذي لخص دراسة ارنو التي ظهرت في المجلة الآسيوية الفرنسية Journal Asiatique سنة ١٨٧٤ (٢) •

فالوادي الكبير ، الذي تصب فيه الانهر الآتية بالسيل بين أودية جبل السراة ، يسمى بميزاب اليمن الشرقي « وهو أعظم أودية المشرق ، كما مور أعظم أودية المغرب ، وسعابه وفروعه كثيرة » (٣) • وفي أودية هذه المنطقة تتجمع أمطار السيول الآتية نحو الشمال الشرقي على ارتفاع حوالي ١١٠٠ متر قرب مأرب في مضيق بين جبلين يقال لهما « بلق » ويسميها الهمداني « مأزمي مأرب » ، وسعة المضيق ٦٠٠ خطوة •

(١) الهمداني ، الاكليل ، ص ٥٣ـ ٥٤ ، وانظر زيدان ، ص ١٧١ •
(٢) زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٧٢ •
(٣) صفة جزيرة العرب ، ص ٨٠ •

وفي هذا المضيق بني السد الذي أحيا المنطقة بين مدينة مأرب وبينه ، وهي حوالي ٣٠٠ ميل مربع من سفوح الجبال التي كانت قاحلة .

والسد اصم طوله نحو ٨٠٠ ذراع وعرضه حوالي ١٥٠ ذراعا بينما بلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أذرع ، ولا زال نحو ثلثه باقيا في الجهة الغربية من المضيق . وينتهي السد في طرفيه بمصارف مبنية من الحجارة الضخمة القوية ، فيها منافذ الماء الى الحدائق الواقعة في جهته . وهذه المنافذ يمكن التحكم فيها بالفتح أو الغلق حسب الحاجة بأبواب من خشب أو من حديد [١] .

ولقد عثر على عدد من النصوص الخاصة ببناء السد وترميمه منذ أيام المكربين الاوائل ، ومن أشهر النصوص التي تحمل تاريخا ، نص شرحبيل بن أبي كرب أسعد ، ويرجع الى سنة ٤٤٩ — ٤٥٠ م [٢] . وأهمها هو النص الخاص بترميم السد والذي عثر عليه جلازر ، ويرجع الى عهد ابرهة الحبشي ويحمل تاريخ سنة ٥٤٢ — ٥٤٣ م . وهذا النص يعتبر من أطول النصوص التي وصلتنا من نقوش اليمن القديمة ، والظاهر أنه يسجل آخر الترميمات التي قام بها ملوك اليمن في سدود مأرب . وهو يحتوي على اشارات الى العمال والجنود الذين اشتركوا في العمل واسماء زعماء القبائل الذين مدوا يد العون الى ابرهة الذي سجل ما أنفقه من الاموال وما قدمه من الطعام للعاملين . وعندما انتهى العمل خلال عام كان طول السد ٤٥ (خمسة وأربعين) ذراعا ، وارتفاعه ٣٥ (خمسة وثلاثين) ذراعا ، وبلغ عرضه ١٤ (أربعة عشر) ذراعا ، كما

(١) انظر زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٧٤ — ١٧٦ .

(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ١ ص ٥٠ .

تم العمل في قنواته ومسارب المياه فيه [١] . والظاهر انه لم يكتف في البناء بالحجر الصلد الحسن التنجيد بل كان يستعان في تعشيق كتل الحجارة بعضها في بعض بقضبان الرصاص والنحاس في بعض الاحيان [٢] .

وبفضل شبكة السدود توفرت المياه في كل اليمن وجرت الانهار طوال السنة ، وعم الخصب في كل مكان . ففي جبل دامغ بين صنعاء ، ودمار كثرت الانهار ، وكان يصاح فيه ايام حمير شجر الورس وسائر الفواكه . كما عرف بقصوره الثلاثة المشيدة بالصخور العظام ، في شرق الحصن ، والتي هدمها الحبشة في أيام ملكهم لليمن ، وأحرقوا أخشابها بالنار لعظمها ، وعجزهم عن تحطيمها . وعلى ساعتين من صنعاء او أقل كانت قلعة ضهر التي اعتبرت من مآثر اليمن . واشتهر واديها بغراسة الاعناب المختلفة ، من : « البياض والسواد والاحمر الملاحي والاطراف والنواسي والزيادي والفارسي والجرشي والعيون والضروع والقوارير والسيسبان والرومي والنشاني والدوالي والامعر والدريج والرازقي وغير ذلك » كما يقول الهمداني [٣] . وكانت هذه الجنات تسقى بنهر الغيل في الجاهلية ، وكان على ضعف ما كان عليه أيام الهمداني . واختلفت الآراء في سبب نقصانه فقال البعض اذ ذلك كان بسبب بعض الزلازل ، بينما قال محمد بن أحمد الاوساني «انما أتى نقصانه لما هدم سد ريعان» [٤] .

(١) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ص ٤٨٣ وما بعدها ، وقارن هومل ، في كتاب التاريخ العربي القديم لنيلسن (الترجمة) ، ص ١٠٩ — ١١٠ ، زيدان ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ص ٢١١ .

(٣) الاكليل ، ص ٧٣ — ٧٥ .

(٤) الاكليل ، ص ٧٧ . هذا ولا بأس من الاشارة الى ان بعض الروايات الشعبية تنسب ازدهار الزراعة في وادي ضهر الى هاتف من الجن كان قد دعا الناس في القديم بالحميرية والعربية يدعوهم الى غرس الكرم والتنابيت العجيبة (ص ٧٩ — ٨٠) .

وعندما انهدمت السدود في الفترات التاريخية التي سبقت الاشارة اليها في تاريخ اليمن ، وخرج اليمنية من بلادهم نحو الشمال واستقرت جماعات منهم في الحجاز بينما سارت جماعات أخرى الى الشام والجزيرة وأطراف العراق ، كان من الطبيعي أن ينشروا حضارتهم المادية التي تميزت بشكل خاص في البناء والعمارة والنقش عليها بخطوط المسند ، كما فعلوا في شمال الحجاز وبادية الشام على وجه الخصوص ، كما تميزت في ميدان الزراعة التي نافست زراعة نبط العراق .

اهمية دراسة العمارة اليمنية القديمة :

والحقيقة ان دراسة العمارة العربية القديمة في اليمن لا بد وانها ستفيد دارس تاريخ العمارة الاسلامية ، فمما لا شك فيه انه كان لليمن فضل هذا التراث المعماري العظيم وبفضل خبرات أبنائها بفن البناء ، كما أحب عرب الشمال الشعر ، أثرها فيما قام في أرض الاسلام من مبان ، وخاصة في عصر الانشاء الاول الذي بنيت فيه المساجد الاولى في الامصار حيث كان اليمنية يشاركون اخوانهم عرب الشمال من المضرية والقيسية الفتوح .

أما ما يقترحه جرجي زيدان من أن بناء العرب للاسداد لم يقتصر على ما بنوه في جزيرة العرب ، وانه يوجد في المشرق في أقاليم مكران وبلوخستان ، في عدوة خليج فارس الشرقية ، آثار أسداد كثيرة لا يعرف أهلها منها شيئا ، وانه لعل بعض العرب نزحوا الى تلك البقاع قديما وابتنوا فيها تلك الاسداد (١) ، فهو أمر محتمل . وربما طرأ على خاطر اصحابه

(١) العرب قبل الاسلام ، ص ١٦٩ .

نتيجة لقراءة أساطير اليمن القديمة التي تذكر لهم حروبا في المشرق حتى بلاد الصين .

العمارة في بلاد العرب الشمالية :

الحيرة :

ولا يعرف للعرب خارج اليمن قصور هامة كقصور اليمن الا في الحيرة حيث كان الخورنق والسدير ، وكان الاول على بعد ميل تقريبا شرقي المدينة بينما كان الثاني خارجها ، وسط البرية، في طريق الشام (١) . والحيرة عرفت بطيب هوائها حتى قيل : « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة » ، ومثلها : « لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربه » (٢) . ولهذا سميت بـ « الحيرة الروحاء » ، وبـ « الحيرة البيضاء » . وقيل ان وصفها بالبيضاء ، يراد به حسن عمارتها (٣) ، والاقرب الى الصحة ان يكون ذلك بسبب بياض مبانيها ، كما قيل في الاسكندرية انها كانت بيضاء ناصعة حتى ان أهلها كانوا يضعون الخرق السوداء على عيونهم حتى لا يؤذيها بياض الرخام الناصع .

وينسب بناء قصر الخورنق الى النعمان بن أمرىء القيس في أواخر القرن الرابع الميلادي ، قيل بناه لبهرام جو ربن يزدجرد الاول . وان المهندس الذي بناه هو سنمار الرومي ، وان بناء القصر استغرق عشرين سنة . وتقول الرواية ان جزاء سنمار على اتقانه بناء القصر العجيب كان

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليبزج ج ٢ ص ٣٧٥ .
(٢) انظر جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ص ١٥٨ .
(٣) انظر ياقوت ، معجم البلدان (ط . ليبزج) ، عن الحيرة ج ٢ ص ٣٧٥ .

القتل رميا من فوق سطوح القصر ، حتى صارت نهايتـه التعسة مضرب المثل في سوء الجزاء . وفي ذلك قال الشاعر المتلمس :

جزاني أخو لخم على ذات بيننا جزاء سنمار وما كان ذنب (1)

أما السدير الذي كان بعيدا عن الحيرة ، فكان أقل في الضخامـة من الخورنق وفي هذين القصرين قال الشاعر المنخل :

وإذا صحـوت فانـني رب الشريعـة والبعـير
وإذا سكـرت فانـني رب الخورنق والسدير (2)

والخورنق والسدير بنيا على الطراز المعماري الذي عرف بالحيري وهو متأثر بالطراز الساساني . والمعروف ان هذا الطراز يتكون من قبة في ثلاث قباب متداخلة ، على صورة الحرب وهيئتها . فالرواق الـذي يجلس فيه الملك هو الصدر وقطعه من البناء أشبـه بالميمنة والاخـرى أشبه بالميسرة بالنسبة للجيش ، ويكون فيها خواص الملك وخزانةالكسوة وما يحتاج اليه من الشراب (3) .

وتقول الروايات ان الملك النعمان جلس يوما في شرفة الخورنـق ينظر على النجف ، حيث كان يدنو ساحل الفـرات ، وعلى ما يليه مـن البساتين والنخيل والحدائق فأعجبه ما رآى ، من : « الخضرة والنـور والانهار الجارية ، ولقاط الكمأة ، ورعي الابل ، وصيـد الظبـاء ، وفي الفرات ، من : الملاحين والغواصين وصياد السمك ، وفي الحيرة ، من :

---

(1) حمزه الاصفهاني ، سني ملوك الارض ، ص ٧٠ .
(2) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ص ٢٠٣ .
(3) السيد عبد العزيز سالم ، عصر ما قبل الاسلام ، ط. دار المعارف، ص ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، وعن هذا الطراز الذي نفذه المتوكـل في سامـرا وعرف بالحيري والكمين ، انظر مـروج الذهب للمسعودي ، ج ٤ ص ٤ ــ ٥ .

الاموال والخول ومن يموج فيها من رعيته ، ففكر ، وقال في نفسه أي درك في هذا الذي قد ملكته ، ويملكه غدا غيري ... » . ولما جن الليل، ترك ملكه وساح في الارض، منذ ذلك الحين فلم يره انسان . وفي سياحة النعمان وتركه الملك قال عدي بن زيد :

وتدبـر رب الخورنـق اذ اشرف يوما وللهدى تفكـير
سره حالـه وكثـرة ما يمـ ـلك والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه وقـال ومـا غبطـة حيّ الى الممات يصير (1)

وظل الخورنق حتى ظهور الاسلام موضع عناية بعض ولاة الامويين والعباسيين الى ان خرب نهائيا منذ القرن الثامن الهجري / ١٤ م .

وترى في كتاب حمزة الاصفهاني ذكرا لعدد من القصور التي بناها بنو نصر بالحيرة ، مثل : قصري الصنبر والعذيب وفيهما يقول الشاعر :

ليت شعري متى تخب بـه الناقة نحو العذيب والصنبر (2)

كما يوجد ذكر لقصور أخرى ، مثـل : سنداد ، وقصر الفـرس وقصر الزوراء وغيرها . وفي رثاء ملوك الحـيرة وذكـر قصورهم قال الاسود بن يعفرالنهشلي :

ماذا أؤمـل بعد آل محـرق تركوا منازلهم وبعـد ايـاد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات منسنداد (3)

---

(1) حمزة الاصفهاني ، سني ملوك الارض، ص ٦٩ (وهو ينسب بناء قصر الصنبر الى امرىء القيس بن النعمان وسنمار الرومي بانـي الخورنق) .
(2) حمزة الاصفهاني ، سني ملوك الارض ، ص ٧٠ .
(3) السيد عبد العزيز سالم ، عصر ما قبل الاسلام ، ص ٣٨٩ .

والى النعمان بن المنذر ينسب بناء الغريين اللذين يصفهما حمزة الاصفهاني قائلا ، وهما طربالان كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه . واغلب الظن ان هذا ما جعل الاصفهاني يؤكد انه كان عابد وثن رغم ما زعمه الكتاب من انه دخل في النصرانية (١) .

أما أديرة الحيرة التي ربما دخل النعمان بن امرىء القيس بعد تركه الملك في أحدها فكانت مشهورة ، مثل دير اللج ودير هند وديارات الاساقف وغيرها .

الغساسنة والانباط :

هكذا ظهر اللخميون بفضل عاصمتهم الحيرة وقصورهم الشهيرة بمظهر الملوك ، وهذا ما لم يكن لخصومهم الغساسنة الذين ظلوا رغم اتصالهم بالروم وحملهم الالقاب البيزنطية أشبه بمشايخ القبائل منهم بالملوك . والواضح من النصوص انه لم يكن لهم عاصمة ثابتة مثل الحيرة وان كان لهم « حيرتا » بمعنى المقر او المعسكر ، والكلمة هي أصل « الحيرة » ، وذلك في منطقة الجولان على وجه الخصوص حتى اعتبر المسلمون عند بدء الفتوح ان الجابية هي عاصمتهم . أما اثناء الصراع مع الروم فكانوا ينقلون « معسكرهم » الى قلب البادية . هذا ، وان كانت تدمر تعتبر من بلادهم ، وكذلك الامر بالنسبة لبصرى التي أشاد بقصورها كتاب السيرة النبوية . وبذلك يمكن القول انهم احتفظوا بالبداوة رغم ما ينسب اليهم من تشييد القصور والاديرة والابنية ذات المنافع العامة . ولذلك فان نولدكه يشك فيما يقال من ان عمرو بن جفنة

---

(١) حمزة الاصفهاني ، سني ملوك الارض ، ص ٧٣ .

بنى عددا من أديرة الشام المشهورة مثل دير أيوب ، وذلك ان دخول عمرو في النصرانية ليس أكيدا . والامر كذلك بالنسبة الى ما تقوله الروايات من ان جبلة هو الذي بنى القناطر الضخمة المعروفة بقناطر فرعون ، ويرى نولدكه انهم ربما جددوا القناصر أو رمموا بعض المباني والاديرة (١) .

بوادي نجد والشمال :

أما خارج بلاد العرب الحضرية في اليمن والحيرة والشام فالمفروض ان العرب عاشوا حياة البداوة ، فكانوا : أهل « وبر » ، لم يسكنوا البيوت المبنية بالحجر . ولقد عدد الكتاب بيوت العرب وصنفوها في ستة أنواع ، هي : « قبة من ادم ، ومظلة من شعر ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وخيمة من شجر ، وقنة من حجر ، وسوط من شعر » . والذي يفهم من وصف الكتاب العرب ان القبة ، كانت من الادم الاحمر في شكل بيت صغير مستدير له سقف مدبب . والظاهر أنها أوحت للبنائين العرب بناء القباب التي أصبحت عنصرا مميزا من عناصر العمارة الاسلامية ، وخاصة في المساجد (٢) . والمظلة هي الخباء الكبير ، ولا تكون الا من الثياب أو من الشعر أو الصوف أو غيره ، ويمكن ان تنقسم من الداخل الى

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢١٣ .

(٢) انظر بحث لامالس عن عبادة الاوثان (في كتاب بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، ص ١٠١ وما بعدها) حيث يوضح ان القبة التي كانت تضرب في معارك العرب ، كما في ذي قار ويوم حنين ، من أجل ان يوضع فيها الوثن ويرفع فوقها اللواء المقدس ، وتحيط بها النساء لكي تثير حماس الرجال ، كما يمكن ان تكون ملجأ وحمى للمنهزمين من الرجال لما لها من حرمة بفضل وجود الاله .

عدد من الاقسام تسمى الشقق ، ومفردها شقة ، وهي الكلمة المستخدمة حاليا للتعبير عن الوحدات السكنية في المباني الكبيرة بالمدن العربية • وتحتوي المظلة الى جانب ذلك على رواق أمامي ، كما تكون لها مؤخرة تعرف بالكفاء • والخباء هو البيت الواحد من الصوف أو الوبر أو الشعر ، وقد يكون كبيرا أو صغيرا فيحمله عمودان أو ثلاثة أو أكثر من ذلك •

أما الذي يفهم من وصف الخيمة فيمكن أن تكون كالبيت من الثياب ترفعها ثلاثة أعمدة أو أربعة ، كما يمكن أن تكون في شكل سقيفة تقام من أعواد تنصب وتجعل لها عوارض وتغلل بالشجر فتكون أبرد من الاخبية ، بمعنى أنها مسكن فصل الصيف • كذلك يمكن أن تبنى من الشجر والسعف ، والمفروض أنها سميت خيمة لانها تتخذ منزلا دائما للرجل ورهطه (١) •

وفي مثل هذه المساكن البدوية كان تأثيث المنزل بسيطا فهو عبارة عن فرش تلقي على الارض أما الاواني التي كانت تستخدم فيها فتكون من الجلود والمعادن والخشب حتى يسهل حفظها من الكسر •

واحات نجد والحجاز والشمال :

بتل اليمامة :

وبطبيعة الحال لم يكن هذا النوع من المسكن هو النمط الوحيد المعروف في العربية الشمالية، ففي القرى والواحات عرفت البيوت الحضرية التي اعتنى في بنائها بالحجر والطين واستخدمت فيها النوافذ والابواب من الخشب•

(١) انظر جواد علي ، ج ٨ ص ٢٩ – ٣٠ .

وتكفي الاشارة الى ما ذكرنا من حصون اليمامة القديمة التي عرفت بـ « البتل » وواحدها بتيل ، والتي كانت تبنى من الطين على شكل الصومعة المربعة المستطيلة ، والتي كانت تصعد في السماء الى ارتفاع مئتي ذراع وأكثر (١) • ولا ندري ان كانت هناك علاقة بين بتل اليمامة هذه وبين مآذن المساجد الاسلامية الاولى المربعة الشكل ، والتي يقال انها كانت متأثرة بشكل أبراج الكنائس التي عرفها العرب في الشام • وخاصة انه ظهر نوع من المآذن المربعة المستطيلة الشاهقة الارتفاع ، مثل مآذن الموحدين في المغرب والتي يمكن أن ينطبق عليها وصف البتل وان قيل انها بنيت على هيئة منار الاسكندرية القديم • والحقيقة ان الامر يستحق الدراسة ، خاصة وان البعض يرى أن منائر المساجد الاسلامية الاولى ، التي كانت مربعة الشكل ، والتي بقي لنا أقدم نماذجها في مسجد القيروان الجامع ، استوحيت عمارتها من تربيع الكعبة وليس من أبراج الشام •

المدينة والطائف :

أما في المدينة حيث حوائط البساتين فقد وجدت البيوت المبنية بالآجر وبالطين ، وبعضها كان من طابقين ، وأغلب الظن ان هذه كانت بيوت عامة الناس ومتوسطيهم • أما رؤساء القوم والموسرون منهم فكانت لهم في حدائقهم الحصون المعروفة بالآطام والقصور ، والتي تذكرها الروايات بمناسبة ما كان يقوم بين القبائل من صراعات وحروب اذ كان يتم التراشق بالسهام والحجارة من أعلى هذه الآطام (ومفردها أطم) • والذي يفهم من وصف الآطام ، انها دور مربعة الشكل مبنية بالحجارة ،

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٢٣ .

لها صحن أو فناء مربع يحيط به سور من الحجر والطين • وتتميز الأطم ببرج عال مربع الشكل يشرف على الدار من أحد أركان الصحن ويكمل خطة الدفاع عنها • وهذا المسكن المحصن الذي يسمى بالأطم وبالقصر أو الحصن كان معروفا في يثرب على وجه الخصوص ، كما كان منتشرا في الطائف ونحو الشمال في خيبر وفدك والتيماء ، أي على طول الطريق التجاري من الجنوب نحو الشمال ، وحيث كان يعيش اليهود من التجار وأصحاب المال [1] ، مما يفهم منه ان بناء هذه الحصون متأثر بحضارة اليمن •

آطام يثرب :

ويعدد ابن النجار في الدرة الثمينة والسمهودي في كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى الآطام التي كانت بيثرب المدينة والدور الكبيرة التي كان بعضها يحوي الآطام • فيذكر ابن النجار انه كان ليهود يثرب من الآطام ٥٩ (تسعة وخمسين) آطما ، بينما كان للعرب النازلين عليهم قبل الاوس والخزرج ١٣ (ثلاثة عشر) أطما •

ومع مرور الوقت كانت قوة العرب تزداد فكانوا يتخذون الحصون والدور حتى عمت آطامهم كل أرجاء المدينة • ومما يذكره السمهودي من آطام الخزرج •

ـ واقم ، والرعل والمسير : وكانت آطام لبني عبد الاشهل ، والاطم الاخير كان لبني حارثة فتركوه لبني عبد الاشهل بعد الحرب التى قامت بين الجماعتين •

(١) انظر لامانس ، مدينة الطائف قبيل الهجرة ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

أما آطام الاوس ، فمنها :

ـ الشنيف : وكان لبني عمرو بن عوف في موضع قباء •

ـ الصياصي : وكانت ١٤ (أربعة عشر) أطما لبني زيد بن مالك ابن عوف • كما كان لهما أطمان آخران أحدهما بالمسكبة شرق مسجد قباء ، والآخر يقال له : المستظل •

ـ السعدان : لبني لوذان •

ـ الزيدان : لبني واقف بن امرىء القيس بن مالك •

ـ صع درع : لبني خطمة بن جشم •

ـ المزدلفة : لعتبان بن مالك •

دور يثرب :

أما الدور فأشهرها : دار بني خطمة بن جشم من الاوس ، وابتنوا بها الآطام وغرسوا النخيل • ودار بني الحارث بن الخزرج التي نزلوها بموضع العوالي شرقي وادي بطحان • ودار بني سالم التي كانت تقع على طرف الحرة الغربية ، في غرب الوادي [1] وظلت هذه الآطام في المدينة الى ان أخربت في أيام عثمان •

وأهم بقايا هذه الآطام هو أطم الضحيان الضخم ، الذي كان لاحيحة بن الحلاج • وهو مشيد بحجارة الحرة السود • ويبلغ طوله حاليا ٢٧ مترا وعرضه ١٢ مترا وارتفاعه ٨ أمتار • أما موضعه فكان يسمى بالعصبة ، وتقع بقايا حصن كعب بن الاشرف على هضبة الحرة الجنوبية الشرقية للمدينة حيث كانت منازل بني النضير • وطوله ٣٣

(١) انظر عبد العزيز سالم ، العرب قبل الاسلام ، ص ٥٣٠ ـ ٥٦١

مترا ، وعرضه ٣٣ مترا وسمك ما تبقى من حيطانـه حوالي متر • وهو مبني بالحجارة الضخمة المحكمة؛ ويصل طول بعضها الى حوالي ١٤٠ سم وعرضها حوالي ٨٠ سم [١] •

سور الطائف وآطامها :

ولقد عرفت الطائف أيضا الحياة المدنيـه بفضل بساتينها المسورة بالحوائط والتي كانت تمير مكة بالفواكه وغيرها من القرى القريبـة • والظاهر ان اسم الطائف اشتق من سورها الذي كان مبنيا بالحجـارة والطين والذي كان يطوف بها • فهذا ما يمكن آن يفهم مما أنشده أمية ابن ابي الصلت في سور الطائف ، اذ يقول :

نحن بنينا طائفا حصينا   نقارع الابطـال عن بنينا [٢]

أما أشهر حصون الطائف فكان حصن مالك بن عـوف المشهـور باللىّ ، وهو عبارة عن دار كبيرة يحيط بها سور ويشرف عليها أطم أي برج عال مبني بالحجارة والطين [٣] •

مكـــة :

الكعبـة :

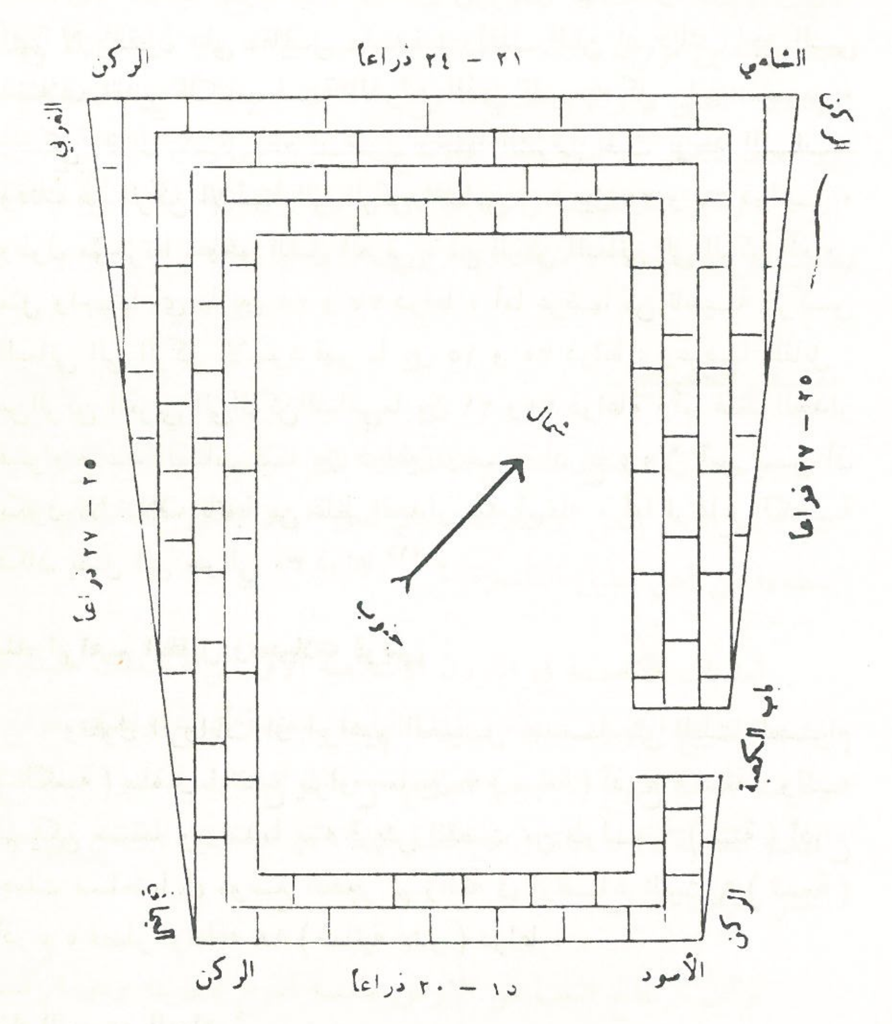
ولقد ظهرت مكة قبيل ظهور الاسلام بمظهر عاصمة الجزيرة العربية بفضل تحضر القرشيين الذي تم عن طريق اتصالاتهم بأهل اليمن وأهـل الشام • وأشهر مباني مكة كان بطبيعـة الكعبـة المكرمـة • ورغم

---

(١) انظر عبد القدوس الانصاري ، بين التاريخ والآثار ، ط. بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٦٧ – ٧٠ .

(٢) انظر لامانس ، الطائف قبيل الهجرة ، ص ١٨٥ .

(٣) لامانس ، الطائف ، ص ١٨٦ – ١٨٨ .



٥ أذرع = ٣٫٤٠ متراً = عرض الحائط الشمالي الغربي

(سمك الحجر الوهمي المرسوم ذراع واحد)

(١٦) رسم تقريبي للدرع الكعبة كما وصفها الكتاب العرب

استفاضة الكتاب العرب في ذكر مقاييس الكعبة في صدر الاسلام نلاحظ انهم لا يتفقون على مقاييس واحدة ، وأغلب الظن ان ذلك راجع الى اختلاف تقدير الكتاب لسعة الذراع الذي قاس به كل واحد منهم • ويمكن القول بشكل عام ان طول وجهها الشرقي حيث يوجد الباب ، وذلك من الركن الاسود الى الركن الشامي ، ما بين ٢٥ و ٢٧ ذراعا • وطول مؤخرتها ، وهو الشق الغربي ، من الركن اليماني الى الركن الغربي مثل واجهتها أي ما بين ٢٥ و ٢٧ ذراعا • أما عرضها من ناحية الركن اليماني الى الركن الاسود فهو ما بين ١٥ و ٢٠ ذراعا ، وعرضها المقابل : من الركن الغربي الى الركن الشامي ما بين ٢١ و ٢٤ ذراعا • وأما غلظ الجدار فيتراوح عند الكتاب فيما بين ذراعين وخمسة أذرع ، ولا بأس من أن يكون الاختلاف ناتجا من غلظ الجدار عند أسفله • أما ارتفاع الكعبة فكان يصل الى حوالي ٣٠ ذراعا [1] •

بناء ابراهيم الخليل وتعديلات قريش :

وتقول الروايات ان ابراهيم الخليل عندما بنى البيت الحرام (الكعبة) بناه في ارتفاع يتراوح ما بين ٧ (سبعة) أذرع وتسعة ، وانه لم يكن مسقفا • وعندما بنته قريش انقصت من طوله ٦ (ستة) أذرع جعلت مساحتها في موضع الحجر ثم زادته في ارتفاع البيت ٩ (تسعة) أذرع ، فصار ارتفاعه ١٨ (ثمانية عشر) ذراعا •

بناء الزبير بن العوام :

والمعروف ان الزبير بن العوام كان قد هدم الكعبة عندما استعاد

(١) انظر وصف الكعبة في كتاب الاستبصار (تحقيق المؤلف ط. جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) ، ص ١٠ – ١٣ والهوامش •

بالبيت وبعد أن أصابها الحريق اثناء حصار الحجاج للمدينة على أيام عبد الملك بن مروان ، وانه أعاد بناءها حسبما كانت عليه أيام بانيها الاول ابراهيم الخليل • ولكنه عندما زاد ما كانت قريش أنقصته ووضعته في الحجر ، ظهر له البناء قليل الارتفاع ، فزاد في ارتفاعه ٩ (تسعة) أذرع ، وقال : ان قريشا زادت فيه ٩ أذرع ، وأنا أزيد فيه تسعة ، فصار البيت من يومئذ ٢٧ (سبعة وعشرين) ذراعا في ارتفاعه •

اعمال الحجاج :

وبعد أن استعان الحجاج مكة أعاد بناء الكعبة ، كما كانت من قبل ، مع اجراء بعض الاصلاحات مثل عمل السلم الذي كان يؤدي الى سطحها من أجل تعليق الكسوة •

أما باب الكعبة في القرون الاسلامية الاولى ، فكانت عتبته من خشب الساج الاسود ، وكان طول الباب سبعة أذرع ونصف ذراع ، وعرضه أربعة أذرع الا أربعة أصابع • وكان الباب مكسوا بصفائح الفضة المذهبة ، وله حلقتان من فضة بيضاء غير مذهبتين ، وقفل من نحاس أحمر مذهب •

وكان ارتفاع الباب عن الارض خمسة أذرع ، وبينه وبين الركن الاسود خمسة أذرع • وهذا الموضع هو الذي عرف باسم الملتزم او المدعي او المتعوذ ، لانه مكان مبارك ، فيه يستجيب الله للدعاء •

والى جانب الكعبة كان المسجد الحرام وفي مقابله دار الندوة التي رفعت من شأن قريش بين القبائل •

دور مكة :

وكان لاهل مكة دورهم المبنية من الحجارة والتي لها أبوابها المصنوعة من الخشب • ومن أشهر الدور المكية المذكورة في السيرة دار بني جحش • فقد هاجر بنو جحش مع الرسول الى المدينة وتركوا دارهم هذه تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن حتى أثارت مشاعر زعماء قريش فقال فيها عتبة بن ربيعة :

وكل دار وان طالت سلامتها　　يوما ستدركها النكباء والحوب

وفي ذلك قال شاعر بني جحش ابو احمد الاعمى :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد　　ومروتها بالله برت يمينها
لنحن آلالى كنا بها ثم لم نزل　　بمكة حتى عاد غثا سمينها [١]

وهكذا يمكن القول انه كان للعمارة الاسلامية جذورها العربية الاصيلة ، وذلك على عكس ما يريده بعض الباحثين من الاوروبيين من ارجاع عناصر العمارة الاسلامية الى أصول فارسية ورومية وهندية أو مصرية أو اسبانية أو غيرها [٢] • فبعد فترة قصيرة من قيام دولة الاسلام أظهر العرب ميلا غريزيا نحو الفنون ، وعبروا عن مشاعرهم في الحجر بالبناء والنقش والزخرفة التي كان من أهم عناصرها الخط العربي ،

(١) ان هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٧١ – ٤٧٣ (الحوب : التوجع او الاثم) .

(٢) انظر احمد فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ١٩ .

تماما كما استخدم العرب القدماء خطهم المسند في تزيين بناياتهم في اليمن ، وفي الشمال •

تطور البناء في عهد عثمان بن عفان :

وأول الدور التي أثارت خيال الكتاب العرب هي التي بدأ بناؤها على أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولو ان الكتاب ذكروها على انها تمثل اتجاها جديدا نحو الميل الى الترف والتمتع بمباهج الحياة على عكس ما كان معمولا به أيام عمر بن الخطاب • فعثمان بن عفان بنى داره في المدينة – وهي التي تسورها الثوار – بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج • أما عن الصحابة الذين سلكوا طريقته في بناء الدور، فمنهم الزبير بن العوام الذي ابتنى داره بالبصرة ، كما ابتنى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية • وطلحة بن عبد الله التيمي بنى داره بالكوفة ، وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالآجر والجص والساج • أما سعد بن أبي وقاص فانه لم يكتف ببناء داره ، بل جعل أعلاها شرفات [١] •

ولا بأس من أن يكون بناء هذه الدور الجديدة المبنية بالحجر والآجر وخشب الساج والتي كانت مطلية بالجص ، كما كان لبعضها شرفات قد تأثر بالمباني القديمة التي كانت موجودة بالحيرة قرب الكوفة وفي الاسكندرية • فمباني الحيرة كان يستخدم فيها الآجر وهو المادة المفضلة للبناء في العراق القديم وحتى اليوم ، وكان الآجر لا يستخدم في البناء فقط بل ولزخرفته أيضا • كما ان الجص كان مستخدما هناك لطلاء جدران المنازل التي كانت تظهر بيضاء ناصعة حتى عرفت الحيرة

(١) المسعودي　مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

باسم البيضاء • أما الاسكندرية فكانت دورها وقصورها ، التي عرفها عرب الفتوح باسم «الاخائذ» ، تنزل فيها حامية الاسكندرية أو رابطتها، وكانت مبنية بالحجر ، كما كان بعض هذه الدور كبيرا الى حد أن « كانت الدار تكون لقبيلتين ثلاث » (١) • وبطبيعة الحال لم يبق من آثار هذه الدور شيئا ، بل انه لم يبق مما بناه عثمان في مسجد الرسول شيء ، وذلك ان أقدم ما كان يشير الكتاب اليه من المباني هي تلك التي تمت على أيام الوليد بن عبد الملك في الحرمين المكي والنبوي •

الاثاث والفراش :

اليمن والبلاد الحضرية :

هذا عن العمارة أما عما كانت تحوية هذه المباني من الاثاث والفرش وسائر الحاجيات المنزلية فلا نعرف الكثير عنها ، وان وجدت بقايا أثاث من الحجر من الاسرة والعروش والكراسي والصناديق الحجرية المزخرفة، أما الاثاث المصنوع من الخشب مثل الاسرة والارائك والكراسي والصناديق التي تحفظ فيها الثياب فلم يصل الينا شيء منها • وكل ما تشير اليه الحفائر في بلاد اليمن مما وجد في خرائب المعابد القديمة هو المباخر التي كانت تستخدم في الطقوس الدينية ، وكان بعضها من المرمر ومن الذهب والفضة والبرونز ، مما دعا الباحثين الى الظن بأن استخدام البخور في المعابد اليونانية القديمة بل وربما المصرية أيضا عرف عن طريق اليمن التي كانت بلد العطور دون منازع • والى جانب المباخر وجدت مجامر قديمة في المعابد وفي البيوت وكان يحرق فيها البخور والخشب ذو الرائحة العطرة ، وهي العادة التي ظل يعمل بها في البيوت العربية وفي المساجد وخاصة في المناسبات والمواسم ، كما يحدث في شهور رمضان •

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (عن رابطة الاسكندرية) •

ولقد وجدت في خرائب اليمن القديمة أيضا قطع من الاحجار الكريمة وبعض الحلى المصنوعة من الذهب من القلائد والاقراط وغيرها مما يتزين به النساء •

ولقد وجدت الاواني الفخارية والخزفية والزجاجية في عدد من المواضع في بلاد العرب ، من : الجرار والكيزان ، مما يؤيد ان صناعة الفخار التي اشتهرت بها العراق قديما عرفت ايضا في مواضع ، غير بابل، من الجزيرة العربية • وكانت الاواني الفخارية أو الخزفية لا تستخدم فقط لخزن الماء والزيت والنبيذ بل لخزن الحبوب والاشياء الثمينة والعطور والكحل وغيرها • وتدل استدارة الاواني التي عثر عليها ، من الجرار ذات الشكل « البصلي » انه لم يكن يتم صنعها يدويا بل باستخدام آلة الفخار ، التي تتكون من عجلة او دولاب يدير القرص الذي توضع فوقه عجينة الطين التي تستخدم في صنع الفخار •

ومن الاواني الفخارية أو الخزفية التي عرفها العرب : الجرة والقلة والكوز • وكانت المدينة من الاماكن التي اشتهرت بصنع القلال والجرار• فمن أشهر القلال تلك التي كانت تصنع بقرية من قرى المدينة تعرف بهجر• كذلك اشتهرت المدينة بنوع من الجرار التي كان يحمل فيها الخمر والتي عرفت بالحنتم ، وكانت ملونة ما بين حمراء وخضراء وبلغ صيتها الى حد ان عرف الخزف جميعا باسمها وهو « الحنتم » (١) •

ومن أواني الشرب : الدن المعروف بالراقود الذي قيل انه لفظ فارسي معرب ، مثل : الكوز • ومنها « القافزة » ، وربما اشتق منها

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٨ ص ٦٠ •

« القفيز » ، وهو مقياس الزيت على وجه الخصوص • ولو ان كلمة الزجاج يمكن أن تعني القوارير فقط أو القناديل [١] • ويرى جويدي أن أسماء المصابيح أجنبية، وفي رأيه ان العرب القدماء لم يكونوا يستخدمون لتبديد ظلمة الليل سوى النيران أو المشاعل • فمن المعروف انه عندما كان يلدغ شخص من عقرب أو ثعبان سام كان يثار حوله الضجيج ، كما كانت تشعل النار ليلا حتى يبقيه نورها يقظا ، فلا ينال منه السم ، وهذه النار كانت تعرف عندهم بنار السليم • كذلك كانت توقد النار ليلا عند فداء الاسرى حتى لا يحدث خطأ في العدد أو في الاشخاص [٢] • وتدل الدراسة اللغوية على أن استيراد المصابيح كان يتم عن طريق الآراميين •

أما كلمة قنديل فهي لاتينية الاصل من لفظة «كانديلا» (Candela) التي دخلت الى اللغة اليونانية ومنها تسربت الى الآرامية ثم نقلها العرب عن الآراميين • ومثل هذا يقال عن الكلمة الفارسية « تشيرج » التي جعلها الآراميون « سئراجا » ، ومنها أتت الكلمة العربية «سراج» [٣] • وكذلك كلمة نبراس التي دخلت العربية عن الآرامية ، وهي « نبرشتا » • ويشير جويدي الى ان قناديل الكنائس اللامعة كانت تثير خيال العرب ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس ان وجه حبيبته يضيء الظلمات كمصباح راهب عابد :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

(١) جواد علي ، ج ٨ ص ٦٣ .

(٢) وفي نيران العرب التي يعد منها ١٤ نارا ، هي :
نار المزدلفة ، نار الاستمطار ، نار التحالف ، نار الطرد (التي توقد خلف من مضى ولا يحبون رجوعه) ، نار الاهبة للحرب ، نار السعالى ، نار الصيد ، نار الاسد ، نار القرى ، نار السليم (للملدوغ والمجروح ومن عضه الكلب) ، نار الفداء ، نار الوسم ثم الحباحب (انظر سبائك الذهب للسويدي ، باب ١٢ ص ١١٧) .

(٣) جويدي ، العرب قبل الاسلام ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

كما يقارن في مناسبة أخرى وجه عروس شابة بمصباح زيت له فتيل ، فيقول :

يضيء الفراش وجهها لضجيعها ... كمصباح زيت في قناديل ذبّال

وفي الحقيقة ان هذه المصابيح أو القناديل ، اذ ما قورنت بالضوء الصادر من النار الموقدة أو من فتائل المشاعل تمثل تقدما حضاريا كبيرا ، ولهذا لم يكن من الغريب أن ينبهر النابغة الجعدي لمنظر هذه المصابيح ، التي لم يجعل الله لها دخانا :

واسمر مارن يلتاح فيه ... سنان مثل نبراس النهام

لم يجعل الله فيه نحاسا [١]

وكما ان المصباح مأخوذ من خارج بلاد العرب كذلك كان الحال بالنسبة لزيت الزيتون الذي يستخدم في ايقاده ، حسبما يرى جويدي • فالزيتونة لم تكن موجودة في بلاد العرب ، ولا في بلاد النبط ، الا قرب فلسطين ، والدليل على ذلك ما يقوله سترابون ، من ان كل البلاد (العربية) خصبة وغنية بالفواكه عدا الزيتون • والزيتون لا يحب الحرارة الشديدة فعلا ، ولا البرودة الشديدة • والى جانب ذلك يرى جويدي ان اعتبارات فقه اللغة (الفيلولوجية) تتطلب أن تكون كلمة زيتون ـ التي لا توجد أية كلمة أخرى لها نفس الشكل النحوي ـ مقتبسة من الآرامية • ومثل هذا يقوله عن الخمر الذي كان يستورد من الشام على وجه الخصوص ، وكذلك الكلمة القريبة وهي « الخمير » أي خمير الخبز الذي لم يعرف العرب القدماء استعماله ، لان الجريشة المصنوعة من الحب المجروش والمخبوز لم تكن تمثل خبزا حقيقيا •

ويخرج من ذلك جويدي بأنه يترتب على ذلك ان (الفرن) لم يكن له كلمة عربية يسمى بها ، اذ ان كلمات « تنور » و « اتون » و « فرن »

(١) جويدي ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ، ٨٨ .

انما هي كلمات أجنبية دخلت الى اللغة العربية مع الاشياء التي تعنيها . وكلمة « الفرن » مأخوذة من الكلمة اللاتينية « فورنوس » (Furnus) التي دخلت الى العربية عن طريق اليونانية .

وكما هو الحال بالنسبة للطعام المختار كانت الملابس الرقيقة مستوردة من الخارج : فكلمة قميص مأخوذة من «قميزيسا» (Camisia) اليونانية ، وكذلك برجد ، وبرنس ، وشربال ، ومرت (مرطا) ، وكثير غيرها ، مثل : موق او موزج التي تعني نعالا رقيقة ورشيقة اكثر من النعل العادي (الذي يعرف بالصندل Sandale) . وكذلك الامر بالنسبة لكثير من أسماء الحلى ، كالمرجان ، والجمان والزبرجد . أما كلمة اللؤلؤ فهي عربية أصيلة ، وكذلك الدرة بمعنى القطرة من الماء ، لشبهها بها . وكلمة اللؤلؤ — الذي كان يأتي من الخليج بصفة خاصة — دخلت من العربية الى كل اللغات السامية الاخرى .

والذهب والفضة كانا معروفين في بلاد العرب الجنوبية على وجه الخصوص حتى بالغ الكتاب اليونان ، فأشاروا الى أوان وأثاث وأدوات منزلية مصنوعة من الذهب والفضة ، وكانت معادن الذهب موجودة في أرض شبأ . ولقد عثر في اليمن على عدد من القطع الاثرية النفيسة التي صنعت من البرونز ، من مصابيح الزيت وتماثيل الأيائل والاسود والرجال والنسوة . ويرى الباحثون وجود مؤثرات عراقية ومصرية ، ويونانية ، وهندية في بعض مصنوعات المعادن ، وهذا أمر طبيعي بفضل الصلات التجارية الوثيقة بين هذه البلاد وبين العربية الجنوبية .

في نجد والحجاز :

مكة :

أما في الحجاز ومكة فلا نعرف بعض ما كانت تحويه الدور من

الأثاث والآنية الا عن طريق القصص الخاص باطعام الطعام الذي كان تقدمه الاغنياء للناس في دورهم الفسيحة ذات الافنية الواسعة . فدار أبي جهل كان لها بابان أحدهما لدخول الضيوف والآخر لخروجهم . وأمام هذا الباب الاخير كانت تقف الابل المخصصة لاطعام الناس .

وأهم ما يلفت نظر أصحاب هذه الروايات في الدار هو السرير الذي يجلس عليه صاحبها أو الكرسي ، وما كان يرتديه صاحبها أيضا من حلة سوداء بديعة أو من عمامة عظيمة . أما الطعام من الخبز واللحم أو الثريد فكان يقدم في الجفان . ولم يكن الثريد الذي يعتبر طعام عرب الحجاز المفضل هو الذي يقدم وحده للضيوف . ففي دار الحارث بن هشام كان الزبيب يقدم على الانطاع للاضياف ، كما كان يقدم ايضا في الاطباق لذوي الشأن من الضيوف أو لمن يطلب ذلك .

وكانت دار عبد الله بن جدعان ، ثري مكة المشهور ، قبلة الراغبين في الاكل الكثير والنوع الرقيق من الطعام . فالجفنة هناك كانت من السعة بحيث يغرق فيها الصبي ، أو يستظل الانسان بفيئها وقت القيلولة، أو أن يأكل منها القائم والراكب على بعيره لعظمها .

والى جانب الثريد (١) كان ابن جدعان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن ، بل انه قدم الفالوذج المصنوع بلباب البر والعسل لضيوفه، بعد أن سمع عنه في اليمن أو بعد أن أكله في فارس على ما يظن، واستحضر بعض المتخصصين في اتقان صناعته ، فهو الذي أدخل الفالوذج بمكة .

---

(١) ومن انواع الثريد تذكر «العصيدة» من الدقيق الصرف ، اما اذا كانت باللحم يقطع قطعا صغارا فهي « الحريرة » التي يقال ا ناول من عملها في مكة هو سويد بن هرمي (معجم البلدان ، مكة ج ٤ ص ٦٢٢) .

وتقول الرواية ان أمية بن أبي الصلت هو الذي حرضه على ذلك ، عندما قال :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم	فرأيت آكرمهم بني الديان
البر يلبك بالشهاد طعامهم	لا ما يعللنا بنو جدعان

وبعد ذلك قال أمية :

له داع بمكة مشمعل	وآخر فوق دارته ينادي
الى روح من الشيزي ملاء	لباب البر يلبك بالشهاد [١]

أما عما كان يستخدمه ابن جدعان لطعامه وشرابه الخاص ، فتبالغ الروايات ، عندما تقول : انه كان لا يشرب ولا يأكل الا في آنية الذهب والفضة وأنه عرف لذلك بـ « حاسي الذهب » [٢] . والمعنى المقصود ان الرجل كان مرفها ناعما بالنسبة لغيره من متوسطي الحال أو الفقراء ، وان داره كانت عامرة بالاثاث وآنية الطعام مما لم يكن له شبيه في غيرها من الدور — على ما نظن — .

من هذا العرض السريع لبعض مظاهر الحضارة المادية عند العرب قبل الاسلام يتضح ان بلاد العرب عرفت المباني الراقية ، ليس في بلاد الحضارة فقط ، مثل : اليمن حيث القصور والمحافد والحصون والسدود التي تمثل قمة في فنون البناء والهندسة في العالم القديم ، وفي بادية العراق والحيرة حيث كانت القصور الذائعة الصيت والتي ما زال قصر الاخيضر يمثل نموذجا رائعا منها ، دون الاشارة الى بقايا آثار بابل ،

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان (مكة) ، ج ٤ ص ٦٢١ .
(٢) جواد علي ، ج ٤ ص ٩٦ — ٩٨ .



(١٧) مقابر النبطيين في مدائن صالح — شكل ٥٧ من كتاب الآثار القديمة في شمال بلاد العرب (وينيت وريد — ص ٤٨)

وطاق كسرى في سلمان باك شمالي بغداد مما كان له أثره على العمارة الاسلامية من غير شك •

والى جانب بقايا قصور تدمر والحضر وبصرى الرائعة ، والتي ترصع الطرق التجارية القديمة في بادية الشام وتحيط بالبلاد من جنوبها الى شمالها كأعلاق ثمينة – اذا جاز لنا استعارة عنوان كتاب ابن رسته – لم تحرم واحات صحراوات نجد والحجاز من القصور التي عرفها كتاب العرب في دومة الجندل وفي تيماء وتبوك ، وفي بلاد ثمود ، ومما كشفته التنقيبات الاثرية الحديثة – بفضل التوسع في عمليات استخراج النفط ومد أنابيب البترول حاليا – في أقاليم عفا عليها الدهر وما كان يظن الى عهد قريب انها كانت آخذة بأسباب الحضارة والعمران ، بفضل وقوعها على طرق التجارة القديمة بين اليمن والشام والعراق [1] •

هذا ، كما تدل وصف بتل اليمامة وخرائب آطام يثرب وبقايا أسوار الطائف على أن قلب بلاد نجد والحجاز – وهي بلاد العروبية الراسخة – لم تحرم هي الاخرى من مظاهر العمران المدني •

والذي يظهر لدارس هذه الآثار هو ان التأثير والتأثر كان متبادلا بين بلاد العرب البدوية وبين بلاد العرب الحضرية التي تحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، وان المنطقة العربية جميعا من أقصى جنوب اليمن وعمان الى أقصى بلاد الشام والجزيرة الفراتية كانت تمثل وحدة عمرانية واحدة • وهذه الوحدة العمرانية نهضت على أكتاف كل من : بلاد اليمن التي تركت بصماتها التي لا تمحى في أقاصي الشمال في الحجاز والشام ، وبلاد الشام التي كانت لها آثارها الباقية في كل من اليمن والعراق والحجاز ، ثم العراق التي تركت بصماتها الواضحة في

(١) انظر خريطة رقم (١٥) ص ٣٤٥ .

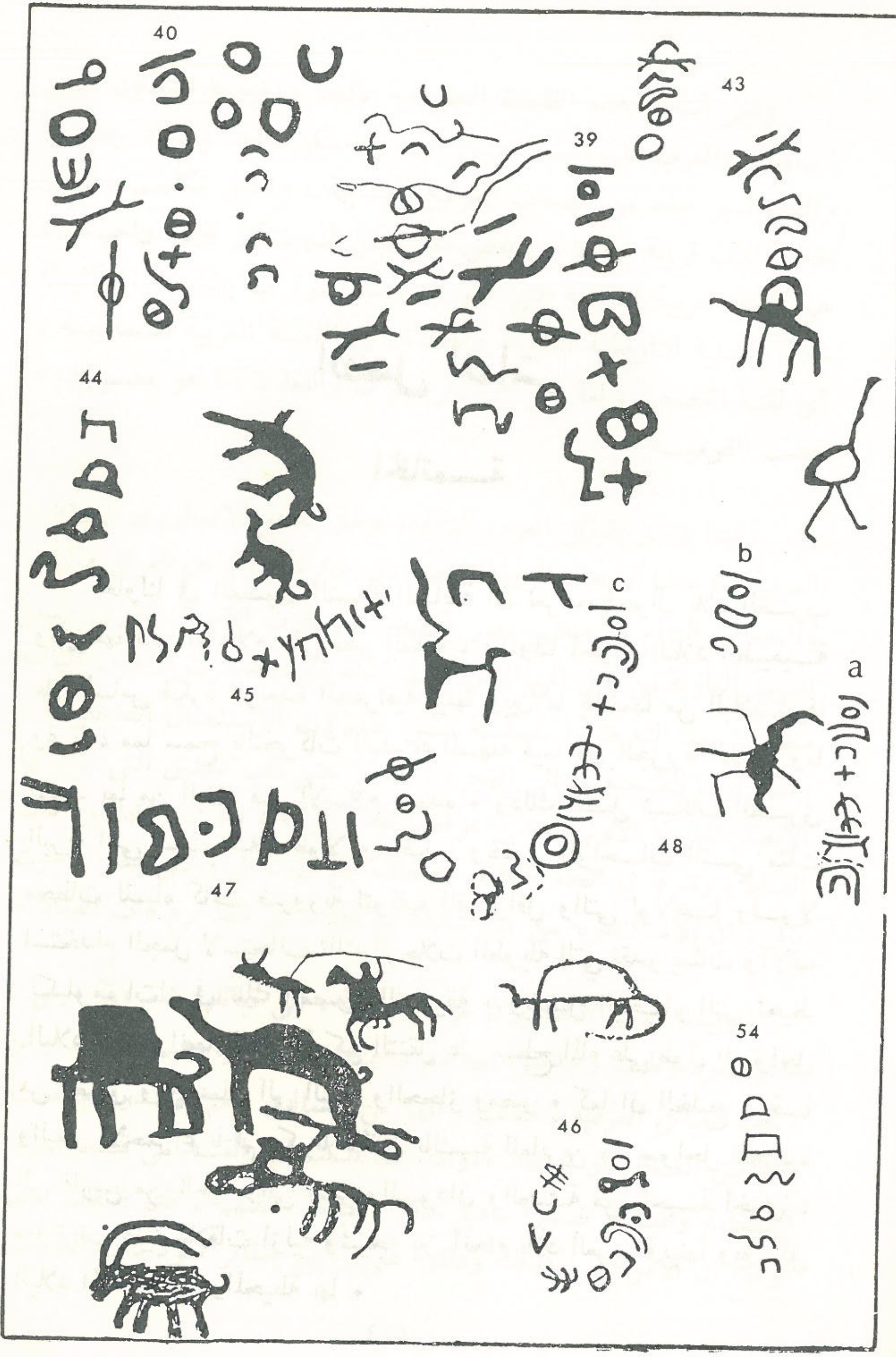
قائمة نقوش الحجاز ونجد

		تبوك	الثمودي: الحجاز	نجد	اللحياني: متأخر	مبكر	ودان	الجوف	تيماء
ا	ʾ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	b	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	t	[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]
ث	ṯ	[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]		[illegible]
ج	j	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]			[illegible]
ح	ḥ	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
خ	ḫ	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]		
د	d	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ذ	ḏ	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	r	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	z	[illegible]	[illegible]				[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	s	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]
	ś								[illegible]
ش	š	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
ص	ṣ	[illegible]	[illegible]			[illegible]		[illegible]	[illegible]
ض	ḍ		[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط	ṭ	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]		
ظ	ẓ	[illegible]							
ع	ʿ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]
غ	ġ	[illegible]							
ف	f	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]		[illegible]
ق	q	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]		[illegible]
ك	k	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]
ل	l	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	m	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	n	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ه	h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	w	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ى	y	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

(١٨) قائمة نقوش الحجاز ونجد – من كتاب الآثار القديمة في شمال العرب (وينيت وريد – ص ٢٠٥)

كل تلك الاقاليم • وبفضل النقوش الدينية والشخصية والسياسية التي حملتها تلك الآثار في كل أنحاء الجزيرة العربية ثبت وجود وحدة ثقافيـة قديمة في كل بلاد العرب وعلى الجملة حضارة عربية عريقة واحدة •

ولا يضير هذه الحضارة أن تكون قد أخذت بعض مقوماتها مـن اليونان والرومان والفرس أو حتى من الحبشة والسودان ، فهذا أمـر معروف في تاريخ الحضارات ، وتلك هي سنة التطور في الحياة • ولكن المهم هو أن هذه الحضارة العربية أعطت بدورها هي الاخرى لكل هؤلاء، في القديم عندما كانت مزدهرة في بلاد اليمن قبل الاسلام ، ثم بعـد أن هضمت حضارات كل هذه البلاد وقدمتها لهـم في ثوبها الجديد بعـد الاسلام •



(١٩) كتابة ثمودية ونقوش ـ من كتاب الآثار القديمة في شمال بلاد العرب (وينيت وريد ـ شكل ٢:٩)

الفصل العاشر

الخاتمة

حاولنا في الفصول التسعة السابقة أن نعرف بأحوال بلاد العرب وتاريخها قبل الاسلام على قدر الطاقة ، فتناولنا أحوال البلاد الطبيعية على أساس فكرة الوحدة الجغرافية بينها وبين ما يتاخمها من البلاد شرقا وغربا ، مما سمح بالتحركات البشرية السهلة فيما بين الجزيرة العربية وما يحيط بها من البلاد قبل الاسلام وبعده • وذلك بفضل شبكات الطرق البرية التي شقت البلاد طولا وعرضا ، وبفضل الواحات التي مثلت محطات للمياه كانت ضرورية لتوقف القوافل والتي لولاها ولولا استخدام الجمل لاستحالت تلك الرحلات الطويلة التي تقدر بمئات وآلاف لكيلومترات ، في تلك العصور السحيقة • وبفضل البحار التي تحيط البلاد من جوانبها الثلاث أمكن التنقل على سطح الماء على طول السواحل من العراق ومن عمان الى اليمن والحجاز ومصر • كما ان الخليج شرقا والبحر الاحمر غربا لم يكونا عائقين بالنسبة للعابرين من سواحل الجزيرة الى فارس من ناحية والى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى ، مما ترتب عليه علاقات أزلية وشيجة بين أنحاء بلاد العرب وبينها وبين كل البلاد المتاخمة لها والمحيطة بها •

وعلى أساس هذه القاعدة الجغرافية عالجنا موضوع السكان من الساميين والعرب على أنهم الجنس الذي سكن هذه البلاد جميعا والذي تميز بعدد من الصفات العرقية المتشابهة ، والذي تكلم بصفة خاصة لغات قريبة بعضها من بعض مما يمكن أن يشكل لغة واحدة ، هي اللغة العربية القديمة التي تطورت وسط مؤثرات بيئية وانسانية خلال العملية التاريخية الطويلة والمعقدة الى اللغة العربية الشمالية ، أي لغتنا الفصحى ، لغة القرآن الكريم — واللغة ، كما هو معروف ، عصب القومية •

وفيما يتعلق بقبائل العرب البائدة، فرغم الطابع الاسطوري للروايات العربية ، لاحظنا ان هذه الروايات تصر على فكرة الربط بين العراق واليمن والحجاز والشام بل وحتى مصر • فبعد ان سارت الاجيال الاولى من العرب العاربة من بابل الى اليمن حيث استقرت ، اضطرت الاجيال التالية منهم — بعد التعرض لسلسلة من حروب الاستئصال الداخلية ، والكوارث الطبيعية — الى الهجرة : شمالا حتى قلب دمشق التي اعتبرتها الاخبار العربية الاولى احدى عواصم عاد الازلية ، فقالت : انها ارم ذات العماد ، وشرقا في اتجاه الخليج وضفاف الفرات ، بل وحتى مصر ، حيث قيل : ان الاسكندرية من بناء شداد بن عاد ، اي انها ارم ذات العماد •

وبينما قسم الاخباريون عرب العاربة ، الى قبائلهم المعروفة ، من : عاد وثمود وطسم وجديس وجاسم وغيرها ، فان اخبارهم عبرت عن وحدة القبائل العرقية ، فقالت : انهم من العماليق وهم يقصدون بكلمة العماليق الضخام او العظام • واذا كان الكتاب القدامى قد فسروا الضخامة والعظمة تفسيرا ماديا خاصا بطبيعة خلقتهم ، فان الثقات منهم عرفوا ان الامر ليس كذلك ودللوا على رأيهم بمقابر ثمود ذات الحجم

المعتاد ، وهي منحوتة في الجبال شما لبلاد الحجاز ، وتنبهوا الى ان المقصود بالضخامة هو قوة السلطان والاستبداد بالحكم • فملوك اليمامة الطغاة هم عماليق ، وكذلك الحال بالنسبة لفراعنة مصر ، وهم الهكسوس الذين أتوا من الشام ، وملوك الشام هم الجبابرة •

وعن الهجرات القديمة من اليمن نحو الشمال فلقد أتت الاكتشافات الأثرية الحديثة لتؤكد قيام ممالك وحضارات عربية يمنية الاصل في شمال الحجاز وبوادي الشام والعراق، ممن أطلق عليهم اسم : المعينين واللحيانيين والثموديين والصفويين • وبدراسة خطوطهم ونقوشهم ، وما يتعلق بما عالجته من الموضوعات الشخصية والسياسية ثم الدينية – بصفة خاصة – تأكدت للباحثين المحدثين فكرة وجود دائرة لغوية وثقافية ودينية متصلة الاطراف ، وعلى العموم وحدة حضارية واحدة في طول بلاد العرب وعرضها •

فكتابة المسند اليمنية أو لغة سبأ وحمير التي حملها المهاجرون من اليمن الى بوادي الشام والعراق تحولت في الشمال الى ما سماه المتخصصون في اللغات السامية بالكتابات المعينية واللحيانية والثمودية والصفوية ، وذلك بعد ان وقعت تحت تأثير الفينيقيين والعبرانين والسريانيين والانباط والآراميين ، وكذلك الحال بالنسبة لديانات اليمن القديمة من الاهات : الشمس والقمر والزهرة التي تحولت في الشمال الى اللات والعزي وبعل والتي تأثرت بعد ذلك بروم الشام ، فحملت أسماء يونانية من : زوس وأفروديت •

أما ما يختص بالاحوال الشخصية ، فلقد مثل أهل دول الشمال هذه الى جانب أهل الدول التي تلتها من أنباط بطرا وعرب تدمر وضيازنة الحضر – رغم اتصالهم بالروم وتأثرهم بأسباب حياتهم المدنية – حضارة

العرب الاصيلة من استخدام الجمل والتنقل بين البلاد من أجل التجارة ، والتشبث بحياة التحرر والاستقلال ، على قدر ما تسمح به الطاقة • باستخدام السياسة والمداراة أحيانا وبالذب عن حريتهم والقتال دونها في أحيان أخرى •

وبالنظر في مسيرة العملية التاريخية التي أدت الى تكوين الحلقة الحضارية العربية القديمة التي ربطت أنحاء بلاد العرب والبلاد المتاخمة لاحظنا جراثيمها الاولى بدأت في العراق حيث نشأت حضارة البابليين • ومن هناك سارت في طريق جنوبي شرقي على طول سواحل الخليج الى بلاد اليمن الحقيقية عبر عمان وحضرموت حيث ازدهرت حضارة اليمن الجنوبية ، التي ارتكزت أصولها على التجارة والنقل فوسعت مجال نشاطها عبر خليج باب المندب الى الحبشة ، وبذلك أصبح مركز الثقل فيها هو نقطة عقدة المواصلات في منطقة عدن حيث التقاء بحر الهند ببحر القلزم – الذي اتخذ اسم البحر الاحمر نسبة الى حمير وهي اللفظة التي تعادل اسم « بني الاحمر » • وعندما بدأت حضارة اليمن في الضعف والشيخوخة حسب ما هو معروف من نظريات قيام الدول واضمحلالها ، كان من الطبيعي أن يحمل المهاجرون من اليمن حضارتهم نحو طريق الشمال الذي ألفوه منذ القديم ، وذلك عبر الحجاز ونجد ، الى بادية الشام حيث كونوا مراكز حضارية على طول الطريق قبل أن يستقروا في بلاد الشام نفسها • ومع مجيء الوافدين الجدد من اليمن على طول العصور كان من الطبيعي أن تستمر مسيرة السابقين الاولين منهم نحو الجزيرة الفراتية وبادية العراق وعلى طول ضفاف الفرات الغربية حتى الحيرة والخليج حيث كملت دائرة المسيرة الطويلة حول بلاد العرب، وذلك على طول الطرق البرية الموازية للطرق البحرية التي وصفها الاصطخري والتي تدور حول الجزيرة من عباذان والبصرة الى عمان وعدن ثم الى

جدة وايلة من حيث تسير موازية لسواحل الشام في اتجاه شمالي شرقي حتى بالس والرقة على الفرات ، من حيث يعود الطريق جنوبا بشرق حتى الكوفة والنجف ثم البصرة وعبادان حيث تكمل الدائرة •

وبطبيعة الحال لم تكن تحركات الجماعات البشرية ملزمة بتتبع هذا الطريق الدائري بشكل هندسي أو بطريقة حتمية • فالطريق كان يستخدم أيضا بطريقة عكسية ، كما حدث في هجرة الازد الكبرى ، اذ عادت جماعات منهم ، بعد اقامة قصيرة في الشام ، الى الحجاز حيث استقروا مع اخوانهم في يثرب ، وغلبوا على من كان فيها من اليهود • كذلك عرفت الطرق العرضية ، من نجران الى اليمامة والاحساء على الخليج ، مسيرات جيوش وتنقلات جماعات في كل من اتجاهي الشرق والغرب • وكذلك كان الحال بالنسبة للطريق الموصل من الحجاز الى سواد العراق، والطريق العرضي الشمالي ، فيما بين أيلة وجنوب فلسطين وبين النجف وعبادان ، مما ربط أقاليم الوسط في الحجاز ونجد بالاقاليم الشرقية في الخليج وفي العراق أيضا •

ولقد ترتب على ذلك امتزاجات بشرية بين جماعات العرب فوجد عرب اليمن في نجد ، مثل : طيء في جبليها أجا وسلمى ، وفي بوادي العراق والشام • واختلطت القبائل حتى أصبح من الصعوبة بمكان ـ حتى بالنسبة للمختصين في علم الانسان ـ تصنيف عدد من القبائل في جانب القحطانية أو العدنانية ، كما هو الحال بالنسبة لقضاعة واياد وانمار، وشاركت القبائل في نفس الاسماء فكان بين القحطانية : قبائل ربعية وقيسية ، مما جعل التفرقة بين القحطانية والعدنانية أو بين عرب الجنوب وعرب الشمال مسألة تفرقة جغرافية ، مبنية على أساس وضع الاقليم الجغرافي الراهن بالنسبة الى الشمال أو الجنوب بصرف النظر عن الاسس التي انبنت عليها الاصول العرقية او الاجذام القبلية • وهذا ما دعا عددا من

الباحثين الاوروبيين الى الاخذ بنظرية ان تقسيم العرب الى حطانية وعدنانية كان وليد العصر الاسلامي المبكر ، على أيام الامويين بصفة خاصة ، عندما اشتد النزاع بين العصبيات العربية المختلفة • والحقيقة أن أصول التقسيم حضارية ، كما فهم ذلك الكتاب العرب ، أي انها مبنية على طبيعة نوعية الحياة التي تراوح ما بين البداوة وحياة الاستقرار •

وكان من نتائج حركة المزج هذه أن قامت الممالك العربية في نجد والحجاز أيضا ، بعد أن كانت وقفا على اليمن • وأهم أمثلتها مملكة كندة التي نشرت سلطانها من نجد حتى سواد العراق والحيرة التي ملكتها لفترة من الوقت ، كما كانت لها علاقاتها السلمية والحربية مع الغساسنة في الشام • هذا ، كما كانت لقبائل كندة ، التي عرفت باسم « كندة الملوك » ، علاقاتها الوطيدة بموطنها الاصلي في اليمن حتى قيل ان ملوك اليمن هم الذين ملكوهم بلاد العدنانية • وهكذا يكون لكندة دورها في دخول حضارة الشام الاغريقية والرومانية ، وحضارة العراق الساسانية الى قلب البلاد الى جانب حضارة اليمن العربية الاصيلة والتي وقعت تحت تأثير الحضارتين السابقتين منذ وقت طويل • وهكذا كانت الحيرة وبصرى وصنعاء ، هي : النوافذ التي أطل منها عرب نجد والحجاز على العالم الخارجي قبيل ظهور الاسلام •

وعن طريق هذه النوافذ الحضارية عرف عرب الحجاز حضارة اليونان والفرس المادية ، من : القصور والحصون والآطام ، وما كانت تحويه من الاثاث والرياش ، وما كان يقدم فيها من الطعام والشراب ، والمعنوية وخاصة ما كان يتعلق منها بالدين ، مثل : اليهودية والنصرانية والصابئة والثنوية الايرانية بمذاهبها المختلفة ، من : مانوية ومزدكيه

ومجوسية . وكان لذلك كله أثره في أحوال بلاد الحجاز ، حيث كان دور القرشيين في مكة يزداد أهمية في بلاد العرب ، بينما كان الاضمحلال السياسي والحضاري يلم بكل من دولتي الروم وآل ساسان في بلاد الشام والعراق ، مما كان له أثره في اضمحلال عرب الغساسنة وعرب الحيرة ، بينما كانت اليمن واقعة بين سندان الحبشة ومطرقة الفرس .

هكذا كانت بلاد الحجاز ومكة مهيأة ـ بفضل موقعها الوسط الذي يتمثل في تحررها من التبعية للدولتين الكبيرتين ـ الروم والفرس ـ وقتئذ ، وعدم انغلاقها في صحراواتها وبواديها بفضل علاقاتها التجارية والحضارية المحدودة بهما ـ لاخذ مقاليد الامور في بلاد العرب وان ترث تركة الحيرة وبصرى وصنعاء . والحقيقة ان أهم ما أخذته منها هو طريقة كتابتنا العربية الشمالية التي عادت الى الحجاز ـ كما يرى الباحثون المحدثون ـ من الشام عن طريق واحات الشمال في تيماء وتبوك، وكذلك عن طريق الحيرة ، وذلك في الوقت الذي بدأت فيه لغتنا العربية الشريفة تترسخ أصولها بفضل مجموعة شعراء الجاهلية الذين نظموا القصيد ـ قبل مائة وخمسين سنة من ظهور الاسلام أو مئتين ـ وملأوا بأناشيدهم في الحب والحرب والهجاء والفخر والشراب والصيد أسواق العرب الموسمية وبموسيقاهم ، في ظلال نخيل عكاظ وذي مجاز . كما شاركوا في موسم الحج في مكة ، فطافوا حول الكعبة، وهم في ملابسهم يصفّرون ويصفّقون أو عرايا بغير ثياب ، ويهرولون بين صخرتي الصفا والمروة ، ويشاركون في تقديم الهدايا للآلهة وفي نحر الاضاحي ، أو يصيبون مما يصيبه زوار البيت الحرام من سقيا الماء المحلى بالعسل أو السكر ، أو اطعام الطعام من ثريد أو تمر أو زبيب . بل وربما أصاب ذوو الشأن منهم فالوذج البر والسمن والعسل مما كان يقدم في بيت عبدالله بن جدعان .

وفي الوقت الذي كانت تضمحل ديانات العرب مما أدى الى نشأة حركة المتحنفين أو المتحنثين ، بدأ أهل الحلم والعقل من القرشيين يثورون على الاوضاع الفاسدة مما كان عملة نافقة عند عرب البادية، من : الصراعات الداخلية التي تقوم لاتفه الاسباب ، أو ادمان الغارة على الجيران مما صار صناعة وطنية لبعض القبائل والافراد ، أو العدوان على الضعيف أو الغريب ممن ليس له مجير أو حليف ، فاستثاروا ما كان عند العرب من النخوة والمروءة ، ودعوا الى اغتنام الخير ونبذ الشر ، مما يمكن أن يشبّه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي اعتبره الاسلام ركيزة أساسية مما يقوم عليه بنيانه . ففي اطار هذه الدعوة شاركت قبائل قريش فيما عرف بحروب الفجار ضد الذين انتهكوا حرمة الاشهر الحرم التي كان ينعم العرب خلالها بشيء من الامن وهدوء البال ، ومن أجل ترسيخ قواعدها عقدوا فيما بينهم حلف الفضول الذي اتفقوا فيه « وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته » (ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤) . ولقد شارك النبي (صلعم) وهو شاب يافع في كل من الحدثين الجليلين .

وفي فيء هذه الارهاصات الطيبة ، وسط آتون الجزيرة المستعر بالفوضى والاضطراب ، كان من الطبيعي أن تظهر رسالة الاسلام في مكة، حاملة لواء العروبة في ذلك الحين ومستقر القرشيين ، وأن يكون المبعوث من أهلها هو يتيم بني هاشم محمد عبد الله ـ سليل قصي بن كلاب باني مكة ومؤسس نظمها ، وحفيد عبد المطلب عظيم المتحنثين وشيخ القرشيين في عصره وأمير المدينة المقدسة والوافد على ملوك العرب. ذلك ان النبي جمع في شخصه متناقضات العصر، من : شرف النسب وكرم المحتد الى ضعف اليتم وذلة الفقر . فكانت دعوته للاسلام ، هي دعوة الاخوة بين

الناس والمحبة في الله ــ دون تفرقة عنصرية أو طبقية ــ والسلام •

وهذا لا يعني ان دعوة النبي بين بني قومه كانت هينة أو سهلة ، فصبره على ما لقيه من مرارة الجحود وشدة العنف لا يفسره الا ما عاناه في طفولته من ذل اليتم ، وما عرفه في شبابه من قسوة الحياة • أما عن التفاف العرب حول لواء الدعوة فلا يفسره الا ما كان كامنا في نفوس القوم الغلاظ المظهر من « المروءة » والانسانية • أما ما حققه العرب من الانتصارات على الدول الكبرى في ذلك الوقت فهو قرينة على اضمحلال تلك الدول وفسادها المادي والمعنوي ، وهو في نفس الوقت دليل على تفوق البساطة في أسلوب الحياة العربية على تعقيدات الحياة الشكلية عند خصومهم • وأخيرا فان ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ابان عصور نهضتها كان يستند ــ الى جانب ما أخذه العرب من البلاد المفتوحة ــ على تراث عريق ضارب بجذوره في أعماق التاريخ ، سواء في بلاد الحضارة العربية أو في أقاليمها البدوية • واذا كان العرب قد أخذوا من اليونان والروم والفرس قبل الاسلام ، كما رأينا ، وفي مطلع عصور الدولة العربية كما هو معروف ، فانهم سرعان ما استوعبوا ما أخذوه وتمثلوه لكي يخرجوه خلقا عربيا جديدا ، سددوا به الدين لمن كانوا يدينونهم أضعافا مضاعفة •

وكل هذا من موضوعات التاريخ الاسلامي الذي يعتبر تاريخ العرب قبل الاسلام مقدمته الطبيعية : التي تكشف عن أعماقه وتعبر عن كنهه وأصالته وتميط اللثام عن كثير من حقائقه •

ثبت المصادر والمراجع التي وردت في الهوامش

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ط• بيروت ، ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م
- احمد سوسه ، العراق في الخوارط القديمة ، بغداد ، ١٩٥٩ م
- احمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها ــ المدخل، القاهرة، ١٩٦٢ م
- الادريسي ، خريطة جزيرة العرب ــ انظر احمد سوسة
- الاصطخري ، لمسالك والممالك ، ط• القاهرة ، ١٩٦١ م •
- الاصفهاني (حمزة) ، كتاب سني ملوك الارض والانبياء، ط• كاوياني ، برلين •
- بافقيه (محمد عبد القادر) ، تاريخ اليمن القديم، ط• بيروت، ١٩٧٣ م
- البلاذري ، انساب الاشراف ، ذخائر العرب ، ط• دار المعارف (تحقيق محمد حميدالله) •
- توفيق فهد ، التنبوء العربي (بالفرنسية) ، ليدن ١٩٦٦ م •

Toufic Fahd , La divination Arabe , études religieuses , sociologiques et Folkloriques sur le milieu natif de l'Islam Leiden, 1966 .

- جروهمان ، أنظر نيلسن •
- جمعة (محمد محمود) ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ، القاهرة ، ١٩٤٩ م •
- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٩ ج ، ط• بيروت (انظر فيما سبق ، ص ٢٤ ــ ٢٥) •
- جويدي ، بلاد العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) ، ط • باريس ، ١٩٢١ •

Guidi (Ign), L'Arabie Antéislamique , Paris, 1921 .

- حبيب اله فضائلي ، أطلس خط (فارسي) ، اصفهاني ، ١٣٩١ هـ •
- حسن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ، دار المعارف ، ١٩٧١ م •
- حسين مؤنس ، انظر زيدان (جورجي) •
- ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد ، في ٤ مجلدات ، ط ٢ القاهرة ، ١٩٦٥ م •

- العبر ، ط. بولاق ، بدون تاريخ .
- ده برسفال (كوسان) ، بحث أولي في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٣ ج ، باريس ، ١٨٤٧ م .

De Perceval (A . P . Caussin), Essai sur l'histoire des Arabes , Paris, 1847 (3 vols.).

- دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا ، ج ١ (ترجمة حسن حبشي) ، مصر ١٩٦٣ م .
- ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

Dussaud (René), Les Arabes en Syrie avant l'Islam ,

- دخول العرب الى سوريا قبل الاسلام ، باريس ، ١٩٥٥ م .

La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris.1955 .

- رشيد الناضوري ، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- رودوكاناكيس ـ انظر نيلسن .
- ريد (Reed) ، انظر وينيت Winnett .
- الزوزني (ابو عبدالله الحسين) ، المعلقات السبع ، ط . بيروت ، ١٩٧٢ .
- زيدان (جورجي) ، العرب قبل الاسلام ، ط. دار الهلال بالقاهرة (مع تعليقات لـ حسين تونس) .
- سالم (السيد عبد العزيز) ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ م .
- السدوسي ، حذف من نسب قريش (نشر صلاح المنجد) ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- سعد زغلول عبد الحميد ، الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم (مجلة كلية الآداب بالاسكندرية) ، مجلد ١٠ ، سنة ١٩٥٦ م.
- السويدي (ابو الفوز محمد امين البغدادي) ، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، طبعة التجارية بمصر .
- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط. دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ م .
- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ليدن .
- عبد القدوس الأنصاري ، بين التاريخ والآثار ، ط. بيروت ، ١٩٧١ م .

- عبيد بن شرية الجرهمي ، أخبار اليمن واشعارها وأنسابها او كتاب الملوك واخبار الماضين (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه ـ انظر وهب) .
- العمري ، مسالك الابصار ، ط. دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م .
- القرآن الكريم .
- القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، (تحقيق الابياري) ط. القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (تحقيق ابراهيم الابياري)، القاهرة ، ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ .
- كتاب الاستبصار في عجائب الامصار (تحقيق المؤلف) ط. جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
- ابن الكلبي (هشام بن محمد) ، الاصنام ، ط. دار الكتب بمصر ، ١٣٤٣ هـ ـ ١٢٩٤ م .
- انساب الخيل ، ط. دار الكتب بمصر (تحقيق احمد زكي) ، ١٩٤٦ م.
- لامانس ، مهد الاسلام (بالفرنسية) ، روما ١٩١٤ م .

Lammens, Le Bereeau de l'Islam, Rome, 1914 .

- بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٨ م .

L'Arabie Occidentale avant l'Hégire, Beyrouth,1928 .

- مدينة الطائف العربية قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٢ م .

La Ville Arabe de Taif à la veille de l'Hégire , Beyrouth, 1922 .

- محمد عواد حسين، البحرية في عهد البطالمة (في كتاب البحرية المصرية)، ط. جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ م .
- المسعودي ، مروج الذهب ، ٤ ج ، ط. بيروت (تحقيق يوسف داغر).
- مهران (محمد بيومي) ، اسرائيل ، ط. مصر ، ١٩٧٣ م .
- موسكاتي (ستينو) ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة .

(Sabatino Moscati , Ancient Semitic Civilisations , London , 1957) .

- نابيا ابوت ، نشأة الخط العربي الشمالي ، ط. شيكاغو ، ١٩٣٩ م .

Nabia Abbot, The Rise of the North Arabic Script... , Chicago , 1939 .

- نجيب ميخائيل . البحرية المصرية في العصر الفرعوني (في كتاب تاريخ البحرية المصرية) ، ط. جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ م .
- الشرق الادنى القديم ، سورية ، ط. دار المعارف ، ١٩٦٤ م .
- نولدكه (تيودور) ، امراء غسان من آل جفنة (تعريب جوزي وزريق) بيروت ، ١٩٣٣ م .
- النويري ، نهاية الارب ، ط. دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م
- نيلسن ، التاريخ العربي القديم (مجموعة ابحاث لـ : د. نيسلن ، ف. هومل ، ل. رودوكاناكيس ، ا. جرومان) ، ترجمة فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ابن هشام ، السيرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ٢ ج ، ط. القاهرة ، ١٣٧٥ هـ .
- الهمداني (ابو محمد الحسن بن احمد) ، صفة جزيرة العرب ، ط . ليدن ، ١٨٨٤ م.
- الاكليل ، ج ١ ، ج ٢ ، ط. ليدن .
- الاكليل ، ج ٢ ، ط. القاهرة (للاكوع) ، ١٩٦٦ م .
- الاكليل ، ج ٨ ط. بغداد (للكرملي) ، ١٩٣١ . (انظر فيما سبق ص ٣٦ وما بعدها) .
- ف. هومل انظر نيلسن .
- وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، ط. حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ .
- وينيت وريد ، الآثار القديمة في شمال بلاد العرب (بالانجليزية) ، تورنتو ، ١٩٧٠ م.

F . V . Winnett & W . L . Reed , Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970 .

- ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليبزج ، ١٨٦٦ م (٦ ج) .
- يعقوب بكر ، انظر سبتينو موسكاتي .